

جامعة الأزهر الشريف
كلية الدراسات الإسلامية و العربية للبنات بالقاهرة
الدراسات العليا
قسم البلاغة و النقد

مِنْ بَلَاغَةِ الرَّسُولِ - ﷺ - فِي حَدِيثِهِ عَنِ الْعِلْمِ

دراسة في الكتب الستة

(رسالة مقدمة لنيل درجة العالمية {الدكتوراه} في البلاغة والنقد)

إعداد

وفاء عبد الموجود عطية

إشراف

الأستاذ الدكتور / محمد حسن شرشر

أستاذ البلاغة و النقد في الكلية

١٤٢٤هـ / ٢٠٠٣م

(٢)

جامعة الأزهر الشريف

كلية الدراسات الإسلامية و العربية للبنات بالقاهرة

الدراسات العليا

قسم البلاغة و النقد

رسالة العالمية (الدكتوراه)

من بلاغة الرسول ﷺ — في حديثه عن العلم

دراسة في الكتب الستة

إشراف

الأستاذ الدكتور / محمد حسن شرشر

تم استيفاء الملاحظات وتصويب الأخطاء بالرسالة

السادة الأفاضل أعضاء لجنة المناقشة والحكم على الرسالة

الاسم	الوظيفة	التوقيع
أ. د / محمد حسن شرشر	أستاذ البلاغة والنقد في الكلية (مشرفاً)	
أ.د/ حمزة الدمرداش زغلول	أستاذ ورئيس قسم البلاغة والنقد في الكلية — (عضواً)	
أ.د/ فريد محمد بدوي النكلاوي	أستاذ البلاغة والنقد في كلية اللغة العربية بالقاهرة (عضواً)	

إعداد / وفاء عبد الموجود عطية

١٤٢٢هـ / ٢٠٠٣م

(٣)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

"وقل رب زدني علما"

اللهم

"اللهم انفعني بما علمتني

وعلمني ما ينفعني و زدني علما"

إهداء

إلى روح سيدنا رسول الله ﷺ رجاء
القبول، وطلباً للشفاعة .

وإلى روح الأئمة أصحاب الكتب الستة
(البخاري، ومسلم، وأبي داود، وابن ماجه،
والترمذي، والنسائي) جزاء ما حملوا من
كلامه الشريف ﷺ

وإلى روح كل من توفّر على بيانه الشريف،
استنباطاً لكلامه، وشرحاً لبيانه، واستخراجاً
لدرره .

وإلى طلاب العلم وعشاق المعرفة .

المقدمة

. أهم الدوافع إلى اختيار

الموضوع.

. أهمية البحث في الموضوع.

. منهج البحث في الموضوع .

. منهجي في جمعي الأحاديث.

. خطة البحث في الموضوع .

مُتَلَمَّتْ

الحمد لله حمدا يوافي مزيد آلائه، ويكافئ مزيد نعمائه، وجزيل عطائه، فقد هدانا لدينه، وأكرمنا بسنة نبيه، وجعلنا من المتبعين لها، المحاولين فقهها، ونسأله أن ينفعنا بما علمنا منها، وأن يرزقنا العمل بها والنصيحة للمسلمين فيها، وأداء الحق في إرشاد متعلميها، كما نسأله أن يجعلنا ممن أوقد له من مشكاة السنة لاقتباس أنوارها مصباحا وضاحا، ومنحه من مقاليد الأثر مفتاحا فتاحا، والصلاة والسلام على أهل العالمين منصبا، وأنفسهم نفسا وحسا، المبعوث بشيرا ونذيرا، وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا، حتى أشرق الوجود برسالته ضياء وابتهاجا، ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا، ثم على من التزم العمل بقضية هديه العظيم المقدار، من المهاجرين والأنصار، والتابعين لهم إلى يوم القرار، الذين تناقلوا الخبر والأخبار ونوروا مناهج الأقطار بأنوار المآثر والآثار، صلاة وسلاما دائمين ما ظهرت بوازغ شمس الأخبار ساطعة من آفاق عبارات من أوتي جوامع الكلم والاختصار، وبعد

فإن الله — سبحانه — شرف من شاء في القديم والحديث بالهداية إلى خدمة علم الحديث، ويأتي هذا البحث محاولة لنيل قبس من هذا التشريف؛ طلبا للحظوة عند من اصطفاه اللطيف، بعد أن قدر الله لي أن أعد بحثا لنيل درجة العالمية (الدكتوراة) في اللغة العربية في البلاغة والنقد بعنوان (من بلاغة

الرسول ﷺ — في حديثه عن العلم (دراسة في الكتب الستة) وقد ولت هذه الدراسة وجهها شطر البيان النبوي الشريف متخذة من حديثه ﷺ — عن العلم مسلكا لفقهِ بيانه، وسييلا للوقوف على أسرار جوامع كلمه.

وهناك عدة صعوبات تقف أمام من يريد أن يدخل إلى عالم البيان النبوي ففيه جانب من الوحي ، فكلامه ﷺ — وإن كان كلام بشر إلا أن معانيه ومقاصده وغاياته كلها تختلف عما في كلام البشر من معانٍ ومقاصد وغايات، ولهذا كانت لجنة الحديث عميقة الغور يتهيب المرء شاطئها، ناهيك عن أعماقها، ألم يقل ربنا — تبارك وتعالى — (ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيِّنَاتِهِ) (القيامة/ ١٩) و(أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ) (النحل/ ٤٤) فالسنة الشريفة وحي من الوحي ؛لذا يحتاط في فقهِ مرامي تراكيبها، واستكشاف أسرار بنيتها .

ومن الصعوبات أيضا تعدد الروايات للحديث الواحد بزيادة ونقصان، وتقديم وتأخير، واختلاف في الصيغ والألفاظ، لذا كانت التبعة على من يتعامل مع البيان النبوي أشد ، والمهمة أشق، يضاف إلى ذلك أن شروح نصوصه لاتعنى باستنباط اللغة والغوص وراء أسرار البيان النبوي؛قدر عنايتها باستخلاص حكم شرعي أو أخلاقي أو عقدي، مع أن الوسيلة إلى ذلك لا بد أن تمر بفهم لغة الحديث أولا وبالدرجة الأولى، وعلم البلاغة هو الوسيلة العليا لتحقيق هذا المقصد ، ولما كانت الصعوبات على النحو الذي أسلفت البيان عن شئ منها احتاطت هذه الدراسة في فقهِ البيان النبوي الشريف

(٨)

بمقالات السلف من علماء الأمة، وهي وقفات — على جلالها — موجزة مختصرة، وإلماعات وبارقات إلى ما في البيان الشريف من لطائف ودقائق، ونكات ورقائق، وهي — على قلتها — كانت لي سراجا منيرا إلى فقه سواها من الرقائق والدقائق.

وكان وراء اختياري هذا الموضوع بواعث عدة منها :

أولا : الرغبة في نيل شرف خدمة بيانه — ﷺ — ومعايشة كلامه، واستشكاف أسرارهِ .

ثانيا : الرغبة في إثراء مكتبة الدراسات البلاغية النبوية ببحث حول حديثهِ — ﷺ — عن العلم .

ثالثا : الرغبة في معالجة أحاديث كثيرة في حديثهِ — ﷺ — عن العلم لم يجمعها كتاب جامع ، ولم يتوفر على فقه بياها أحد من أهل العلم .

رابعا : أنني درست في مرحلة التخصص الإنشاء غير الطلي، فدفعتني ذلك إلى دراسة بيانه الشريف على نحو أشمل وأوسع .

خامسا : الرغبة في دراسة موضوع جديد طريف أنال به درجة العالمية (الدكتوراة) في اللغة العربية في البلاغة والنقد .

وتتضح أهمية البحث في الموضوع فيما يلي :

أولاً : أن هذه الدراسة تسهم في الكشف عن بيان أهمية العلم وأجر طالبه ومؤديه، وتزويده عما لا يليق به، والترهيب من قبضه، وذلك في أوجز بيان وأبلغ أسلوب .

ثانياً : أن حديثه — ﷺ — عن العلم ممتد بسيط، متنوع الجوانب، مما يدل على أهمية الموضوع؛ واصطناع الأساليب البلاغية الرامية إلى التأكيد على أهميته، مما يجعل حديثه — ﷺ — ينطوي على جماليات خاصة تلزم الباحث في البلاغة العربية بالكشف عنها؛ وصولاً إلى مقاصده — ﷺ — ومراميه .

ثالثاً : أن هذه الدراسة تسهم في إسعاف دارسي البلاغة العربية بالمثل والشواهد النبوية، وكتب البلاغيين تندرج فيها شواهد السنة النبوية المطهرة على ثرائها ووفرتها.

منهج البحث في الموضوع :

وقد اصطفيت هذه الدراسة المنهج التحليلي طريقاً ثمضي عليه في معالجة هذا الموضوع؛ ذاك أنه ألصق المناهج البحثية في تناول هذا الموضوع — فيما ترى الباحثة — وقد تناولت الحديث الشريف بالنظر جملياً إلى مقصوده، وما يشتمل عليه من جمل نحوية، جاءت تلبية لهذا المقصد، ثم أتناول بعض ألفاظ الحديث؛ كشفاً عن سر اصطفاؤه — ﷺ — لها دون

سواها مما يقار بها، ذاك أن اللفظة هي اللبنة الأولى في بناء التركيب الذي يكون النص الشريف وأحسب أنه باب لم يحظ بنصيب وافر في الدرس البلاغي، وكنت أحاول عقد ذلك بسياق الحديث، ثم أتناول التراكيب الواردة في الحديث الشريف من كل الجوانب البلاغية (المعاني والبيان والبديع) محاولة في كل ذلك الكشف عن علاقة أحوال التراكيب بمقصد الحديث، وكيف أن كل تركيب يسلم إلى صاحبه في تحقيق مقصد الحديث وغرضه، دون أن أهمل الروايات المختلفة في الفقه والنظر ما استطعت إلى ذلك سبيلا .

منهجي في جمع أحاديثه — ﷺ — في العلم .

لما كان بحثي قائما على النظر في البيان القولي له — ﷺ — اصطفت من أحاديثه — ﷺ — في العلم ما كان قولا منه خاصة، ولم أتناول ما كان حكاية عن سلوك له — ﷺ — أو إقرار أو ما شاكل ذلك، كما أنني اقتصرته على ما جاء في الكتب الستة الصحاح (صحيح البخاري — صحيح مسلم — سنن الترمذي — سنن أبي داود — سنن ابن ماجه — سنن النسائي) وعند تعدد الروايات للحديث الواحد كنت أصطفي من الروايات أجمعها وأوفاهها، وعند حديثه — ﷺ — عن العلم ضمن حديثه عن أمور أخرى كنت أتناول الحديث مولية العناية بحديثه — ﷺ — عن العلم الاهتمام

الأكبر، دون أن أهمل ربط حديثه بالسياق الذي ورد فيه، وقد اجتمع لي على هذا الشرط ثلاثة وخمسون حديثا لمعظمها روايات متعددة .

وقد اقتضت طبيعة هذا البحث أن يخرج في مقدمة وتمهيد وباين وخاتمة، وفهرس للآيات القرآنية، وفهرس لما درس من الأحاديث وفهرس لأهم المصادر والمراجع وفهرس للموضوعات .

المقدمة : وهي لأهم الدوافع إلى دراسة الموضوع ، وأهمية البحث فيه، ومنهج الدراسة، وخطة البحث .

التمهيد : وتناولت تحته : (العلم لغة واصطلاحاً — أقسام العلم — الفرق بين التعليم والتعلم — الفرق بين العلم والمعرفة — من حديث القرآن عن العلم والعلماء — السمات العامة للبلاغة النبوية)

الباب الأول : (بلاغته — ﷺ — في حديثه عن الترغيب في العلم) ويضم هذا الباب اثنين وعشرين حديثا موزعة على خمسة فصول قام التقسيم فيها على أدنى ملابسة جامعة للأحاديث تحت الفصل الواحد، ثم ختمت الباب بنظرة جملية لجريان الأساليب البلاغية في حديثه — ﷺ — عن الترغيب في العلم :

الفصل الأول : (بلاغته — ﷺ — في حديثه عن فضل العلم) وتناولت تحته حديثين .

الفصل الثاني : (بلاغته — ﷺ — في حثه على طلب العلم) وتناولت تحته ثلاثة أحاديث .

الفصل الثالث : (بلاغته — ﷺ — في حديثه عن فضل أهل العلم)
وتناولت تحته عشرة أحاديث أبانت عن فضل العالم والمتعلم .

الفصل الرابع : (بلاغته — ﷺ — في حديثه عن ثواب العالم) وتناولت
تحته ثلاثة أحاديث .

الفصل الخامس : (بلاغته — ﷺ — في حديثه عن ثواب طلاب العلم)
وتناولت تحته أربعة أحاديث .

الباب الثاني : (بلاغته — ﷺ — في حديثه عن آداب العلم والتحذير من
قبضه) ويضم هذا الباب واحدا وثلثين حديثا، موزعة على خمسة فصول قام
التقسيم فيها على أدنى ملابسة جامعة للأحاديث تحت الفصل الواحد، ثم
ختمت الباب بنظرة جمالية لبلاغته — ﷺ — في حديثه عن آداب العلم
والتحذير من قبضه :

الفصل الأول : (بلاغته — ﷺ — في حديثه عن وجوب تبليغ العلم
والترهيب من كتمانها والكذب فيه) وتناولت تحته ثمانية أحاديث .

الفصل الثاني : (بلاغته — ﷺ — في حديثه عن آداب مجلس العلم والاهتمام
بطلابه) وتناولت تحته خمسة أحاديث .

الفصل الثالث : (بلاغته — ﷺ — في الترهيب من عدم العمل بالعلم)
وتناولت تحته أربعة أحاديث .

الفصل الرابع : (بلاغته — ﷺ — في الحديث عن تنزيه العلم عما لا يليق)
وتناولت تحته عشرة أحاديث .

الفصل الخامس : (بلاغته — ﷺ — في الحديث عن قبض العلم) وتناولت تحته أربعة أحاديث .

الخاتمة : وهي لأهم نتائج البحث .

وبعد، فهذا وسعي بذلته ، وذاك جهدي ما بخلت به، ويعلم الله أنني لم أدخر وسعا في فقه مرامي بيانه — ﷺ — عسى أن يكون عملي هذا وسيلة إلى نيل شفاعته، وطريقا إلى الخطوة بشرف قربيه، فإن حالفني التوفيق فذاك فضل الله يمنحه من يشاء من خلقه ، وإن تكن الأخرى، فمن عجزني وتقصيري، وإني أستغفر الله العظيم، وإن الله غفور رحيم، ولا حول ولا قوة إلا بالله العظيم، فما لخطأ في فقه بيانه الشريف — ﷺ — عمدت، ولا لرلل — يعلم الله — قصدت وإني أطلب العفو من سيدي رسول الله — ﷺ — من فهم أثبتته لم يقصد إليه ، وغرض ذكرته لم يرم إليه، وإني أبادر في صدر هذا البحث بالشكر الخالص إلى شيخني الأستاذ الدكتور/ محمد حسن شرشر، فيعلم الله أنني وجدت فيه عطف الوالد، وحزم العالم، وعزم الصالح، فلم ييخل علي بنصح، ولم يضمن علي بتوجيه، وما كان لهذا العمل أن يخرج على هذا الوجه، لولا توجيهاته الثاقبة، وإشاراته الراشدة التي كان لها الأثر الأكبر في إنجاز هذا العمل، كما أثني بالشكر لكل من هدايني وأعانني، والحمد لله أولا وآخرا، والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله صلاة تزلفنا إلى شفاعته، وعلى آله وصحبه ومن تبعهم إلى يوم الدين .

الباحثة

وفاء عبد الموجود عطية معوض

التمهيد

ويتناول:

- تعريف العلم لغة واصطلاحاً .
- من حديث القرآن عن العلم والعلماء .
- السمات العامة للبلاغة النبوية .

العلم لغة واصطلاحاً

العلم لغة :

هو من " علم بالشئ : شعر، يقال : ما علمت بخبر قدومه، أي : ما شعرت ويقال : استعلم لي خبر فلان، وأَعْلَمْنِيهِ حتى أعلمه، واستعلمني الخبر فأعلمته إياه وعلم الأمر، و تعلمه : أتقنه، وعلم الرجل علماً : حصلت له حقيقة العلم، وعلم الشئ يعلمه علماً : عرفه ، وعلمه الشئ تعليماً فتعلم، ويقال أيضاً : تعلم بمعنى : اعلم، ومنه ما جاء في الحديث " تعلموا أنه ليس يرى أحد منكم ربه حتى يموت " وفي حديث الدجال : " تعلموا أن ربكم ليس بأعور " قال ابن الأثير : هذا وأمثاله بمعنى : اعلّموا، قال ابن بري : تقول : علّم وفقه، أي : تعلم وتفقه، وعلم وفقه، أي : ساد العلماء والفقهاء .

ومن أسماء الله — تعالى — العليم : هو العالم المحيط علمه بجميع الأشياء ظاهرها ، وباطنها ، دقيقها وجليلها ، على أتم الإمكان ، وهو العالم بما كان وبما يكون قبل كونه ، ولما يكون بعدُ قبل أن يكون، لم يزل عالماً، ولا يزال بما كان وما يكون ، ولا يخفى عليه خافية في الأرض ، ولا في السماء، وعليم فعيل من أبنية المبالغة ، ويجوز أن يقال للإنسان الذي علمه الله علماً من العلوم : عليم ، قال سيدنا يوسف للملك (اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ

الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ) (يوسف / ٥٥) وما تعدى — عليه السلام —
وصف ربه حين قال فيه : (وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ
تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ) (يوسف / ٢١).

والعلم : نقيض الجهل، عِلْمٌ، وَعِلْمٌ هو نفسه، ورجل عالم و عليم من
قوم علماء فيهما جميعا، قال سيبويه : يقول علماء من لا يقول إلا عالما قال
ابن جني : لما كان العلم قد يكون الوصف به بعد المزاولة له، وطول الملبسة
صار كأنه غريزة ، ولم يكن على أول دخوله فيه، ولو كان كذلك لصار
متعلما ، لا عالما ، فلما خرج بالغريزة إلى باب فعل، صار عالم في المعنى
كعليم، فَكُسِّرَ تَكْسِيرُهُ ، ثم حملوا عليه ضده، فقالوا : جهلاء، كعلماء،
وصار علماء كحلمااء

ويقال : عَلاَمٌ ، وعلامة إذا بالغت في وصفه بالعلم جدا، و الهاء
للمبالغة ، كأنهم يريدون داهية من قوم علامين، وعُلاَمٌ من قوم عُلَّامين،
والعَلاَمٌ و العَلَامَةُ : النسابة ، وهو من العلم ، قال ابن جني : رجل عَلَامَةٌ
وامرأة عَلَامَةٌ لم تلحق الهاء لتأنيث الموصوف بما هي فيه ، وإنما لحقت لإعلام

السامع أن هذا الموصوف بما هي فيه قد بلغ الغاية والنهاية، فجعل تأنيث الصفة أمانة لما أريد من تأنيث الغاية والمبالغة (١)

العلم اصطلاحاً :

ذكر الراغب أن العلم : هو إدراك الشيء بحقيقته، وذلك ضربان : أحدهما إدراك ذات الشيء، والثاني : الحكم على الشيء بوجود شيء هو موجود له، أو نفي شيء هو منفي عنه، فالأول هو المتعدي إلى مفعول واحد والثاني : المتعدي إلى مفعولين (٢)

وقد ذكر عضد الدين الإيجي أن بعض المعتزلة عرفوا العلم المطلق بأنه: إدراك الشيء على ما هو به وهو عند الباقلاني : معرفة المعلوم على ما هو به، وعند أبي الحسن الأشعري : هو الذي يوجب كون من قام به عالماً، أو لمن قام به اسم العالم، وعند ابن فورك : هو ما يصح ممن قام به إتقان الفعل وعند الرازي : هو اعتقاد جازم مطابق لموجب وقد عرفه الحكماء بأنه: حصول صورة الشيء في العقل، أو: هو تمثل ماهية المدرك في نفس المدرك (٣).

(١) ينظر مادة (ع ل م) لسان العرب ط دار المعارف بمصر و القاموس المحيط نجد الدين الفيروزآبادي، ط الهيئة المصرية العامة للكتاب، و النهاية في غريب الحديث و الأثر لابن الأثير تحقيق د / الطناحي و آخر ط مؤسسة الخليج دون تاريخ، و المنجد في اللغة و الإعلام للأب لويس المعلوف، ط رقم ٢٩ دار المشرق بيروت.

(٢) المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني مادة (ع ل م) ص ٣٤٣ تحقيق سيد كيلاني ط مصطفى الحلبي ١٣٨١ هـ.

(٣) المواظف لعضد الدين الإيجي، ١٠: ١١، ط، عالم الكتب بيروت، دون تاريخ.

وقد عرفه سعد الدين التفتازاني أيضا بأنه : هو معرفة المعلوم على ما هو به ، أو إثبات المعلوم على ما هو به ، أو اعتقاد الشيء على ما هو به (١) وذكر أن لفظ العلم يطلق في الاصطلاح على معان منها : إدراك العقل ، فيفسر بحصول صورة الشيء في العقل (٢)

وذكر الكفوي أن العلم : هو معرفة الشيء على ما هو به . (٣) وهو تعريف المتكلمين كما ورد في أيجد العلوم للتقنوجي ، فقد أورد تعريفات كثيرة للعلم عند المتكلمين على اختلاف مذاهبهم منها : العلم في عرف العلماء يطلق على معان منها الإدراك مطلقا تصورا كان أو تصديقا يقينا أو غير يقيني ، وإليه ذهب الحكماء (٤) .

وقد ذكر الإمام الغزالي أن ماهية العلم يصعب تحديدها حيث قال : " وربما يعسر تحديده على الوجه الحقيقي بعبارة محررة جامعة للجنس والفصل الذاتي ، فإننا بينا أن ذلك عسير في أكثر الأشياء ، بل أكثر المدركات الحسية يتعسر تحديدها ، فلو أردنا أن نحدد رائحة المسك أو طعم العسل لم نقدر عليه

(١) شرح المقاصد لسعد الدين التفتازاني ١ / ١٩٣، ١٩٢ تحقيق د / عبد الرحمن عميرة ط عالم الكتب بيروت ١٤١٩هـ .

(٢) شرح المقاصد لسعد الدين التفتازاني ١ / ١٩٤ .

(٣) الكليات لأبي البقاء الكفوي ٦١٠ تحقيق د / عدنان درويش و محمد المصري ، ط ، مؤسسة الرسالة ١٤١٣هـ .

(٤) ينظر أيجد العلوم والوشى المرقوم والسحاب المرقوم جـ ١١ / ١ لأبي الطيب حسن خان للتقنوجي ، ط الهند (بوهبال) ١٢٩٦هـ .

وإذا عجزنا عن حد المدركات، فنحن عن تحديد الإدراكات أعجز، ولكننا
نقدر على شرح معنى العلم (١)

أما الفخر الرازي فقد أرجع صعوبة تحديد ماهية العلم لظهوره
وجلائه، لا لخفائه، فقد قال: " تعريفات العلم لا تخلو عن خلل لأن ماهيته
قد بلغت في الظهور إلى حيث لا يمكن تعريفه بشئ أجلى منه، و إلى هذا
ذهب كثير من المحققين حتى قال بعضهم: و إن وقع فيه من الاختلاف إنما
هو لشدة وضوحه، لا لخفائه " (٢)

وذكر الشريف الجرجاني أن: العلم هو الاعتقاد الجازم المطابق للواقع
وقال الحكماء: هو صورة الشئ في العقل، وقيل: العلم صفة راسخة تدرك
بها الكليات والجزئيات، وقيل: العلم وصول النفس إلى معنى الشئ " (٣)

وفي الوسيط: أن العلم يطلق على مجموع مسائل وأصول كلية تجمعها
جهة واحدة كعلم الكلام، وعلم النحو، وعلم الأرض، وعلم الكونيات . .
ويطلق العلم حديثا على العلوم الطبيعية التي تحتاج إلى تجربة ومشاهدة
واختبار (٤)

(١) المستصفى من علم الأصول للإمام الغزالي ٣٥/١، تحقيق د/ محمد يوسف نجم، ط دار صادر بيروت ١٩٩٥ م.

(٢) شرح المقاصد لسعد الدين للفتاوي ١ / ١٩٤ .

(٣) التعريفات للشريف الجرجاني ١٩٩، تحقيق إبراهيم الأبياري، ط، دار الريان للتراث دون تاريخ .

(٤) المعجم الوسيط مادة (ع ل م) ط، مجمع اللغة العربية، القاهرة .

(۲۰)

أقسام العلم :

ذكر الراغب أن العلم من وجه ضربان : نظري وعملي ، فالنظري :
 ما إذا عُلِمَ فقد كمل نحو العلم بموجودات العالم ، و العملي : ما لا يتم إلا
 بأن يعمل كالعلم بالعبادات ، ومن وجه آخر ضربان : عقلي وسمعي " (١)
 وهو عند المتكلمين ينقسم إلى تصور وتصديق (٢) وقد ذكر الشريف
 الجرجاني : " أن يقسم العلم إلى تصور ساذج ، وتصور معه تصديق (٣)

أما الإمام الغزالي فقد قسم العلم إلى علم محمود وعلم مذموم، وأن
 العلم إما أن يكون فرض عين، وقد اختلفوا فيه على أكثر من عشرين
 فرقة، وحاصله أن كل فريق نزل الوجوب على العلم الذي هو بصده، فقال
 المتكلمون : هو علم الكلام، وقال الفقهاء : هو علم الفقه، وقال المفسرون
 و المحدثون : هو علم الكتاب والسنة، وقال المتصوفة : المراد به هذا العلم،
 فقال بعضهم : هو علم العبد بحاله ومقامه من الله عز وجل، وقال بعضهم :
 هو العلم بالإخلاص وآفات النفوس، وتمييز لمة الملك من لمة الشيطان، وقال
 بعضهم : هو علم الباطن . . . والعلم الذي هو فرض كفاية لا يتميز عن
 غيره إلا بذكر أقسام العلوم، والعلوم بالإضافة إلى الغرض الذي نحن بصده

(١) المفردات في غريب القرآن للراغب (ع ل م) ٣٤٣.

(٢) المواقف لعبد الدين الإيجي ٩٤، ٩٥ و شرح المقاصد للنفطازي ١ / ١٩٨ .

(٣) شرح المواقف للشريف الجرجاني ٩٦ ط دار الكتب العلمية بيروت ١٤١٩ هـ .

تنقسم إلى شرعية وغير شرعية، وأعني بالشرعية ما يستفاد من الأنبياء — صلوات الله عليهم وسلامه — ولا يرشد إليه العقل مثل الحساب ، ولا التجربة مثل الطب ، ولا السماع مثل اللغة ، فالعلوم التي ليست بشرعية تنقسم إلى ما هو محمود وإلى ما هو مذموم وإلى ما هو مباح، فالمحمود ما يرتبط به مصالح أمور الدنيا كالطب والحساب . . . وأما المذموم منه فعلم السحر والطلسمات وعلم الشعوذة والتلبسات . . . وأما العلوم الشرعية فهي محمودة كلها (١)

الفرق بين التعليم و التعلُّم

فرق الراغب بينهما فقال : " (أَعْلَمْتَهُ) و (عَلَّمْتَهُ) في الأصل واحد إلا أن الإعلام اختص بما كان بإخبار سريع ، والتعليم اختص بما يكون بتكرير وتكثير حتى يحصل منه أثر في نفس المتعلم، قال بعضهم: التَّعليم: تنبيه النفس لتصور المعاني، والتعلُّم : تنبيه النفس لتصور ذلك ، وربما استعمل في معنى الإعلام ، إذا كان فيه تكرير نحو (أَتَعَلَّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ) (الحجرات/١٦) فمن التعليم قوله : (الرَّحْمَنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ) (الرحمن/٢١) (عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ) (العلق/٤،٥) (عَلَّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ) (النمل/١٦) (وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا) (البقرة/٣١) (٢)

(١) ينظر إحياء علوم الدين لأبي حامد الغزالي ١ / ١٨ : ٢٠ ، ط دار الفكر العربي بيروت دون تاريخ .

(٢) المفردات في غريب القرآن للراغب (ع ل م) ٣٤٣ .

الفرق بين العلم و المعرفة :

جمع الكفوي الفروق التي ذكرها العلماء بين العلم والمعرفة على النحو التالي :

المعرفة : تقال للإدراك المسبوق بالعدم ، ولثاني الإدراكين إذا تخللتهما عدم، ولإدراك الجزئي ، و لإدراك البسيط .

العلم : يقال لحصول صورة الشئ عند العقل ،وللاعتقاد الجازم المطابق الثابت،ولإدراك الكلّي ، و لإدراك المركب .

المعرفة : قد تقال فيما تدرك آثاره ، وإن لم تدرك ذاته .

العلم : لا يقال إلا فيما أدرك ذاته .

المعرفة : تقال فيما لا يعرف إلا كونه موجودا فقط .

العلم : أصله أن يقال فيما يعرف وجوده وجنسه وكيفيته وعلته .

المعرفة : تقال فيما يتوصل إليه بتفكير وتدبر .

العلم: قد يقال في ذلك وغيره^(١) ومن هنا يقال:عرفت الله دون علمته^(٢)

(١) الكليات لأبي البقاء الكفوي ٨٦٨ .

(٢) المعجم الوسيط مادة (ع ل م)

من حديث القرآن عن العلم والعلماء

الارتباط بين الكتاب والسنة جد وثيق، فكلام الرسول ﷺ — وإن كان كلام بشر إلا أن معانيه ومقاصده وغاياته كلها تختلف عما في كلام البشر، من معان ومقاصد، وغايات، فكلامه ﷺ — وحي من الوحي، ألم يقل ربنا : — تبارك وتعالى — " وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ " (النحل / ٤٤) .

ولهذا الارتباط نقدم لحديثه ﷺ — عن العلم ببعض من حديث القرآن عنه ، فقد تحدث القرآن الكريم باستفاضة عن العلم ، ويمكن التدليل على ذلك بعرض هذا الاستقراء لمادة (علم) في القرآن الكريم وذلك فيما ورد ظاهرا في الحديث عن العلم ، ناهيك عما ورد بغير مادة (علم) من مثل (فقه) و (عرف) و (استنبط) وغيرها مما يتحدث عن العلم .

وردت مادة العلم خمسا ومائة مرة ، كما ورد اسم الله (العليم) إحدى وستين ومائة مرة وذلك غير الوصف المضاف مثل (علام الغيوب) حيث ورد مثله ثلاث عشرة مرة، وإذا نظرنا إلى مرات تكرار اسم الله (العليم) مع أسماء الله — تعالى — الأخرى وجدناه يحتل المرتبة الثانية بعد الاسم الأعظم (الله) حيث ورد لفظ الجلالة تسعا وعشرين وسبعمائة

وألفي مرة، ويلى اسم الله (العليم) في الرتبة، اسم الله (الحكيم) حيث ورد سبعا وتسعين مرة، وهذا يدل على شرف العلم، وعلو منزلته عند الله — سبحانه وتعالى — حيث جاء العلم بين مرتبتي (الألوهية) و(الحكمة) فالعلم يدل على الأولى (الألوهية) ويرزق الثانية (الحكمة) .

وإذا لفتنا النظر مرة أخرى إلى مادة العلم ، وطرائق ورودها في القرآن الكريم وجدنا مادة (علم) جاءت موزعة على كل الصيغ الممكنة في القرآن الكريم ، كما جاءت مسندة إلى كل الضمائر بأنواعها على مستوى الأفراد و التثنية والجمع، والتذكير والتأنيث ، والظهور والاستتار، والاتصال والانفصال ، كما جاءت على كل أحوال الإعراب (من رفع ، ونصب، وجزم، وخفض) كما جاءت مبنية، وهذا مما يدل على أن طلب العلم واجب على كل حال وفرض على كل فرد وجنس، لا يقصر على الرجال دون النساء ، ولا العكس ، كما يطلب على كل وجه فرديا كان أو جماعيا، ويحسن أن يعرض ذلك في جدول منظم تكتب الصيغة بهيئة ورودها، ويوضح أسفلها عدد مرات ورودها في القرآن الكريم ؛ ليسهل تأمله ، وتدبره، وذلك في الصفحة التالية .

عَلِمَ	عَلِمْتُ	عَلِمْتُ	عَلِمْتُمْ	عَلِمْتُمْ	عَلِمْتُ	عَلِمْتُ	عَلِمَ
١٢	٤	٣	٥	١	١	٦	١
عَلِمُوا	أَعْلَمُ	تَعْلَمُ	لَتَعْلَمَنَّ	تَعْلَمُهَا	تَعْلَمُهُمْ	تَعْلَمُوا	تَعْلَمُونَ
٢	١١	١٢	٢	١	١	٩	٥٦
فَسَتَعْلَمُونَ	تَعْلَمُوهُمْ	تَعْلَمُوهُمْ	تَعْلَمُ	تَعْلَمُهُمْ	يَعْلَمُ	سَيَعْلَمُ	لَيَعْلَمَنَّ
٣	١	١	١٢	١	٩٣	٢	٤
يَعْلَمُهُ	يَعْلَمُهَا	يَعْلَمُهُمْ	يَعْلَمُوا	يَعْلَمُونَ	سَيَعْلَمُونَ	اعْلَمُ	اعْلَمُوا
٤	٢	٣	٧	٨٥	٥	٤	٢٧
لَيَعْلَمَ	عَلَّمَ	عَلَّمْتُكَ	عَلَّمْتُمْ	عَلَّمْتَنَا	عَلَّمْتَنِي	عَلَّمَكَ	عَلَّمَكُمُ
١	٤	١	١	١	١	١	٤
عَلَّمَانَهُ	عَلَّمَنِي	عَلَّمَهُ	تُعَلِّمَنَّ	تُعَلِّمُونَ	تُعَلِّمُونَهُ	وَلتُعَلِّمَهُ	يُعَلِّمَانِ
٤	١	٤	١	٢	١	١	١
يُعَلِّمُكَ	يُعَلِّمُكُمْ	يُعَلِّمُهُ	يُعَلِّمُهُمْ	يُعَلِّمُونَ	عَلَّمْتُ	عَلَّمْتُمْ	عَلَّمْنَا
١	٣	٢	٣	١	١	١	١
يَتَعَلَّمُونَ	أَعْلَمُ (أفعل تفضيل)						
٢	٤٩						

نعمة العلم من أجل النعم التي امتن الله بها على عباده :

لما كان العلم من أجل النعم التي امتن الله — سبحانه وتعالى — بها على الإنسان ، كان أول وحي هذه الأمة ، (اقرأ) وكان الحديث عن العلم والقلم، حيث قال : — تعالى — " اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ . خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ . اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ . الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ . عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ " (العلق/ ١ : ٥)

وقد ذكر جمهور المفسرين أن هذه السورة أول ما نزل من القرآن الكريم نزل بها جبريل — عليه السلام — على النبي — ﷺ — وهو قائم على حراء ، فعلمه خمس آيات من أول هذه السورة (العلق) إلى قوله : (مَا لَمْ يَعْلَمْ) (١) فأول وحي هذه الأمة كان حديثا عن العلم بصيغة الأمر، كما ذكر أدوات العلم ووسائله (القراءة والكتابة) وكل ذلك لا يكون إلا بالقرطاس ، وهي وسائل العلم الباقية، ولأهمية القراءة لم يكتف القرآن بذكر الأمر بها مرة واحدة بل كرره ؛ " تأكيداً أو مبالغة في الأمر بها ، فيتم الكلام عند (اقرأ) الثاني ، ويكون ما بعده مستأنفاً بأن يكون (وَرَبُّكَ) مبتدأ،

(١) ينظر مفاتيح الغيب للفخر الرازي ٢١٥/١١ ، ط دار إحياء التراث العربي بيروت ١٤١٧هـ — الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٨٠/٢٠ ط ، دار الكتب العلمية بيروت ١٤١٣هـ ، تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٤ / ٥٢٩، ٥٣٠ ط دار الجيل بيروت دون تاريخ ، فتح القدير للشوكاني الجامع بين في الدراية والرواية من علم التفسير ٥ / ٥٩٢ ، ط المكتبة العصرية بيروت ١٤١٧هـ ، حاشية محيي الدين شيخ زادة على تفسير البضاوي ٤ / ٦٧٤ ، ط ، دار إحياء التراث العربي بيروت دون تاريخ .

و(الْأَكْرَمُ) صفته، و الذي مع صلته خبره، وقوله: (عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ) بدلا من قوله : (عَلَّمَ بِالْقَلَمِ) لكونه بيانا له " (١)

ومن ذلك قوله: — تعالى — (الرَّحْمَنُ . عَلَّمَ الْقُرْآنَ . خَلَقَ الْإِنْسَانَ . عَلَّمَهُ الْبَيَانَ) (الرحمن/٤:١) وقد بين العلماء الغرض المسوق له الكلام فقالوا : " إن الغرض المسوق له الكلام بيان أكرميته — تعالى — والإشعار بأن أشرف النعم وأجلها ، هو العلم ؛ لأن الأكرمية إنما تكون بإفاضة أجل الأشياء، وهو العلم بحقائق الأشياء ؛ فإنه أشرف المواهب ، وعلم الخط والكتابة والقلم وسيلة يتوصل بها إلى حفظ العلوم المهمة ، وتقييدها ؛ فلذلك قيل : العلم صيد والكتابة قيده " (٢)

كما أشار الشيخ زادة إلى أنه — سبحانه — عدد مبدأ أمر الإنسان بأن خلقه من علقه ، ومنتهاه بأن صار عالما بحقائق الأشياء ، وقادرا متمكنا على ضبط تلك العلوم ، وتقييدها ، وعلى تعليمها و تبليغها إلى أهل البلدان البعيدة، وهو امتنان عظيم ينقله من أحسن الأحوال إلى أعز المراتب وأشرفها (٣)

(١) حاشية محي الدين شيخ زادة ٤ / ٦٧٥ .

(٢) السابق ٤ / ٦٧٥ .

(٣) السابق ٤ / ٦٧٥ .

كما أننا نجد القرآن الكريم قدم نعمة العلم على نعمة خلق الإنسان ،
 بيانا لعظيم شرفه ، وعلو منزلته ، كما جاء في سورة الرحمن ، حيث قال
 ربنا — تبارك وتعالى — (الرَّحْمَنُ . عَلَّمَ الْقُرْآنَ . خَلَقَ الْإِنْسَانَ . عَلَّمَهُ
 الْبَيَانَ) (الرحمن/٤:١) وقد أجاب العلماء عن سر تقديم تعليم القرآن
 للإنسان على خلقه ، مع أنه متأخر عن خلقه بحسب الوجود ؟ فقالوا
 :والجواب أنه " قدم تعليم القرآن ، ثم أتبعه قوله:(خلق الإنسان علمه البيان)
 إيماء بأن خلق الإنسان ليس مقصودا لذاته ، بل المقصود الأصلي من خلقه ،
 والحكمة الداعية إليه هو استكمال به بحسب قوته النظرية العملية، بمعرفة مبدئه
 ومعاده، وأن يتحلى بعبادة ربه ، وذلك إنما يكون بتلقي الوحي، وتعرف ما
 يستنبط من علومه ، فلما كان تعليم القرآن وتعرف أحكامه هو المقصود
 الأصلي، والحكمة الداعية إلى خلق الإنسان، استحق أن يقدم عليه؛ لأن
 الأهم أقدم؛ فلذلك قدم تعليم القرآن على خلق الإنسان، وقدم خلقه على
 تعليم البيان؛ لكون التعليم متفرعا على الخلق ضرورة، وأن الكمالات كلها
 من توابع أصل الوجود، ثم ذكر بعده تعليم البيان، لكون تعليمه في حكم
 أصل الخلق من حيث إن المقصود منه أيضا تعليم القرآن، وأحكام الشرع؛
 لأنه لولا البيان لما تمكن من تعلم القرآن وتعليمه " (١)

(١) ينظر فتح القدير ٥ / ١٦٣ حاشية محي الدين شيخ زادة ٤ / ٤٢٧ .

متزلة أهل العلم في القرآن :

لما كان العلم من أجل النعم التي امتن الله — سبحانه — بها على عباده رفع الله منزلة طلابه وقاصديه، وذكر ذلك في أشرف كتاب، وأجل بيان، حيث قال : — سبحانه — (يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ) (المجادلة/ ١١) وكما نرى قد قرن البيان الكريم بين أهل العلم وأهل الإيمان ، وفي ذلك رفع لشأنهم ، وبيان لعلو مرتبتهم ، ويبدو أنه من قبيل عطف الخاص على العام وهو ما يوضحه ابن عباس — رضي الله عنهما — حيث قال : " للعلماء درجات فوق المؤمنين بسبعمئة درجة ما بين الدرجتين مسيرة خمسمئة عام " (١) كما ألحظ أن في بناء الفعل (أوتوا) للمفعول تنبيها للعلماء إلى وجوب التواضع لأن العلم منحة من الله — سبحانه — لطلابه ، فعليهم أن يلقوا بالحوار والقوة بين يدي الله .

وقد بين القرآن الكريم منزلة العلماء بطريق بليغ في قوله : — تعالى — (أَمَّنْ هُوَ قَانَتْ آَنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ) (الزمر / ٩) فالملاحظ أنه " بعدما نفى الاستواء بين من يعمل، ومن لا يعمل نفى الاستواء بين من يعلم، ومن لا يعلم على وجه أبلغ في إفادة النفي

(١) إحياء علوم الدين للغزالي ١ / ١٠ .

المذكور، حيث ذكر الفريقين المتقابلين صريحا في النفي الثاني، ونفى الاستواء بينهما بطريق الاستفهام الإنكاري بخلاف الآية الأولى ، فإنه لم يذكر فيها مقابل الفريق الأول ، ولم يصرح بنفي المماثلة والمساواة، والفارق في اختيار هذا الطريق الإيماء إلى مزيد فضل العلم ، ثم قال : (إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ) يعني أن هذا التفاوت الحاصل بين العلماء والجهال إنما يعرفه أولو الألباب" (١)

كما بين القرآن الكريم فضل العلماء في مقام آخر حيث قال : (إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ) (فاطر / ٢٨) حيث جاء الحديث عن خشيتهم بأسلوب القصر، وبـ (إِنَّمَا) التي ترد في المقامات التي لا تحتاج توكيدا ، فقد عرض القرآن الكريم قصر خشية الله — سبحانه — على العلماء عرض المؤلف غير المنكر " إذ شرط الخشية معرفة المخشي بصفاته، وأفعاله ، فمن كان أعلم به كان أخشى منه ؛ لذلك قال — ﷺ — إني أخشاكم لله وأتقاكم له (٢) ولهذا أتبعه ذكر أفعاله الدالة على كمال قدرته حيث قال : — تعالى — قبل الآية (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ . وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ أَلْوَانٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ) (فاطر / ٢٧، ٢٨) وقرئ برفع الله، ونصب العلماء على أن الخشية مستعارة

(١) حاشية محيي الدين شيخ زادة ٤ / ١٩٥، ١٩٤ .

(٢) الحديث رواه البخاري في صحيحه ، كتاب النكاح ، باب الرغبة في النكاح ، ط عيسى الحلي دون تاريخ .

للتعظيم ، فإن المعظم يكون مهابا، ووجه تشبيه التعظيم بالخشية من حيث اتحاد تعلقهما ؛ فإن المعظم لكونه على أكمل الخلق، وأحسن الأحوال يخاف منه القاصرون، فاستعير لفظ الخشية للتعظيم، ثم اشتق من الخشية المستعارة لفظ يخشى " (١) هذا، والآيات التي تتحدث عن فضل العلماء كثيرة، والمقام لا يتسع لعرضها، وإنما نكتفي بإشارات فقط في حديث القرآن عن العلم .

الحض على طلب العلم :

القرآن الكريم يحض على طلب العلم في مواطن متعددة من الكتاب العزيز ، من ذلك قوله : — تعالى — (وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ) (التوبة / ١٢٢) ففي قوله (نَفَرَ) حض على طلب العلم ، لأنه " مقرر أن حرف التحضيض إذا دخل على الماضي يفيد التوبيخ على ترك الفعل ، والتوبيخ إنما يكون على ترك الواجب فيستفاد منه كون الفعل واجبا . . . فالمراد بقوله (فَلَوْلَا نَفَرَ) الأمر بالنفير بعدما بين أنه لا يمكن نفير الكافة لأي مطلوب كان من المطالب الدينية أي لأي مطلوب كان من المطالب كالغزو والتفقه في الدين " (٢)

(١) ينظر حاشية محبي الدين شيخ زادة ٤ / ١١٠ .

(٢) السابق ٢ / ٣٥٩ .

كما نلاحظ أن التعبير الكريم جاء بـ (لَوْ لَا نَفَرَ) فدخل حرف التحضيض على الفعل (نَفَرَ) ومن معاني النفر : " الانزعاج إلى الشيء، ونفر إلى الحرب ينفرو وينفر نفراً، ومنه يوم النَّفَر " (١) فقد استخدم النظم الكريم في الحض على طلب العلم لفظة تستخدم في الحرب والجهاد في سبيل الله، أي أن العلم ضرب من الجهاد، وهذا ما يدل عليه جريان مادة (نَفَرَ) في السورة الكريمة، فقد جاءت الآية الكريمة في سياق قوله: (انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا) (التوبة / ٤١) وقوله: (إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا) (التوبة / ٣٩) وهو مما يجعل العلم بمنزلة الجهاد في سبيل الله .

ومن الحض على طلب العلم في القرآن قوله : — تعالى — (وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا) (طه / ١١١) فقد أمر — ﷺ — وهو من علمه ربه بطلب الزيادة في العلم وقد جاء ذلك بفعل الأمر ، وفي هذا الأمر " تلطف مع النبي — ﷺ — إذ أتبع نهيهِ عن التعجل الذي يرغبه بسؤال الزيادة من العلم ، فإن ذلك مجمع كل زيادة، سواء كانت بإنزال القرآن أم بغيره من الوحي و الإلهام إلى الاجتهاد تشريعاً وفهماً، فهو إيماء إلى أن رغبته في التعجيل رغبة صالحة" (٢)

(١) المفردات في غريب القرآن مادة (ن ف ر) ٥٠١ .

(٢) التحرير و التنوير ١٦ / ٣١٧ للطاهر بن عاشور ط الدار التونسية ١٩٧٤ م .

وطلب الزيادة في العلم شأن الأنبياء — عليهم السلام — فقد رحل موسى — عليه السلام — في سبيل طلب العلم ، وذلك بعد أن " قام خطيباً في بني إسرائيل ، فسئل : أي الناس أعلم ؟ فقال : أنا ، فعتب الله عليه إذ لم يرد العلم إليه — سبحانه — فأوحى الله — تعالى — إليه أن لي عبداً بمجمع البحرين هو أعلم منك . . . الحديث " (١) والقصة ذكرها القرآن الكريم بطولها في سورة الكهف، وفيها بدائع وروائع لا يتسع المقام لسردها، وإنما هي في مجملها تكشف عن أدب المتعلم تجاه معلمه ، والمشقة التي يتحملها طلاب العلم في سبيل تحصيله وقد " ابتدئت قصة موسى — عليه السلام — بحكاية كلام موسى — عليه السلام — المقتضي تصميمًا على أن لا يزول عما هو فيه ، أي : لا يشتغل بشيء آخر حتى يبلغ مجمع البحرين ، ابتداءً عجيباً في باب الإيجاز، فإن قوله ذلك (لَا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ . .) يدل على أنه كان في عمل نهايته البلوغ إلى مكان ، فعلم أن ذلك العمل هو سير سفر ويدل على أن فتاه استعظم هذه الرحلة ، وخشي أن ينالهما فيها مشقة تعوقهما عن إتمامها، أو هو بحيث يستعظمها للعلم بأنها رحلة بعيدة، وذلك شأن أسباب الأمور المهمة ، ويدل على أن المكان الذي يسير إليه مكان يجد عنده مطلبه . . . وحذف الغرض الذي سار لأجله موسى — عليه السلام — لأنه سيذكر بعد، وهو حذف إيجاز، وتشويق له موقع عظيم في حكاية القصة، لإخراجها عن مطروق القصص إلى أسلوب بديع الحكم والأمثال؛ قضاء لحق

(١) الحديث رواه البخاري في صحيحه كتاب العلم باب ما يستحب للعالم إذا سئل : أي الناس أعلم ، فيكل العلم إلى الله .

بلاغة الإعجاز " (١) وغير ذلك كثير مما يحض على العلم في القرآن الكريم وإنما اكتفيت بشواهد في هذا الباب .

آداب طالب العلم :

لطالب العلم آداب يجب أن يتمثلها، ويتحلى بها قولاً وعملاً، وأولها التواضع، ويرشد إلى ذلك قوله: (وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا) (الإسراء / ٨٥) والمراد " أنت يا محمد وجميع الخلائق " (٢) ويحسن أن نعرض لما يجب أن يتحلى به طالب العلم من الآداب من قصة موسى — عليه السلام — قال: — تعالى — (قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا) (الكهف / ٦٦) و(قَالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا) (الكهف / ٦٩) في القول الأول: كان — عليه السلام — " في غاية التواضع والأدب، فاستجمل نفسه، واستأذن أن يكون تابعاً للخضر — عليه السلام — وسأل منه أن يرشده ، وينعم عليه بتعليم بعض ما أنعم الله عليه " (٣) ويقول ابن عطية " هذه مخاطبة المستنزل المبالغ في حسن الأدب " (٤)

(١) التحرير والتنوير ١٥ / ٣٦٠ ، ٣٦١ .

(٢) انحرور الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لابن عطية ٣ / ٤٨٢ ط ، دار الكتب العلمية بيروت ١٤٢٢هـ .

(٣) أنوار التنزيل و أسرار التأويل للبيضاوي ٣ / ٢٦٩ ، ط دار إحياء التراث العربي بيروت دون تاريخ .

(٤) انحرور الوجيز ٣ / ٥٣٠ .

وفي القول الثاني : دلنا على أن من آداب المتعلم أن يكون صابرا، مطيعا لمعلمه ، مستعينا بالله " وقوله: (سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا) أبلغ في ثبوت الصبر من نحو : سأصبر، لأنه يدل على حصول صبر ظاهر لرفيقه ومتبوعه ، وظاهر أن متعلق الصبر هنا هو الصبر على مامن شأنه أن يثير الجزع أو الضجر من تعب في المتابعة، ومن مشاهدة ما لا يتحملة إدراكه ومن ترقب بيان الأسباب والعلل والمقاصد ، ولما كان هذا الصبر الكامل يقتضي طاعة الأمر ، فيما يأمره به عطف عليه ما يفيد الطاعة ؛ إبلاغا في الاتسام بأكمل أحوال طالب العلم " (١)

وجوب احترام التخصص العلمي :

يوضح لنا القرآن الكريم أن لكل علم أهله وذويه، وأن الواجب في الاستفتاء حول أية مسألة التوجه بالسؤال إلى المختصين دون سواهم، كما أن الواجب على أهل العلم عدم الإفتاء فيما لا يختصون به، فلا يليق بعالم الكيمياء الإفتاء في الهندسة و لا العكس، نجد هذا في الآية الكريمة (وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى

(١) التحرير و التوير ١٥ / ٣٧٢ ، ٣٧٣ .

أُولَى الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ
وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا (النساء / ٨٣)

وقد ذكر العلماء في مناسبة الآية أن النبي ﷺ — كان يبعث السرايا، فإذا غلبوا أو غلبوا بادر المنافقون يستخبرون عن حالهم ، فيفثون، ويحدثون به قبل أن يحدث به الرسول ﷺ — فيضعفون به قلوب المؤمنين فأنزل الله — تعالى — وَإِذَا جَاءَهُمْ . . . " (١) و أولو الأمر : هم أهل العلم والفقه، كما ذكر القرطبي عن الحسن وقتادة وغيرهما (٢) وقد ذكر البيضاوي أنهم كبراء الصحابة البصراء بالأمور (٣) وقد مثل لهم البغوي بأبي بكر وعمر وعثمان وعلي (٤)

والذي يلفت الانتباه هنا قوله: (يَسْتَنْبِطُونَهُ) وأصل الاستنباط : الاستخراج، يقال : استنبط الفقيه إذا استخرج الفقه الباطن باجتهاده وفهمه وأصله من النبط، وهو الماء الذي يخرج من البئر أول ما يحفر، يقال : أنبط الحافر، إذا بلغ الماء، وسمي القوم الذين يتزلون بالبطائح بين العراقيين نبطا لاستنباطهم الماء من الأرض" (٥) وقد فسر البيضاوي الاستنباط بقوله: "أي:

(١) معالم التنزيل للبغوي ٢ / ١١٩ ، ط ، دار الكتب العلمية بيروت ١٤١٥هـ .

(٢) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٢ / ١٨٨ .

(٣) أنوار التنزيل ٢ / ٥٤ .

(٤) معالم التنزيل للبغوي ٢ / ١١٩ .

(٥) حاشية محيي الدين شيخ زادة ٢ / ٥٤ .

يستخرجون تدابيره بتجارهم و أفكارهم " (١) فالتعبير بالاستنباط يكشف أن ما يتطلبه العلم من الجهد و المشقة ، كالذي يتطلبه استخراج الماء من العنت والمكابدة، ونلاحظ هنا الارتباط القوي بين الماء والعلم، فبهما قوام الحياة، بالعلم تحيا النفس، وبالماء يحيا البدن، والذي يجب النظر إليه هنا أن العلم يقتضي من ذوي الاختصاص هذا الجهد ، فكيف يدلي غير ذوي الاختصاص في غير اختصاصهم ؟

ومن ذلك أيضا قوله : — تعالى — (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ) (النحل/ ٤٣) و (وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ) (الأنبياء / ٧) نزلت الآيتان الكريمتان في مشركي مكة حيث أنكروا نبوة محمد — ﷺ — وقالوا : الله أعظم من أن يكون رسوله بشرا، فهلا بعث إلينا ملكا؟ " (٢) " فأمرهم القرآن بسؤال أهل الكتاب عن حال الرسل المتقدمة ، ليزول عنهم الشبهة ، و الإحالة إليهم ، إما للإلزام، فإن المشركين كانوا يشاورونهم في أمر النبي — ﷺ — ويثقون لقولهم، أو لأن أخبار الجمل الغفير يوجب العلم ، وإن كانوا كفارا " (٣) فالآيتان تدلان على التوجه لذوي الاختصاص من أهل العلم دون سواهم ومراجعتهم دون

(١) أنوار التنزيل ٢ / ٥٤ .

(٢) أنوار التنزيل ٣ / ١٧٨ .

(٣) أنوار التنزيل ٣ / ٣٤١ .

غيرهم والصحابة الأخيار على فضلهم وعلمهم كانوا يعرفون الاختصاص، وقد جاء بذلك الحديث الشريف ، فقد روى الترمذي بسنده عن أنس ابن مالك — ﷺ — قال : قال رسول الله — ﷺ — أرحم أمي بأمي أبو بكر، وأشدهم في أمر الله عمر، وأصدقهم حياء عثمان، وأعلمهم بالحلال والحرام معاذ بن جبل ، وأفرضهم زيد بن ثابت، وأقرؤهم أبي لكل أمة أمين، وأمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح " (١) .

تحريم كتمان العلم ، ووجوب بذله :

يذكر لنا القرآن الكريم في عدة مواضع الوعيد الشديد لمن كتم العلم ، قال : — تعالى — (إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ . أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهَدَى وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ) (البقرة / ١٧٤، ١٧٥)

" نزلت هذه الآية في رؤساء اليهود ، كتموا أمر محمد — ﷺ — بأن غيروا صفته ، ثم أخرجوها إلى سفلتهم ؛ لئلا يتبعوه — ﷺ — بسبب ما رأوا من النعوت المتغيرة المخالفة لنعته — ﷺ — وقصدوا بذلك أن لا تنقطع

(١) رواه الترمذي في سننه، كتاب المناقب باب مناقب معاذ بن جبل ، و زيد بن ثابت ، و أبي بن كعب و أبي عبيدة بن الجراح ، رضي الله عنهم ، تحقيق الشيخ أحمد شاكر، ط دار الكتب العلمية ، بيروت دون تاريخ .

الهدايا التي كانوا يأخذونها من أتباعهم، وهو قوله (إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْأَحْبَارِ
وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ)^(١)
(التوبة/٣٤) (١) وحينما نبصر العقوبات التي ذكرتها الآية الكريمة، تنخلع
القلوب وتذهل العقول، فالعذاب اشتمل على العذابين عذاب النفس وعذاب
البدن، فهي أربع عقوبات (أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ) وَلَا
يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ (وَلَا يُزَكِّيهِمْ) (وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) ثم أعقب كل
ذلك بدمهم بغاية الدم ، ورميهم بأبشع السفاهة بأسلوب المجاز الذي يصور
تصرفاتهم المادية في كل شئ حتى فيما هو معنوي (أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا
الضَّلَالََةَ بِالْهُدَى وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ) وفي قوله : (إِلَّا النَّارَ) مجاز مرسل
علاقته المسببية حيث أطلق المسبب وأراد السبب، وهذا الأكل " إما في
الحال؛ لأنهم أكلوا ما يتلبس به النار؛ لكونها عقوبة عليه ، فكأنه أكل النار .
أو في المال، أي : لا يأكلون يوم القيامة إلا النار " (٢) و ذكر هذا القيد
(فِي بُطُونِهِمْ) مع أن محل الأكل معلوم؛ للدلالة على امتلاء بطونهم، وفي هذا
يقول البيضاوي : " ومعنى في بطونهم : ملء بطونهم ، يقال : أكل في بطنه،
وأكل في بعض بطنه ، كقوله : كلوا في بعض بطنكم تعفوا " (٣) وقوله :
(وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ) " ليس المراد به نفي أصل الكلام بل هو كناية

(١) حاشية محي الدين شيخ زادة ١ / ٤٨٢ .

(٢) أنوار التنزيل ١ / ٤٨٢ .

(٣) السابق ١ / ٤٨٢ .

عن غضبه عليهم ؛ لأن عادة الملوك عند الغضب أنهم يعرضون عن المغضوب عليهم ، لا يكلمونهم ، كما أنهم عند الرضا يتوجهون إليهم بالملاطفة " (١)

ومن الآيات الدالة على تحريم كتمان العلم قوله : — تعالى — (وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنَنَّهُ لِلنَّاسِ وَ لَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبُئْسَ مَا يَشْتَرُونَ) (آل عمران / ١٨٧) " وظاهر الآية و إن دل على نزولها في حق اليهود و النصارى الذين كانوا يخفون الحق ليتوسلوا بذلك إلى وجدان شئ من الدنيا إلا أن حكمها يعم من كتم من المسلمين أحكام القرآن الذي هو أشرف الكتب ، وأهله أشرف أهل الكتب . . . وكان قتادة يقول : طوبى لعالم ناطق ، ومستمع واع ، هذا علم علما فبدله ، وهذا سمع خيرا فوعاه " (٢)

وجاء النظم الكريم بـ (لَتُبَيِّنَنَّهُ لِلنَّاسِ وَ لَا تَكْتُمُونَهُ) " والبيان يضاد الكتمان ، فلما أمر بالبيان كان الأمر به نهيا عن الكتمان ، فما الفائدة في ذكر النهي عن الكتمان ؟ والجواب : المراد من البيان ذكر الآيات الدالة على نبوته — ﷺ — من التوراة والإنجيل ، والمراد من النهي عن الكتمان أن يلقوا فيها التأويلات الفاسدة والشبهات " (٣) وقد ختم الآية بدمهم بأسلوب الدم

(١) حاشية زادة ١ / ٤٨٢ .

(٢) حاشية محيي الدين شيخ زادة ١ / ٦٩٣ ، ٦٩٤ .

(٣) السابق ١ / ٦٩٣ .

الصريح (فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ) " ومجئى أسلوب ذم اليهود في هذا السياق فيه تبصير للمؤمنين إلى ما سينالهم من الأذى من اليهود . . . والملاحظ هنا أن جملة الصفة أو الصلة جاءت بصيغة الافتعال (يَشْتَرُونَ) وهذا مما يختص به موضع ذم اليهود في آل عمران . . . ويبدو أن صيغة الافتعال هنا تتناسب مع سياق اللجاجة الذي سبق أسلوب الذم من أول قوله : — تعالى — (لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ) (آل عمران / ١٨١) إلى قوله : (الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلاَّ نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّى يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ) (آل عمران / ١٨٣) " (١)

السمات العامة للبلاغة النبوية

كان الرسول — ﷺ — آية في بلاغة القول، وسحر البيان بل كان أبلغ العرب قاطبة ، ولقد كانت بلاغته — ﷺ — أثرا طبعيا لأسباب توفرت لها، ونتيجة حتمية لمقدمات أدت إليها .

علو بلاغته — ﷺ — مرتبط بعلو مصدرها (الإلهي) :

من المعروف أن بلاغته — ﷺ — مصدرها الوحي الإلهي، فلم يعرف عنه نظم شعر، ولا صناعة نثر، وإنما علمه ربه — سبحانه — فقد قال : — تعالى — " وَأَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا " (النساء / ١١٣) وقد بين القرآن الكريم أن السنة

(١) أسلوب المدح و الذم في الذكر الحكيم ٧٦ د / إبراهيم صلاح الهدهد ط دار الاتحاد التعاوني ١٩٩٨ م .

المطهرة وحي من الوحي قال : — تعالى — " إِنْ عَلَيْنَا جَمْعُهُ وَقُرْآنُهُ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَّانَهُ " (القيامة / ١٧: ١٩) .

وفي هذا الصدد يقول الإمام الشافعي : — رحمه الله — " ولسان العرب أوسع الألسنة مذهبا، وأكثرها ألفاظا، ولا نعلم أنه يحيط بجميع ألفاظه إنسان غير نبي " (١) فإحاطته — ﷺ — باللغة العربية آية نبوة ودليل إعجاز .

وقد بين الرافعي — رحمه الله — أن البلاغة النبوية فيها جلال الوحي، وأثر الإلهام حيث قال : " ألفاظ النبوة يعمرها قلب متصل بجلال خالقه، ويصقلها لسان نزل عليه القرآن بحقائقه ، فهي إن لم تكن من الوحي، ولكنها جاءت من سبيله " (٢) وقال في موضع آخر : " و لا نعلم أن هذه الفصاحة قد كانت له — ﷺ — إلا توفيقا من الله وتوقيفا " (٣)

وهذا التعليم الرباني ، والإلهام الإلهي مرتبط بمهمته ، وهي التبليغ، ورأسه البيان فقد قال ربنا : " وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ " (النحل / ١٤) وقال: " وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ " (إبراهيم / ١٤) كما أخبره ربنا — سبحانه — أن جهده مقصور على البلاغ المبين حيث قال: " فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ " (النحل / ٣٥) " فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ

(١) الرسالة للإمام الشافعي ٤٢ تحقيق الشيخ أحمد محمد شاكر ، ط، دار الكتب العلمية ، بيروت ، دون تاريخ .

(٢) تاريخ آداب العرب ٢ / ٢٧٩ ، ط دار الكتاب العربي ١٣٩٤ هـ .

(٣) السابق ٢ / ٢٨٣ .

الْمُبِينُ" (النحل/٨٢) و" وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا أَلْبَاغُ الْمُبِينِ " (النور/٥٤)
و" وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا أَلْبَاغُ الْمُبِينِ " (العنكبوت/ ١٨)

وقد جاء كل ذلك بأسلوب القصر ، وكأن أمر تعليمه — ﷺ — مقصور على البيان ، وما من شك في أن منطق العقل يقضي بأن يكون بيانه الشريف في أعلى مراتب البيان الإنساني ، وإلا كان عجزا بين يدي قوم لهم في البيان شأن لا يدانيه شأن ، وقد بلغوا فيه شأوا لم يبلغه سواهم .

كما أن إلهامه — ﷺ — حسن البيان يلائم حال المقصودين بالدعوة فقد بين القرآن الكريم أنهم أهل لسان وبيان ، ولدود وخصومة ، فقد قال : — تعالى — " فَإِنَّمَا يَسِرُّنَّاهُ بِلِسَانِكَ لِنُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَنُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لَّدَا) (مریم / ٩٧) وقال فيهم أيضا : " وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ وَقَالُوا آلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ " (الزخرف / ٥٧، ٥٨) من أجل ذلك كان من الملائم أن يكون أعلى الناس بيانا ، و أعذبهم لسانا .

أثر النشأة في علو البيان :

اجتمع له — ﷺ — مع مصدر الإلهام ، حسن التربية اللغوية فقد نشأ في قريش ، وفي ذلك قال ابن فارس : " أجمع علماؤنا بكلام العرب ، والرواة لأشعارهم ، والعلماء بلغاتهم وأيامهم ومحالهم : أن قريشا أفصح العرب ألسنة ، وأصفاهم لغة ، وذلك أن الله — جل ثناؤه — اختارهم من جميع العرب ، واصطفاهم واختار منهم نبي الرحمة محمدا — ﷺ — فجعل

قريشا قَطَّان حرمه ، وجيران بيته الحرام ، وولاته . . . وكانت قريش — مع فصاحتها وحسن لغتها ورقة ألسنتها — إذا أتتهم الوفود من العرب، تخيروا من كلامهم وأشعارهم أحسن لغاتهم، وأصفى كلامهم، فاجتمع ما تخيروا من تلك اللغات إلى نحائزهم وسلائقهم التي طبعوا عليها فصاروا بذلك أفصح العرب " (١)

فقد نشأ — ﷺ — في أفصح القبائل وأخلصها منطقاً، وأعذبها بياناً، فكان مولده في بني هاشم ، وأحواله من بني زهرة، ورضاعه في سعد ابن بكر، ومنشؤه في قريش ، ومتزوجه في بني أسد ، ومهاجرته إلى بني عمرو (وهم الأوس والخزرج من الأنصار) لم يخرج عن هؤلاء في النشأة واللغة، ولقد كان في قريش وبني سعد وحدهم ما يقوم بالعرب جملة (٢) لذا قال رسول الله — ﷺ — : "أنا أعربكم أنا من قريش، واسترضعت في بني سعد بن بكر" (٣) وقال : " أنا أفصح العرب بيد أنى من قريش " (٤)

وصف الجاحظ وغيره للبلاغة المحمدية :

(١) الصاحبي لابن فارس ٣٣، ٣٤ تحقيق السيد أحمد صقر ، ط عيسى الحلبي دون تاريخ .

(٢) ينظر الصاحبي ٤٢، ٤١ ذواتاريخ آداب العرب ٢ / ٢٨٤ ، و بلاغة الرسول ٥ : ٨ للمرحوم د / علي محمد حسن العماري ، ط دار الأنصار ، القاهرة .

(٣) الحديث في المعنى عن حمل الأسفار في تخريج ما في الإحياء من أخبار للحافظ العراقي ٢ / ٣٦٤ ط عيسى الحلبي ، كثر العمال في سنن الأقوال والأفعال للمتقي الهندي (٣١٨٨٤) ط دار التراث الإسلامي ، الأسرار المرفوعة لعلي القاري ١١٦ ط مؤسسة الرسالة ، كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس للعجلوني ١ / ٢٣٢ ط مكتبة دار التراث ، يراجع موسوعة أطراف الحديث الشريف محمد السعيد زغلول ٢ / ٥٠٧ ط دار الكتب العلمية بيروت .

(٤) الحديث في الشفاء بتعريف حقوق المصطفى للقاضي عياض ١ / ٥٨ ط دار الكتب العلمية ، بيروت ١٤٢٢ هـ ، المعنى عن حمل الأسفار للعراقي ٢ / ٣٦٤ ، الأسرار المرفوعة لعلي القاري ١١٧ ، كشف الخفاء للعجلوني ١ / ٢٣٢ ، ٢ / ٨٥٠ ، ويراجع موسوعة أطراف الحديث الشريف ٢ / ٥٠٧ .

وصف الجاحظ كلامه — ﷺ — فقال : " هو الكلام الذي قل عدد حروفه، وكثر عدد معانيه، وجل عن الصنعة، ونزه عن التكلف، وكان — كما قال — تعالى — قل يا محمد (وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ) (ص / ٨٦) فكيف، وقد عاب التشديق، وجانب أصحاب التعجير واستعمل المبسوط في موضع البسط، والمقصود في موضع القصر، وهجر الغريب الوحشي، ورغب عن الهجين السوقي، فلم ينطق إلا عن ميراث حكمة، ولم يتكلم إلا بكلام قد حف بالعصمة، وشيد بالتأييد ويسر بالتوفيق، وهذا الكلام الذي ألقى الله المحبة عليه، وغشاه بالقبول، وجمع له بين المهابة والحلاوة، وبين حسن الإفهام، وقلة عدد الكلام، ومع استغنائه عن إعادته وقلة حاجة السامع إلى معاودته، لم تسقط له كلمة، ولا زلت له قدم، ولا بارت له حجة ولم يقم له خصم، ولا أفحمه خطيب، بل يبد الخطب الطوال بالكلام القصير ولا يلتمس إسكات الخصم إلا بما يعرفه الخصم، ولا يحتج إلا بالصدق، ولا يطلب الفلج (الظفر و الفوز) إلا بالحق، ولا يسهب، ولا يحصر، ثم لم يسمع الناس بكلام قط أعم نفعا، ولا أصدق لفظا، ولا أعدل وزنا، ولا أجمل مذهبا، ولا أكرم مطلبا، ولا أحسن موقعا، ولا أسهل مخرجا، ولا أفصح عن معناه، ولا أبين في فحواه من كلامه — ﷺ — كثيرا " (١)

وفي بلاغته — ﷺ — قال الزمخشري : " إن هذا البيان العربي كأن الله — عزت قدرته — مخضه، وألقى زبدته على لسان محمد — عليه أفضل صلاة

(١) البيان و التبيين للجاحظ ٢ / ٨، ٩. ط، دار الكتب العلمية بيروت دون تاريخ.

وأوفر سلام — فما من خطيب يقاومه إلا نكص متفكك الرجل ، وما من مصقع يناهزه إلا رجع فارغ السجل، وما قرن بمنطقه منطق إلا كان كالبرذون مع الحصان المطهّم، ولا وقع من كلامه شيء في كلام الناس إلا أشبه الوّضح في نُقْبَةِ الأدهم" (١)

وقال القاضي عياض : " وأما فصاحة اللسان، وبلاغة القول، فقد كان النبي ﷺ — بالمحل الأفضل، والموضع الذي لا يجهل، سلاسة طبع وبراعة مترع، وإيجاز مقطع ، ونصاعة لفظ، وجزالة قول، وصحة معان وقلة تكلف، أوتى جوامع الكلم، وخص ببدائع الحكم، وعلم ألسنة العرب، فكان يخاطب كل أمة منها بلسانها، ويحاورها بلغتها، ويبايرها في مترع بلاغتها، حتى كان كثير من أصحابه يسألونه في غير موطن عن شرح كلامه وتفسير قوله من تأمل حديثه وسيرَه علم ذلك، وتحققه " (٢)

"ولقد امتازت البلاغة النبوية بأنه ليس من شيء أنت واجده في كلام الفصحاء، وهو معدود من ضروب الفصاحة ومتعلقاتها إلا وجدته في كلامه — ﷺ — على مقدار من الاعتبار يفرد به بالميزة ويخصه بالفضيلة" (٣) .

الألفاظ

(١) الفائق في غريب الحديث للزمخشري ١١/١ تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، وعلي محمد الجاوي ، ط دار المعرفة ، بيروت ، دون تاريخ .

(٢) الشفا بتعريف حقوق المصطفى للقاضي عياض ٥١/١، ٥٢.

(٣) تاريخ آداب العرب ٢ / ٣٣٨ .

أما ألفاظه — ﴿١﴾ — " فهي مألوفة مأنوسة الاستعمال إلا حين يقتضى المعنى لفظا يناسبه ، فيختار الرسول — ﴿٢﴾ — اللفظ الأقل إلفاء، ولكنه ينأى عن الغريب الوحشى، وعن السوقى المبتذل، وألفاظه جزلة حين يقتضى المعنى الجزالة، رقيقة حين يتطلب المعنى الرقة، وفي الحالتين هي واضحة الدلالة على معانيها، كل كلمة تعبر بدقة عن تمام معناها، مستقرة فى مكانها من الجملة من غير اضطراب ولا نبو، ولعل تعبير اللفظ عن تمام المعنى المراد، واستقراره فى مكانه من الجملة من أشق ما يعانى به البليغ، ومن أدل الدلائل إن وفق إليهما على قدرته البيانية" (١) كما تمتاز ألفاظه — ﴿٣﴾ — بأنها سهلة، مختارة بدقة تلائم معانيها تبعد عن الإغراب، ولذلك قلما خفي معنى من معانيه (٢).

(١) بلاغة الرسول ٢٣ د / العماري .

(٢) السابق ٥٣ .

المعاني

" ومعانيه — ﴿١﴾ — صحيحة ، لحمتها الصدق، وسداها الحكمة والحق، بعيدة عن الخيال، مترهة عن المواربة والخلابة والتمويه (١).

الأسلوب

أسلوبه — ﴿٢﴾ — " لا يضطرب به الضعف، ولا ترايله الحكمة، ولا تخذله الروية، ولا يباينه الصواب، بل يخرج رصينا غير متهافت، متسقا غير متفاوت، لا يغلب على النفس التي خرج منها، بل تغلب عليه، ولا تسترسل به المخيلة، بل يضبطه العقل، ولا يتوثب به الهاجس، بل يحكمه الرأي، ولا يتدافع من جهاته، بل تراه على استواء واحد في شدة وقوة واندماج وتوفيق" (٢) كما أنه " مسدد اللفظ محكم الوضع جزل التركيب، متناسب الأجزاء في تأليف الكلمات، فخم الجملة، واضح الصلة بين اللفظ ومعناه، واللفظ وضريه في التأليف والنسق، ثم لا ترى فيه حرفا مضطربا، ولا لفظة مستدعاة لمعناه، أو مستكرهة عليه، ولا كلمة غيرها أتم منها أداء للمعنى، وتأتي لسره في الاستعمال، كما أنه واضح التفصيل، ظاهر الحدود جيد الرصف، متمكن المعنى، واسع الحيلة في تصريفه، بديع الإشارة، غريب اللمحة، ناصع البيان، ثم لا ترى فيه إحالة ولا استكراها، ولا ترى اضطرابا ولا خطلا، ولا استعانة من عجز، ولا توسعا من ضيق، ولا ضعفا في وجه من الوجوه " (٣)

(١) بلاغة الرسول ٢٣ د / العماري .

(٢) تاريخ آداب العرب ٢ / ٢٩١، ٢٩٢ .

(٣) ينظر تاريخ آداب العرب ٢ / ٣٢٥ .

وأسلوبه — ﷺ — سهل، لا تعقيد فيه ولا التواء، آخذ بحظه الوفير من البيان موجز حيث لا يحمد إلا الإيجاز، مبسوط حين يقتضي المعنى البسط، فطرى مطبوع (١).

أهم مميزاتها

أولاً: الإيجاز : ومن مميزات البلاغة النبوية " القصد والإيجاز والاقتصار على ما هو من طبيعة المعنى في ألفاظه، ومن طبيعة الألفاظ ومعانيها، ومن طبيعة النفس في حظها من الكلام وجهتيه (اللفظية و المعنوية) فذلك مما امتازت بها البلاغة النبوية، حتى كأن الكلام لا يعدو فيها حركة النفس، وكأن الجملة تخلق في منطق — ﷺ — خلقاً سوياً، أوهي تترع من نفسه انتزاعاً" (٢) وهي " تلك التي ذكر النبي — ﷺ — أن الله ميزه بها، وأعطاه إياها، وهي جوامع الكلم، وهي عبارات موجزة حكيمة تتضمن كل عبارة منها معاني كثيرة مع الوفاء بالمعنى الذي تضمنته (٣) ونورد بعض الشواهد على ذلك كقوله : — ﷺ — " الظلم ظلمات يوم القيامة " (٤) و"رحم الله عبداً

(١) بلاغة الرسول ٢٣ د / العماري .

(٢) تاريخ آداب العرب ٢ / ٣٣٩ .

(٣) بلاغة الرسول ٥٠ د / العماري .

(٤) الحديث رواه البخارى كتاب المظالم باب الظلم ظلمات يوم القيامة ، ومسلم كتاب البر والصلة والآداب باب تحريم الظلم تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ط دار الحديث ١٩٩١ م ، والترمذى كتاب البر والصلة باب مجاء في الظلم ، وأحمد في مسنده كتاب مسند المكثرين من الصحابة باب باقى المسند السابق ط دار الفكر ، والدارمى في سننه كتاب السير باب في النهى عن الظلم تحقيق الشيخ محمد عبد العزيز الخالدي ط، دار الكتب العلمية ١٩٩٦ م.

قال خيرا فغنم ، أو سكت فسلم" (١) و" المؤمن مرآة أخيه" (٢) و"اليد العليا خير من اليد السفلى" (٣) و" دع ما يريك إلى مالا يريك" (٤) يقول الرافعي : وهو يتحدث عن اجتماع كلامه — ﷺ — وقلته " هذا إلى أن اجتماع الكلام وقلة ألفاظه ، مع اتساع معناه ، وإحكام أسلوبه في غير تعقيد ولا تكلف ، ومع إبانة المعنى واستغراق أجزائه ، وأن يكون ذلك عادة وخلقا يجري عليه الكلام في معنى و في باب شئ لم يعرف في هذه اللغة غيره ﷺ " (٥) .

ثانيا : الابتكار : ومما امتازت به البلاغة النبوية وضعه — ﷺ — لمفردات وتراكيب جديدة كقوله في صفة الحرب يوم حنين : "الآن حمى الوطيس" (٦)

(١) الشفاء بتعريف حقوق المصطفى ٥٦/١ ، المغنى عن حمل الأسفار للعراقي ١٠٧/٣ ، موارد الظمآن للهيتمي ١٢٨ ط السلفية ، كشف الخفاء للعجلوني ١ / ٥١٤ ، إتحاف السادة المتقين للزبيدي في شرح إحياء علوم الدين ٧ / ٤٥٣ ، ٥٧٩ ، ط بيروت ، ، يراجع موسوعة أطراف الحديث محمد السعيد زغلول ٥ / ١٣١ .

(٢) رواه أبو داود في سننه كتاب الأدب باب في النصيحة والحيطة ط دار الحديث ١٩٨٨ م ، ورواه الترمذى في صحيحه كتاب البر والصلة باب ما جاء في شفقة المسلم على المسلم

(٣) رواه النسائي في سننه كتاب الزكاة باب : أيتهما اليد العليا ط دار الريان ١٩٨٧ م والدارمي في سننه كتاب الزكاة باب في فضل اليد العليا ، ورواه أحمد في مسنده كتاب مسند المكثرين من الصحابة .

(٤) رواه الترمذى في صحيحه كتاب صفة القيامة والرقائق والورع ، والنسائي في سننه كتاب آداب القضاة باب الحكم باتفاق أهل العلم ، وكتاب الأشربة باب الحث على ترك الشبهات ، وأحمد في مسنده كتاب مسند أهل البيت باب حديث الحسن بن علي .

(٥) تاريخ آداب العرب ٢ / ٣٠٠ .

(٦) المعجم الكبير للطبراني ٣٥٨/٧ ط العراق ، دلائل النبوة للبيهقي ٤/٣٦٩ ، ٥/١٣٢ ، ١٣٩ ط دار الكتب العلمية ، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير ٤/٧٠ ط الشعب ، مجمع الزوائد ومنبع الفوائد للهيتمي ٦/١٨٢ ، ط القدس دون تاريخ ، المطالب العالية ، ط التراث الإسلامي حديث (٤٣٧٣) لابن حجر العسقلاني ، الدر المنثور في التفسير بالمأثور للسيوطي ٣/٢٢٦ ط دار الفكر ، وكثر العمال للمتمقي الهندي أحاديث رقم (٢٩٩١٧) (٢٩٩٢١) (٣٠٢١١) (٣٠٢٢٥) يراجع موسوعة أطراف الحديث ٤/٢٠٠ والحديث أيضا في النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير ٥ / ٢٠٤ .

وقوله في حديث الفتنة: "هدنة على دخن" (١) وقوله: "رفقا بالقوارير" (٢) وقوله: "إياكم وخضراء الدمن"، قالوا: وما خضراء الدمن يا رسول الله؟ قال: المرأة الحسناء في المنبت السوء" (٣) وقوله لأبي ثيمة الهجيمي: "إياك والمخيلة، فقال: يا رسول الله نحن قوم عرب فما المخيلة؟ قال: سبل الإزار" (٤) إلى غير ذلك من الأوضاع التي ابتدعتها أفصح العرب — ﷺ — في هذه اللغة ابتداءً، ولم تسمع من أحد قبله، ولا شاركه في مثلها أحد بعده (٥) وقد نازع في ذلك المرحوم د / العماري حيث قال: "يعد الذين كتبوا في البلاغة النبوية من مظاهرها وضعه — ﷺ — مفردات وتراكيب جديدة، ويذكرون أمثلة لذلك، ومع أننا ندين الله أن النبي — ﷺ — كان أبلغ العرب لا نرى ضرورة لأن نضيف إليه — ﷺ — إلا ما صحت روايته وإلا ما كان واضح الدلالة فيما نريد، وليست بلاغته — ﷺ — في حاجة إلى أن نستشهد لها بما يمكن أن ينازعنا فيه من يريد الجدل

(١) رواه أبو داود في سننه كتاب الفتن والملاحم باب ذكر الفتن ودلائلها، وأحمد في مسنده كتاب باقي مسند الأنصار حديث حذيفة بن اليمان .

(٢) رواه البخاري في صحيحه كتاب الأدب باب المعارض مندوحة على الكذب، ومسلم في صحيحه كتاب الفضائل باب رحمة النبي للنساء، وأحمد في مسنده كتاب باقي مسند الكثيرين باب باقي المسند السابق .

(٣) جمع الجوامع للسيوطي حديث رقم (٩٣٢٦) ط مجمع البحوث الإسلامية، كتر العمال (٤٥٦١٥) (٤٤٥٨٧) تذكرة الموضوعات للفتنى ١٢٧ ط بيروت الأسرار المرفوعة في الأحاديث المرفوعة لعلي القاري ١٣٨، ١٣٩، كشف الخفاء للعجلوني ٣١٩/١، إتحاف السادة المتقين للزبيدي ٣٤٨/٥، ٨٩/٩، الفوائد المجموعة للشوكاني ١٣٠ ط السنة اعمدية، سلسلة الأحاديث الضعيفة لناصر الدين الألباني ١٤، ط المكتب الإسلامي، يراجع موسوعة أطراف الحديث ١٤٦/٤ .

(٤) رواه مسلم في صحيحه كتاب اللباس والزينة باب تحريم جر الثوب خيلاء، وأبو داود في سننه كتاب اللباس باب ما جاء في إسيال الإزار، وأحمد في مسنده كتاب مسند الكثيرين من الصحابة مسند عبد الله بن عمر، وأول مسند المدنيين أجمعين باب حديث رجل من قومه.

(٥) ينظر تاريخ آداب العرب ٢ / ٣١٥ : ٣١٧ .

والمنازعة " (١) غير أنه من المسلم به أن كل بليغ أضاف إلى هذه اللغة تراكيب جديدة ، على اختلاف في نسبة هذا المبتدع، والظاهر أن المرحوم د / العماري لا ينفي مبدأ الابتكار، وإنما يشير إلى صحة ما يستدل به على ذلك، وذلك لما يتطلبه إثبات ذلك من مراجعة كل ما نظم من شعر، وصنع من نثر قبل بعثته ﷺ حتى يصح الاستدلال ، وهذا أمر صعب .

ثالثا : مطابقة كلامه مقتضى الحال : ومن مميزات البلاغة النبوية علمه — ﷺ — باللسنة العرب ، ومخاطبته كل أمة بلسانها ، حتى قال له علي بن أبي طالب ، وقد سمعه يخاطب وفد بني نهد : يا رسول الله نحن بنو أب واحد، ونراك تكلم وفود العرب بما لانفهم أكثره، فقال — ﷺ — " أدبني ربي فأحسن تأديبي" (٢)

والظاهر " أن الغرابة كانت من سمات الرسول — ﷺ — حين يخاطب أقواما ضاربين في البداوة ، فكانت الألفاظ مأنوسة الاستعمال بالنسبة إلى المخاطبين، غريبة بالنسبة للمستمعين من السلف . . . فقد تكون

(١) بلاغة الرسول ٤٤ .

(٢) الحديث في كثر العمال (٣١٨٩٥) تذكرة الموضوعات للفتنى ٨٧ ، كشف الخفاء للعجلوني ٧٢/١ ، الفوائد المجموعة للشوكاني ٣٢٧ ، السلسلة الضعيفة للألباني ٧٢ ، يراجع موسوعة أطراف الحديث ١/١٩٠ .

الغربة مراعاة لحال المخاطبين ممن بعدت بهم الدار ، ونأى بهم المحل ، كما قال الخطابي رحمه الله " (١)

وفي الختام نقول قد جعل الطيبي — رحمه الله — الحديث الشريف دليلاً يهدي إلى المسائل البلاغية في أرقى صورها، حيث ختم كتابه (التيبان) بحديث شريف يوجز الفصاحة و البلاغة فقال : " وإذ قد وقفت على البلاغة، وأنواعها ، وجمعت الفصاحة بأقطارها ، فلنذكر الآن حديثاً عن صدر النبوة ، ومنبع الرسالة ، ليكون كالإجمال لهذا التفصيل ، وكالفهرس لهذه الفنون ، وعونا للمتصدي على وضع كل في مقامه ، وتمرئاً له إذا انتصب لاهتمامه " (٢) ثم انتقل إلى بيان ما في الحديث الشريف " قال معاذ : قلت يارسول الله أخبرني بعمل يدخلني الجنة ويباعدني من النار . . . " ثم بين ما فيه من المعاني ، والبيان ، والبديع ، والفصاحة ، في صفحات طوال فيها علم جم (٣)

(١) ينظر الجملة العربية بناؤها وإيجازها ٢٣ ، د / إبراهيم صلاح الهدهد ط دار الاتحاد التعاوني ١٩٩٦ م وكلام الخطابي في غريب الحديث للخطابي ١ / ٧١ ، تحقيق د / عبد الكريم الغرباوي ط، دمشق ١٩٨٢ م و ينظر الغربة في الحديث النبوي ١٤٤ د / عبد الفتاح البركاوي ط حسان ١٩٨٧ م .

(٢) التيبان في علم المعاني و البديع و البيان لشرف الدين الطيبي ٥٢٤ تحقيق د / هادي عطية مطر ، ط ، عالم الكتب ، بيروت ١٤٠٧ هـ .

(٣) ينظر: التيبان في علم المعاني و البديع و البيان لشرف الدين الطيبي ٥٤١:٥٤٢ .

الباب الأول

من بلاغة الرسول — ﷺ — في

حديثه عن الترغيب في العلم .

وتحته فصول :

الفصل الأول: بلاغته — ﷺ — في حديثه عن فضل العلم.

الفصل الثاني: بلاغته — ﷺ — في حثه على طلب العلم .

الفصل الثالث: بلاغته — ﷺ — في حديثه عن فضل أهل

العلم.

الفصل الرابع: بلاغته — ﷺ — في حديثه عن ثواب العالم .

الفصل الخامس : بلاغته — ﷺ — في حديثه عن ثواب طلاب

العلم .

توطئة :

العلم فخر يبقى على مرور الأحقاب، وذكر يتوارثه الأعقاب بعد الأعقاب وأول المجد وآخره ، وباطن الشرف وظاهره، به يترقى على كل المراتب وبه يتوصل إلى المآرب والمطالب، وهو الأرتع مرعاه، وهو الأرفع مسعاه، يملأ العيون نورا والقلوب سرورا، ويزيد الصدر انشراحا، ويفيد الأمور انفساحا، وهو الغنم الأكبر والحظ الأوفر، والبغية العظمى، والمنية الكبرى لذا كان الرسول ﷺ — يرغب دائما في العلم ويحث على طلبه، واختراق سبله، و امتطاء سفنه، وقد سلك للترغيب في العلم سبيلين .

أولهما : بيان فضل العلم و أثره في إحياء الناس ، و العلم هو الركن الأول من أركان العملية التعليمية الثلاثة ، كما تحدث — ﷺ — عن منزلة المشتغلين بالعلم.

ثانيهما : بيان الثواب المرصود لسالكي طريق العلم ، كما تقتضيه العملية التعليمية التي تشتمل على عالم و متعلم .

وأود أن أنبه من أول الأمر أن وضع مجموعة من الأحاديث تحت عنوان معين قائم على أدنى ملابسة ، و إلا فمن الأحاديث ما يمكن أن يندرج تحت عنوان آخر ، لأنه لا يوجد حد فاصل دقيق يمكن أن يعتمد عليه في تصنيف الأحاديث ، فقد نجد بعض الأحاديث في بيان ثواب العالم أو المتعلم يمكن أن تندرج في الحديث عن منزلة العالم ، غير أن وضعها في الحديث عن ثوابه أشبه ، وهكذا .

الفصل الأول
بلاغته — ﷺ — في حديثه عن
فضل العلم

وردت أحاديث تبين فضل العلم، وأنه حياة القلوب، ومنقذ الأمم من ظلام الجهل، والآخذ بأيديهم إلى شاطئ الهدى، كما بين — ﷺ — أن العلم يمتد أثره بعد رحيل صاحبه، ولهذه الأحاديث أثر بالغ في الكشف عن اهتمام ديننا الحنيف بالعلم، وبيان قدر شرفه، وعظيم منزلته، وأتناول هذه الأحاديث محاولة سبر غورها، واستكشاف جلال المعاني، وجمال البيان، وروعة البديع، محاولة الربط بين الأساليب البلاغية التي استخدمها الرسول — ﷺ — وبين المقاصد التي يرمي إليها، مولية اصطفاءات الألفاظ عناية كبرى أيضاً، لأنها تمثل اللبنة الأولى في بناء الجملة التي تكون النص الشريف.

((عن أبي موسى الأشعري — رضي الله عنه — عن النبي — ﷺ — قال : — مَثَلُ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ مِنْ الْهُدَى وَالْعِلْمِ كَمَثَلِ الْغَيْثِ الْكَثِيرِ أَصَابَ أَرْضًا فَكَانَ مِنْهَا نَقِيَّةٌ قَبِلَتْ الْمَاءَ فَأُثْبِتَ الْكَلَاءُ وَالْعُشْبُ الْكَثِيرُ، وَكَانَتْ مِنْهَا أَجَادِبُ أَمْسَكَتِ الْمَاءَ فَنَفَعَ اللَّهُ بِهَا النَّاسَ، فَشَرِبُوا وَسَقَوْا وَزَرَعُوا، وَ أَصَابَتْ مِنْهَا طَائِفَةٌ أُخْرَى، إِنَّمَا هِيَ قِيعَانٌ لَا تُمْسِكُ مَاءً وَلَا تُنْبِتُ كَلَاءً، فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ فَقَهُ فِي دِينِ اللَّهِ، وَ نَفَعَهُ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ، فَعِلِمَ وَ عِلْمَ، وَ مَثَلُ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بِذَلِكَ رَأْسًا وَ لَمْ يَقْبَلْ هُدَى اللَّهِ الَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ)) (١)

(١) رواه البخاري في صحيحه كتاب العلم باب فضل من علم و علم و اللفظ له، و رواه مسلم في صحيحه كتاب النبوات باب : مثل ما بعث به النبي — صلى الله عليه و سلم — من الهدى و العلم .

التصور الجملي للحديث

المقصود العام للحديث التنبيه على فضل العلم وأثره في إحياء الناس، وضرب مثلاً لهذا بالغيث، وأثره في إحياء الأرض، والحديث الشريف يتركب من صورتين تشبيهيتين، الأولى: (مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم) والثانية: (فذلك مثل من فقه في دين الله . . .) وداخل هذين التشبيهين جمل متنوعة تعرض لها عند التحليل.

اصطفاءات الألفاظ

(ما) هنا موصولة، وهي أعم الموصولات، وأدخلها في الإبهام، وهو المناسب في هذا السياق إذ هو أشمل دلالة لكل نواحي رسالته — ﷺ — ولو جاء التعبير هنا باسم موصول خاص لكان أضيق دلالة من (ما) وأرى أنه لن يكون مناسباً لما أتى بعد في المشبه به من وصف الغيث بالكثير، (فما) تدل على شمولية الهدى والعلم الذي جاء به — ﷺ — لكل مناحي الحياة، وأنهما كالغيث الكثير الذي يصيب أنواع الأرض المختلفة.

واصطفاء (بعثني) دون أرسلني وراءه إنباء بفوائد ما جاء به، وكشف عن حالهم التي كانوا عليها قبل مبعثه — ﷺ — من موت القلوب ونضوب العلم حتى أصابهم الله برحمة من لدنه، وبعث لهم خاتم الأنبياء والمرسلين — صلى الله عليهم وسلم أجمعين — وعند مراجعة المعاجم اللغوية لحظت أن من

معاني البعث الإيقاظ من النوم ، والإحياء و النشر من القبور (١) فمادة البعث هي المناسبة لهذا المقام .

(الهدى) اسم يقع على الإيمان والشرائع كلها ، إذ الاهتداء إنما يقع بها كلها قال : — تعالى (وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى) (مريم / ٧٦) أي : إيماناً، وقال أيضاً : (إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللَّهِ . . .) (آل عمران / ٧٣) أي : الدين (٢) ووراء اصطفاؤه هذا اللفظ إمالة للقلوب نحو ما يقال، والاستعداد للعمل بما في حيزه .

(والغيث) المطر ، فإن قلت لم اختار الغيث من بين أسماء المطر ؟ قلت : ليؤذن باضطراب الخلق إليه حينئذ ، قال : — تعالى (وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ) (الشورى / ٢٨) وقد كان الناس قبل المبعث قد امتحنوا بموت القلوب ، ونضوب العلم، حتى أصابهم الله برحمة من عنده (٣) فذكر الغيث يكشف شدة الحاجة و عظم الفاقة ، وفي وصفه بالكثرة تصوير لسعة الخير وكثرته وانتشاره وامتداد أمدّه.

(١) الكليات لأبي البقاء الكفوي ٢٤٤ .

(٢) الكليات لأبي البقاء الكفوي ٩٥٤ .

(٣) عمدة القاري شرح صحيح البخاري للإمام العيني ٨٠ / ٢ ، ط دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، دون تاريخ .

وفي التعبير بنقية إثارة للمسرة ، وحث على الاتصاف بهذا الوصف، ومبادرة بما يتعلق به الخير ، كما أن في التعبير بـ (قبلت) (١) إيجاء بسرعة قبول هذه الطائفة للخير ، وأنها جبلت على قبول الخير أصلاً ، كما جاء الكلاء والعشب موصوفين بالكثرة تناغماً مع وصف الغيث بالكثرة.

(أصاب) قد اصطفاهَا — ~~ف~~ — على نزل مثلاً ، لما في الإصابة من الدلالة على التوجه نحو الموضع الذي أمرها المرسل بالتوجه إليه ، وأنه نزل بأرض متعطشة له ، وحياتها متعلقة به ، وهكذا الناس قبل مبعثه — ~~ف~~ — كانوا بحاجة ماسة لما جاء به من الهدى والعلم ، أما لفظة (نزل) فلا توحي بالدلالة اليقينية على احتياج الأرض للمطر ، وفي الحديث ألفاظ كثيرة أخرى كلها مصطفاة نعرض لها عند الكشف عن أحوال التراكيب .

أحوال التراكيب

يقول الكرماني " فإن قلت : في الحديث تشبيهان أو تشبيه واحد؟ قلت : تشبيهات متفرقة ومتعددة باعتبار الأجزاء كتشبيه ما بعثه الله به بالغيث الكثير ، وكتشبيه أنواع الناس بأنواع الأرض ونحوهما، فإن قلت : هما من أي قسم من أقسام التشبيه ؟ قلت : الأول من تشبيه المعقول بالمحسوس، والثاني : من تشبيه المحسوس بالمحسوس ، ويحتمل أن يكون تشبيهها واحداً من باب

(١) و روى قَيْلت بمعنى شربت ، وقد ذكر أهل العلم أنه تصحيف ينظر المفهم لما أشكل من تلخيص مسلم للقرطبي ٦ / ٨٢ تحقيق محيي الدين ديب مستو ، ط دار ابن كثير ١٩٩٦م.

التمثيل، أي : تشبيه صفة العلم الواصل إلى أنواع الناس من جهة اعتبار النفع وعدمه بصفة المطر المصيب إلى أنواع الأرض من تلك الجهة" (١)

الصورة التشبيهية الأولى

التشبيه الأول من الصور التشبيهية الطويلة التي تشكلها عناصر داخلية تسهم بشكل كبير في بناء هذه الصورة ؛ لذا نتناولها بالتفصيل، بعد تناولي اصطفاءات الألفاظ التي هي مادة الجمل التي كونت التشبيه، قوله : — ﷺ — (مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم) تمثل المشبه ، وقد افتتح التشبيه بقوله (مثل) والمثل مراد به هنا الصفة العجيبة ، لا القول السائر (٢) وفي الافتتاح به إثارة للعقل وتنشيط للحس ، وإيذان بأن ما يأتي بعده يستحق التأمل ويستوجب النظر ، و (العلم) المراد به معرفة الأدلة الشرعية ، والعطف هنا من عطف المدلول على الدليل ، لأن الهدى هو الدلالة الموصلة للمقصد ، والعلم هو المدلول (٣)

والمشبه به مع أداة التشبيه يمتد من قوله : — ﷺ — (كمثل الغيث إلى قوله : ولا تنبت كلاً) ، وهو من التشبيه المرسل ، وفي إسناد بعث إلى لفظ الجلالة وهو أهيب أسماء الله — تعالى — بيان لعظم ما بعث به — ﷺ — كما أن في إظهار المسند إليه معرفاً بأعرف المعارف ، وهو اسمه الأعظم —

(١) الكواكب الدراري شرح صحيح البخاري للكرمانى ٢ / ٥٨ ط دار إحياء التراث العربي بيروت ١٩٨١ م.

(٢) فتح الباري شرح صحيح البخاري ١ / ١٤٣ لابن حجر العسقلاني ، ط دار إحياء التراث العربي ، بيروت ١٤٠٨ هـ .

(٣) عمدة القاري ٢ / ٧٩ ، إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري للقسطلاني ١ / ١٧٨ ، ط دار إحياء التراث العربي ، مصر ، دون تاريخ .

سبحانه — والذي هو علم عليه وما سواه منسوب إليه (١) لذا قال : —
 تعالى (وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا...) (الأعراف / ١٨٠) في هذا
 الإسناد إضفاء للهيبة على ما جاء به، ورفع للحرص عنه — ﷺ — حتى لا
 يقال إن ما قاله هو من عنده، وفيه أيضا مجاهدة لنعرة بعض القبائل أن يكون
 الرسول — ﷺ — منهم .

وقوله : (أصاب أرضا) قيد للغيث فهي جملة حالية بينت أن الغيث وقع
 بمواطن الحاجة ، وجاء تنفيذا لتوجيه المرسل ، ولم يبتعد عن توجيهاته قيد
 شعرة ، وفي التعبير بالفاء في قوله (فكان . . .) إظهار لسرعة بيان أثر
 هذا الغيث ، وفي هذا زيادة حث على الإقبال على ما جاء به — ﷺ —
 حيث تفيد الفاء عدم التراخي ، وكأنه لا زمن يفصل بين نزول الغيث وبدوّ
 أثره ، ولما كان الغيث قد أصاب أرضا هكذا بأسلوب التنكير المفيد التنويع
 هنا، نتج عن ذلك أن تتنوع الأراضي بتنوع أجناسها وطبائعها فكانت
 الأرض من الغيث على هذا النحو (فكان منها نقية قبلت الماء فأنبتت الكلأ
 والعشب الكثير) ولنا أن نتصور ما توحى به هذه الفاءات من التعاقب
 والسرعة وانقطاع التراخي الزماني ، وهو المناسب لشدة الحاجة

(١) لفظ الجلالة (الله) علم على الذات ، لا صفة له ، بل جامع لكل صفات جلاله وكماله ، واللام فيه لازمة للتعريف ، وقد غلب استعمال القرآن له على بقية الأسماء الحسنى ، وهو يقع موقع الموصوف ، لا الصفة بالنسبة لغيره من الأسماء الحسنى ، ولم يستعمل في غير الذات ، لا في الجاهلية ولا في الإسلام " ينظر : أسلوب الكناية في أسمائه الحسنى ٣٤، ٣٥ د/ هاشم يوسف الديب ، ط المطبعة الإسلامية الحديثة ١٤١٥ هـ .

وعظم الفاقة ، وهذا من أبلغ مواقع الفاء، فقد ذكر د / محمد أبو موسى أن ابن رشيق ذكر أن الإصابة في مواقع الفاء أدخل في صناعة المطبوعين من الإصابة في مواقع التجنيس والطباق، وأن الأول أشبه بجزالة الفطرة ، وصحة الطبع ، وأدل على ثقافة الشاعر، وتمكنه، وأدخل في جوهر الشعر، والعرب الخالص لم ينظروا إلى أعطاف الكلام؛ ليجانسوا، أو يطابقوا، ولكن ليسطوا معانيه، ويتقنوا بنيته، ويحكموا عروته "(١) هذا ، وفي حذف الموصوف وإقامة الصفة مقامه (نقية) معاجلة بما هو محط العناية والاهتمام (٢) ومن العجيب أننا نرى أنه جاء عقب وصفها بالنقية بما يكشف عن نقائها، وعراقة أصلها ، وتمام استعدادها ، ومن التناغم أن نرى الغيث الكثير، ينتج الكلاً والعشب الكثير ، فجاء ثمر الغيث على قدره ، وهذا دليل تمام النقاء، وعظم القبول ، كما أن قوله (والعشب الكثير) ((إطناب بذكر الخاص بعد العام ؛ لأن الكلاً يطلق على النبت الرطب واليابس معا ، والعشب للرطب فقط)) (٣) والتخصيص بالذكر لفائدة الاهتمام به لشرفه ونحوه

(١) دلالات التراكيب د/ محمد أبو موسى ٣٤٤ ، ٣٤٥ ، ط وهبة ١٩٨٧م ، و نص ابن رشيق نقله الشيخ بتصريف لأن ابن رشيق عرض لنموذجين من الشعر للحطية و أبي ذؤيب في حديثه عن المطبوع و المصنوع ، ثم عقب عليهما بقوله : " فأنت ترى هذا النسق بالفاء كيف اطرده ، و لم ينحل عقده ، و لا اختل بناؤه ، و لولا ثقافة الشاعر ، ومراعاته إياه لما تمكن هذا التمكن " العمدة في محاسن الشعر و آدابه و نقده ١ / ١٢٩ ، ١٣٠ تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ط دار الجليل بيروت ١٤٠١هـ .

(٢) و يروى ثغبة ، و قد خطأ هذه الرواية القاضي عياض و ابن حجر ينظر فتح الباري لابن حجر ١ / ١٤٣ .

(٣) فتح الباري لابن حجر العسقلاني ١ / ١٤٣ .

(^١) "وفي إسناد الإنبات للأرض في قوله: (فأنبئت الكلاً والعشب الكثير) مجاز عقلي، فالمنبت في الحقيقة هو الله تعالى" (^٢)

(وكانت منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا وسقوا وزرعوا) هذا هو النوع الثاني من الأرض التي أصابها الغيث ، وهذا النوع لم يقبل الانتفاع في نفسه ، ولكن فيه فائدة ، وهي إمساك الماء للناس والدواب، ونلاحظ أنه حذف المفاعيل الثلاثة ، ويعلل لهذا العيني بقوله : ((لكونها معلومة ، ولأنها فضلة في الكلام ، والتقدير : فشربوا من الماء، وسقوا دوابهم ، وزرعوا ما يصلح للزرع)) (^٣) وفي حذف المفاعيل توفير للعناية على الفعل لتعلق الفائدة به، كما في هذا التفصيل الذي كان يكفي أن يقال في مثل هذا فانتفع الناس به، في هذا التفصيل جبر لوصفها من قبل بالجدب الذي أوحى بعدم فائدتها، فلما فصل في فوائدها كان في هذا جبر لها، وإعلاء لشأنها؛ دفعا لما أوحى به اسمها من أول الأمر بعدم الفائدة، كما نلاحظ هذا الترتيب البديع للأفعال حيث جاء على مراتب الحاجة فالناس تشرب، فإذا ما تبقى شيء فالدواب أولى به من الزرع .

(^١) عمدة القاري ٢ / ٧٩.

(^٢) من روائع البيان النبوي ٩ د/ فريد النكلاوي ، نشر المؤلف ، ١٤٠٧هـ .

(^٣) عمدة القاري ٢ / ٧٩.

(وأصاب طائفة أخرى إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلاً) هذا هو النوع الثالث، و هي أرض سبخة لا تنتفع بالماء ولا تنفع غيرها به، ونلاحظ هنا أنه فصل في وصفها بعدم الانتفاع ، وعدم النفع، وفي ذلك تقييح للمقابل في التشبيه الذي سيأتي بعد مبنيًا على هذا التشبيه، ونلاحظ هنا أنه كرر (وأصاب) لبعده العهد بها ، تذكيراً بأن الغيث لم يخطئها، وإنما عدم انتفاعها ونفعها، إنما هو من قبلها حسب .

وقد استخدم الرسول ﷺ — أسلوب القصر، واستخدم من أدواته (إنما) التي تأتي للأمور المعلومة ، التي لا تحتاج تأكيداً، وأقسام الأرض على النحو الوارد في الحديث من المعروف والمألوف ويوضح د / أبو موسى ذلك قائلاً : " الرسالة في هذا التمثيل، مثلها كمثل الغيث يصيب كل أرض، ومن هذه الأرض ما هو حيٌّ صالح لأن يمتص من هذا الغيث ما يفجر طاقات الخير والعطاء في جنباتها، فتنبعث فيها الحياة والطراوة واليناعة، ومنها ما هو أجادب تمسك الماء ، وتحفظه من غير أن تهتز بما فيه من خصوبة ، وتوتر وحياة، ويبقى بعد هذين ما لا ينبت كلاً ولا يمسك ماء ، وهذا القسم الثالث لم يبق في المألوف بعد الأولين سواه " (١)

ونلاحظ هنا المناسبة بين المشبه والمشبه به ، فالهذى وحي جاء من السماء كما أن الغيث من السماء ؛ ولأنه حياة للقلوب ، كما أن المطر حياة للأرض ، وجاء الوحي في زمن جذبت فيه القلوب ، وماتت بطول أمر الجاهلية عليها ، وبعدها عن أزمنة إغاثة الله — تعالى — بوحي الأنبياء كما أن الغيث يحيى الأرض كذلك)) (١)

الصورة التشبيهية الثانية

هذه الصورة مبنية على الصورة الأولى وهي (فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه ما بعثني الله به . . . إلى آخر الحديث) جاء هذا التشبيه كالنتيجة للأول، وقد جاء معقودا بالفاء الفصيحة، وجاء باسم الإشارة (ذلك) المفيد التعظيم ، فبعد أن شبه — ﷺ — ما جاء به من الدين بالغيث العام الذي يأتي الناس في حال حاجتهم إليه ، شبه السامعين له بالأرض المختلفة فمنهم العالم العامل المعلم ، فهذا بمنزلة الأرض الطيبة شربت ، فانتفعت في نفسها ، وأنبتت فنفعت غيرها .

ومنهم الجامع للعلم المستغرق لزمانه في جمعه ووعيه غير أنه لم يتفرغ للعمل بنوافله ، ولا ليتفقه فيما جمع لكنه أداه لغيره ، كما سمعه فهذا بمنزلة

(١) مكمل إكمال إكمال المعلم شرح صحيح مسلم للسوسي ٦ / ١٠٢ ، ١٠٣ ط مكتبة طبرية ، الرياض .

الأرض الصلبة التي يستقر فيها الماء فينتفع الناس بذلك الماء فيشربون ، ويسقون ، وهذا القسم هو الذي قال فيه النبي : ﷺ (نضر الله امرءاً سمع مني حديثاً فبلغه غيره ، فرب حامل فقه إلى من هو أفقه منه ، ورب حامل فقه ليس بفقيه) (١)

ومنهم من بلغه الشرع فلم يؤمن ، ولم يقبل فهم كالقيعان السبخة التي لا تقبل الماء في نفسها ، وتفسده على غيرها ، فلا يكون منها إنبات ولا يحصل بما حصل فيها نفع (٢) وهذه الأقسام الثلاثة للأرض مستوفية لأقسام الناس ، فنلاحظ تمام المقابلة بين الصورتين ، ، فقد ذكر في الصورة التشبيهية الثانية القسم الأول من الناس مقابل القسم الأول من الأرض ، والقسم الثالث من الناس مقابل القسم الثالث من الأرض ، ولم يذكر ما يقابل القسم الثاني من الأرض ، ويرى المازري أن هذا من بديع الإيجاز والبلاغة ، فالقسم الثاني مذكور ضمناً في القسم الأول، وهو يدل عليه بالزوم (٣) وأرى أن في عدم ذكر مقابل القسم الثاني من الأرض تشجيعاً على حفظ علم الوحي وتناقله ، وكأنه كالقسم الأول العامل بعلمه، وفيه من الخير ما في الأرض النقية، وشئ آخر هو التحاشي من أن يجعل ناقل علم الوحي صراحة مقابل الأجادب من الأراضى ، فربما يكون ذلك منفراً له عن نقل العلم وحفظه، ما دام هذا الوصف ملتصقاً به .

(١) رواه الترمذي في سننه كتاب العلم باب ما جاء في الحث على تبليغ السماع ، و أبو داود في سننه كتاب العلم باب فضل نشر العلم .

(٢) المفهم للقرطبي ٦ / ٨٣ ، ٨٤ ، إكمال إكمال المعلم شرح صحيح مسلم للأبي ٦ / ١٠٢ ط مكتبة طبرية الرياض

(٣) شرح الأبي على صحيح مسلم ٦ / ١٠٢ ، ١٠٣ .

ويرى الكرمانى أن لفظ الحديث يحتمل تثليث القسمة بتقدير أن قوله (نفعه) صلة موصول محذوف معطوف على الموصول الأول ، أي : فذلك مثل من فقه في دين الله ، ومثل من نفعه كقول حسان : — رضي الله عنه أمن يهجو رسول الله منكم * ويمدحه وينصره سواء ؟ !

أي : ومن يمدحه وينصره سواء، وعلى هذا فتكون الأقسام الثلاثة المذكورة، فمن فقه في دين الله هو الثاني، ومن نفعه الله من ذلك فعلم وعلم هو الأول، ومن لم يرفع بذلك رأسا هو الثالث ، ففيه حينئذ لف ونشر غير مرتب^(١)، ويرى البعض الآخر أن القسمة الثنائية هي المتصورة، وأنه — ﷺ — ذكر من الأقسام أعلاها وأدناها وطوى ذكر ما بينهما لفهما من أقسام المشبه المذكورة أولا^(٢)

وقد صوب العيني رأي الفريق الثاني لأن تقسيم الأراضى وإن كان ثلاثة بحسب الظاهر ، إلا أنه في الحقيقة قسمان ؛ لأن النوعين (الأول والثاني) محمودان، والثالث مذموم ، وتقسيم الناس نوعان أحدهما ممدوح أشار إليه

(١) الكواكب الدراري شرح صحيح البخاري للكرمانى ٢ / ٥٨ ، وإرشاد الساري إلى صحيح للقسطلاني ١ / ١٨٠. "واللف والنشر هو : أن يذكر متعدد على جهة التفصيل أو الإجمال ، ثم يذكر ما لكل واحد من أفرادها من غير تعيين؛ اعتمادا على تصرف السامع في تمييز ما لكل واحد منهما وردة إلى ما هو له " ينظر : لباب البديع ١١١ د/ محمد حسن شرشر ط دار الطباعة الخمدية ١٤١٨هـ " واللف والنشر من الألوان البديعية التي عرفها القدماء ، فقد ذكره ابن فارس في كتابه الصحاحي ، وذكر له تعريفا قريبا مما ذكره البلاغيون بعد ذلك ، ومثل له بأمثلة من القرآن الكريم والشعر ويذكر ضابطا له ، فيقول : باب جمع شيئين في الابتداء هما وجع خيريهما ثم يرد إلى كل مبتدأ به خبره" ينظر : المسائل البلاغية في كتاب الصحاحي لابن فارس ١٣٢ د/ فريد النكلاوي ، ط الأمانة ١٤٠٦هـ .

(٢) عمدة القاري ٢ / ٧٩ .

بقوله : مثل من فقه في دين الله ، ونفعه ما بعثني الله به ، والآخر مذموم أشار إليه بقوله : ومثل من لم يرفع بذلك رأسا ، ويرى الإمام العيني أن ما ذكره الكرمانى فيه تعسف ، وأن التقدير الذي ذكره غير سائغ في الاختيار ، وباب الشعر واسع ، وأيضا يلزمه أن يكون تقسيم الناس أربعة : الأول : مثل من فقه في دين الله — تعالى — والثاني : ونفعه ما بعثني الله به ، والثالث : ومثل من لم يرفع بذلك رأسا ، والرابع : ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به (١) كما نلاحظ أن الصورة المختارة لوصف الناس وتصنيفهم من علم الوحي جاءت من جنس ما خلقوا منه ، وهو الأرض التي هي تراب وطين ، كما أن في اصطفاء الصورة أيضا تعويلا على ما فيه إقناع ، لأنه لا يعاند أحد كائنا من كان في حقيقة أن الأرض من الغيث أنواع ، وأن قبولها للماء يتفاوت .

والحديث كما رأينا جاء متماسك الأجزاء متلاحم العناصر ، ليس بوسعنا تقديم كلمة أو تأخير أخرى ، ولا تعريف ما نكر ، ولا حذف ما ذكر ، كما جاء التشبيهان جامعين بين الإمتاع والإقناع في أحلى بيان ، وأعذب كلام ، والحديث بالفاظه وتراكيبه يتجه إلى بيان فضل العلم ، وفضل ما بعث به ﷺ .

عن أبي هريرة — رضي الله عنه — أن رسول الله — ﷺ — قال :
 " إذا مات ابنُ آدمَ انْقَطَعَ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثَةٍ : إِلَّا مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ ، أَوْ
 عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ " (١)
التصور الجملي للحديث :

الحديث الشريف كله جملة شرطية ، مقصودها العام : التنويه بفضل
 الأعمال المذكورة ، والحض على اكتسابها .

اصطفاءات الألفاظ :

اصطفى — ﷺ — (ابن آدم) ولم يقل : الإنسان ، لأن في ذكر آدم في هذا
 الموقع دليل مادي على تحقق الموت ، إذ قد وقع الموت على الأب الأول ،
 فلو قال : الإنسان لفاتت هذه اللطيفة ، واصطفى — ﷺ — (عمله)
 ولم يقل : فعله ؛ لأن الفعل أعم من العمل " فالفعل التأثير من جهة مؤثر ،
 وهو عام ، لما كان بإجادة أو غير إجادة ، ولما كان بعلم أو غير علم ،
 وقصد أو غير قصد ، ولما كان من الإنسان والحيوان والجمادات " (٢) أما
 العمل ، فهو الفعل عن قصد ففي الوسيط " عمل عملا ، أي : فعل فعلا
 عن قصد " (٣) " والعمل لا يقال إلا فيما كان عن فكر وروية ، ولهذا قرن
 بالعلم ، حتى قال بعض الأدباء : قلب لفظ العمل عن العلم تنبيها على أنه

(١) رواه مسلم في صحيحه ، و اللفظ له كتاب الوصية باب : فضل الصدقة عن الميت ، و رواه الترمذي في الجامع كتاب الأحكام
 باب : الوقف ، و رواه النسائي في سننه كتاب الوصايا باب : فضل الصدقة عن الميت ، و رواه أبو داود في سننه كتاب الوصايا باب :
 ما جاء في الصدقة عن الميت .

(٢) الكليات لأبي البقاء الكفوي ٦٨٠ .

(٣) المعجم الوسيط مادة (ع م ل) .

من مقتضاه " (١) فاختيار العمل هو المناسب لغرض الحديث، فالحديث يرمي إلى بيان فضائل أعمال مخصوصة بصفات مخصوصة، ولا يقصد كل الأعمال ، فلو قال : فعله ما صلح .

واصطفى — ﷺ — لفظ (ولد) على لفظ (ابن) حتى يشمل الذكور والإناث من أولاده ، فالابن لا يطلق إلا على الذكر (٢) بخلاف الولد، فإنه يتناول الذكر والأنثى من الابن وابن الابن وإن سفل ، والبنت وبنت البنت وإن سفلت أيضا لأنه مشتق من التولد (٣) وشئ آخر هو أن لفظ الابن يدخل فيه الابن بالتبني قبل نسخ التبني فقد كان رسول الله — ﷺ — تبني زيدا قبل النسخ فكان يقول : أنا ابن محمد ، لذلك جاء لفظ الولد في آيات المواريث ، فقال : (يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ) (النساء / ١١) ولم يقل في أبنائكم (٤)

وقال (جارية) ولم يقل : مستمرة ، أو دائمة أو نحو ذلك ، تغزيرا للثواب أي : أن الثواب يتحقق بأدنى نفع للصدقة حتى لو كان النفع على وجه السرعة ، كما يتضح من مطالعة مادة (جرى) في المعاجم " فالجري هو المر السريع ، وأصله ممر الماء (٥) ويقال : " جرى الفرس ونحوه جريا وجراء

(١) الكليات ٦١٦ .

(٢) الكليات ٢٦ .

(٣) السابق ٩٤٤ ، ٩٤٥ .

(٤) الفرائض و شرح آيات الوصية للسهيلي ٣٠ تحقيق د / محمد البناء جامعة قار يونس ١٤٠٠ هـ .

(٥) الكليات ٣٥٤ .

اندفع في السير وجرت السفينة والشمس والنجوم جريا سارت (١) وقال :
 — ﴿ ٢٢٢ 》 — (ينتفع به) ولم يقل : يعمل به ؛ لأن العمل به جزء من الانتفاع ،
 فجاء بما هو أشمل ، وفيه تغزير للثواب ، إذ يتحقق الثواب بأدنى انتفاع ، من
 حفظ ، أو نقل أو نحوهما .

أحوال التركيب :

بنى الحديث بأسلوب الشرط ، وجاءت الأداة (إذا) ولم تأت (إن)
 مع أنهما شرطيتان لأن " أصل (إن) عدم الجزم بوقوع الشرط ، وأصل
 (إذا) الجزم لقول النحاة في الأولى : إنها تستعمل للمعاني المحتملة المشكوك
 على العكس من الثانية " (٢) وإذا هي المناسبة لدخولها فالموت لا يشك في
 وقوعه ، وإنما وقوعه يقين ، وجاء مدخولها فعلا ماضيا إيذانا بتحقيق الوقوع ،
 وكل هذا مما يشير إلى تحقق وقوع ما بعد (إلا) في الحديث ، وفيه ترغيب
 لفعل ما بعد إلا وحث عليه ، وقوله : — ﴿ ٢٢٢ 》 — في جواب الشرط
 (انقطع عمله) أي : أعماله بدليل الاستثناء ، والمراد فائدة عمله لانقطاع
 عمله ، يعني : لا يصل ثواب شيء من عمله ، والاستثناء متصل بتقديره :
 ينقطع ثواب أعماله من كل شيء كصلاة وحج وصيام ولا ينقطع ثواب

(١) المعجم الوسيط (ج ر ي)

(٢) ينظر الأطول للعصام ١٧٥/١ المطبعة السلطانية ١٢٨٤هـ .، وقال المرادي : في الحديث عن عدم جزم إذا " وإنما لم يجزم بها
 لمخالفتها إن الشرطية ، وذلك لأن (إذا) لما تبين وجوده ، أو رجع بخلاف (إن) فإنها للمشكوك فيه ، وقد تدخل على المتيقن
 وجوده إذا أهم زمانه كقوله : — تعالى — (أفانن مت فهم الخالدون) (الأنبياء / ٣٤) وقد تدخل على المستحيل كقوله : — تعالى
 — (قل إن كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين) (الزخرف / ٨١) " الجنى الداني في حروف المعاني لأبي الحسين بن قاسم المرادي
 ٣٦٧ ، ٣٦٨ تحقيق د / فخر الدين قباوة ، ومحمد نديم فاضل ط دار الكتب العلمية بيروت ١٤١٣هـ .

عمله من هذه الثلاثة " وأسلوب الاستثناء يفيد حصر استمرار الثواب في هذه الثلاثة مما يكشف عن فضلها ، وزيادة ثوابها ، وفيه زيادة ترغيب فيها .

وقد ذكر العلماء سر جريان ثواب هذه الأعمال بعد الموت بقولهم:

" وهذه الخصال الثلاثة إنما جرى عملها بعد الموت على من نسبت إليه لأنه تسبب في ذلك وحرص عليه، ونواه ، ثم إن فوائدها متجددة بعده دائمة، فصار كأنه باشرها بالفعل ، وكذلك حكم كل ما سنه الإنسان من الخير فتكرر بعده ، وإنما خص — ﷺ — هذه الثلاثة بالذكر في هذا الحديث؛ لأنها أصول الخير ، وأغلب ما يقصد أهل الفضل بقاء بعدهم " (١)

وقد جاء ترتيب الأعمال المذكورة على هذا النحو بادئا بالصدقة، مشيا بالعلم خاتما بذكر الولد الصالح " لأن المال زينة الدنيا، والنفوس متعلقة بجهنم، فإيثار الخروج عنه لله آية صدق فاعله، وثنى بالعلم لاشتراكه معها (الصدقة) في عموم منافعه وجموم مناقبه ، وختم بدعاء الولد تنبيها على أن شرف الأعمال المتقدمة لا ينكر ، ولأنها أرجح من الأعمال القاصرة " (٢) من أجل ذلك نرى حب المال مقدما على حب البنين في الذكر الحكيم من ذلك قوله :

— تعالى — (الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا . . .) (الكهف / ٤٦)

وقوله في الامتنان مقدما المال على البنين من ذلك قوله : — تعالى —

(وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ . . .) (الإسراء / ٦) وغيره كثير في الذكر الحكيم .

(١) المفهم للقرطبي ٤ / ٥٥٤ ، ٥٥٥ .

(٢) فيض القدير شرح الجامع الصغير للمناوي ١ / ٥٤٧ ط ، دار الفكر ، بيروت ١٤١٦هـ .

وقد ذكر العلماء لطيفة وراء تكرار أداة الاستثناء (إلا) في قوله : —
 ﴿﴾ — (إلا من صدقة جارية) فقالوا : " في التكرار هنا مزيد تقرير
 واعتناء بشأها " (١) والصدقة الجارية هي الدائمة المتصلة كالوقوف المرصدة،
 فيدوم ثوابها مدة دوامها .

وقد ذكر العلماء أوجه الانتفاع بالعلم ووضح من أقوالهم أنهم كانوا
 يلتفتون إلى وجوه النفع التي يتعلق بها الاستمرار فقد ذكروا " أن حمل العلم
 المذكور على التأليف أقوى لأنه أطول مدة، وأبقى على مر الزمان " (٢) وقد
 شرط الأبي لدخول التأليف في العلم المنتفع به اشتمالها على فوائد زائدة على
 ما في الكتب المتقدمة، فإن لم يشتمل المؤلف إلا على نقل ما في الكتب
 السابقة، فهو تحبير للقاعدة ، فلا يدخل في ذلك، وكذا التدريس، فإن لم
 يكن في الدرس زيادة تستفاد من الشيخ مزيدة على ما دونه الماضون لم
 يدخل " (٣)

وفي تقييد العلم هنا بهذا الوصف (ينتفع به) تخصيص له، وكأن العلم
 غير النافع ليس ممدوحا ، وفي هذا الوصف حث على أداء العلم وبذله، بكل
 سبيل ، وفي بناء الفعل للمفعول ، عدم تعويل على المنتفع أيا كان، كما أن
 فيه تعويلا على الفعل دون نظر إلى فاعله ، كما أن في مجيئ النعت جملة

(١) فيض القدير شرح الجامع الصغير للمناوي ١/ ٥٤٧ .

(٢) شرح سنن النسائي للسيوطي ٦/ ٢٥٤ ط، دار الفكر، بيروت ١٤١٩هـ ، وعون المعبود شرح سنن أبي داود ٨ / ٦٢ ط دار
 الكتب العلمية بيروت دون تاريخ ، وفيض القدير للمناوي ١ / ٥٤٧ .

(٣) شرح صحيح مسلم للأبي ٤ / ٣٤٥ ، ٣٤٦ .

مصدرة بفعل مضارع دلالة على التجدد والحدوث ، مما يؤذن بزيادة الثواب بكل تجدد للنفع .

وفي عد الولد من الأعمال في قوله : — ﷺ — (أو ولد صالح يدعو له) " تجوز لا يخفى " (١) لأن الولد ليس من الأعمال، ويبدو أن في ذلك تشبيها للولد بالعمل بجامع أن كليهما من أثره ، وقيد الولد بالصالح ، أي : المسلم ؛ لأن الأجر لا يحصل من غيره ، وقيد الدعاء بالولد مع أن دعاء غيره ينفعه تحريض للولد على الدعاء لأبيه " (٢) وفي إتباع الولد بنعتين : (صالح) و (يدعو له) حث على حسن التربية على مبادئ الدين وقيمه ، لأنه لا يدعو لوالده غالبا إلا من تربي على قيم الدين ، والإحسان للوالدين ، والبر بهما بعد وفاتهما ، كما يصنع في حياتهما ، كما أن في ذلك حثا على تعليم الشريعة وعلومها ، والقرآن ، والسنة ، فكأن هذا العمل الثالث يتناغم مع العمل السابق ، (العلم النافع) وكل الأعمال المذكورة في هذا الحديث هي من نور قوله : — تعالى — (إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ..) (يس / ١٢)

(١) شرح سنن النسائي للسندي ٢/ ٢٥٤ ، ط ، دار الفكر ، بيروت ١٤١٩هـ .

(٢) فيض القدير للمناوي ١ / ٥٤٧ ، وعون المعبود شرح سنن أبي داود ٨ / ٦٢ .

الفصل الثاني

بلاغته — ﷺ — في حثه على

طلب العلم

وردت أحاديث في حظه — ﷺ — على طلب العلم ببيان أن طلبه فريضة ، وأن المؤمن حقيق بالبحث عن الحكمة ، إذ هي له بمثابة الضالة ، التي لا يفتأ صاحبها يطلبها حتى يحصل عليها ، وأن المؤمن لا يشبع من العلم أبدا إلا بانتهاء أجله ودخوله الجنة ، وفي كل ذلك من الحظ على العلم مافيه ، وسأعرض لهذه الأحاديث بالتحليل والدراسة كشفا عن مرامي تراكيبه — ﷺ — والوسائل البيانية التي اصطنعها ، والألفاظ التي اصطفاهما تحقيقا لهذا الغرض .

عن أبي هريرة — رضي الله عنه — قال : قال رسول الله : — ﷺ — " الكَلِمَةُ الْحِكْمَةُ ضَالَّةُ الْمُؤْمِنِ فحيثُ وجَدَهَا فَهُوَ أَحَقُّ بِهَا " (١)

التصور الجملي للحديث

المقصود العام للحديث : الحث على طلب العلم ، وقد خرج الحديث الشريف في جملتين الأولى (الكلمة الحكمة ضالة المؤمن) والثانية (فحيث وجدها فهو أحق بها) وهي جملة شرطية ، وتقدير الكلام : إن كانت ضالته فهو أحق بها حيث وجدها ، والفاء في (فحيث) زائدة .

اصطفاءات الألفاظ

اصطفى — ﷺ — كلمة (ضالة) ولم يقل مثلا : مطلوبه ، لما في الكلمة الأولى من الإلحاح في الطلب لاسترداد ما كان مملوكا ، وهو لا يوجد في كلمة مطلوبه ، ففي الوسيط " الضالة : كل ما ضل ، أي : ضاع وفقد

(١) رواه الترمذي في سننه ، كتاب : العلم : باب : في فضل الفقه على العبادة ، ورواه ابن ماجة في سننه ، كتاب : الزهد ، باب : الحكمة . تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ، ط : دار الريان للتراث ، دون تاريخ .

من المحسوسات والمعقولات، أو من البهائم خاصة " (١) وفي التعبير بها إيماء إلى الخوف عليها من الضياع و التلف، ووجوب الاجتهاد في التحري، والاستقصاء صونا لها من التلف، وكل هذا لا يوجد في الطلب ، لأنه لا يعكس كل هذا، واصطفى — ﷺ — كلمة (أحق) على كلمة أولى ، أو أجدر، تناسبها مع المسند في أول الحديث (ضالة) حيث إن الإخبار عن الحكمة بالضالة يقتضي إثبات أحقيتها لمن ضلت عنه لا أنه أولى بها ، أو أجدر .

أحوال التراكيب

اصطفى — ﷺ — التشبيه البليغ وسيلة بيانية للكشف عن الحث على طلب العلم فقد شبه الرسول — ﷺ — الكلمة الحكمة بالضالة بجامع وجوب الطلب في كل ، وحين نتدبر عناصر هذا التشبيه نجد أن الطرف الأول (الكلمة الحكمة) قد جاء بما يسمع (الكلمة) وهو مما يعلي شأن السماع في الحكمة ، لأن من الحكمة ما يستنتج ، ولكنه عبر بالأصل في الحكمة ، وقد وقع بعد المسند إليه قوله (الحكمة) ويصلح أن تعرب بدلا وفي هذا الوجه مبالغة إذ يجعل الحكمة الكلمة نفسها ، فالمبالغة هنا كالمبالغة في قولنا : رجل عدل ، وقد ذكر العلماء روايات أخر للحديث كلها تتعانق في سبيل إظهار المبالغة منها : الكلمة الحكيمة ، وعلى هذه الرواية يكون إسناد الضمير العائد إلى الكلمة في الحكيمة من قبيل المجاز العقلي ؛ لأن

(١) المعجم الوسيط مادة (ض ل ل)

الحكيم قائلها (١) أي أنه أسند ما يعمل عمل الفعل إلى غير ما هوله،
والعلاقة الفاعلية .

وقد فسر العلماء الحكمة تفسيرات عدة منها : ألها الفقه في الدين،
وقيل : التي أحكمت مبادئها بالنقل والعقل دالة على معنى فيه دقة ، مصنونة
معانيها عن الاختلال ، والخطأ والفساد ، وقيل : الحكمة : كل كلمة
وعظتك ، أو زجرتك ، أو دعتك إلى مكرمة ، أو نهتت عن قبيحة " (٢)
والأولى هو التفسير الأخير لأنه يشمل كل ما يقال مما يرشد النفس إلى الحق ،
ويسمو بها .

كما أن في التعبير بالكلمة أيضا إيماء إلى ما يجب أن يكون عليه الحكيم
من ضبط الكلام ، وبنائه البناء الحكيم ، فليس المقصود بالكلمة الكلمة
المفردة ، وإنما المقصود بها جملة الكلام الدال على الخير والرشاد ، فلو قال
الحكمة دون أن يقول الكلمة لما كانت هذه الإشارة ، ولو قال : الكلمة
ضالة المؤمن لفسد الكلام لأنه يدخل في الخير ما ليس منه ، فبهذا تكون
الحكمة مبنية على حاستين أساسيتين هما اللسان والسمع ، فالحكمة تحتاج
إلى قائل حكيم ، ومستمع لبيب ، كما أن في مجيء المسند إليه على هذه الهئية
إشارة إلى منع كتمان الحكمة ، وضرورة التفوه بها لأن الكلمة تكون
باللسان .

(١) ينظر فيض القدير للمناوي ٧٩/٥، تحفة الأحوذى شرح صحيح الترمذى للمباركفوري ٤٥٨/٧، ط، دار الفكر دون تاريخ .

(٢) فيض القدير للمناوي ٧٩/٥، تحفة الأحوذى ٤٥٨/٧ .

ووقع الطرف الثاني (ضالة المؤمن) وهو مسند ، مشبه به وحذفت الأداة والوجه تنبيهها إلى قوة المشابهة ، وإشارة إلى أصل الملكية ، فالأصل أن تكون الكلمة الحكمة ملكا للمؤمن ، ووجودها عند غيره أدعى له لاستردادها ، وإعادة امتلاكها ، لأنها عن المؤمن ندت وشردت، وهذا التشبيه يحث المؤمن على البحث عن الكلمة الحكمة من كل سبيل، وأخذها من كل مكان ، وفي التشبيه إشارة إلى أن حرص المؤمن على التقاط الحكمة ينبغي أن يكون كحرصه على العثور على ضالته ، وكما أنه لا يستقر له حال إذا شردت عنه ضالته حتى يجدها ، فكذلك ينبغي عليه أن لا يستقر له حال ما عرف حكمة ، ولم يسع إليها ، كل هذه الإيحاءات يرشد إليها التشبيه، وفي الإضافة (ضالة المؤمن) ما فيها من التخصيص؛ لذا لو قال: ضالة دون إضافة لما وجدت كل هذه المعاني .

وقد وقعت جملة الشرط بعد ذلك تأكيدا للمعنى السابق (فحيث وجدها فهو أحق بها) وتقدير الكلام : إن كانت ضالته فهو أحق بها حيث وجدها، وقد حذف فعل الشرط، إشارة إلى أنه أكد من أن ينص عليه، ونص على الجواب اهتماما، وعناية به، وجاءت جملة جواب الشرط اسمية؛ تنبيهها إلى ثبوت الأحقية ودوامها، وقدم الظرف للاهتمام بالبحث عن مكان وجودها، وزيدت الفاء لتوكيد هذا الاهتمام ؛ إشارة إلى تلقفها، فور وجودها والتقاطها فور الحصول عليها .

وقد تأول العلماء وجه الأحقية عدة تأويلات هي في جملتها تتلاقى ولا تتنافر منها، أحق بها: أي : بالعمل بها، ومنها : أنه أحق بها من قائلها؛ لأنه ربما نطق بها من ليس لها بأهل ، كما أن صاحب الضالة لا ينظر إلى حساسة من وجد ضالته عنده ، ومنها : أن أحق بها ، أي لا ينازع فيها من أوتيتها ، كما لا ينازع صاحب الضالة في ضالته إذا وجدها ، ومنها : أن أحق بها ، أي : لا يجوز تركها كما أن الضالة لا يجوز تركها إذا وجدت مضية ، كذلك السامع إذا سمع كلاما لا يفهم معناه ، و لا يبلغ كنهه، فعليه أن لا يضيعه ، وأن يحمله إلى من هو أفقه منه ، فلعلة يفهم ، أو يستنبط منه ما لا يفهمه ، و لا يستنبطه هو ، ومنها : أن أحق بها ، أي : كما لا يحل منع صاحب الضالة عنها فإنه أحق بها ، كذلك العالم إذا سئل عن معنى لا يحل له كتمانها ، إذا رأى في السائل استعدادا لفهمه (١) وكل هذه الوجوه من التأويل يدل عليها التركيب ، ولا يمنع أيا منها ، فتعدد التأويل دلالة على ثراء التركيب، لذا أرى عدم الاقتصار على تأويل واحد من هذه التأويلات، والأبر بالتركيب الأخذ بها كلها ، وقد تناغى آخر الحديث مع أوله ، فإضافة الضالة إلى المؤمن في صدر الحديث أكدته آخره بإثبات أنه أحق بها ، والحديث بمفرداته وتراكيبه يتظاهر على الحث على طلب العلم .

(١) ينظر تحفة الأحوذى ٧ / ٤٥٨ ، ٤٥٩ .

عن أبي سعيد الخُدْرِيِّ — رضي الله عنه — عن رسول الله ﷺ —
 — قال : لَنْ يَشْبَعَ الْمُؤْمِنُ مِنْ خَيْرٍ يَسْمَعُهُ ، حَتَّى يَكُونَ مُنْتَهَاهُ الْجَنَّةُ " (١)
 التصور الجملي للحديث

خرج الحديث الشريف في جملة واحدة ، ومقصود الحديث : الحُضْ
 والحث على العلم .

اصطفاءات الألفاظ

اصطفى — ﷺ — لفظة (خير) ولم يقل : علم لما في الأول من
 مزيد حض على طلب العلم ، والنفس مجبولة على حب الخير ، والتوقان
 للحصول عليه أيا كان ، قال : — تعالى — (وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ)
 (العاديات / ٨) وعبر — (لن) ولم يعبر — (لا) مع أنهما أختان في
 نفي المستقبل زيادة في التأكيد على أن طلب العلم من طبع المؤمن
 وجبلته، وذلك أن في " لن توكيدا وتشديدا " (٢)

وعبر — ﷺ — — (يشبع) ولم يقل : يمل ، أو يسأم تحاشيا من
 تسليط ما يكره من الأفعال على العلم، ولونفيا ، كما أن التعبير بأي منهما
 لا يناسب التعبير عن العلم بالخير .

أحوال التركيب

افتتاح الحديث من أول الأمر بحرف نفي يدل على التوكيد ، تهيئة
 لخطر ما يلقي بعده ، وقد جاء المسند فعلا مضارعا دلالة على التجدد و

(١) رواه الترمذي في سننه ، كتاب : العلم ، باب : في فضل الفقه على العبادة .

(٢) المفصل في صنعة الإعراب للزمخشري ٣٩٣ تحقيق د/إميل يعقوب ، ط، دار الكتب العلمية ، بيروت ١٤٢٠هـ .

الحدوث ، وقد وقع استعارة حيث شبه عدم انقطاع الحاجة الدائمة للعلم ، بعدم الشبع من الطعام أو الشراب المحبب ، وفيه تصوير للمعنوي في صورة الحسي ، وفي ذلك من توكيد المعنى وتقويته مافيه ، وقد جاء المسند إليه بوصف جيد يحث المستمع على الاتصاف به ، وقد عرف باللام ، واللام هنا يصح أن تكون للجنس ، والجنسية هنا يتولد منها معنى لطيف ، وهو الكمال ، فهي تشير إلى أن المؤمن الكامل الإيمان ، الشأن فيه ألا يشبع من طلب العلم .

وقد قيد المسند بهذا القيد (من خير) وجاء المجرور منكرا للتكثير، وفي كل ذلك حض على طلب العلم ، وترغيب فيه ، وقد أتبع هذا القيد بجملة وقعت صفة له (يسمعه) إعلاء لشأن السماع في طلب العلم ، وتنبيهها إلى البركة التي تكون في العلم المسموع ، كما أن في ذلك إيماء إلى ما تكون عليه مجالس العلم من الخير والثواب الجزيل ، لذا لم يقل : يكتبه ، أو يقرؤه ، أو يحفظه ، أو يبصره ، وهذا لا يعني التحقير من الوسائل الأخرى في طلب العلم ، وإنما يشير إلى أن هذا السبيل هو أعلاها ، لذا درج السلف على عقد مجالس العلم ، وإسناد سماعه ، وقد تميزت أمتنا في هذا السبيل عن غيرها ، وذلك أن طريق علمه — ﷺ — كانت السماع من أمين الوحي .

ثم عطف على ما سبق بـ (حتى) جملة أخرى في غاية الإيجاز ، وقد جاء العطف بحق تنبيهها على شرف الغاية ، وأنها لاتنال إلا بمكابدة ومشقة ، والجملة أغنت عن كثير من الكلام ، فأصل الكلام حتى ينتهي أجله ، ثم

يبعث ، ثم يلقي ربه ، ثم يوقف على الميزان ، ثم يثيبه الله على عمله بإدخاله الجنة ، ولكنه استغنى عن ذكر هذه المراحل، وسارع بذكر ما فيه الجزاء والثواب ، وذلك هو الأبر بمقصده — ﷺ — من التحريض على طلب العلم ، والحديث تتآزر مفرداته ، وتراكيبه على الحض على طلب العلم .

عن أنس بن مالك ، قال : — قال رسول الله — ﷺ — طلبُ العلمِ فريضةٌ على كلِّ مسلمٍ ، وَوَاضِعُ الْعِلْمِ عِنْدَ غَيْرِ أَهْلِهِ كَمُقَلِّدِ الْخَنَازِيرِ الْجَوْهَرِ، وَاللُّؤْلُؤِ وَالذَّهَبِ " (١)

التصور الجملي للحديث

مقصود الحديث الحض على طلب العلم ، وقد خرج الحديث الشريف في جملتين : الأولى (طلب العلم فريضة على كل مسلم) الثانية : (وواضع العلم عند غير أهله كمقلد الخنازير واللؤلؤ والذهب) .

اصطفااءات الألفاظ

اصطفى — ﷺ — (فريضة) على ما يقاربها في أداء المعنى، مثل : واجب ، لأن الفريضة أولى وأكد في إثبات مقصوده من أي كلمة غيرها، وذلك أن الفرض : " هو ما ثبت بدليل قطعي متنه وسنده ، والواجب ما ثبت بدليل فيه شبهة متنا كآلية المؤولة ، أو سنداً كخير الواحد " (٢) واصطفى — ﷺ — لفظة (الخنازير) على سواها من أنواع الحيوانات ؛ لأنها تناسب مقصوده من تقييح وتبشيع وضع العلم عند غير أهله ، إذ هو أحسن

(١) رواه ابن ماجه في سننه ، المقدمة ، : في فضل العلماء والحث على طلب العلم .

(٢) الكليات لأبي البقاء الكفوي ٦٨٩ .

أنواع الحيوانات ، لخلوه من المنفعة ، وثبوت ضرره في الدنيا والآخرة ، ولم يقل مثلاً : الكلب ؛ لأنه يتوهم فيه المنفعة إذ يستخدم في الحراسة ، وحديثاً في مساعدة الشرطي على اكتشاف المجرم .

أحوال التراكيب

الجملة الأولى : (طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة) وقد جاء المسند إليه معرفاً بالإضافة ، لما في الإضافة من التشريف ، ولم يقل : العلم فريضة، وإنما قال : طلب العلم ؛ زيادة حث على العلم، ودفع للاجتهاد في تحصيله، حيث إن الطلب بإمكان كل واحد على قدره، وفرق بين أن يقال : الصلاة فريضة، وأن يقال : السعي للصلاة فريضة ، ففي التعبير الثاني تأكيد على فرضية الصلاة أعلى من التعبير الأول، وكذلك ما جاء في شأن العلم حيث أكد التعبير الموجود في الحديث على فرضية العلم ، لأنه إذا ما كان الطلب فريضة ، فالمطلوب أعلى في الحكم من الطلب ، ثم إن في ذلك إشارة إلى التلبس بالفريضة بمجرد التلبس بالطلب، وهو مما يلزم طالب العلم بإخلاص النية ؛ حرصاً على إقامة الفرض ، بغض النظر عن حصول المطلوب أو عدم حصوله ، وفي كل ذلك حث على طلب العلم ما بعده حث، وقد جاء المسند إليه (فريضة) بهذا اللفظ ، وفيه من التوكيد على طلب العلم ما فيه، وجاء هذا القيد (على كل مسلم) توكيداً لطلب العلم ، لذا عبر باللفظ الأعم (مسلم) فلم يقل : على كل مؤمن ، لأن الثاني أخص من الأول على مذهب من فرق بينهما ، وقد جاء التوكيد بالقيد من جهتين :

التعبير بلفظ يدل على الشمول والعموم (كل) وتعبير يشمل كل من نطق بالشهادتين (مسلم).

هذا، وقد اختلفوا في العلم المفروض على نحو من عشرين قولاً، يقول أبو حامد الغزالي في الإحياء : " اختلف الناس في العلم الذي هو فرض عين على كل مسلم ، ففرقوا فيه أكثر من عشرين فرقة ، ولا نطيل بنقل التفصيل ، ولكن حاصله أن كل فريق نزل الوجوب على العلم الذي هو بصدده ، فقال المتكلمون : هو علم الكلام . . . وقال الفقهاء : هو علم الفقه . . . وقال المفسرون والمحدثون : هو علم الكتاب والسنة . . . وقال المتصوفة : المراد به هذا العلم ، فقال بعضهم : هو علم العبد بحاله ومقامه من الله — عز وجل — وقال بعضهم : هو العلم بالإخلاص وآفات النفوس ، وتمييز لمة الملك من لمة الشيطان ، وقال بعضهم : هو علم الباطن ، وذلك يجب على أقوام مخصوصين ، هم أهل ذلك ، وصرفوا اللفظ عن عمومته ، وقال أبو طالب المكي : هو العلم بما يتضمنه الحديث الذي فيه مباني الإسلام . . . " (١) أما الإمام الغزالي — رحمه الله — فيرى أنه — ﷺ — " إنما أراد بالعلم المعروف بالألف واللام في قوله : — ﷺ — (طلب العلم فريضة على كل مسلم) علم العلم الذي هو مشهور الوجوب على المسلمين لا غير " (٢) وقد بين أن هذا العلم يكون تدريجياً ، وأن كل عبد في مجاري أحواله في يومه وليلته

(١) إحياء علوم الدين ١٨ ، وينظر للمزيد فيض القدير ٤/٣٤١:٣٤٣ وحاشية السندي على ابن ماجة ١/١٤٦، ١٤٧ تحقيق الشيخ خليل مأمون ، ط دار المعرفة بيروت ١٤١٨ هـ .

(٢) إحياء علوم الدين للغزالي ٢٠ .

لا يخلو من وقائع في عباداته ومعاملاته عن تجدد لوازم عليه، فيلزمه السؤال عن كل ما يقع له من النوادر، ويلزمه المبادرة إلى تعلم ما يتوقع وقوعه على القرب غالبا " (١) والذي أراه أن كل ما يتوصل به من علم إلى الفريضة فهو فريضة، "فقد سئل الفضيل بن عياض عن قوله ﷺ — طلب العلم فريضة على كل مسلم، فقال: كل عمل كان عليك فرضا، فطلب علمه عليك فرض، وما لم يكن العمل به عليك فرضا، فليس طلب علمه عليك بواجب" (٢) وعلى كل هذه الأحوال فاللام في (العلم) هي لام العهد .

وقد جاءت الجملة الثانية بواو الاستئناف توكيدا، وتنبهها على تأسيس معنى جديد يتعلق بأداء العلم إلى من هو أحق به لشرفه، ومزيد فضله، قال السندي: — كاشفا عن علاقة هذه الجملة بما قبلها — " وفي تعقب هذا التمثيل قوله: طلب العلم إعلام أن ينبغي لكل أحد طلب ما يليق باستعداده، ويوافق منزلته بعد حصول ما هو واجب من الفرائض العامة وعلى العالم أن يخص كل طالب بما هو مستعد له " (٣)

وقد بنيت هذه الجملة على التشبيه التمثيلي الذي تعاونت عناصره على تقبيح من يضع العلم عند غير أهله، ووجه الشبه وضع الشيء في غير موضعه، وقد جاء الطرف الأول في التشبيه على هذا النحو (وواضع العلم عند غير أهله) فخيّل لنا أن العلم ثقيل لذا قال: وواضع، ولم يقل

(١) إحياء علوم الدين ١٩، ٢٠ .

(٢) معالم السنن شرح سنن أبي داود للخطاي ١٧١/٤ تحقيق عبد السلام عبد الشافي، ط دار الكتب العلمية بيروت ١٤١٦ هـ .

(٣) شرح سنن ابن ماجه للسندي ١٤٧/١ .

:ومؤدي ، أو مدرس ، أو معلم ، أو ناثر العلم أو ما يمكن أن يقترح من ألفاظ أخرى ، وذلك أن في كلمة (واضع) ما يوحي بثقل الحمل ، وأمانة التحمل ، وفيه تبشيع لمن يتعب هذا التعب في حمل العلم ، ثم بعد كل هذا التعب يؤديه إلى من لا يستحق ، فكأنه أضاع جهده ، وأهلك نفسه في حمله دون إفادة ، والطرف الأول يكشف عن هيئة أداء العلم لمن لا يستحق، وقد كشف من أول الأمر أن الصورة الواردة قائمة على تقييح هذا الصنيع حيث جاء هذا القيد (عند غير أهله) فواضع الشيء في غير موضعه مذموم ، وجاء الطرف الثاني ليبين هيئة هذا الدم : (كمقلد الخنازير . . .) وعبر باسم الفاعل (مقلد) مقابل التعبير باسم الفاعل (واضع) في الطرف الأول لإظهار تمام التماثل في القبح والدم، وقال هنا : (مقلد) ولم يقل : كواضع اللؤلؤ والجوهر في رقاب الخنازير، لما في كلمة (مقلد) من الشرف والفخامة ، حيث تنبه من أول الأمر أن ما يذكر من النفاسة بمكان ، لأن القلادة غلب استعمالها في النفيس من الجواهر، وغلب استعمالها في المنح والعطايا، والمكافآت، وكل ذلك مما يضاعف من الدم، لأن كل إعلاء للأشياء النفيسة يضاعف من دم صانع ذلك حين يذكر أن منحه كان لمن كان مثلاً في الخسة والقبح (الخنازير) ومن تمام التقابل بين عناصر التشبيه أن يعبر بلفظ واضح في الطرف الأول الذي يكشف عن شرف العلم ، وما ينال في تحمله، ويذكر في الطرف الثاني أنفس الجواهر ، التي تراق الدماء في سبيل الحصول عليها، والطرف الثاني لا يرتاب مرتاب في دم من يقلد الجواهر على نفاستها

الخنازير على حسرتها، وفي تفصيل الجواهر إطناب بذكر الخاص بعد العام،
يراد منه المبالغة في ذم من يصنع ذلك، وكل مبالغة في ذم من يصنع ذلك،
تضاعف من ذم من يضع العلم عند غير أهله، وكل ذلك يعود في النهاية
على العلم بالتشريف، وتعظيم المكانة، وتعظيم مكانة طالب العلم، وفي كل
ذلك من الحض على طلب العلم مافيه .

الفصل الثالث

بلاغته — ﷺ — في حديثه عن

فضل أهل العلم

تحدث النبي ﷺ — فيما ورد عنه عن منزلة أهل العلم ؛ تأسيا بالقرآن الكريم، فالسنة العطرة وحي من الوحي ، وإذا كان الله — عز وعلا — قد رفع أهل العلم درجات ، وقرن بين العلم و الإيمان ، فالرسول ﷺ — قد بين أن أهل العلم ينبغي أن يقتدى بهم ، وإذا كان الحسد جائزا في أمور ، فالحكمة منها ، كما بين — ﷺ — ما يحيط بأهل العلم من الجلال والرحمة والملائكة ، واستغفار الحيتان، وأن سالك طريق العلم إنما يسلك نفسه طريقا إلى الجنة ، وأنه — ﷺ — قد بعث معلما ، فالأنبياء هم أئمة العلماء ، وهم هداة أهل العلم، وأن العالم بمنزلة المجاهد في سبيل الله ، وكل ذلك مما له أبلغ الأثر في الترغيب في العلم ، في بيان ممتع، وبلاغة أكثرها مما تحسه النفس ، ولا يحيط به الوصف ، كما بين إمام البلاغيين ، الإمام عبد القاهر — رحمه الله

عن عبد الله بن مسعود — رضي الله عنه — قال : قال النبي : —
 ﷺ — ((لا حَسَدَ إلا في اثنتين رجل آتاهُ اللهُ مالا ، فسلَّطَ على هَلَكَةٍ في
 الحقِّ، ورجُلٍ آتاهُ اللهُ الحكمةَ ، فهو يقضي بها ، ويُعلِّمُها)) (١)
 التصور الجملي للحديث

مقصود الحديث : الترغيب في العلم ، وإنفاق المال ، والحديث الشريف
 مركب من جملة واحدة كبرى حوت في داخلها جملا أخرى ، فالجملة الأم
 (لا حسد إلا في اثنتين) وما جاء عقبها تابع لها مبني عليها ، أو تابع للتابع ،
 فرجل — على كل الأوجه (الرفع ، النصب ، الجر) تابع ، و (آتاه الله مالا)
 صفة لرجل ، وجملة (فسلط على هلكته في الحق) معطوفة على ما
 قبلها ، وكذلك يقال في (ورجل آتاه . . .) إلى آخر الحديث .

اصطفاءات الألفاظ

اصطفى — ﷺ — آتاه على أعطاه لأن ((الإيتاء أقوى من الإعطاء إذ لا
 مطاوع له ، يقال : آتاني فأخذته ، وفي الإعطاء يقال : أعطاني فعطوت ،
 وماله مطاوع أضعف في إثبات مفعوله مما لا مطاوع له ، ولأن الإيتاء في أكثر
 مواضع القرآن فيما له ثبات وقرار ، كالحكمة والسبع المثاني ، والمملك الذي لا
 يؤتى إلا لذي قوة ، والإعطاء فيما ينتقل منه بعد قضاء الحاجة منه ، كإعطاء

(١) رواه البخاري في صحيحه ، و اللفظ له في كتاب العلم باب الاغتياط في العلم و الحكمة ، وكتاب الزكاة باب إنفاق المال في حقه
 ، و كتاب الاعتصام بالكتاب و السنة باب أجر من قضى بالحكمة ، وكتاب الأحكام باب ما جاء في اجتihad القضاة بما أنزل الله ،
 و رواه مسلم في صحيحه : كتاب الصلاة ، باب فضل من يقوم بالقرآن و يعلمه و فضل من تعلم حكمة من فقه أو غيره ، و رواه ابن
 ماجه في سننه كتاب الزهد ، باب الحسد و رواه الترمذي في سننه كتاب البر والصلة ، باب : ما جاء في الحسد .

المال وكل شيء خلقه لتكرر حدوث ذلك باعتبار الموجودات، وإعطاء الكوثر للانتقال منه إلى ما هو أعظم، وكذا: "يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى" (الضحى / ٥) للتكرر إلى أن يرضى كل الرضا ((^١)

واصطفأؤه —  — للفظه (سلط) فيه إحياء بقهر النفس المجبولة على الشح والبخل، وحب المال، إذ السلاطة هي التمكن من القهر، واصطفأؤه —  — للفظه (هلكته) على لفظة أخرى تقوم مقامها كإخراجه، أو إنفاقه، لما في لفظة (هلكته) من الدلالة على أنه لا يبقى من المال شيئا .

(^١) الكليات (معجم للمصطلحات و الفروق اللغوية لأبي البقاء الكفوي ٢١٢ .

أحوال التراكيب

نلاحظ أنه — ﷺ — بنى الحديث بأسلوب القصر، وبأقوى أدواته، وأصرحها ، (النفي والاستثناء) وجاء المسند إليه منكرا (حسد) للتعظيم؛ لذا قال الإمام العيني : — رحمه الله — ((الحسد في الخيرات ممدوح؛ ولهذا نكر الحاسد في قوله : — تعالى (وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ) (الفلق / ٥) لأنه ليس كل حاسد يضر .

قال أبو تمام : — وما حاسد في المكرمات بحاسد وكذلك نكر العاسق ؛ ((لأنه ليس كل غاسق يكون فيه الشر، وإنما يكون في بعض دون بعض بخلاف النفاثات، فإنه عرف لأن كل نفاثة شريرة))^(١)

وجاء المسند محذوفا جريا على نسق العربية عند البصريين في أن الجار والمجرور ليسا هما الخبر ، وإنما الخبر محذوف يتعلق به الجار والمجرور ، ولا بد أن يكون مشتقا على العكس من الكوفيين الذين يعدون الجار والمجرور خبرا وربما يوحى هذا الحذف بأن الحسد ممتنع تماما ، وذلك على أن الاستثناء منقطع كما سيأتي بيانه ، وجاء قوله : (في اثنتين) بحذف الموصوف، وإقامة الصفة مقامه ، أي : حصلتين اثنتين ، على هذه الرواية ، أو شيئين

(١) عمدة القاري ٢ / ٥٨ .

اثنين على رواية (اثنين) ومصصح الحذف العلم بالمحذوف ، ونكته توفير
العناية على العدد ، لا على المعداد ؛ تأكيدا للحصر، ولعل هذا ما أشار إليه
الإمام العيني بقوله : ((لا يقال : قد يكون الحسد في غيرهما، فكيف يصح
الحصر ؟ لأننا نقول : المراد : لا حسد جائز في شئ من الأشياء إلا في اثنتين
أو المعنى : لا رخصة في الحسد في شئ إلا في اثنتين)) (١)

وفي قوله : — ﷺ — (لا حسد) مجاز مرسل "حيث أطلق الحسد،
وأراد الغبطة من قبيل إطلاق اسم المسبب على المسبب، وقال الخطابي: معنى
الحسد ههنا شدة الحرص والرغبة كنى بالحسد عنهما، لأنهما سببه والداعي
إليه؛ ولذا سماه البخاري اغتباطا، وقد جاء في بعض طرق الحديث ما يبين
ذلك، فقال فيه : ليتني أوتيت مثل ما أوتي فلان، فعملت مثل ما يعمل،
ذكره البخاري في فضائل القرآن، في باب اغتباط صاحب القرآن من حديث
أبي هريرة — رضي الله عنه — فلم يتمن السلب ، وإنما تمنى أن يكون مثله، وقد ثمنى
ذلك الصالحون والأخيار، ويجوز حمل الحسد في الحديث على حقيقته على
أن الاستثناء منقطع ، والتقدير : نفي الحسد مطلقا لكن هاتان الخصلتان
محمودتان ، ولا حسد فيهما ، فلا حسد أصلا)) (٢)

(١) عمدة القاري ٢ / ٥٧ .

(٢) عمدة القاري ٢ / ٥٧ ، فتح الباري ١ / ١٣٦ .

قوله : — ﷺ — (رجل) يجوز فيه الأوجه الثلاثة من الإعراب،
النصب : على تقدير : أعني ، وهي رواية ابن ماجة، الرفع : على تقدير :
إحدى الاثنتين خصلة رجل ، فلما حذف المضاف اكتسب المضاف إليه
إعرابه، الجر : على أنه بدل من اثنين ، وأما على رواية اثنتين فهو بدل أيضا
على تقدير حذف المضاف، أي : خصلة رجل ، لأن الاثنتين، معناه :
خصلتين)) (١) ورواية النصب واضحة ظاهرة ، أما روايتي الرفع والجر
ففيهما إشارة من طرف خفي إلى مغزى لطيف، وهو أن الرجل ذاب في
الخصلة ، وذابت الخصلة فيه حتى صارا كأنهما شئ واحد، ومن ثم جاء
حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه ، سواء أكان المضاف مرفوعا أم
مجرورا .

لفظه — ﷺ — (آتاه الله) جاء التركيب مبنيا للمعلوم ؛ تصريحاً بالمالك
الحقيقي للمال ، وهو الله — عز وجل — والقادر على الإعطاء على المنع
أقدر، وقد جاء المسند إليه أعرف المعارف أهيب أسماء الله — عز وجل —
وفيه ما فيه من الترهيب والحث على فعل الخير ، ففي هذا التركيب لمحة إلى
اتقاء الله في المال (فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى فَسَنِيْسِرُهُ
لِلْيُسْرَى وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى فَسَنِيْسِرُهُ لِلْعُسْرَى وَمَا
يُعْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى) (الليل / ٥ : ١١) وقوله : — ﷺ — (مالا)

(١) عمدة القاري ٢ / ٥٧ ، و إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري لشهاب الدين القسطلاني ١ / ١٧٢ .

جاء المفعول منكرا حتى يشمل القليل والكثير، ومن ثم يدخل صاحب المال تحت هذا الحكم بأي قدر ينفقه في الحق .

قوله — ﷺ — (فسلط) جاء بالفاء التي تكشف عن مسارعة المنفق بالإتفاق دون تراخ ، و كأنه لا فاصل في الزمن بين إيتائه المال، وبذله إياه في وجوه الخير ، كما أن فيه ترهيبا لمن يتقاعس عن البذل ، أو يتراخي فيه، ناهيك عن الممسك ؛ لأنه إذا كان المتراخي مذموما ، فكيف يكون حال المانع ؟ ! وقد نقل د/ محمد أبو موسى كلاما طيبا في دلالة الفاء عن العلامة الشيخ محمود شاكر — رحمه الله — حيث قال : " فالفاء تحرك الزمن في الفعل الماضي ، وتمده وتمطله حتى تبلغ به أول الزمن في الفعل الذي يليه . . . وأنت واحد فرقا لا يوصف في حركة الزمن بين قولك : نام ، وأفاق، ولبس ثيابه ، وخرج، ولقي صديقه، وانطلقا ، وقولك : نام ، فأفاق، فلبس ثيابه، فخرج ، فلقي صديقه ، فانطلقا " (١) وقد جاء التركيب مبنيا للمفعول؛ تحاشيا من إسناد التسليط إلى جانب المولى — عز وجل — ولا يقال: قد أسند اللفظ إلى المولى في القرآن الكريم في قوله : — تعالى (وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ) (النساء / ٩٠) وقوله (وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ) (الحشر / ٦) لأن هذا في جانب العقوبة، والمناسب لها إظهار القهر والغلبة، وبيان قدر انتقام الله من أعدائه .

(١) مجلة المجلة عدد نوفمبر ١٩٦٩ نقلا عن دلالات التراكيب د / محمد أبو موسى ٣٤٤ .

قوله — ﴿٥٤﴾ — (في الحق) احتراس جميل قال العيني : ((ففي قوله — (فسلط على هلكته) مبالغتان ، إحداهما : التسليط ، فإنه يدل على الغلبة وقهر النفس المجبولة على الشح البالغ ، والأخرى : لفظ (على هلكته) فإنه يدل على أنه لا يبقى من المال شيئا ، ولما أوهم اللفظان التبذير ، وهو صرف المال فيما لا ينبغي ، ذكر قوله (في الحق) دفعا لذلك الوهم)) (١) فهو كقوله — تعالى — (فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ) (المائدة / ٥٤)

قوله : — ﴿٥٨﴾ — (ورجل آتاه الله الحكمة) جاءت الحكمة فيه معرفة ((لأن المراد بها معرفة الأشياء التي جاء بها الشرع يعني الشريعة ، فأراد التعريف بلام العهد ، أو المراد منه القرآن ، فاللام للعهد أيضا)) (٢) وفي التعريف بلام العهد بيان لفضل علوم الدين وأعلامها العلم بالقرآن الكريم .

ثم جاء بحرف العطف (الفاء) في قوله (فهو) الذي يدل على عدم التراخي الزمني ، جريا على النسق السابق في البناء عن المنفق ، كما ألمح في التعبير بالفاء إشارة إلى رسم من أوتي الحكمة بالتقصير إذا تراخى في بذلها ، والقيام بحققها، وفيه من الترهيب ما فيه ، وعطف الجملة الاسمية (فهو يقضي)

(١) عمدة القاري ٢ / ٥٨ .

(٢) عمدة القاري ٢ / ٥٨ ، وفتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر العسقلاني ١ / ١٣٦ .

على الجملة الفعلية (آتاه . . .) إشارة إلى ضرورة استمراره في بذل الحكمة وتمثلها أداء وسلوكا ، وبذلا وأن يكون هذا التمثل ، وذلك البذل صفة ثابتة له ، وقوله (فهو يقضي بها) جاء المسند إليه مقدما على خبره الفعلي لإفادة التقوية في الحكم ، كما جاء المسند مصدرا بالفعل المضارع دلالة على التجدد والحدوث ، وقوله : (ويعلمها) بيان للغاية الثانية من الحكمة ، وهي بذلها وأداؤها للناس ، وكما أبصرنا ألفاظ الحديث وتراكيبه تتناغم في أداء غرض واحد ، ومقصد محدد هو بيان فضل العلم الذي هو أصل الفضائل الداخلية، وفضل إنفاق المال الذي هو أصل الفضائل الخارجية كما يقول العيني — رحمه الله (١) .

(١) ينظر : عمدة القاري ٥٨/٢ .

((عن معاوية — رضي الله عنه — قال : — سمعت رسول الله ﷺ —
 — يقول:— مَنْ يُرِدِ اللهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ، وَإِنَّمَا أَنَا قَاسِمٌ وَاللَّهُ
 يَعْطِي، وَلَنْ تَزَالَ هَذِهِ الْأُمَّةُ قَائِمَةً عَلَى أَمْرِ اللَّهِ لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَالَفَهُمْ حَتَّى
 يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ)) (١)

التصور الجملي للحديث

مقصود الحديث العام بيان فضل العلماء على سائر الناس ، وبيان فضل
 الفقه على سائر العلوم ، والحديث مكون من عدة جمل (من يرد الله به خيرا
 يفقهه في الدين) (وإنما أنا قاسم) (والله يعطي) (ولن تزال هذه الأمة
 قائمة على أمر الله لا يضرهم من خالفهم حتى يأتي أمر الله) لكل جملة
 دلالاتها وإيحائها كما يأتي بيانه بحول الله .

اصطفاءات الألفاظ

اصطفى — ﷺ — (لن تزال) ولم يقل مثلاً: ستبقى؛ ذاك أن معنى (زال)
 تحول وانتقل، وقد دخلت لن النافية، وهي تفيد تأكيد (نفي التحول والانتقال)

(١) رواه البخاري في صحيحه ، و اللفظ له كتاب العلم باب من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين ، و كتاب فرض الخمس باب قول الله تعالى (فَأَن لَّهُ هِمَّةٌ) ، و المناقب باب حديثي محمد بن المثنى . . . و الاعتصام بالكتاب و السنة باب لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين ، و رواه مسلم في صحيحه كتاب الزكاة باب النهي عن المسألة و الإمارة ، باب قوله — صلى الله عليه وسلم لا تزال طائفة من أمتي — و رواه ابن ماجه في المقدمة باب اتباع سنة رسول الله — صلى الله عليه وسلم و باب : فضل العلماء والحث على طلب العلم و أخرجه الترمذي في كتاب العلم باب إذا أراد الله بعبد خيرا فقهه في الدين

عن رعاية دين الله والقيام بأمره ،ومن هنا عبر — ﷺ — بـ (لن ترال) ولم يعبر بـ (ستبقى) لأن الأخير يفيد الدلالة على البقاء فقط أما الأول فيفيد البقاء وزيادة ،وهي الاستمرار .

كما عبر — ﷺ — بـ (لن) دون :لا — مع أنهما أختان في نفي المستقبل — وذاك أن في (لن) تأكيداً و تشديداً ، تقول لصاحبك : (لا أقيم غدا عندك) فإن أنكر عليك تقول : لن أقيم غدا "قال الزمخشري : "(لن) لتأكيد ما تعطيه (لا) من نفي المستقبل، تقول: لا أبرح اليوم مكاني، فإذا وكّدت وشدّدت قلت : لن أبرح اليوم مكاني، قال الله : — تعالى — (لَا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا) (الكهف/٦٠) وقال : — تعالى — فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ (يوسف/٨٠) " (١)

أحوال التراكيب

قوله (من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين) بنيت الجملة بأسلوب الشرط، وأرى — والله أعلم — أن لهذا البناء دلالة معينة هي جعل التفقه في

(١) الفصل في صناعة الإعراب للزمخشري ٣٩٣.

الدين آية من آيات حب الله لعبده وإرادته الخير له ، فهو — سبحانه — لا يريد الخير إلا بمن أحب، وفي هذا البناء بشارة للفقهاء و المتفقيين ، وأنهم على خير في الدنيا والآخرة ، كما أن فيه زيادة في الترغيب في طلب العلم والحث عليه ، وألحظ مجئ المفعول هنا منكرا لإرادة العموم، فالنكرة في سياق الشرط كالنكرة في سياق النفي ، ويجوز أن يكون التنكير للتعظيم، والمقام يقتضيه، وهذا كما في قول ابن أبي السمط ، وهو مروان بن أبي حفصة : —

فَتَى لَا يُبَالِي الْمُدْلِجُونَ بِنَارِهِ * إِلَى بَابِهِ أَنْ لَا تَضَى الْكَوَاكِبُ
يَصْمُ عَنْ الْفَحْشَاءِ حَتَّى كَأَنَّهُ * إِذَا ذُكِرَتْ فِي مَجْلِسِ الْقَوْمِ غَائِبُ
لَهُ حَاجِبٌ عَنْ كُلِّ أَمْرٍ يَشِئُهُ * وَلَيْسَ لَهُ عَنْ طَالِبِ الْعُرْفِ حَاجِبُ

((فالتنكير في (حاجب) الأول للتعظيم ، وأخذ هذا من كون المقام مقام مدح، أي: أنه إذا أراد أن يرتكب أمرا قبيحا منعه مانع حصين عظيم بالغ في العظمة إلى حيث لا يمكن تعيينه، وإذا طلب منه إنسان معروفا وإحسانا لم يكن له مانع حقير فضلا عن العظيم يمنعه من الإحسان إليه، فهو في غاية الكمال لم يقم به نقص)) (١)

قوله (وإنما أنا قاسم) هذه الجملة الثانية ، والتي جاء تركيبها بأسلوب القصر، أي : ما أنا إلا قاسم، وفي هذا الحصر استشكال فله صفات أخرى،

(١) حاشية الدسوقي على شرح السعد ضمن شروح التلخيص ١/ ٣٤٩ ط دار الكتب العلمية بيروت دون تاريخ .

مثل كونه : رسولا مبشرا ونذيرا، "قال : — تعالى (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً
لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا) (سبأ / ٢٨) والجواب : أن هذا الحصر بالنسبة إلى
اعتقاد السامع ، وهذا ورد في مقام كان السامع معتقدا كونه معطيا، وإن
اعتقد أنه قاسم فلا ينفي إلا ما اعتقده السامع، لا كل صفة من الصفات،
وحينئذ إن اعتقد أنه معط لا قاسم، فيكون من باب قصر القلب، أي : ما
أنا إلا قاسم لا معط، وإن اعتقد أنه قاسم ومعط أيضا، فيكون من باب قصر
الإفراد، أي : لا شركة في الوصفين بل أنا قاسم فقط، ومعناه : أنا أقسم
بينكم فألقي إلى كل واحد ما يليق به، والله يوفق من يشاء منكم لفهمه
والتفكر فيه" (١) .

قوله: (والله يعطي) في هذه الجملة قدم المسند إليه على خبره الفعلي مفيدا
التقوية عند السكاكي (٢) ولا يحتمل التخصيص، أي: الله يعطي لا محالة، وأما
عند الزمخشري فيحتمله أيضا ، وحينئذ يكون معناه: الله يعطي لا
غيره، وحذف مفعول يعطي ؛ إعلاما بأن المقصود بيان اتحاد هذه الحقيقة،
أي: حقيقة الإعطاء ، لا بيان المفعول ، أي : المعطي، وهذه الجملة يصح أن
تقع حالا، وهنا نسأل إذا كانت الجملة حالية، فما يكون معنى القصر حينئذ؟

(١) عمدة القاري ٥١/٢ .

(٢) ينظر مفتاح العلوم للسكاكي ٢١٧ تحقيق نعيم زرزور ط دار الكتب العلمية بيروت ١٤٠٧هـ .

والجواب : أن الحصر بإنما دائما في الجزء الأخير، فيكون معناه : ما أنا بقاسم إلا في حال إعطاء الله ، لا في حال غيره (١)

وهنا يصح لنا أن نسأل ما الشيء الذي تقع فيه القسمة والعطاء؟ وللجواب : نذكر أن شراح الحديث اختلفوا في هذا الشيء على فريقين: فريق نظر إلى سياق الكلام ، وفريق نظر إلى ظاهر الكلام ، وقد بين هذا الإمام العيني بقوله : ((قال التوربشتي : اعلم أن النبي — عليه الصلاة والسلام — أعلم أصحابه أنه لم يفضل في قسمة ما أوحى الله إليه أحدا من أمته على أحد بل سوى في البلاغ، وعدل في القسمة ، وإنما التفاوت في الفهم، وهو واقع من طريق العطاء ، ولقد كان بعض الصحابة — رضي الله عنهم — يسمع الحديث فلا يفهم منه إلا الظاهر الجلي ، ويسمعه آخر منهم، أو من بعدهم فيستنبط منه مسائل كثيرة، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء .

وقال الشيخ قطب الدين في شرحه لقوله : — ﷺ — (إنما أنا قاسم) يعني أنه لم يستأثر بشيء من مال الله، وقال النبي — عليه الصلاة والسلام — مالي بما آفأ الله عليكم إلا الخمس ، وهو مردود عليكم، وإنما قال : (أنا قاسم) ؛ تطيبا لنفوسهم لمفاضلته في العطاء ، فالمال لله، والعباد

(١) عمدة القاري للعيني ٢ / ٥٢ .

لله، وأنا قاسم بإذن الله ماله بين عباده، قلت: بين الكلامين بون؛ لأن الكلام الأول يشعر بأن القسمة في تبليغ الوحي، وبيان الشريعة، وهذا الكلام صريح في قسمة المال، ولكل منهما وجه:

أما الأول: فإن نظر صاحبه إلى سياق الكلام، فإنه أخبر فيه أن من أراد الله به خيرا يفقهه في الدين، أي: في دين الإسلام، قال الله: — تعالى (إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ) (آل عمران / ١٩)، وقيل الفقه في الدين الفقه في القواعد الخمس، ويتصل الكلام عليها في الأحكام الشرعية، ثم لما كان فقههم متفاوتا لتفاوت الأفهام أشار إليه النبي — ﷺ — بقوله: إنما أنا قاسم، يعني: هذا التفاوت ليس مني، وإنما الذي هو مني هو القسمة بيني وبينكم، يعني تبليغ الوحي إليهم من غير تخصيص بأحد، والتفاوت في أفهامهم من الله — تعالى — لأنه هو المعطي، يعني يعطي الناس على قدر ما تعلقت به إرادته؛ لأن ذلك فضل منه يؤتاه من يشاء.

وأما الثاني: فإن نظر صاحبه إلى ظاهر الكلام؛ لأن القسمة حقيقة تكون في الأموال، ولكن يتوجه هنا السؤال عن وجه مناسبة هذا الكلام لما قبله، ويمكن أن يجاب عنه بأن مورد الحديث كان وقت قسمة المال حين خصص — عليه السلام — بعضهم بالزيادة لحكمة اقتضت ذلك، وخفيت عليهم حتى تعرض منهم بأن هذه قسمة فيها تخصيص للناس، فرد عليهم النبي

— عليه الصلاة والسلام — بقوله : من يرد الله به خيرا . . . إلى آخره، يعني : من أراد الله به خيرا يوفقه ، ويزيد له في فهمه في أمور الشرع، ولا يتعرض لأمر ليس على وفق خاطره إذ الأمر كله لله وهو الذي يعطي ويمنع، ويزيد وينقص، والنبي — عليه الصلاة والسلام — قاسم، وليس بمعط حتى تنسب إليه الزيادة والنقصان)) (١)

قوله : — ﷺ — (ولن تزال هذه الأمة قائمة على أمر الله . . .)
عبر — ﷺ — بالمسند إليه معرفا باسم الإشارة قصد تمييزه أكمل تمييز، وذلك راجع لما في طبيعة اسم الإشارة من تحديد المشار إليه أكمل تحديد بأن يكون مشاهدا مشارا إليه أو متزلا هذه المترلة ، وقد قال : — ﷺ — قائمة على أمر الله ، ولم يقل مثلا : عاملة بأمر الله ؛ لأن في قوله : قائمة تجسيدا لما هو معنوي (أمر الله) في صورة الحسي ، فهو أسلوب استعارة حيث شبه فيه الاستمسك بأوامر الله بالقيام على رعاية الأهل والأولاد، ومن يخشى عليهم، ولا يفوتني التنبيه إلى أن في حرف الجر (على) استعارة أيضا تصور لنا ما يجب أن يكون عليه المؤمن من التمكن من القيام بأمر الله والاهتداء به، صنيع من يهتدي بطريق يسير عليه .

(١) عمدة القاري ٢ / ٥١ .

وبين قوله — ﷺ — (قائمة على أمر الله) و (حتى يأتي أمر الله) جناس، فالمراد من أمر الله الأول دين الله ، والمراد من أمر الله الثاني : قيام الساعة ، أو مقدماتها ، فقد اتفقتا في اللفظ ، واختلفتا في المعنى .

وفي قوله : — ﷺ — (لا يضرهم من خالفهم) جاء نفي الضرر هنا زيادة تأكيد على عدم الالتفات للمخالفين ، وجاء المسند إليه معرفا بالموصلية، والتعريف بالموصلية " من أكثر طرق التعريف إثراء للمعنى، واكتنازا للإيحاءات والمعاني؛ لذا كان التعريف بالموصلية من مسالك البلاغيين والفصحاء في التعبير عن مقاصدهم " (١) وفي ذكر المسند إليه معرفا بالموصلية إتاحة لذكر جملة الصلة التي يقرر مدلولها الغرض المسوق له الكلام ، وهو هنا التأكيد على القيام على أمر الله ، وإن قل القائمون، وكثر المخالفون، وفي قوله: حتى يأتي أمر الله، عبر بحتى، ولم يستخدم (إلى) مع أن كلا منهما يستخدم في الغاية ، وقد بين هذا الفرق العيني فقال : ((فإن قلت : إذا كان حتى بمعنى إلى، ويكون معنى : (حتى يأتي أمر الله) (إلى أن يأتي أمر الله) هل يكون بينهما فرق ؟ قلت : نعم بينهما فرق ؛ لأن مجرور حتى يجب أن يكون آخر جزء منه ، وقال الزمخشري في قوله: (وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ) (الحجرات / ٥) الفرق بينهما أن حتى مختصة بالغاية المضروبة ، أي : المعينة ، تقول : أكلت السمكة حتى

(١) الجملة العربية بناؤها وإجهاؤها ١٠٩ د / إبراهيم صلاح الهدهد ، ط دار الاتحاد التعاوني للطباعة والنشر ١٤١٧هـ .

رأسها، ولو قلت : حتى نصفها أو صدرها لم يجز ، وإلى عامة في كل غاية فافهم)) (١)

ومعنى قوله : — ﷺ — (ولن تزال هذه الأمة . . . حتى يأتي أمر الله) أن أمة محمد — ﷺ — ستظل قائمة محافظة على دين الله حتى تأتي الساعة، نعم : ورد في الحديث : (لا تقوم الساعة حتى لا يقال في الأرض : الله الله) (٢) وورد (لا تقوم الساعة إلا على شرار الخلق) (٣) وقد جمع أهل العلم بين هذه الأحاديث، فذكر النووي أنه لا مخالفة بين الأحاديث ؛ لأن المراد من أمر الله الريح اللينة التي تأتي قريب القيامة ، فتأخذ روح كل مؤمن ومؤمنة ، وهذا قبل القيامة، وأما الحديثان الأخيران فهما على ظاهرهما إذ ذلك عند القيامة (٤)

وذكر الإمام العيني : أن هذه الأحاديث لفظها العموم ، والمراد منها الخصوص، فمعناه : لا تقوم على أحد يوحد الله — تعالى — إلا بموضع

(١) عمدة القاري ٢ / ٥١ ، و نص الرمخشري في الكشف ٤ / ٨ ط دار عالم المعرفة بيروت دون تاريخ .

(٢) رواه مسلم في صحيحه ، كتاب : الإيمان ، باب : ذهاب الإيمان في آخر الزمان .

(٣) رواه مسلم في صحيحه ، كتاب : الإمامة ، باب : قوله — صلى الله عليه وسلم — لا تزال طائفة من أممي ظاهرين على الحق ، وكتاب الفتن وأشراط الساعة باب في خروج الدجال ومكته في الأرض ، ورواه ابن ماجه في سننه ، كتاب : الفتن ، باب : شدة الزمان .

(٤) شرح النووي على صحيح مسلم ٢ / ١٣٢ ط دار إحياء التراث العربي بيروت دون تاريخ .

كذا، إذ لا يجوز أن تكون الطائفة القائمة بالحق التي توحد الله هي شرار الخلق^(١)

هذا والملاحظ أن الجملة الأساسية التي هي قطب الرحى في الحديث الشريف هي الجملة الأولى (من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين) وما بعد ذلك في الحديث مبني عليها ، أي أن الحديث من مفتتحة يكشف عن فضل العلم والفقه، وأن به بقاء الأمة ، وأنه سر قوتها ، وقد رأينا الحديث بألفاظه وتراكيبه يجعل الفقه محوره وأساسه ، ويبرز مكانته عند الله ، ويبين دور الفقه في الحفاظ على بقاء الأمة وقوتها.

(١) عمدة القاري ٢ / ٥٢ .

عن أبي الدرداء — رضي الله عنه — قال : سمعت رسول الله — ﷺ — يقول : " مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَبْتَغِي فِيهِ عِلْمًا سَلَكَ اللَّهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ ، وَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ لَتَضَعُ أجنحتها رِضَاءً لِطَالِبِ الْعِلْمِ ، وَإِنَّ الْعَالَمَ لَيَسْتَغْفِرُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ حَتَّى الْحِيتَانُ فِي الْمَاءِ ، وَفَضْلُ الْعَالَمِ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِ الْقَمَرِ عَلَى سَائِرِ الْكَوَاكِبِ ، إِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ ، إِنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَمْ يُورَثُوا دِينَارًا وَلَا دِرْهَمًا ، إِنَّمَا وَرَثُوا الْعِلْمَ ، فَمَنْ أَخَذَ بِهِ أَخَذَ بِحِطِّ وَافِرٍ " (١)

التصور الجملي للحديث :

الحديث يتكون من ثلاث جمل ، هي (من سلك طريقا . . .) وقد عطف على هذه الجملة ثلاث جمل هي : (إن الملائكة . . .) و(إن العالم ليستغفر ..) (فضل العالم . . .) والجملة الثانية هي : (إن العلماء . . .) والجملة الثالثة هي : (إن الأنبياء . . .) وقد عطف عليه جملة أخرى هي : (فمن أخذ به ...) والمقصود العام من الحديث بيان فضل أهل العلم، وقد سلك الحديث الشريف في ذلك مسلكين حسنين فذكر الثواب المرصود لطالب العلم ، وكيف تجاوب السماء الأرض في الرضا عن طالب العلم، ثم

(١) رواه الترمذي في الجامع الصحيح كتاب العلم باب ماجاء في فضل الفقه على العبادة و اللفظ له ورواه أبو داود في سننه كتاب العلم باب ماجاء في الحث على طلب العلم ، و رواه ابن ماجه في سننه — المقدمة في فضل العلم و الحث على طلب العلم .

ذكر فضل العالم على غيره مؤكداً ذلك ببيان أنه ميراث الأنبياء وطريقهم، ولا خلاف في أن الأنبياء مصطفىون من ربهم ، فمن ورث ميراثهم فضل كما فضلوا على وجه المقاربة .

اصطفاءات الألفاظ :

اصطفى — ﷺ — (الأنبياء) على (الرسل) ليشمل الكل قاله المباركفوري (١) وقد اصطفى — ﷺ — لفظ (ورثة) على ما يقاربه من مثل : تبع أو حملة علم الأنبياء تأكيداً على الأفضلية، وكشفاً عن قوة الصلة، واختيار القمر والكواكب اختيار لما هو ظاهر في الوجود، وفيه تأكيد على بيان فضل أهل العلم.

أحوال التراكيب :

بدئ الحديث بأسلوب الشرط، وعطفت عليه ثلاث جمل ، والجملة الأولى هي الجملة الأساس في هذا الحديث، وما جاء بعدها إنما هو تابع لها وخادم لهدفها فكل ما جاء بعدها إنما هو مرتب عليها، والمسند إليه اسم

(١) تحفة الأحوذى شرح جامع الترمذى ٧ / ٤٥٣ .

شرط، والمسند فعل الشرط وجوابه^(١) وقد تحدث البلاغيون عن المسند إليه في أحوال كثيرة كالتعريف بأنواع المعارف والتقديم والتأخير والحذف والذكر كما تحدثوا عن تقييد المسند بأدوات الشرط، لكنه لم يتحدثوا عن المسند إليه إذا وقع اسم شرط، مع أنه قد ورد كثيرا في البيان العالي، والذي ألحظه أن وراء تعريف المسند إليه باسم الشرط إحياء بقوة الارتباط بين المسند إليه والمسند، كما أن فيه بشارة بتحقيق الجزاء بتحقيق الشرط، وهذا من أكبر الدوافع إلى طلب العلم، فوق أنه تركيب متعانق تعانقا قويا لما بين الشرط والجزاء من الارتباط القوي.

وقد جاء فعل الشرط ماضيا (سلك) دلالة على تحقق الوقوع بإخراج ما لم يتحقق في صورة المتحقق الواقع، أو على طريقة التفاؤل بالحصول؛ لأن النفس إذا رغبت في شيء أخرجته مخرج الحاصل المتحقق، وفي هذا يقول ابن جني: حكم الأفعال أن تأتي كلها بلفظ واحد لأنها لمعنى واحد، غير أنها لما كان الغرض في صناعتها أن تفيد أزمنتها خولف بين مثلها ليكون ذلك دليلا على المراد منها، قال: فإن أمن اللبس فيها جاز أن يقع بعضها موقع بعض، وذلك في حرف الشرط نحو: إن قمت جلست، لأن الشرط معلوم أنه

(١) اختلف النحاة في اسم الشرط إذا وقع مبتدأ فهل خبره فعل الشرط وحده لأنه اسم تام وفعل الشرط يشتمل على ضميره، فقولك (من يقوم) لو لم يكن فيه معنى الشرط لكان بمزلة قولك (كل من الناس يقوم) أو فعل الجواب، لأن الفائدة به تمت، ولالتزامهم عود ضمير منه إليه على الأصح، ولأن نظيره وهو الخبر في قولك: الذي يأتي فله درهم، أو مجموعها لأن قولك (من يقوم أقم معه) بمزلة قولك: كل من الناس إن يقوم أقم معه؟ وقد اختار ابن هشام المذهب الأول / معني اللبيب عن كتب الأعاريب لابن هشام الأنصاري ٤٦٧/٢ تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، ط دار الشام للتراث، بيروت، دون تاريخ.

لا يصح إلا مع الاستقبال، وكذلك: لم يقيم أمس، وجب لدخول (لم) ما لولا هي لم يجز، وكذلك أيضا حديث الشرط في نحو (إن قمت قمت) جئت فيه بلفظ الماضي الواجب تحقيقا للأمر وتثبيته، أي: إن هذا وعد موفى به لامحالة، كما أن الماضي واجب ثابت لا محالة^(١)

وجاء المفعول به منكرا (طريقا) للتعميم ليتناول أنواع الطرق الموصلة إلى تحصيل العلوم الدينية والدنيوية، ويمكن أن يقال: إنه جاء منكرا ليتسنى وصفه بالجملة الفعلية التي تبين أن مناط الخيرية متعلق بجملة النعت (يبتغي فيه علما) وقد جاء المفعول به منكرا في جملة النعت أيضا (علما) ليشمل كل علم وآله ويندرج فيه ما قل وكثر، قوله (سلك الله به طريقا إلى الجنة) يوجد هنا مشاكلة^(٢) بين (من سلك ... سلك الله) وفي المشاكلة إظهار للتماثل بين الشرط والجزاء، أي: أن الجزاء من جنس العمل.

قوله: (وإن الملائكة لتضع أجنحتها . . .) وقد جاءت الجملة مؤكدة بعدة مؤكدات (إن واللام واسمية الجملة) وفي ذلك تتريل لخالي الذهن مترلة المنكر^(٣) وفيه زيادة ترغيب في طلب العلم على حد ما ذكره الزركشي في

(١) الخصائص لابن جني ٣/٣٣١، تحقيق الشيخ محمد علي النجار، ط الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٧ م.

(٢) تحفة الأحوذى ٤٥١/٧. والمشاكلة: هي ذكر الشيء بلفظ غيره لوقوعه في صحبته تحقيقا أو تقديرا، ينظر: لباب البديع ٩٦ د/محمد شرشر

(٣) يقول الدسوقي: "ذكر بعضهم أن تخريج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر من باب الكناية . . . وقيل إنه من قبيل الاستعارة بالكناية والتخييل، والحق أنه لا يقال فيه شئ من ذلك؛ لأن انجاز الكناية إنما هو باعتبار المعاني التي يوضع لها اللفظ، وهذا بخلاف

ذلك ، إذ لم يستعمل اللفظ فيه لأنها معان عرضية " حاشية الدسوقي على مختصر السعد ٢٠٩/١ ورأى د/ هاشم الديب أن استعمال الأخبار في هذه المواضع هو استعمال حقيقي والتأكيد فيه وتركه أمر اقتضته الحال سواء كانت حالا حقيقية أو تزيلية " ينظر : التضمن ١٣ د/ هاشم يوسف الديب ط المطبعة الإسلامية الحديثة ١٤١٥ هـ .

البرهان عند قوله : — تعالى — (فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ) (البقرة/ ٣٧) فليس المخاطب عالما بالحكم حتى ينكره، وإنما أكد الخبر بأربع مؤكدات، وهي (إن وضمير الفصل والمبالغتان ليدل على ترغيب العبد في التوبة، فإنه إذا علم ذلك طمع في عفوه (١) وقد جاء المسند إليه معرفا بالألف واللام إرادة للجنس، وقد جاء المسند جملة فعلية مصدرة بالفعل المضارع دلالة على التجدد والحدوث، وفي ذلك ترغيب في تكرار طلب العلم والمجاهدة في سلوك طريقه، وفي قوله (تضع أجنحتها) استعارة تمثيلية حيث شبه تواضع الملائكة إعظاما للعلم وطلبته بضم الطائر جناحيه بجامع السكون في كل وسيل الاستعارة هنا هو سبيلها في قوله : — تعالى — (وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ) (الإسراء/ ٢٤) حيث إن " الأسلوب استعارة تمثيلية استعير للتواضع؛ لأن الطائر إذا قصد الجو بسط الجناح، وإذا هم بالترول خفض الجناح فشبه ما يتصور من الإنسان في حال التواضع من الانخفاض بما يشاهد من الطائر عند انخراطه من الجو ثم كثر استعماله فيه حتى صار عبارة عن التواضع" (٢) وقد ذكر العلماء في بيان معنى الجملة آراء عدة ، وهي أن " وضع الأجنحة عبارة عن حضورها مجلسه أو توقيره وتعظيمه أو إعانته على بلوغ مقاصده أو قيامهم في كيد أعدائه

(١) البرهان في علوم القرآن للزركشي ٢ / ٣٨٩ . تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم ط دار التراث دون تاريخ .

(٢) حاشية محيي الدين شيخ زادة على تفسير القاضي البضاوي ٣ / ٢١٩ . والاستعارة التمثيلية : هي اللفظ المركب المستعمل في غير ما وضع له لعلاقة المشابهة مع قرينة مانعة من إرادة المعنى الحقيقي ، ينظر : لباب البيان ٢٠٨ د/ محمد حسن شرشر نشر المؤلف ١٤٢٠هـ .

وكفايته شرهم أو عن تواضعها له ، يقال للرجل المتواضع : خافض الجناح ، قال السيد السمهودي : والأقرب كونه بمعنى ما ينظم هذه المعاني كلها ، كما يرشد إليه الجمع بين ألفاظ الروايات ، وذلك لأنه — سبحانه وتعالى — ألزمها ذلك في آدم — عليه السلام — لما أخبرهم أنه جاعل في الأرض خليفة ، فسألوه على جهة الاستعظام لخلقه أن خلقا يكون منهم الفساد، وسفك الدماء، كيف يكون خليفة ؟ فقال: (إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ) (البقرة / ٣٠) وقال لآدم — عليه السلام (أَبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَبَاهُمْ) (البقرة / ٣٣) تصاغرت الملائكة فرأت فضل آدم فألزمها الخضوع والسجود لفضل العلم فسجدت فتأدبت فكلما ظهر علم في بشر خضعت له، وتواضعت إعظاما للعلم وأهله، هذا في طلابه فكيف بإخباره " (١)

هذا وقد ذكر العلامة محمد بن علان — رحمه الله — أن وضع الأجنحة يحتمل أن يكون حقيقة ، وإن لم نشاهده ، للقاعدة أن كل ما ورد، وأمكن حمله على ظاهره حمل عليه ما لم يصرفه عنه صارف، وحينئذ فهي تكف أجنحتها عن الطيران ، وتترل لسماع العلم ، إذ هو أشرف الذكر، وحينئذ فالمراد بالملائكة ملائكة الرحمة ونحوهم من الساعين في مصالح بني آدم ، وقيل هو مجاز إما عن التواضع نظير (وَإِخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ

(١) ينظر معالم السنن للخطابي ١٦٩ وفيض القدير شرح الجامع الصغير للمناوي ٢ / ٤٨٨ وتحفة الأحوذى ٧ / ٤٥٢ ، وعون المعبود شرح سنن أبي داود ١٠ / ٧٣ ط المكتبة السلفية ، المدينة المنورة ١٣٨٨ هـ .

اَتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ) (الشعراء / ٢١٥) أو عن المعونة وتيسير السعي في طلب العلم ، وحيث أن يراد بالملائكة الكل " (١) وإرادة الحقيقة ليست بعيدة ، على أية حال فالمراد هو الاحتفاء بطالب العلم من الملائكة دون التحقيق في بيان هيئة ذلك .

وقد جاء الفعل مقيدا بالمفعول لأجله (رضاء) وفي ذلك زيادة حث على طلب العلم ، ولنقل مثلا إن الملائكة لتضع أجنحتها ونسكت دون أن نذكر بقية الكلام ، ما من ريب أن في قوله (رضاء لطالب العلم) إلهابا على سلوك هذا الطريق الذي يرضي عنه بل يحيط به ، ويتواضع له من هم أقرب خلق الله إلى الله، ولئن كان الأمر كذلك في طالب العلم فما بالنا بياذل العلم العامل به، فطلب العلم أول درجات اكتساب النور، وله هذه المترلة من الإعظام والإجلال والثواب، فأني مترلة تكون لمن بعد هذا المرقى؟! .

وقد جاء قوله : — ﷺ — (وإن العالم ليستغفر له من في السموات ومن في الأرض حتى الحيتان في الماء) عقب القول السابق على سبيل الترقى التصاعدي إلى ذكر ما هو أبلغ في بيان فضل أهل العلم، وذلك " بإثبات وصف العلم له (وإن العالم) بعد إثبات فضل طلبه فيما قبله، وإثبات استغفار جميع الكائنات له " (٢) في السماء والأرض ، وفي ذلك تعميم بعد

(١) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين لابن علان ٤ / ١٤٦ ، ط دار الحديث ١٤١٩ هـ .

(٢) دليل الفالحين ٤ / ١٤٦ .

تخصيص، وهو مما يرشد إلى الترقى التصاعدي في إثبات الفضل، وقد اعترض بعضهم فذكر " أنه لا يوجد ترق فوضع الأجنحة للطالب قبل أن يسمى عالماً، والاستغفار للعالم فلا ترق" (١) هذا وقد سبق القول في اشتغال الجملة على عدة مؤكداً في زيادة في الترغيب في طلب العلم.

" ولا رتبة فوق رتبة من تشغل جميع المخلوقات بالاستغفار والدعاء له إلى يوم القيامة، ولهذا كان ثوابه لا ينقطع بموته، وإنه ليتنافس في دعوة رجل صالح ، فكيف بدعاء الملائكة الأعلى " (٢) وقد اختلف العلماء في هذا الاستغفار ، هل هو حقيقة أم مجاز ، فقد ذكر ابن علان نقلاً عن الطيبي أنه مجاز من إرادة استقامة حال المستغفر له ، وقد ذكر نقلاً عن القاري أن الحقيقة أولى " (٣) وقال ابن علان: " لا مانع من جعل الاستغفار من غير العقلاء من نحو الجماد على حقيقته، لأنه ممكن فهو من قبيل قوله : — تعالى — (وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ) (الإسراء / ٤٤) (٤)

وأما إلهام الحيوانات الاستغفار له فقليل ؛ لأنها خلقت لمصالح العباد ومنافعهم، والعلماء هم المبينون ما يحل منها وما يحرم ، ويوصون بالإحسان

(١) دليل الفالحين ٤ / ١٤٦ .

(٢) فيض القدير شرح الجامع الصغير ٥٤٩/٤ .

(٣) دليل الفالحين ٤ / ١٤٦، ١٤٧ .

(٤) دليل الفالحين ٤ / ١٤٧ .

إليها، ودفع الضر عنها حتى بإحسان القِتْلَةِ ، و النهي عن المثلَّة، فاستغفارها له شكر لتلك النعمة ، وذلك في حق البشر أكد لأن احتياجهم إلى العلم أشد وعود فوائده عليهم أتم " (١) ووراء الغاية في قوله (حتى الحيتان) نكتة بلاغية وهي "المبالغة في التعميم خصوصا إن أريد بالحيتان الحيوان البحري، فهو أكثر من البري لما جاء أن عوالم البر أربعمئة عالم وعوالم البحر ستمئة عالم " (٢)

وخصص الحوت بالذكر " لدفع إيهام أن من في الأرض لايشمل من في البحر " (٣) ، وقد ذكر النملة في رواية أخرى (٤) وفي تخصيصهما بالذكر " للدلالة على إنزال المطر وحصول الخير والخصب أبدا ببركتهم، كما قال : بهم تنصرون وبهم ترزقون، حتى إن الحوت الذي لا يفتقر إلى العلماء افتقار غيره لكونه في جوف الماء يعيش أبدا ببركتهم " (٥)

وقد جاء قوله : — ﷺ — (وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب) معطوفا على ما مضى، كشفا عن منزلة طالب العلم،

(١) فيض القدير للمناوي ٤ / ٥٤٩.

(٢) دليل الفالحين ٤ / ١٤٧ .

(٣) تحفة الأحوذى شرح جامع الترمذي ٧ / ٤٥٢ .

(٤) جاء في رواية أخرى : " إن الله — عز وجل — وملائكته وأهل السموات والأرضين حتى النملة في جحرها ، وحتى الحوت ليصلون على معلم الناس الخير " الجامع الصحيح للترمذي كتاب العلم باب ما جاء في فضل الفقه على العبادة .

(٥) فيض القدير للمناوي ٤ / ٥٤٩ .

وقد اصطفى — ﷺ — التشبيه سبيلا لبيان هذه المترلة وهو تشبيه تمثيل أخرج فيه المعنوي في صورة الحسي؛ تأكيداً على هذه المترلة ، فالطرف الأول (المشبه) العالم على العابد، والثاني : القمر على سائر الكواكب، ومن عبقرية هذا التشبيه أنه ركز على التفاوت دون إهدار لفضل العابد، وقد جاء المشبه به غير ممارى في تفاوت المذكور أولاً على المذكور ثانياً، مما ينعكس على المشبه، وأنه ينبغي أن يكون الإيمان بتفضيل العالم على العابد كالإيمان بتفضيل القمر على سائر الكواكب " وذلك أن نور العبادة وكمالها ملازم لذات العابد لا يتخطاه فهو كنور الكواكب ونور العلم وكماله يتعدى إلى الغير فيستضيء به العالم لكنه ليس من ذاته ، وإنما استفاده من شمس الوجود الذي لا أكمل منه محمد — ﷺ — فهو كنور القمر المكتسب من نور الشمس التي لا أضواؤها منها " (١)

وورد في رواية أخرى " فضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم " (٢) وفي هذا التشبيه من إظهار مترلة العالم ما فيه ، حيث أظهر مترلة العالم بما لا مزية فيه، فإنه لا يشك أحد على الإطلاق في الإقرار بأفضليته — ﷺ — على الخلق، فالتشبيه يتوفر على بيان نسبة شرف العالم إلى شرف العابد ببيان نسبة شرف الرسول — ﷺ — إلى شرف أدنى الصحابة، والتعبير بـ

(١) ينظر دليل الفالحين لابن علان ٤ / ١٤٧ ، وفيض القدير للمناوي ٧ / ٥٤٩ ، وحاشية السندي على ابن ماجه ١ / ١٤٦ .

(٢) رواه الترمذي في سننه ، كتاب : العلم ، باب : في فضل الفقه على العبادة

(أدين) فيه مبالغة، قال المباركفوري نقلا عن القاري : " فيه مبالغة ، فإنه لو قال : كفضلي على أعلامكم لكفى فضلا وشرفا " (١) والتشبيه هنا من التشبيهات النادرة، حيث إن العادة جرت بأن يكون المشبه به حسيا في الغالب، وكأن وقوع فضله — ﷺ — على الصحابة هنا مشبها به صور لنا مترلته — ﷺ — بالشئ المحسوس الذي لا يمارى فيه، كما ثبت في الذهن أن العلم كالحياة، وهذه معاملة للمركز في الطباع معاملة المحسوس، وفي هذا التشبيه ما فيه من إلزام العالم بما يجب أن يكون عليه من العمل بعلمه، حيث إنه منارة الاقتداء والاهتداء، وهذه الرواية يؤكد لها ما جاء في هذه الرواية بعد ذلك من أن العلماء ورثة الأنبياء .

والمراد بالفضل : " كثرة ثواب ما يعطيه الله للعبد في الآخرة من درجات الجنة ولذاتها ومأكلاتها ومشربها ، ونعيمها الجسماني أو ما يمنح من مقامات القرب، ولذة النظر إليه وسماع كلامه ، ولذة المعارف الإلهية الحاصلة عند كشف الغطاء ونحو ذلك " (٢) وقد ذكروا أن المراد بالعالم هنا : من صرف زمنه للتعليم وللإفتاء والتصنيف ونحو ذلك، والمراد بالعابد: من انقطع للعبادة تاركاً ذلك، وإن كان عالماً " (٣) وتشبه هذه الجملة أن تكون نتيجة لكل ما مضى ، فكأنها ذروة الحديث ، وربما يؤيد ذلك ما جاء بعد

(١) تحفة الأحوذى ٤٥٦/٧ .

(٢) فيض القدير للمناوى ٤ / ٥٥٠ .

(٣) فيض القدير للمناوى ٤ / ٥٥٠ .

ذلك في الحديث من التأكيد على أسباب هذا التفضيل من أن العلماء ورثة الأنبياء .

وقد جاء قوله : — ﷺ — (إن العلماء ورثة الأنبياء) واقعا مما سبق موقع التوكيد المعنوي على سبيل كمال الاتصال ، إذ هو بمثابة التأكيد على فضل العالم على العابد وليس المراد أنهم يرثون النبوة ، وإنما المراد وراثته العلم " علما وعملا وكمالا و تكميلا ، ولا يتم ذلك إلا لمن صفت مصادر علمه ومواردهما عن الهوى حتى أمدته كلمات الله التي لا تفنى إلى أن صار من الراسخين في العلم القائمين بصور الأعمال على ما ينبغي ، فسلم من الإخلاق إلى أرض الشهوات الخافضة إلى أرذل الدركات " (١)

وجاء قوله : — ﷺ — (إن الأنبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما وإنما ورثوا العلم فمن أخذ به أخذ بحظ وافر) واقعا موقع التوكيد مما سبق على سبيل كمال الاتصال ، وقد جاء بناء هذه الجملة مشاكلا بناء الجملة السابقة، وهذا من تمام التناسق ، وقد جاء مؤكدا لدفع ما جرت به العادة من أن الميراث يكون في نحو درهم ودينار وعقار وغيرها من صنوف المال، ولذلك خص الدينار والدرهم بالذكر " لأنهما أغلب أنواعه ، وفي نفيهما عنهم إيماء إلى رذالة الدنيا ، فأعرضوا عنها ، ولم يأخذوا منها إلا قدر

(١) دليل الفالحين لابن علان ٤ / ١٤٧ .

الضرورة ، فلم يورثوا شيئاً منها ، لئلا يتوهم أنهم كانوا يطلبون شيئاً منها يورث عنهم " (١)

وجاء قوله : — ﷺ — (فمن أخذ به أخذ بحظ وافر) كالتذييل لما مضى أي : لاحظ أوفر منه ، والباء زائدة للتوكيد ، أو المراد أخذه متلبساً بحظ وافر من ميراث النبوة ، ويجوز أن يكون أخذ بمعنى الأمر أي : فمن أراد أخذه فليأخذه بحظ وافر ، ولا يقنع بقليل " (٢) ويكون في الكلام على ذلك إخراج للإنشاء في صورة الخبر ، وفي ذلك إظهار للرغبة في أن يكون الأمر كذلك ، حتى يكون شأنه شأن الشيء يخبر به ، والنفس إذا عظمت رغبته في حصول شيء أخرجه مخرج الخبر (٣)

هذا وقد جاءت تراكيب الحديث في غاية من السبك، وحسن اللفظ، وغزارة المعنى ، وصيغ ثواب طالب العلم وبين فضله بما لا نظير له في الأعمال الأخرى ، وهنا تراكيب ومعان مختصة بفضيل طالب العلم وثوابه لم ترد في عبادات أخر ولا أعمال أخر ، وهو المناسب لجمال العلم وجلال قدره .

(١) دليل الفالحين لابن علان ٤ / ١٤٧ . وتحفة الأحوذى شرح جامع الترمذى ٧ / ٤٥٣ .

(٢) تحفة الأحوذى شرح جامع الترمذى ٧ / ٤٥٣ .

(٣) تلخيص المفتاح و شروحه ٢ / ٣٣٨ ، ٣٣٩ ط ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، دون تاريخ وشرح التلخيص للبابري ٣٦٨ ، ٣٦٩ تحقيق د / محمد مصطفى ط المنشأة العامة ليبيا ١٣٩٢ هـ

عن عبد الله بن عمرو — رضي الله عنهما — قال : خرج رسولُ الله — ﷺ — ذاتَ يومٍ مِنْ بَعْضِ حُجَرِهِ ، فدخلَ المسجدَ ، فإذا هو بحَلَقَتَيْنِ ، إحداهما يقرؤون القرآنَ ، ويدْعُونَ اللهَ ، والأخرى يَتَعَلَّمُونَ ، ويُعَلِّمُونَ ، فقال النبي : — ﷺ — كلُّ على خيرٍ ، هؤلاء يقرؤون القرآنَ ، ويدْعُونَ اللهَ ، فإن شاءَ أعطاهم ، وإن شاءَ منعهم ، وهؤلاء يتعلمون ، وإنما بُعثتُ مُعَلِّمًا ، فَجَلَسَ مَعَهُمْ " (١)

التصور الجملي للحديث :

مقصود الحديث العام الحث على طلب العلم ، وبيان فضل العلم والعلماء ، وقد خرج الحديث في جملتين ، الأولى : (كل على خير ، هؤلاء يقرؤون القرآن ، ويدعون الله ، فإن شاء أعطاهم ، وإن شاء منعهم ، وهؤلاء يتعلمون) والجملة الثانية : (وإنما بعثت معلما) وذلك على أن الراوي استتفاية .

أما كلام الراوي الذي قدم به للحديث ، فهو عبارة عن جملة رئيسية : (خرج رسول الله — ﷺ — ذات يوم من بعض حجره ، فدخل المسجد ، فإذا هو بحلقتين ، إحداهما يقرؤون القرآن ، ويدعون الله) تبتعها جملة أخرى

(١) رواه ابن ماجة في المقدمة باب فضل العلماء و الحث على طلب العلم .

بالعطف (فدخل المسجد فإذا هو . . .) وهي كاشفة عن مقام الحديث،
وسبب وروده .

اصطفاءات الألفاظ :

نلاحظ أنه — ﷺ — اصطفى كلمة (بعثت)، ولم يقل:
أرسلت، وذلك أن من معاني البعث : الإحياء ، والنشر من القبور (١) ووراء
ذلك ما وراءه من الإيحاء بأثر العلم على الناس، فبه تحيا القلوب، كما تكون
الحياة بالبعث ، فالتعبير بالبعث هنا أبلغ وأنسب بالمقام من الإرسال .

أحوال التراكيب :

تجب الإشارة أولاً إلى المقام الذي ورد فيه الحديث ، والذي بينه لنا
الراوي بالجملة الأولى المذكورة ، التي كشفت لنا عن هيئة الجلستين في
المسجد ، وما يدور في هاتين الجلستين ، وخروج رسول الله — ﷺ — فجأة
على هذا الحال، وسوق الحديث في هذا الظرف ، والحال المذكورة هذه
تكشف لنا الكثير من أسرار التراكيب في حديثه — ﷺ — فقد بين لنا
قول الراوي — رضي الله عنه — (فإذا هو بحلقتين) عن مدى سروره —

(١) الكليات للكفوي ٢٤٤ .

﴿...﴾ — بما رأي، وهو ما توحى به إذا الفجائية، وكأنه — ﴿...﴾ — رأى ما لم يتوقعه من اهتمام الأصحاب — رضوان الله عليهم — بالعلم، الذي به حياة الأمم .

(كل على خير) هذه الجملة جاءت في مقام المفاجأة بما يشرح الصدر، ويسر النفس كما مضى بيانه ، لذلك جاء قوله: — ﴿...﴾ — ملائما الحال، فأورد البشارة بلفظ جامع موجز بليغ ؛ تعجيلا بالبشارة، وفي التعجيل بالبشارة إيجاء باستمساكهم بهذه الحال ، وحرصهم على البقاء عليها، وأي الناس لا يحب أن يكون على خير دائما ؟ ! وقد جاء المسند إليه بلفظ من طبيعته الاستغراق والشمول الذي لا يستثنى أحدا، وقد جاء منونا، وفي ذلك إيجاز بليغ ، فأصل الكلام: كل الذين يقرؤون القرآن ، ويدعون الله، والذين يتعلمون ويعلمون على خير، غير أن الحذف لو لم يقع، ويعوض عن المحذوف بالتنوين ، لفاتت نكتة التعجيل بالبشارة ، التي تستحثهم على الاستمساك بالبقاء على حالهم تلك ، ففي الذكر تطويل يتنافى مع مقصوده — ﴿...﴾ — من الحث على العلم .

هذا ، وفي قوله : — ﴿...﴾ — (على خير) استعارة مكنية (١) في الحرف (على) وقد جسدت هذه الاستعارة الخير (وهو أمر معنوي) في

(١) للبلاغيين ثلاثة آراء في إجراء الاستعارة في الحرف ، فهي عند الخطيب : استعارة تبعية تصريرية ، تابعة للتشبيه في متعلقاتها من مجروراتها ونحوها ، فيقال في قولنا : زيد في نعمة ورفاهية : شهت النعمة على زيد بدار مشتملة عليه ، ثم اسعمل في النعمة لفظ

صورة حسية ، حيث جعلت الفريقين يعلوان الخير ، ويتمكنان فوقه فضل تمكن ، وفي هذا تأكيد للبشارة ، ولو قال : كلٌّ خيرٌ لفاتت هذه المبالغة في بيان الفضل .

ثم جاء بعد ذلك تفصيل بعد هذا الإجمال ؛ زيادة في تأكيد الفضل، ونلاحظ أن المسند إليه جاء معرفاً باسم الإشارة (هؤلاء) وذلك لتمييزه أكمل تمييز — كما يقول البلاغيون (١) — وفي استخدام اسم الإشارة القريب إشعار بقربهم منه — ~~فإن~~ في المكان والمكانة ، وجاء المسند جملة فعلية فعلها مضارع، دلالة على تجدد ذلك منهم و حدوثه ، ومما يلفت الانتباه هذا القيد (فإن شاء أعطاهم ، وإن شاء منعهم) وفي ذلك يقول السندي : (أعطاهم) " أي : مطلوبهم ، إذ لا وجوب عليه — تعالى — لكن في ترك هذا فيما بعد تنبيه على أن إعطاء أولئك مطلوبهم كالمحققين،

(في) كما يستعمل في الدار ونحوها ، والجمهور : على أن متعلقات الحروف هي معانيها الكلية ، فيجري التشبيه فيها أولاً ، ثم تنسب عليه الاستعارة منها ، وعلى هذا يقال في قولنا : زيد في نعمة : شبهت ملابسة النعمة لصاحبها بملابسة الظرف للمظروف ، ثم استعير للمشيبة اللفظ الموضوع للمشيبة به ، وهو (في) وبعض الجمهور لا يكفي بإجراء التشبيه في متعلقات الحروف ، بل يوجب إجراءه في جزئياتها بعدها ، وبهذا يجعل الاستعارة في جزئياتها دونها .

ويرى العلامة ابن يعقوب المغربي أن الاستعارة في الحرف مكنية ، وذلك مبني على تشبيه مدخول الحرف بما حقه أن يدخل عليه ؛ تشبيهاً مضمراً في النفس ، ثم تستعير المشبه به للمشيبة ، ثم تحذف المشبه به ، وترمز إليه بشئ من لوازمه ، وهو الحرف ، فيقول مثلاً : في قوله : — تعالى — (فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدواً وحزناً) (القصص / ٨) شبهت العداوة والحزن باخبة ، والتبني ، ثم استعيرت اخبة والتبني للعداوة والحزن ، ثم حذف التبني واخبة ، و رمز إليهما بشئ من لوازمها ، وهو لام التعليل ، وإثبات هذا اللازم تخيل ، وهو قرينة المكنية . ينظر الإيضاح للخطيب القزويني ٣ / ١٣٦ و ما بعدها ، ط مكتبة الآداب دون تاريخ ، شروح التلخيص ٤ / ١٢٠ و ما بعدها ، بغية الإيضاح للشيخ عبد المتعال الصعيدي ٣ / ١٣٦ و ما بعدها ، البيان بين عبد القاهر والسكاكي د / على البدري ١٧٢ و ما بعدها ، و البيان في نور القرآن ٩٨ د / إبراهيم صلاح الهدهد ط الجريسي ١٩٩٥ م .

(١) خصائص التراكيب د / محمد أبو موسى ٢٠٠ ط مكتبة وهبة ١٤١٦ هـ .

ففيه إشارة إلى بون بعيد بينهما " (١) كما أنني أستشعر أن في هذا القيد إشعاراً بعلو مرتبة الفريق الثاني على هذا الفريق في الخيرية، أي أن عملهم الخير فيه احتمالي لا جزمي، بدليل أنه — ﷺ — جلس مع الفريق الثاني، بعد أن قال : وإنما بعثت معلما .

ولعله — ﷺ — اقتصر على الإخبار عن الفريق الثاني على قوله: (يتعلمون) مع أنه قد جاء في تقديم الراوي للحديث (يتعلمون ويعلمون) لعله اقتصر على الأول ، زيادة حث على طلب العلم ، وبيانا أنه إذا ما ثبت الفضل للمتعلم ، فثبوته للمعلم أولى وأكد .

وقد ختم — ﷺ — الحديث بقوله (وإنما بعثت معلما) بهذه العبارة الموجزة البليغة الكاشفة عن فضل العلم و الحث على طلبه ، وقد جاءت الجملة بأسلوب القصر ، وبـ (إنما) وموضوع إنما " على أن تجيئ خبر لا يجهله المخاطب، ولا يدفع صحته ، أو لما يترل هذه المترلة " (٢) فقد ساق — ﷺ — الجملة هذا المساق ، زيادة تنبيه على فضل العلم، وهو قصر ادعائي(٣) يقصد به بيان فضل العلم ، حتى كأنه — ﷺ — قصرت مهمة

(١) حاشية السندي على سنن ابن ماجه ١/١٥١ .

(٢) دلائل الإعجاز للإمام عبد القاهر : ٢٥٤ تحقيق محمد رشيد رضا ط دار المعرفة بيروت ١٤٠٢هـ .

(٣) القصر الادعائي : هو أن يترل ما عدا المقصور عليه مترلة المعلوم عند قصد الادعاء والمبالغة ، وهذا اللون من القصر يأتي في القصر الحقيقي بنوعيه — قصر الموصوف على الصفة وقصر الصفة على الموصوف — فقصر الموصوف على الصفة قصرا حقيقيا ادعائيا كقوله

بعثته في التعليم ، وفي هذا بيان لفضل العلم ما بعده بيان، وقد جاء قول الراوي (فجلس معهم) زيادة تأكيد في بيان فضل العلم، وجملة القول أن الحديث الشريف بني بأسلوب موجز بليغ يتجه بكل تراكيبه نحو بيان فضل أهل العلم، والحث على طلب العلم .

عن أبي هريرة — رضي الله عنه — قال : سمعت رسول الله ﷺ —
 — يقول : " مَنْ جَاءَ مَسْجِدِي هَذَا ، لَمْ يَأْتِهِ إِلَّا خَيْرٌ يَتَعَلَّمُهُ ، أَوْ يُعَلِّمُهُ فَهُوَ
 بِمِثْلَةِ الْمُجَاهِدِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، وَمَنْ جَاءَ لْغَيْرِ ذَلِكَ فَهُوَ بِمِثْلَةِ الرَّجُلِ يَنْظُرُ إِلَى
 مَتَاعٍ غَيْرِهِ " (١)

التصور الجملي للحديث :

مقصود الحديث بيان فضل العلم والعلماء والحث على طلب العلم ، وقد خرج الحديث الشريف في جملة شرطية (من جاء مسجدتي هذا لم يأت به إلا خير يتعلمه أو يعلمه فهو بمثلة المجاهد في سبيل الله) تبعثها جملة أخرى عطف عليها ، وهي شرطية مثلها (ومن جاء لغير ذلك فهو بمثلة الرجل ينظر إلى متاع غيره) .

اصطفاءات الألفاظ :

اصطفى — ﷺ — الفعل (جاء) في فعل الشرط ، والفعل (يأت به) في جملة الحال ؛ لأن المجيء أعم من الإتيان ، والمجيئ لا بدله من الحصول ، أما الإتيان فقد يقال باعتبار القصد ؛ لذا استخدم الإتيان في جملة الحال ، وهو مما

(١) رواه ابن ماجه في سننه — المقدمة ، باب فضل العلماء و الحث على طلب العلم .

يُوحى بأنه لا بد أن يتوفر أمران لمن يأتي مسجده — ﷺ — بغية الحصول على تلك الجائزة المرصودة ، وهي جعله بمنزلة المجاهد، هذان الأمران هما : العزم على العلم أو التعلم عزم من أتى الشئ ، وتحقيق هذا العزم بالحضور إلى مسجده — ﷺ — والتلبس بالعلم بأي من حاله (التعليم، أو التعلم) وفي التفريق بين المجيئ والإتيان يقول الراغب : " المجيئ كالإتيان، لكن المجيئ أعم ؛ لأن الإتيان مجيئ بسهولة، والإتيان قد يقال : باعتبار القصد، وإن لم يكن منه الحصول، والمجيئ يقال اعتبارا بالحصول " (١)

وقد اصطفى — ﷺ — المنزلة على الثواب، فلم يقل : فله ثواب المجاهد ، للتأكيد على حصول العالم والمتعلم على أجر المجاهد تماما ، ولو قال : فله ثواب المجاهد لما كانت هذه الدلالة ، وإنما يمكن أن يدل على ثواب قريب من ثوابه ، فوراء التعبير بالمنزلة ما وراءه من الحث على طلب العلم، وبيان فضل العالم والمتعلم ، فطلب العلم جهاد من الجهاد ، وهو مما يوجب على طلاب العلم صبرا كالصبر على الجهاد ، وهو مما يوحى بأن العلم دربه شاق و عسير ، وأنه ليس بالشئ يطلب بالهوينى .

(١) المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني مادة (جاء) .

وفي المقابل اصطفى —  — كلمة (متاع) فلم يقل مثلاً : إلى مكانة غيره ، لأن التعبير بالمتاع فيه زيادة تحسير له إذ رأي الخير ، ولم يسع للحصول عليه وذلك لما في كلمة المتاع من معنى المتعة التي تشمل كل

مظاهر المتع الحسية والمعنوية والنفس عند مشاهدة المتع تنفتح شهيتها، ويسيل لعابها، فإذا لم تتمكن من الحصول على هاتيك المتع كان ذلك أشد تحسيرا لها.

أحوال التركيب :

بني الحديث الشريف بأسلوب الشرط ، وفي ذلك تأكيد على حصول الثواب إذا ما تحقق الشرط حصل الجزاء ، وليس في الأساليب ما يؤدي هذا المؤدى سوى أسلوب الشرط ، والمسند إليه هنا هو اسم الشرط كما مضى بيانه في حديث سابق ، والمسند فعل الشرط وجوابه، وفي قوله: (من جاء مسجدي هذا) جاء فعل الشرط بصيغة الماضي للدلالة على تحقق الوقوع بإخراجه في صورة المتحقق الواقع، أو على طريقة التفاؤل بالحصول، لأن النفس إذا رغبت في شئ أخرجه مخرج الحاصل المتحقق .

وقد جاء المفعول به (مسجدي) مضافا إلى ياء المتكلم، التي تعود إليه — ﷺ — وفي ذلك من التشريف ما فيه، وقد جاء اسم الإشارة (هذا) وهو بدل من (مسجدا) يضيف تشريفا إلى التشريف السابق، وقد ذكر العلماء أقوالا في التقييد بمسجد رسول الله — ﷺ — وفي هذا يقول السندي : " قوله : (من جاء مسجدي هذا) أراد مسجده ، وتخصيصه بالذكر إما

لخصوص هذا الحكم به ، أو لأنه كان محلا للكلام ، وحينئذ حكم سائر المساجد كحكمه " (١) وما من ريب في أن هذه الإضافة فوق إفادتها التشريف توحى بأن مسجده — ﷺ — ينبغي أن يتره عن غير الاشتغال بالعلم ، والعبادة ، وأن سائر المساجد كذلك ، غير أن حكم مسجده — ﷺ — في ذلك أشد تعظيما له ، إذ هو مما تشد الرحال إليه، كما جاء في الحديث (٢) وليست الصلاة فيه كالصلاة في غيره من المساجد باستثناء المسجد الحرام، والمسجد الأقصى، وإذا ما كان أجر الصلاة فيه ليس كأجرها في غيره ، فطلب العلم فيه كذلك .

قوله : — ﷺ — (لم يأت به إلا لخير يتعلمه أو يعلمه) يقول السندي : " الجملة حال، أي: حال كونه آتيا للخير لا لغيره ، والكلام فيمن لم يأت للصلاة، وإلا فالإتيان لها هو الأصل المطلوب في المساجد " (٣) وهذه الجملة الحالية قيد للمجئى ، أي : أنه لا ينبغي مخالفة هذا القيد؛ لأن الحال من قيود الجمل، ونلاحظ أن جملة الحال جاءت بأسلوب القصر، وبأقوى أدواته (النفي والاستثناء) وفي ذلك تشديد على عدم مخالفة هذا الحال، وهو من

(١) حاشية السندي على ابن ماجه ١/١٤٩ .

(٢) عن أبي هريرة — رضي الله عنه — عن النبي — ﷺ — أنه قال : " لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد المسجد الحرام ، ومسجدي هذا والمسجد الأقصى " رواه البخاري في صحيحه ، كتاب الجمعة ، باب فضل الصلاة في مسجد مكة والمدينة ، وكتاب الحج باب حج النساء وكتاب النساء باب صوم يوم النحر ، و رواه مسلم في صحيحه كتاب الحج باب لا تشد الرحال إلا ثلاثة مساجد ، و رواه الترمذي في الجامع كتاب الصلاة باب ما جاء في أي المساجد أفضل ، و رواه النسائي كتاب المساجد باب ما تشد الرحال إليه ، ورواه أبو داود في سننه كتاب المناسك باب في إتيان المدينة .

(٣) حاشية السندي على سنن ابن ماجه شرح هذا الحديث .

قصر الصفة على الموصوف قصرا ادعائيا ، فقد قصر الإتيان على الخير، والمقصود منه المبالغة في إخلاص النية في طلب العلم عند الإتيان إلى مسجده — ﷺ — وكل هذا ترق في تشريف طلب العلم في المساجد عامة، وفي مسجده — ﷺ — على الخصوص، كما أن متعلق الفعل جاء هنا جاراً ومجروراً (لخير) وفي هذا دلالة على حصر المقصود من الإتيان فيما هو نافع ؛ لذا اختار لفظا عاما، ولم يقل مثلاً : لعلم أو غير ذلك ، وقد قيد هذا المتعلق بجملة فعلية فعلها مضارع (يتعلمه) عطف عليها أخرى مثلها (أو يعلمه) للدلالة على التجدد والحدوث ، وهو تخصيص بعد تعميم فيه تأكيد على إثبات فضل طلب العلم ، وبيان لمكانة أهله ، مما يلهب الحماس على الحصول على تلك المكانة ، وذلك الأجر .

وقد جاء جواب الشرط (فهو بمنزلة المجاهد في سبيل الله) مقترنا بالفاء لأن جواب الشرط جملة اسمية ، وفي مجيئ الجواب جملة اسمية إشارة إلى ثبات أجر طالب العلم ، وقد ذكر السندي وجه تشبيه طالب العلم بالمجاهد في سبيل الله فقال : " ووجه مشابحة طالب العلم بالمجاهد في سبيل الله أنه إحياء للدين، وإذلال للشيطان ، وإتعاث للنفس ، وكسر ذرى اللذة، كيف وقد أبيض له التخلف عن الجهاد ، فقال : — تعالى — (وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ) (التوبة / ١٢٢)

"(١) وقد قال : — ﷺ — بمثالة المجاهد؛ تأكيداً على الاتفاق التام في الثواب .

قوله : — ﷺ — (ومن جاء لغير ذلك) هذه الجملة جاءت معطوفة على الجملة الأم ، وهي شرطية مثلها ، وفي هذه الجملة تصوير بديع حيث شبه الرسول — ﷺ — من جاء مسجده لغير طلب العلم بمن دخل السوق لا يبيع ، ولا يشتري ، بل لينظر إلى أمتعة الناس دون أن ينال شيئاً منها ، ثم حذف المشبه به (السوق) ورمز له بشيء من لوازمه (متاع) بجامع عدم النفع مع بذل الجهد في كل على سبيل الاستعارة بالكناية ، وفي هذه الاستعارة تجسيد لحسرة من رأى فرصة لطلب العلم دون أن يغتنمها ، وهو ما ذكره السندي في قوله : "ومن جاء لغير ذلك أي : لم يأت للصلاة . . . (فهو بمثالة الرجل ينظر إلى متاع غيره) أي : بمثالة من دخل السوق لا يبيع ولا يشتري، بل لينظر إلى أمتعة الناس ، فهل يحصل له بذلك فائدة ؟ فكذا هذا ، وفيه أن مسجده — ﷺ — سوق العلم، فينبغي للناس شراء العلم بالتعلم والتعليم" (٢) وفي قوله: (لغير) جناس مضارع مع قوله (لخير) للإيدان بأن الفرق بين الطريقتين يسير لمن عقل وتدبر، لو أخلص النية، وصح منه العزم .

(١) حاشية السندي على سنن ابن ماجه ١/١٤٩ .

(٢) حاشية السندي على سنن ابن ماجه ١/١٤٩ .

ونلاحظ أنه — ﷺ — لم يقل هنا : ومن جاء مسجدي هذا، على غرار الجملة السابقة ؛ للدلالة على انتفاء التشريف الذي حصل للفريق الأول حيث أنزل الفريق الأول الشريف منزله اللائق به فاستحق التشريف بالأجر، فالجزاء من جنس العمل ، أما هذا الفريق فلم يترل الشريف منزله اللائق به، فاستحق التحسير ، كما أن التعبير بقوله (لغير ذلك) وما فيه من التعميم يدل على دخول ما عدا المذكور في الفريق الأول (لخير يتعلمه أو يعلمه) في الفريق الثاني ، وهو مما يعني بالمفهوم تشريف طالب العلم ، وفي قوله (ينظر إلى متاع غيره) تأكيد على ما ينتاب هذا الرجل من الحسرة ، وذلك أنه يبصر ما أمامه من الخير على مقربة منه دون أن يحظى بشئ منه، هذا، وكل تدن في منزلة الفريق الثاني هو بالتبع تأكيد على رفعة درجة الفريق الأول، مما يلهب النفس على اغتنام هذه المكانة، وذلك الثواب العظيم وقد بني الحديث بأسلوب موجز، واكتتر هذه المعاني التي كشفت عن فضل العلم ومكانة أهله فصلى الله على سيدنا محمد وسلم تسليما كثيرا .

عن ابن عباس — رضي الله عنهما — قال : قال رسول الله — ﷺ — " فقيهٌ واحدٌ أشدُّ على الشيطانِ من ألفِ عابدٍ " (١)

التصور الجملي للحديث

خرج الحديث الشريف في جملة واحدة ، مقصودها العام : بيان فضل أهل الفقه .

اصطفاءات الألفاظ

اصطفى — ﷺ — (فقيه) على عالم ، دلالة على تشريف القائمين على علم الشريعة الذي به محاربة الشيطان ، فالفقه " هو التوصل إلى علم غائب بعلم شاهد ، فهو أخص من العلم . . . والفقه العلم بأحكام الشريعة " (٢) و" الفقه : الفهم و الفطنة ، والعلم ، وغلب في علم الشريعة ، وفي علم أصول الدين ، وفي القانون " (٣) فلو قال : عالم لما لاءم السياق ،

(١) رواه الترمذي في سننه ، كتاب : العلم ، باب : في فضل الفقه على العبادة ، ورواه ابن ماجة في سننه ، المقدمة في فضل الفقهاء و الحث على طلب العلم .

(٢) المفردات مادة (ف ق هـ) ٣٨٤ .

(٣) المعجم الوسيط مادة (ف ق هـ)

لأن لفظ (عالم) يشمل خصوصية محاربة الشيطان ضمناً ، لا نصاً كلفظ (فقيه) .

واصطفى — ﷺ — الشيطان على لفظ إبليس، لأن الأخير نص على من عصى أمر ربه في السجود لآدم — عليه السلام — كما جاء في مواطن متعددة في القرآن الكريم (١) أما الشيطان فهو علم على كل عات متمرّد، قال الكفوي : " الشيطان : كل عات متمرّد من الجن والإنس والدواب فهو شيطان " (٢) وفي الوسيط " الشيطان: كل متمرّد مفسد" (٣) والتعبير بالشيطان مطابق للواقع، ومناسب للمبالغة في بيان فضل الفقيه، لما في معنى الشيطان من الفساد والتمرّد، وليس ذلك في لفظ إبليس .

أحوال التركيب

بني الحديث الشريف على ضرب من الإيجاز البليغ، وقد جاء المسند إليه منكراً (فقيه) للتعظيم (٤) الذي ضاعف منه وصفه بوصف يدل على

(١) ينظر في المصحف الشريف : البقرة / ٣٤ ، الأعراف / ١١ ، الحجر / ٣٢:٣١ ، الإسراء / ٦١ ، الكهف / ٥٠ ، طه / ١١٦ ، الشعراء / ٩٥ ، سبأ / ٢٠ ، ص / ٧٤:٧٥ .

(٢) الكليات ٥٢٣ .

(٣) المعجم الوسيط مادة (ش ط ن)

(٤) يأتي المسند إليه منكراً لأغراض عدة منها : التعظيم والتحقير والتكثير والتقليل وغير ذلك من النكات التي يقتضيها المقام ، ينظر : فن البلاغة ١١٩:١٢٢ د/ عبد القادر حسين ، ط عالم الكتب ١٤٠٥هـ ، من بلاغة النظم العربي الجزء الأول ١٧١:١٧٥ د/ عبد العزيز عبد المعطي عرفة ، ط دار الطباعة الخمدية ١٩٨١م ، وفي علم المعاني الجزء الأول ١٧٧:١٨٠ د/ حمزة الدمرداش زغلول نشر المؤلف ١٤١٩هـ .

ذلك (واحد) حيث جاء هذا الوصف مقابل (ألف) في الطرف الثاني، وقد
بين علماؤنا المراد بالفقه يقول المناوي: "قال الغزالي : والمراد بالفقه هنا

:علم طريق الآخرة، ومعرفة دقائق آفات النفوس، ومفسدات الأعمال، وقوة الإحاطة بحقارة الدنيا، وشدة التطلع إلى نعيم الآخرة، واستيلاء الخوف على القلب، لا تفريعات الطلاق واللعان، والسلم، والإجارة فإن التجرد له على الدوام يقسي القلب، ويتزعج الخشية منه كما يشاهد من المتجردين فيه، وقال الذهبي: هذا الحديث — لو صح — نص في الفقيه الذي تبصر في العلم، ورقى إلى الاجتهاد وعمل بعلمه، لا كفقيه اشتغل بمحض الدنيا" (١)

وقد جاء المسند أفعّل تفضيل (أشد) للمبالغة في بيان منزلة الفقيه، وقد علل علماؤنا وجه الشدة فقالوا: "لأن الشيطان كلما فتح بابا على الناس من الهوى، وزين الشهوات في قلوبهم بين الفقيه العارف مكايده، ومكامن غوائله، فيسد ذلك الباب، ويرده خائبا خاسرا، و العابد ربما اشتغل بالعبادة، وهو في حبال الشيطان، ولا يدري" (٢) "وشئ آخر هو" أن غاية همة العابد أن يخلص نفسه من مكائد الشيطان، وقد لا يقدر عليه، فيدركه الشيطان من حيث لا يدري بخلاف الفقيه، فقد يخلص الله — تعالى — على يديه العباد من مكائد الشيطان" (٣)

(١) فيض القدير للمناوي ٥٦٢/٤.

(٢) فيض القدير ٥٦١/٤ وتحفة الأحوذى ٤٥٠/٧.

(٣) حاشية السندي على ابن ماجه ١٤٥/١.

ومما يؤيد ذلك وقوع حرف الاستعلاء (على) الذي صور فقيها واحدا واضعا قدميه على أعناق عدد غفير من الشياطين ، وهو أسلوب استعارة لتمكن الفقيه من محاربة الشيطان ، ودفعه ، والقدرة عليه وغلبته لذا قال (على الشيطان)، ولم يقل في محاربة الشيطان . . وقد جاء المحارب معرفا بالألف واللام ، ولم يأت منكرا على نحو المسند إليه ، للدلالة على أنه الشيطان المعروف المتوعد بالإغواء ، ولو نكره لاحتمل دخول شياطين آخرين من الإنس ، فاللام للعهد الذهني .

وقد جاء المفضول بلفظ يدل على كثرة العدد (من ألف) وفي ذلك من بيان منزلة الفقه والفقهاء ما فيه، والتعبير — (عابد) يرفع من منزلة الفقيه لوصفه بما يدل على ملازمته حظيرة ربه ، لذا لم يقل (مؤمن) أو (مسلم) أو (صائم) وإنما جاء بما هو أشمل من ذلك دلالة على اجتهاده في مرضاة ربه، وكل وصف في جانب المفضول ، هو إعلاء لشأن الفاضل (الفقيه)، فالحديث الشريف مع أنه جملة واحدة إلا أنه حوى من الألفاظ وهيئة تركيبها ما يبرز مكانة الفقيه .

عن أنس بن مالك — رضي الله عنه — قال : قال رسول الله
 — ﷺ — مَنْ خَرَجَ فِي طَلَبِ الْعِلْمِ كَانَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ حَتَّى يَرْجِعَ " (١)

التصور الجملي للحديث

مقصود الحديث العام : الحض على طلب العلم ببيان فضل طالب العلم ، وقد خرج الحديث في جملة واحدة ، وهي جملة شرطية .

اصطفاءات الألفاظ

اصطفى — ﷺ — (خرج) على ما يقاربها في أداء المعنى من مثل ذهب ، أو سافر ، أو انطلق ، للدلالة على أن طلب العلم كان ، وما يزال بابا من أبواب الجهاد ، والمجاهدة ، فاستخدم — ﷺ — مع طلب العلم لفظة (خرج) وقد استخدم القرآن الكريم هذه اللفظة في الجهاد في مواضع منها قوله : — تعالى — (وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ ابِعِائِهِمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ) (التوبة / ٤٦) وقوله : (فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا) (التوبة / ٨٣) ويؤيد ذلك أنه قال في

(١) رواه الترمذي في سننه ، كتاب : العلم ، باب : فضل طلب العلم

سورة التوبة (وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ) (التوبة / ١٢٢)

أحوال التركيب

خرج الحديث في جملة شرطية ، وقد وقع المسند إليه اسم شرط (من) والمسند فعل الشرط وجوابه ، وفي إيراد الحديث بأسلوب الشرط تأكيد على تحقق الثواب والفضل والمترلة ، حيث كان ذلك جزاء ، وكان مجرد الخروج إلى طلب العلم شرطاً له ، مما يدفع إلى الحز على طلب العلم ، والحث على اقتناص هذه المترلة ، وذلك الثواب ، كما أن في مجئ المسند إليه شرطاً إيلاءاً للعناية والاهتمام على ما يعين المسند إليه من فعل الشرط وجوابه ، دون نظر إلى من يحقق الشرط .

وقد وقع فعل الشرط ماضياً تفاعلاً بتحقيق الوقوع ، وإظهاراً لحبه — **ﷺ** — لتحقيق الخروج لطلب العلم ، فالنفس إذا أحبت شيئاً أخرجته مخرج المتحقق الواقع ، وفي ذلك من إظهار الحرص على تحقق المطلوب مافيه ، كما أن فيه إشارة إلى أن تحقق المترلة والثواب متوقف على تحقق الخروج الذي يتبع تحقق النية لطلب العلم ، كما أن في التعبير بـ (خرج) مافيه من وجوب تحمل المشاق في طلب العلم ، الذي يقابله ذلك الجزاء العظيم في

جواب الشرط ، وفي تعليق الجزاء على مجرد الخروج حث ما بعده حث،
ويؤيد ذلك أننا لو قلنا : من خرج في طلب العلم وتعلم ، أو وحصل العلم
كان في سبيل الله . . . ما كان له مالتعبير الموجود في الحديث من الحلاوة
في الحث على طلب العلم ، وبيان منزلة طلابه .

وقد وقع هذا القيد (في طلب العلم) بأسلوب بليغ حيث جاء هذا
القيد بـ (في) ولم يأت باللام على سبيل الاستعارة، التي أظهرت طالب
العلم محاطا بما خرج إليه من كل جانب ، وفي ذلك مافيه من الإشارة إلى
عدم انشغال طالب العلم بشئ سوى العلم ، وأن يجعل طلب العلم هو شغله
الذي يعيش به ليلا ونهارا حركة وسكونا ، قولاً وفعلاً ، وكل ذلك كان
يفوت لو قلنا : من خرج لطلب العلم ، أو من خرج يطلب العلم .

واللام في (العلم) يمكن أن تكون للعهد ، ويكون المراد العلم الشرعي
على مذهب إليه المباركفوري (١) وهو تضيق لمتسع ، و الأفضل — فيما
أرى — أن يفسر العلم بالعلم النافع دينيا كان أم دنيويا ، وألا يقتصر على
علم الشرع، وإلا فسيخرج من هذا الحديث من عكف على تصنيع سلاح؛
حفاظا على ديار الإسلام، وكذلك من عكف على اختراع دواء لعلاج

(١) ينظر تحفة الأحوذى شرح جامع الترمذى ٤٠٦/٧ .

المسلمين وغير ذلك من العلوم النافعة ، فالذي أراه أن تكون اللام للعهد الذهني ، ويكون المراد بالعلم العلم النافع .

وقد جاء جواب الشرط على نهج فعل الشرط في التعبير بالماضي (كان في سبيل الله) تحقيقا للجزاء ، حثا على طلب العلم ، بالإغراء بحصول الجزاء، وقد عبر بـ (في) تناسبا مع فعل الشرط ، و دلالة على ما فيه طالب العلم من الخير الذي يحيط به من كل جانب حيث صار سبيل الله له كالوعاء، وصار هو داخل هذا الوعاء ، وفي هذا ما فيه من حثه على الاستمسك بهذا الوعاء، وعدم مفارقتة، وتنبيه له أن الشياطين ترصد له حول هذا الوعاء تريد إخراجة منه ؛ لأن العلم جهاد " لما في طلب العلم من إحياء للدين وإذلال للشيطان ، وإتعا ب للنفس كما في الجهاد " (١) كما أن في التعبير بسبيل الله إيماء لطالب العلم بالالتزام بحق سبيل الله ومقتضياته من الأدب والمراقبة ، ولزوم مرضاة الله ، والفرار مما يسخطه .

وفي ذكر الغاية التي بها ينفصل طالب العلم عن ذلك الجزاء العظيم، وتلك المتزلة الرفيعة (حتى يرجع) في ذكرها ما فيه من الإيماء لطالب العلم بإطالة البقاء في التلبس بتلك المتزلة ، وتحصيل ذلك الجزاء ، وعدم المسارعة بالرجوع ، فالحديث يتظاهر على إبراز ما يكون فيه طالب العلم من الخير وما يجب أن يكون عليه من الأدب .

(١) تحفة الأحوذى ٤٠٦/٧ .

(١٤٨)

عن أبي هريرة — رضي الله عنه — قال : سمعت رسول الله ﷺ —
 — يقول : " أَلَا إِنَّ الدُّنْيَا مَلْعُونَةٌ مَلْعُونٌ مَا فِيهَا إِلَّا ذَكَرُ اللَّهِ وَمَا وَالَاهُ
 وَعَالَمٌ أَوْ مُتَعَلِّمٌ " (١)

التصور الجملي للحديث

مقصود الحديث العام بيان فضل ذكر الله وأهل العلم ، وقد خرج
 الحديث في جملتين ، الأولى (ألا إن الدنيا ملعونة) والثانية : (ملعون ما
 فيها إلا ذكر الله وما والاه وعالم أو متعلم)

اصطفاءات الألفاظ

اصطفى — ﷺ — الدنيا فلم يقل الحياة ، تنبيها على حقارتها ،
 وتناسبا مع ما يرمي إليه الحديث من بيان هوان الدنيا باستثناء الذكر والعلم ،
 وقال : — ﷺ — ملعونة ، ولم يقل مذمومة ، تنبيها على شدة هوانها ، لأن
 الذم يتحقق بالحد الأدنى من الحقارة

(١) رواه الترمذي في سننه واللفظ له ، كتب : الزهد ، باب : ما جاء في هوان الدنيا على الله — عز وجل ، ورواه ابن ماجة في سننه ،
 كتاب الزهد ، باب : مثل الدنيا .

(۱۵۰)

أحوال التراكيب

افتتح — ﴿ ١٥١ ﴾ — كلامه — (ألا) وفي الافتتاح بها تنبيه للسامعين ، إلى أهمية ما يلقي بعدها وخطره ، وقد آزر (ألا) في التنبيه إلى أهمية ما يلقي بعدها التوكيد — (إن) واسمية الجملة يقول الزمخشري " ولكونها { ألا } بهذا المنصب من التحقيق لاتكاد تقع الجملة بعدها إلا مصدرة بنحو ما يتلقى به القسم نحو (أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَأَخَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَهُمْ يَخْزُونُ) (يونس/٦٢) (١) وقد جاء المسند إليه معرفا باللام ومقدما ، ودالا لغة على الحقارة ؛ تعجيلا بتحقيقها ، وإيماء إلى ما يذكر بعد من وصف يبين درجتها في الحقارة ، وقد اختلفوا في المراد بالدنيا، هل هي كل ما يشغل عن الله — تعالى — ويبعد عنه ، أم المراد بها العالم السفلي كله (٢) وعلى التفسير الأول تكون اللام للعهد ، وعلى الثاني تكون اللام للجنس، ولا يمنع السياق أيا من التفسيرين ، وجاء المسند اسم مفعول منكرا لقصد تهويل اللعنة ، وعبر باسم المفعول دلالة على تحقق وقوع اللعن ، لذا لم يقل الدنيا تلعن ، أو لعنت أو غير ذلك ، وقد خصص العلماء اللعن بما يغر من الدنيا ، لا كل مافيها من اللذات والنعيم لأن الأنبياء قد نالته (٣) وهو تخصيص ناظر إلى السياقات العامة لذكر الدنيا في الكتاب والسنة .

(١) الكشف عن حقائق التبريل وعيون الأقاويل للزمخشري ١/ ١٨٠ ، ط دار الفكر ، دون تاريخ .

(٢) شرح سنن ابن ماجة للسندي ٤/ ٤٢٨ .

(٣) فيض القدير للمناوي ٣/ ٦٧٦ .

وقد وقعت الجملة الثانية من الأولى موقع كمال الاتصال ؛ لأنها بمثابة التوكيد المعنوي ، وفي إعادة (ملعون) مرة ثانية بعد ذكرها في الجملة الأولى زيادة تحقير للدنيا بإيقاع اللعن عليها مرتين ، مرة عليها هي ، ومرة على ما فيها ، وكان يمكن أن يقال : الدنيا ملعون ما فيها إلا ذكر الله . . . لكن اللعن لا يتأكد تأكده فيما عبر به المصطفى ﷺ — وقد جاء المسند إليه (ما فيها) ، وهو نائب فاعل (لاسم المفعول) سد مسد الخبر ، وقد وقع اسم الموصول بـ (ما) وهو أعم الموصولات وأدخلها في الإبهام تأكيداً على شمول اللعن لكل ما فيها ، وهو أقوى في الكشف عن حقارتها من أن يقال : ملعون أهلها ، أو المغترون بها أو غير ذلك .

ثم وقعت (إلا) الاستثنائية بعد ذلك لتتشوف الأسماع إلى هذا الذي يعاكس حكمه الحكم الذي تظاهر على تحقير الدنيا ، وتحقير ما فيها ، وبدأ بالأعلى والأولى والأهم (ذكر الله) فذكر الله أفضل الأعمال ، ورأس كل عبادة ، وعبر بما يفيد العموم على شاكلة ما جاء في المستثنى منه من العموم ، فذكر الله يشمل كل ما جاء به الشارع مما يقرب إلى الله — سبحانه — والإضافة في (ذكر الله) فيها تفخيم وتشريف ، ومعنى قوله : " (وما والاه) ما أحبه الله من أعمال البر وأفعال القرب ، أو معناه : ما والى ذكر الله أي : قاربه من ذكر خير أو تابعه من اتباع أمره ، واجتناب نهيه لأن ذكره يوجب

ذلك" (١) ثم عطف على المستثنى أشياء أخرى هي من مشكاة ذكر الله (وما والاه وعالم أو متعلم) والنص هنا على العالم والمتعلم فيه تشريف لأهل العلم وبيان لفضلهم ، وفي ذكر العالم والمتعلم إطناب بذكر الخاص بعد العام؛ تنبيهها على بيان زيادة الفضل يقول المناوي : " قال الطيبي : وكان حق الظاهر أن يكتفى بقوله : (وما والاه) لاحتوائه على جميع الخيرات والفاضلات ومستحسنات الشرع لكنه خصص بعد التعميم ؛ دلالة على فضل العالم والمتعلم ؛ وتفخيما لشأهما صريحا ؛ وإيدانا بأن جميع الناس سواهما همج ؛ وتنبيهها على أن المعني بالعالم والمتعلم : العلماء بالله الجامعون بين العلم والعمل، فيخرج الجهلاء ، أو عالم لم يعمل بعلمه ، ومن يعمل عمل الفضول، وما لا يتعلق بالدين" (٢) وقدم العالم على المتعلم لفضل الأول على الثاني .

هذا ، وقد استشكل العلماء الاستثناء هنا لأن الاستثناء إن كان تاما موجبا فحق المستثنى النصب ، وبالنصب جاءت رواية ابن ماجة ، ولا إشكال فيها ، أما الإشكال ففي رواية الرفع التي معنا ، وقد أولها العلماء بقولهم : الدنيا مذمومة لا يحمد ما فيها إلا ذكر الله (٣) وعلى هذا التقدير يكون الاستثناء تاما غير موجب ، فيكون حكم المستثنى الرفع على البدلية

(١) فيض القدير ٦٧٤/٣ .

(٢) فيض القدير للمناوي ٦٧٤/٣ .

(٣) فيض القدير للمناوي ٦٧٤/٣ تحفة الأحوذى شرح جامع الترمذي ٢٤/٧ .

من المستثنى منه (ما فيها) وهو نائب فاعل (١) وأرى أن رواية النصب (وهي رواية ابن ماجه) أبلغ من رواية الرفع (وهي رواية الترمذي) ذاك أن رواية النصب فيها طي لكل ما يشعر بمدح الدنيا التي تظاهر التركيب على لعنها ، وبيان حقارتها حتى لو كان على جهة التأويل وحتى لو كان المدح منفيًا .

ومما يغزر المعنى ، ويكثر الإيحاءات أن " هذا الاستثناء يصح أن يكون منقطعاً إن أريد بالدنيا كل ما يشغل عن الله — تعالى — ويبعد عنه، فالمستثنى (ذكر الله . . .) ليس من جنس المستثنى منه ، ويصح أن يكون متصلاً إن أريد بالدنيا العالم السفلي كله ، وكل ماله نصيب بالقبول عنده — تعالى — قد استثنى بقوله : إلا ذكر الله . . . " (٢) ففي كل تأويل معنى جديد، فصدق من قال: " والحديث من كنوز الحكم ، وجوامع الكلم ؛ لدلالته بالمنطوق على جميع الخلال الحميدة، وبالمفهوم على رذائلها القبيحة " (٣)

(١) وذلك أن المنفي ليس قاصراً على ما يكون قد سبقته أداة نفي بل هو أعم من ذلك ، ومنه أن يكون العامل في المستثنى منه في معنى عامل آخر منفي / ينظر عدة السالك إلى تحقيق أوضح المسالك لحمد محي الدين عبد الحميد ٢٢٥/٢ ، ط ، بيروت ١٩٩٥م.

(٢) شرح السندي على سنن ابن ماجه ٤٢٨/٤ .

(٣) فيض القدير للمناوي ٦٧٤/٣ ، ٦٧٥ .

عن أبي أُمَامَةَ — رضي الله عنه — قال رسول الله ﷺ —
 — ستكونُ فِتْنٌ يُصْبِحُ الرَّجُلُ فِيهَا مُؤْمِنًا ، ويمسي كافرًا ، إِلَّا مَنْ
 أَحْيَاهُ اللهُ بِالْعِلْمِ " (١)

التصور الجملي للحديث

مقصود الحديث العام : بيان فضل أهل العلم ، وقد خرج في
 جملة واحدة .

اصطفاءات الألفاظ

عبر — ﷺ — بالرجل ولم يقل الإنسان أو المرأة أو الشاب ،
 لما لوصف الرجولة من تمام العقل ، وفي ذلك تأكيد على شدة
 الفتنة ، لأنه إذا ما كانت الفتنة ستصنع بمن بهذه الصفة هذا الصنيع
 فما الشأن بمن دون ذلك ، وعبر بالإحياء بدل الحماية ، حيث لم
 يقل : إلا من حماه الله بالعلم ، لأن في التعبير بالإحياء بدل الحماية

(١) رواه ابن ماجه في سننه ، كتاب : الفتن ، باب : ما يكون من الفتن .

دليل على الحماية وزيادة ، حيث فيما عبر به بشارة بالحياة ، وهذا أكثر من الحماية ، وإنذار بالموت القلبي لمن لا يعتصم بالعلم .

أحوال التركيب

افتتح الحديث الشريف بالسين (سيكون) وفي التعبير بالسين زيادة تحذير لدلالاتها على قرب الحدوث أكثر من أختها (سوف) " والسين يقال لها حرف تنفيس ؛ لأنها تنقل المضارع من الزمن الضيق ، وهو الحال إلى الواسع ، وهو الاستقبال . . . والسين للاستقبال القريب مع التأكيد^(١) وقد جاء المسند (تكون) ولعل فيها تأكيداً على وقوع الفتن أكثر من تحدث ، أو تحصيل ، لما في الكينونة من الثبوت ، وجاء المسند إليه (فتن) منكرًا للتفخيم والتهويل ، وقد آزر التنكير في أداء هذا المعنى ، إتباع المسند إليه بجملة وقعت صفة (يصبح الرجل فيها مؤمناً، ويمسي كافراً . . .) ويوجد هنا محسن بديعي ، وهو أسلوب المقابلة بين (يصبح الرجل فيها مؤمناً ويمسي كافراً) وقد صور أسلوب المقابلة قدر الحيرة

(١) الكليات للكفوي ٤٩٩ .

والتقلب في اليوم الواحد من الضد إلى الضد ، وهذا يدل على ادلهام الفتن ، واشتدادها ، حتى ينبهم الأمر على العقلاء بسبب هولها ، وشدها ، وقد تمت المقابلة بين زمانين متضادين وصفتين متضادتين ، وفي التعبير بـ (يصبح ويمسي) تصوير لحركة التقلب ، فهي تشبه حركة تعاقب الليل والنهار واختلافهما ، كما أن في التعبير بهما اتساقا مع ما جرت به عادة القرآن من تشبيه الإيمان بالنور ، والكفر بالظلمات ، وكان هذا التصوير لقدر الفتن سيفوت لو قيل مكان ما عبر به : يتقلب الرجل من الإيمان إلى الكفر ، لأن هذا التعبير لا يصور ضيق الزمن الذي يتم فيه التقلب ، وضيق زمن التقلب فيه تأكيد على شدة الفتن ، ولو قدم ما ذكر ثانيا على ما ذكر أولا لتنافى مع السياق ، لأن السياق يتجه إلى بيان أثر الفتن على الناس لذا لو قال : يصبح الرجل كافرا ، ويمسي مؤمنا لفسد المعنى ، لأن الكفر يكون أثرا للفتن ، و انتفاء الفتن يكون أثره الإيمان ، وقد عبر بالفعل المضارع دلالة على تجدد التقلب من الضد إلى الضد وحدوثه ، لذلك لم يقل ستكون فتن صباح الرجل فيها إيمان ، ومساؤه كفر ، لأن هذا التعبير يدل على الدوام والثبوت ، وليس إلى الدوام والثبوت يتجه سياق الحديث ، وقد جاء المسند

إليه لـ (يصبح) معرّفا باللام (الرجل) دليلا على اشتداد الفتن على من هو مثل في اشتداد الفتن، وفي اختصاصه دون غيره من بني جنسه تنبيه بالأعلى على الأدنى ، وفي قوله يمسي وقع المسند إليه ضميرا يعود على الرجل ، ولوعبر بالاسم الظاهر لفسد المعنى، يتبين هذا لو قلنا : يصبح الرجل مؤمنا ، ويمسي الرجل كافرا لتوهم اختلاف المسند إليه، وهو ما يتعارض مع ما يقصد إليه الحديث الشريف ، فالتعبير بالضمير يبين أن المسند إليه واحد على الرغم من هذا التغير .

وفي ذكر هذا القيد (فيها) تصوير لعظم الفتن حيث جعلت الفتن بمثابة الظرف، وجعلت الرجل بمثابة المظروف، الذي أحاط به الظرف من كل جانب، ففي التعبير بحرف الوعاء استعارة، صورت عظم الإحاطة بالفتن، فأى فتن تلك التي تقلب الرجل بين الإيمان والكفر في اليوم الواحد؟ ! ! اللهم سلم .

ثم وقع الاستثناء بعد بيان ادلهام الفتن وشدها ليبين قدر أهل العلم، وكيف يعصمون بالعلم من كل هذا الهول الذي تنخلع منه

القلوب، وفي ذكر أداة الاستثناء بعد كل هذا الهول تشويق إلى ما يذكر بعدها، لأن أسلوب الاستثناء مبني على أن ما بعد (إلا) ضد ما قبلها في الحكم، ثم جاء المستثنى اسم موصول زيادة في التشويق ليتمكن المذكور بعد ذلك من النفس خير تمكن وجاءت جملة الصلة بأسلوب الاستعارة (أحياء الله بالعلم) تشبيها لمن يثبت في هذا الهول على الإيمان والإسلام، بمن يحيا ولا يموت، بسبب ما أوتي من العلم، وفي ذلك تصوير لفضل أهل العلم، ومكائنتهم، وكل هول ذكر في أول الجملة يرفع من قدر أهل العلم الذين يعصمهم العلم من الفتن المذكورة في أول الحديث، لذا قال المناوي في التعليل لنجاة العالم من هذه الفتن "لأنه على بصيرة من أمره، وبينه من ربه، فيتجنب مواقع الفتن بما يعلم مما يستنبطه من الأحكام" (١)

وقد جاء المسند إليه بأهيب أسماء الله — عز و علا — تنبيهها إلى عظم هذه الحياة، وتناسبا مع التعبير عن هول الفتن المذكور في أول الحديث، فلا يقدر على عصمة المؤمنين إلا من تفرد بالألوهية، وقد جعل العلم بمثابة الماء، لأن البيان النبوي ينبع من

(١) فيض القدير ١٣٠/٤ .

مشكاة واحدة ، فقد مضى تشبيهه ما بعث به — ﷺ — من الهدى والعلم بالغيث الكثير .

عن أبي أُمَامَةَ — رضي الله عنه — قال : قال رسول الله ﷺ : — عَلَيْكُمْ بِهَذَا الْعِلْمِ قَبْلَ أَنْ يُقْبَضَ ، وَقَبْضُهُ أَنْ يُرْفَعَ — وَجَمَعَ بَيْنَ أَصْبَعَيْهِ الْوُسْطَى ، وَالَّتِي تَلِي الْإِبْهَامَ هَكَذَا — ثُمَّ قَالَ : الْعَالِمُ وَالْمُتَعَلِّمُ شَرِيكَانِ فِي الْأَجْرِ ، وَلَا خَيْرَ فِي سَائِرِ النَّاسِ " (١)

التصور الجملي للحديث

مقصود الحديث العام الحظ على طلب العلم بالأمر بأخذه والاستمسك به، وبيان فضل أهل العلم، وقد خرج الحديث الشريف في جمل عدة منها ما هو على لسان المصطفى — ﷺ — ومنها ما هو على لسان الراوي ، فالتى وردت على لسان المصطفى — ﷺ — (عليكم بهذا العلم قبل أن يقبض) (وقبضه أن يرفع) على أن الواو استئنافية، (العالم والمتعلم شريكان في الأجر) (ولا خير في سائر الناس) والتي على لسان الراوي (وجمع بين أصبعيه الوسطى ، والتي تلي الإبهام هكذا)

(١) رواه ابن ماجه في سننه ، المقدمة ، باب : فضل العلماء والحث على طلب العلم .

اصطفاءات الألفاظ

اصطفى الرسول — ﷺ — (عليكم) على ما ينوب عنه :
استمسكوا، أو الزموا، وذلك لوفاء اسم الفعل بأداء المقصود، وهو المبالغة
في الأمر، فاسم الفعل يدل على شدة الحدث ، فكأن الرسول — ﷺ —
يقول: استمسكوا استمساكا قويا ، يقول الشيخ محمد محيي الدين عبد
الحميد ، كاشفا عن فضل استخدام اسم الفعل على الفعل : " المتكلم قد
يقصد المبالغة ، ويريد أن يعبر عن مقصوده بأوجز لفظ، والسر في هذا أن
اسم الفعل يدل على شدة الحدث ، فإن قال : أف ، فكأنه قال : أتضجر
جدا . . . " (١)

أحوال التراكيب

صدرت الجملة الأولى باسم فعل الأمر (عليكم) وهو مسند يفيد
توكيد الاستمساك على النحو الذي ذكرناه ، وجاء المسند إليه ضميرا
مستترا في اسم فعل الأمر زيادة في تأكيد الإسناد ، وفي تعيين المسند إليه

(١) عدة السالك إلى تحقيق أوضح المسالك لحمد محيي الدين عبد الحميد ٤ / ٨١ .

كلام آخر (١) لكن الذي ذكرته أبعد من التكلف لأن اسم فعل بصورته هذه ، وليس بعلى وكاف الخطاب ، وميم الجمع ، وجاء القيد بعد ذلك (بهذا العلم) وقد عبر باسم الإشارة زيادة تعيين للعلم ، حيث جعله بمنزلة المحسوس القريب الذي يشار إليه ، كما أن في التعبير باسم الإشارة تعظيما للعلم، وقد حدد العلماء المقصود باسم الإشارة بقولهم : " والإشارة إلى علم الدين الذي بعث — ﷺ — لنشره ؛ فإنه المعهود في كلام الحاضر بحضوره، فصَحَّ الإشارة إليه " (٢) وقد استخدم الرسول — ﷺ — اسم الإشارة الموضوع للقريب، لبيان أن العلم قريب منهم لوجود مصدره الرسول — ﷺ — بين ظهرائهم ، وفي ذلك ما فيه من الحث على اغتنام وجوده وحمل العلم والعمل به ، ثم وقع لفظ العلم بدلا من اسم الإشارة تعظيما له، وزيادة حث عليه .

ثم وقع قيد آخر للمسند (قبل أن يقبض) وفي ذكر هذا القيد تحذير وتخويف يدفع إلى شدة الحرص على الاستمسك بالعلم ، وقد أضيف هذا القيد إلى المصدر المؤول ، وكان يمكن أن يقال : قبل قبضه ، غير أن التعبير بالفعل المضارع يحضر صورة القبض ، وفي إحضار صورة الحدث في الذهن

(١) اختلف النحاة في الكاف المتصلة بـ (على) فقال ابن بابشاذ : هي حرف خطاب ، فلا محل لها من الإعراب ، وقال الجمهور : هي ضمير المخاطب ، ثم قال الفراء : هي في محل رفع على الفاعلية ، وقال الكسائي : محلها نصب على المفعولية ، وقال جمهور البصريين : محلها جر ، ثم قيل : الجر بحرف الجر كما كان قبل النقل ، وقيل : الجر بالإضافة ، لأن (على) اسم للمصدر ، وهو اللزوم ، والكاف مضاف إليه ، فلها محلان : جر بالإضافة ، ورفع بالفاعلية ، ينظر : عدة السالك ٨٥/٤ .

(٢) شرح سنن ابن ماجة للسندي ١/١٥٠ .

زيادة تحذير تدفع إلى زيادة الحرص على طلب العلم ، وقد وقع المسند هنا (يقبض) بالبناء للمفعول ؛ توفيراً للعناية على الفعل ، وتنبيهاً إلى سرعة القبض ؛ لذا لم يطل الكلام بذكر الفاعل .

ثم وقعت جملة تلت الجملة السابقة تعلي من التحذير ، وتدفع إلى زيادة الحرص على طلب العلم (وقبضه أن يرفع) وفي هذه الجملة تكريم للعلم ، حيث قال (يرفع) ولم يقل : يمحى ، وقد وضحت هذه الجملة كيفية القبض؛ إعلاءً للتحذير يقصد منه الحض على طلب العلم، وإلهاب النفس على سلوك كل سبيل لتحصيله، وقد وقع الرفع على العلم، والمراد رفع أهله كما وضحت أحاديث أخرى، مبالغة في محوه من الأرض تماماً، وقد جاءت هذه المبالغة من الإسناد المجازي ، ففي الأسلوب مجاز عقلي علاقته الإضافية، حيث أسند الفعل إلى المضاف إليه ، والأصل أن يسند إلى المضاف، كالذي ورد في قوله : — تعالى — (وَأَسْأَلُ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا) (يوسف / ٨٢) والمراد أهل القرية ، وهذا يعني أن الرفع يتعدى العلماء إلى العلم ، وفي ذلك من التحذير ما فيه .

وقد جاءت الجملة التي ذكرها الراوي كاشفة عن مزيد تحذير، حيث مثل كيفية اقتراب ذلك بالصورة التشبيهية ، حيث شبه الرسول ﷺ — قرب وقع ذلك بالقرب بين أصبعيه ، فهذه إضافة في التحذير والترهيب من

ذهاب العلم ، تلهب النفس على العناية به ، والتوفر على طلبه والاستمساك به ؛ لذا ذكر السندي أن قول الراوي : (وجمع) " إشارة إلى قرب أوان القبض لما بينهما من الاتصال ، أو جمع يشير بهما إلى كيفية الرفع إلى السماء بأن أشار بهما إلى جهة العلو " (١) والحق أنه يمكن أن يراد الاثنان معا .

(١) شرح سنن ابن ماجه للسندي في هذا الحديث .

الفصل الرابع

بلاغته — ﷺ — في حديثه عن
ثواب العالم .

جرت عادة الناس إذا أرادوا إنفاذ أمر برغبة عظموا ثوابه، ووعدوا فاعله بجزيل العطاء، وقد جاءت أحاديثه — ﷺ — مرغبة في العلم، مصطفىة سبيل إجمال الثواب للعالم، حيث إن أجره يجري كلما عمل أحد بما علّم، وهذا يعني تكثير الثواب بما لا نظير له في صالح الأعمال، كما بين — ﷺ — أن تعليم العلم أفضل الصدقات، و أعلاها شأنًا، وأن تعليم العلم من المروءة و الإسلام، وجاءت عباراته الشريفة — ﷺ — في البيان عن ثواب العالم موجزة، ليسهل تناقلها بين الناس، و في ذلك ما فيه من الترغيب في طلب العلم.

عن أنس بن مالك — رضي الله عنه — أن النبي — ﷺ — قال :
 — مَنْ عَلَّمَ عِلْمًا ، فَلَهُ أَجْرٌ مَنْ عَمِلَ بِهِ لَا يَنْقُصُ مِنْ أَجْرِ الْعَامِلِ " (١)

التصور الجملي للحديث:

مقصود الحديث الشريف : الحض على التعليم، ووسيلة الحض على التعليم هنا هي إثبات الأجر الجزيل، وجزالة الأجر مما يحث على عمله، ويحفز النفس على القيام به، وقد خرج الحديث الشريف في جملة شرطية واحدة .

اصطفاءات الألفاظ :

اصطفى — ﷺ — لفظ (الأجر) على ما يقاربه في أداء المعنى كالجزاء وذلك أن الأجر يستخدم في الدلالة على المكافأة على الخير بخلاف الجزاء، فإنه يستخدم في الدلالة على المكافأة على الخير والعقوبة على الشر، فاستخدم الرسول — ﷺ — ما هو نص في الدلالة على الخير، واستعمالات القرآن الكريم للفظتين توضح لنا هذا الفرق فإننا نجد لفظة (أجر) ومشتقاتها لا ترد في الذكر الحكيم إلا في مواطن المكافأة على الخير من ذلك

(١) رواه ابن ماجه في سننه ، المقدمة باب : ثواب معلم الناس الخير

قوله : — تعالى — (وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ) (آل عمران/ ١٧١)
 وقوله: (وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ) (يوسف / ٥٧)
 وقوله : (إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا) (الكهف / ٣٠) ومثل ذلك
 كثير (١)

أما الجزاء ومشتقاته فإننا نجد في الذكر الحكيم واردا تارة في مقام
 المكافأة على الخير من ذلك قوله : — تعالى — (إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا
 صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ) (المؤمنون / ١١) كما نجد واردا تارة في مقام
 العقاب على الشر من ذلك قوله : — تعالى — (سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ
 عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ) (الأنعام / ١٥٧) وقوله
 : (ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ) (سبأ / ١٧) (٢)

ويقول العلماء في الفرق بين الكلمتين (أجر) و (جزاء) " الأجر
 والأجرة يقال فيما كان عن عقد و ما يجري مجرى العقد ، ولا يقال إلا في
 النفع دون الضر (لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ) (البقرة / ٢٦٢ ، ٢٧٧ وآل
 عمران / ١٩٩) وقوله: (فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ) (الشورى / ٤٠) (٣) وقالوا

(١) يراجع المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم مادة (أجر) ١٧ ، ١٨ محمد فؤاد عبد الباقي ط دار المعرفة بيروت ١٤١٤ هـ .

(٢) يراجع المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم مادة (جزى) ٢١٣ : ٢١٥ ، ومجموع الآيات التي تتحدث عن الجزاء على الخير
 ٤٤ آية تقريبا ، و التي تتحدث عن الشر ٥٤ تقريبا .

(٣) ينظر المفردات للراغب الأصفهاني مادة (أجر) ١١ و الكليات لأبي البقاء الكفوي ٤٨ .

أيضا : " والجزاء يقال فيما كان عن عقد وغير عقد، ويقال في النافع والضرار : (وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا) (الإنسان / ١٢) و(فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ) (النساء / ٩٣) (١) أي : الجزاء أعم من الأجر ، والأجر مقصور على النافع على العكس من الجزاء المستعمل في الاثنين .

أحوال التركيب :

بني الحديث بأسلوب الشرط، وهو الأسلوب الشائع في حديثه — ﷺ —
 — عن فضل العلم والعلماء، وكأنه من خصائص حديثه — ﷺ — في
 الحديث عن هذا الموضوع، هذا، وفي أسلوب الشرط تأكيد على حصول
 الثواب والمسند إليه هو اسم الشرط (من) والمسند هو فعل الشرط وجوابه،
 وقد جاء فعل الشرط ماضيا؛ للدلالة على تحقق الوقوع بإخراجه في صورة
 المتحقق الواقع، أو على طريقة التفاؤل بالحصول، فإن النفس إذا تعلق حبها
 بشيء أخرجته مخرج الحاصل، وقد جاء المفعول به منكرا (علما) للتعظيم،
 وفيه حث على تعليم أي قدر من العلم .

وقد جاء الشرط مقترنا بالفاء لأنه جملة اسمية، وفي مجيئ جواب الشرط
 جملة اسمية دلالة على ثبوت الأجر ودوامه، وفيه ما فيه من الحث على

(١) ينظر المفردات للراغب الأصفهاني مادة (أجر) ١١ والكليات لأبي البقاء الكفوي ٤٨ .

استبقاء هذا الأجر والتلبس بالعمل المؤدي له، هذا، ونلاحظ تعلق الأجر بالعمل، لا بالعلم، وفيه حث على العمل بالعلم وتحريض على تحويله إلى سلوك واقع يحسه الناس فيرون الفرق بين المتعلم وسواه من الناس، ويقول المناوي في تعليل تعلق الأجر بالعمل لا بالعلم: " لأن العامل إنما يتلقى كيفية تصحيح عمله من العالم، فله الأجر على حسب الانتفاع بعلمه " (١)

هذا، وبين قوله — ﷺ — (لا ينقص من أجر العامل) وما قبله كمال اتصال ، فقد جاء مؤكدا لقوله : (فله أجر من عمل به) وفيه دفع لإيهام نقصان أجر العامل بحصول المعلم على أجر، فوجود العاطف هنا سيكون كالجسم الغريب إذ لا يستساغ وجوده بين المؤكد والمؤكد، وفي ذلك تكثير للثواب ما بعده تكثير، فالعالم يؤدي العلم مرة، ويتعدد الأجر مرات، فكل من تعلم على يديه وعمل بذلك وعلم غيره، ينال المعلم الأول ثواب ذلك إلى يوم الدين ، وهذا كله تغزير للثواب، حثا على طلب العلم والعمل به .

هذا، والحديث الشريف من الإيجاز البديع الذي يدل باللفظ القليل على المعنى الغزير، وفي خلوه من المجاز تناسب مع موضوعه ، لأنه في الأجر والثواب وبهذه الغزارة، التي إن عبر عنها بالمجاز لما كان فيها من التأكيد على

(١) فيض القدير ٦ / ٢٢٤ .

(١٧٣)

الأجر والثواب ما في الحقيقة في هذا الموطن، فجاء التعبير عن الأجر بأسلوب
محدد لا يحتمل التأويل.

عن أبي هريرة — رضي الله عنه — أن النبي ﷺ — قال : أَفْضَلُ
الصَّدَقَةِ أَنْ يَتَعَلَّمَ الْمَرْءُ الْمُسْلِمُ عِلْمًا ، ثُمَّ يُعَلِّمُهُ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ " (١)

التصور الجملي :

المقصود العام للحديث الشريف هو الحُض على التعلم والتعليم،
ووسيلة الحُض جعل العلم في ذروة الصدقات، وقد خرج الحديث في جملة
واحدة عطفت عليها جملة أخرى (ثم يعلمه أخاه المسلم)

اصطفاءات الألفاظ :

نلاحظ أنه — ﷺ — اصطفى وصف (المسلم) على المؤمن، وذلك أن
الإسلام أعم وأشمل من الإيمان، مما يشير إلى عموم النفع، وأن كل من نطق
الشهادتين استحق الانتفاع بأفضل الصدقات، وذلك على أن الإسلام هنا
دون الإيمان، لا فوقه، وفي هذا يقول الراغب : " الإسلام في الشرع على
ضربين أحدهما : دون الإيمان، وهو الاعتراف باللسان، وبه يحقن الدم حصل
منه الاعتقاد، أو لم يحصل . . . والثاني فوق الإيمان، وهو أن يكون مع

(١) رواه ابن ماجة في المقدمة باب : ثواب معلم الناس الخير .

الاعتراف باعتقاد بالقلب، ووفاء بالفعل، واستسلام لله في جميع ما قضى،
وقدر " (١)

كما نلاحظ أنه — ﷺ — اصطفى لفظ المرء على الرجل أو غيره، وكان أوجز أن يقول: أن يتعلم المسلم، لكن ما جاء عليه الحديث هو الأعلى؛ لما فيه من الإشعار بأن الإسلام والمروءة صنوان، ومن المروءة ألا يحجب المرء نفعاً يستطيع إيصاله لأحد، ويؤيده في ديننا، ما يجب على كل مسلم من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، بقيوده التي حددها العلماء .

أحوال التركيب :

خرج الحديث الشريف في جملة واحدة، وقد جاء المسند إليه أفعل تفضيل، وعرف بالإضافة (أفضل الصدقة) والإضافة هنا زادت الصدقة شرفاً إلى شرفها، وكلمة أفضل هنا تثير النفس إلى معرفة هذا الذي له هذه الأفضلية، ثم يجيء الخبر من بعد ذلك فيتمكن في النفس أفضل تمكن، وفرق بين أن يلقي الخبر إلى النفس دون تهينة وتشويق، وأن يلقي مصحوباً بذلك، كما أن هذه الإضافة تحمل النفس على ضرورة أن يحصل المسلم من الصدقة

(١) المفردات مادة (س ل م) ص ٢٤٠ .

أعلاها، وأن ينال خيرها، وكل هذا مما يضاعف من الحظ على التعليم والتعلم.

وقد جاء المسند مصدرا مؤولا، وفي مجيئه مصدرا مؤولا زيادة تشويق وإثارة للنفس، ويمكننا أن نحس هذا إذا قلنا بدلا من المذكور : أفضل الصدقة تعلم المسلم وتعليمه أخاه، لكنه قال بدل هاتين الكلمتين : (أن ، يتعلم ، المرء ، المسلم، علما) فوق أن مجيء الفعل بصيغة المضارع فيه دلالة على التجدد والحدوث، وقد جاء المفعول به منكرا للتعميم، ويشمل القليل والكثير ، لكنه مقيد بالعلم النافع بقريئة الأحاديث الأخرى في باب العلم .

ثم جاءت جملة معطوفة على أختها السابقة ، وقد جاء بحرف العطف (ثم) الدال على الترتيب والتراخي، وذلك لما يقتضيه الانتقال من مرحلة التعلم إلى مرحلة التعليم من الزمن، وهو مما يشير إلى ضرورة التريث بين هاتين المرحلتين مرحلة التحصيل ومرحلة الأداء و النفع بعد الانتفاع، وهذا الموقع من أحسن مواقع (ثم) وقد وضع د / أبو موسى أن توخي المعاني النحوية لحروف العطف من أروع البلاغة، حيث يقول: " إذا قلت : قدم زيد ثم عليّ، أفادت العبارة الترتيب والتراخي، وأن ثمة فاصلا بين الحدثين، هذه هي معاني النحو لهذه الأدوات الروابط، وبلاغتها في الكلام راجعة إلى توخي هذه المعاني ، وحسن تتريلها على حسب الأغراض و المقاصد المؤمة، أي:

التي يؤمها المتكلم، ويتجه إليها، والاجتهاد في كشف ملاءمات هذه الروابط لأغراضها التي سيقى إليها تجلية لجوانب دقيقة في بلاغة الكلام، وإتقان بنيته، وإحكام عقده " (١) والعجيب أن هذه الجملة على الرغم من أنها وقعت فضلة في الحديث، ولم تقع عمدة إلا أن السياق يشعر بأن الأجر المذكور يتعلق بها هي، ولا يتعلق بالجملة الأم، وذلك أن وصف الصدقة في المسند إليه (أفضل الصدقة) يصدق على هذه الجملة، ولا يصدق على أمها، ولكن لما كان المعلم لابد أن يتعلم أولاً جاءت الجملة الأولى أساسية، وجاءت الجملة الثانية فرعية، للترتيب الوجودي، وفي تسمية تعليم الغير صدقة تأكيد على حصول الثواب لما تجمع عليه نصوص القرآن والسنة من حصول ثواب على الصدقة وقد ذكر العلماء أن إطلاق الصدقة على نحو هذا العمل (التعليم) من قبيل المجاز، يقول المناوي: "تعليمك العلم لغيرك صدقة منك عليه، بل هو من أفضل أنواع الصدقة؛ لأن الانتفاع به فوق الانتفاع بالمال؛ لأن المال ينفد، والعلم باق، إلا أن إطلاق الصدقة على نحو هذا من قبيل المجاز" (٢) ولعله يقصد أنه من قبيل الاستعارة التصريحية حيث شبه تعليم الغير بالصدقة، ثم حذف المشبه، وصرح بالمشبه به.

وفي وصف المفعول به (أخاه) بـ (المسلم) دليل على وجوب النفع لكل من نطق بالشهادتين، ولو حذفنا المفعول به (أخاه) وقلنا: ثم

(١) دلالات التراكيب ٣٤٤ .

(٢) فيض القدير شرح الجامع الصغير للمناوي ٢ / ٤٨ .

يعلم المسلم ، لضاعت بلاغة عظيمة تؤديها كلمة (أخ) لما في الأخوة من
 حث على وجوب النفع ، واستنهاض النفس نحو خدمة من له بها قرابة وصلة
 وإيحاء بأن أخوة الدين أعلى وأجل من أخوة النسب ، كما جاء في قوله :
 — (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ) (الحجرات/١٠) وقد قال العلماء فيها : " إشارة
 إلى أن أخوة الإسلام أقوى من أخوة النسب بحيث لا تعتبر أخوة النسب إذا
 خلت عن أخوة الإسلام، ألا ترى أنه إذا مات المسلم، وله أخ كافر يكون
 ماله للمسلمين، لا لأخيه الكافر، وكذا إذا مات الأخ الكافر، وذلك لأن
 الجامع الفاسد لا يفيد الأخوة، وإنما المعتبر الأصل الشرعي" (١) هذا وقد جاء
 الحديث في غاية الإيجاز، حيث دل باللفظ القليل على المعنى الغزير .

(١) حاشية محي الدين شيخ زادة على تفسير البيضاوي ٤ / ٣٧١ .

عن أبي كبشة الأنماري أنه سمع رسول الله ﷺ — يقول : ثلاثة أقسمُ عليهنَّ ، وأحدثُكم حديثاً فاحفظوه ، قال : " ما نقصَ مالُ عبدٍ من صدقةٍ ، ولا ظلمَ عبدٌ مظلماً فصر عليها إلا زاده الله عزاً ، ولا فتح عبدٌ بابَ مسألةٍ إلا فتح الله عليه بابَ فقرٍ — أو كلمة نحوها — وأحدثكم حديثاً فاحفظوه ، قال : إنما الدنيا لأربعة نفرٍ : عبد رزقه الله مالا وعِلماً فهو يتَّقِي فيه ربَّه ، و يصلُّ فيه رحمَه ويعلمُ الله فيه حقاً ، فهذا بأفضلِ المنازل ، وعبد رزقه الله علماً ، ولم يرزقه مالا فهو صادقُ النية ، يقول : لو أن لي مالا لعلَّمتُ بعملٍ فلان ، فهو بنيته فأجرهما سواءٌ ، وعبد رزقه الله مالا ، ولم يرزقه علماً فهو يخبط في ماله بغير علمٍ ، لا يتَّقِي فيه ربَّه ، ولا يصلُّ فيه رحمَه ، ولا يعلمُ الله فيه حقاً ، فهذا بأخبثِ المنازل ، وعبد لم يرزقه الله مالا ولا علماً ، فهو يقول : لو أن لي مالا لعلَّمتُ فيه بعملٍ فلان فهو بنيته فوزرهما سواءٌ" (١)

التصور الجملي للحديث

تحدث رسول الله ﷺ — في هذا الحديث عن جملة من مكارم الأخلاق وثواب العمل بها، وما يقابلها من أضدادها، وجاء الحديث عن

(١) رواه الترمذي في سننه ، كتاب : الزهد ، باب : ما جاء مثل الدنيا مثل أربعة نفر ، و اللفظ له ، وابن ماجه في سننه ، كتاب الزهد ، باب : النية .

ثواب العالم ضمن هذا الحديث، وقد خرج حديثه المتعلق بموضوع البحث في جملة رئيسية (إنما الدنيا لأربعة نفر . . .) ثم جاء قوله (عبد . . . وعبد وعبد وعبد) بدلا من أربعة نفر، وقد أتبع كل بدل بجملة وصفته بما يحدده ويعينه.

اصطفاءات الألفاظ

حديثي عن اصطفاءات الألفاظ هنا سيكون مقصورا على ما جاء في الحديث عن العلم ، فقد اصطفى — ﷺ — (عبد) لما في هذا اللفظ من الإيحاء بالحاجة ، والضعف مما يملئ على صاحبه أن يكون على الوجه الذي يرضي خالقه ، لذا لم يقل : رجل ، واصطفى — ﷺ — (رزقه) وأوقعه على المفعول به علما ، للدلالة على ضرورة تواضع العلماء كلما ازدادوا علما حماية للرزق من الذهاب ؛ لذا لم يقل : عبد عِلْم ، ورزق مالا ، واصطفى — ﷺ — (الأجر) على (الثواب) لأنه أعم من الثواب حيث يدل الثاني على الجزاء الأخروي ، ويدل الأول على الجزاء في الدنيا والآخرة يقول الراغب : " الأجر والأجرة : ما يعود من ثواب العمل دنيويا كان أو أخرويا " "والثواب : ما يرجع إلى الإنسان من جزاء أعماله فيسمى الجزاء ثوابا تصورا أنه هو هو، والثواب يقال في الخير والشر لكن الأكثر المتعارف

في الخير " (١) أي أن من يعمل بما أمر به الرسول ﷺ — في هذا الحديث سينال أجري الدنيا ، والآخرة ، ويؤيده التعبير في المقابل — (الوزر) لما فيه من الإيحاء بالثقل وهو ما ليس موجودا في (الذنب) ولا (الإثم) فالوزر هو : " الثقل تشبيها بوزر الجبل . . . والوزير : المتحمل ثقل أميره وشغله " (٢) وفيه من التبغيض من العمل بما يوجبه ما فيه .

أحوال التراكيب

افتتح الحديث الشريف بجملة تهيئ النفس ، وتعلي من أهبتها في تلقي ما بعدها ، (ثلاثة أقسم عليهن وأحدثكم حديثا فاحفظوه) ومعلوم أنه — ﷺ — لا يقسم إلا على عظيم ، والنفس تتوق إلى معرفة ما احتاج أن يقسم عليه — ﷺ — كما أن التعبير (بثلاثة) يجذب النفس إلى غاية الانتباه إلى آخر الكلام لأن الأمر أمر عدد ، ولو قال أقسم على ما أقول لما كان له هذا التأثير في إلهاب النفس ، وقوله فاحفظوه فيه مافيه من الإثارة و التشويق ، فيتمكن الخير عندها خير تمكن ، والملاحظ أن مجاء في الشطر الأول من حديثه — ﷺ — ذو صلة وثيقة بما جاء في الشطر الثاني من حديثه — ﷺ — فالأول و الثاني من الصفات تتصل بالمال (ما نقص مال من صدقة.. .

(١) المفردات (أ ج ر) ١٠، ١١، (ث و ب) ٨٣

(٢) المفردات (وزر) ٥٢١ .

ولا فتح عبد باب مسألة إلا فتح الله عليه باب فقر (والصفة الثانية لا يقوى عليها إلا من أوتي علما) (ولا ظلم عبد مظلمة فصبر عليها إلا زاده الله عزرا)

ثم انتقل — ﷺ — إلى الشطر الثاني من حديثه ، و الذي يشبه العالم أن يكون مركزه ، فالمال وحده لم يفرد الرسول — ﷺ — بفضل ، على النحو التالي : عبد رزقه الله مالا وعلما وعبد رزقه الله علما ولم يرزقه مالا وهذان الصنفان مأجوران ، وعبد رزقه الله مالا ، ولم يرزقه الله علما وعبد لم يرزقه الله مالا ولا علما ، وهذان الصنفان مذمومان لخلوهما من العلم الذي يهدي إلى النية الطيبة ، ويؤيد ذلك أنه لم يذكر من رزق مالا ولم يرزق علما ، فهو يتقي في ماله ربه ، ويصل فيه رحمه ، وهو مما يعني أن المال وحده لا يهيئ إلى الخير ، وأنه لا قيمة لمال بلا علم .

وقد افتتحت هذه الجملة بأسلوب قصر ، وبـ (إنما) التي تأتي فيما لا ينكره المخاطب ، وفي ذلك تأكيد على مضمونها ، حيث أوردت إيراد الحقائق الظاهرة التي لا تحتاج توكيدا ، وقد جاءت رواية ابن ماجه بأسلوب التشبيه بدل أسلوب القصر هنا : (مثل هذه الأمة كمثل أربعة نفر) أي هذه الأمة تشبه أن تكون على أربعة أصناف ، والروايتان تلتقيان في التأكيد على أجر العالم ، وأن الخير في العلم لا في المال ، وفي رواية ابن ماجه إشارة إلى أنه

ليس المراد من العدد حقيقته، فليس قصرا تحقيقيا، وإنما هو قصر ادعائي يراد منه المبالغة في بيان أجر العالم .

الصنف الأول: (عبد رزقه الله مالا وعلمًا، فهو يتقي فيه ربه ويصل فيه رحمه، ويعلم الله فيه حقا ، فهذا بأفضل المنازل) جاء (عبد) هنا منكرا للتعظيم ، كما يدل عليه سياق الكلام ، وقدم المال فيه على العلم تنبيها على أن المال للعالم وسواه من الناس ، وليس التقديم للأفضلية ، وإنما لأن حب النفس للمال أشد ويؤيد ذلك أن الواو لمطلق العطف ، وجاءت الفاء في قوله (فهو . . .) للإشارة إلى المسارعة إلى معرفة حق الله في المال والعلم، وبنيت الجملة على الاسمية إشارة إلى استمرارية ذلك ؛ لذا لم يقل : فيتقي فيه ربه ، وقدم الظرف على المفعول به (فيه) تقييدا للتقوى بعمل معين يتصل بما مضى ، لذا لم يقل يتقي ربه ، لئلا يتوهم أن التقوى هنا عامة، وعبر — (ربه) تذكيرا بالمنعم ، وتهديدا لمن لم يعمل بما يوجب رضا المنعم، لذا لم يقل : فهو يتقي فيه الله كما يقتضي الظاهر في (رزقه الله) وقد بني الكلام بما يشبه التفصيل بعد الإجمال فتقوى الله في المال والعلم تقتضي القيام بكل عمل صالح يتصل بهما ، غير أنه — ﷺ — نص على بعض هذه الأعمال تنبيها على خصوصيتها وأهميتها (ويصل فيه رحمه — و يعلم الله فيه حقا) وفي ذكر القيد (فيه) في الجملتين تأكيد على ربط هذه الأعمال بالمال والعلم ، لذا قال العلماء " فهو يتقي فيه ربه : أي : في الإنفاق من المال و العلم ، (ويصل فيه) أي بكل منهما (رحمه) أي : بالصلة من

المال، وبالإسعاف بجاه العلم ، (ويعلم الله فيه حقا) من وقف وإقراء وإفتاء وتدريس " (١)

وقد جاء جزاؤه معطوفا بالفاء (فهذا بأفضل المنازل) حثا له على التلبس بهذه الصفة للحصول على هذه الميزة ، وقد جاء المسند إليه اسم إشارة ؛ تعظيما لشأنه ببيان قربه ، وقد صيغ جزاؤه بالجملة الاسمية تشا كلا مع صياغة عمله بالجملة الاسمية (فهو . . .) فالجزاء من جنس العمل ، وقد جاء بالباء للدلالة على التصاقه بأفضل المنازل بحيث لا يتركها ، لذا لم يقل : فمئزته أفضل المنازل ، وفي التعبير بأفعل التفضيل إغراء له على الحصول عليها .

الصنف الثاني : (وعبد رزقه الله علما ، ولم يرزقه مالا ، فهو صادق النية يقول : لو أن لي مالا لعملت بعمل فلان فهو بنيته فأجرهما سواء) وفي الأسلوب طباق بين (رزقه) و (لم يرزقه) يكشف عن التفاوت بين الصنفين الذي كافأه صدق النية فتساوى مع مقابله على بعد الفرق بينهما في العطاء ، وفي ذلك ما فيه من فضل العالم الذي جعلت نيته الصادقة الناجمة عن علمه بمثابة المال الكثير الذي يعينه على الخير ، والتكثير في (علما) للتعظيم وفي (مالا) للتقليل ، أي : لم يرزق أي مال، وقد جاءت الجملة بالفاء التي

(١) تحفة الأحمدي ٢٦/٧ .

تدل على عزمه على المبادرة إلى الخير لو أعطى مالا ، (فهو . . .) وقد صيغ ذلك بجملة اسمية دلالة على ثباته واستمراره على ذلك ، وقد أتبع الجملة بتفصيل قولي يكشف عنها ، بما يوحي بضرورة ترجمة اللسان عن النية حيث قال : (يقول : لو أن لي . . .) وجاء القول بأسلوب إنشاء طليحي حيث إن (لو) هنا للتمني، وهي تصطحب معنى الشرط أيضا فهو ممن ذو عزيمة، كأنه اشترط على نفسه، فالتركيب يتناغم مع وصفه بأنه صادق النية، وقد جاء جزاؤه بفاء التعقيب، ترغيبا له في البقاء على هذه الصفة، وتأكيذا لقبول نيته منه، وبيانا أن تعلم صدق النية رزق يعدل الرزق، وعمل يعدل العمل، لذا قال : فهو بنيته، أي مجزي بها، وذكر الجزاء بتركيب يدل على التساوي (فأجرهما سواء) بالجملة الاسمية الدالة على الثبوت و الدوام، وارتباط المسند إليه بضمير يعود على الأجر السابق (فهذا بأفضل المنازل) لذا لم يقل : فالأجر سواء .

الصف الثالث (عبد رزقه الله مالا ولم يرزقه علما فهو يخبط في ماله بغير علم، لا يتقي فيه ربه ، ولا يصل فيه رحمه ، ولا يعلم الله فيه حقا، فهذا بأخبت المنازل) صيغ الحديث عن هذا الصف بأسلوب المقابلة للصف الأول (ممن هم بأفضل المنازل) وقد جاءت التراكيب هنا كالتراكيب في مقابلة بسلبها كما هو بين وأضيفت جملة هي (فهو يخبط في ماله بغير علم) وفي ذكر القيد (بغير علم) بيان لقيمة العلم مع المال، وتفاهة المال مع عدم

العلم ، وفي قوله (يخبط) استعارة حيث شبه تصرفه في ماله على غير هدى بخبط الناقة العشواء الأرض بيديها بجامع عدم الاهتداء في كل، ثم حذف المشبه وصرح بالمشبه به على سبيل الاستعارة التبعية، وفي التعبير بها بيان لقيمة العلم في الهداية إلى الخير ، وجاء العمل مقابلا للثواب على هيئته من التركيب (فهذا بأخبت المنازل) بالتغيير في كلمة واحدة من المسند لينقلب المعنى إلى الضد ، لما قلب العمل إلى الضد .

الصنف الرابع (وعبد لم يرزقه الله مالا ولا علما فهو يقول : لو أن لي مالا لعملت فيه بعمل فلان فهو بنيته فوزرهما سواء) بني هذا الصنف بأسلوب المقابلة للصنف الثاني ممن هم بأفضل المنازل، وهو صنف عار عن كل فضيلة حتى من النية، والملحوظ أنه تمنى المال، ولم يتمن العلم حيث يقول : لو أن لي مالا . . . وقد جاءت نيته مؤكدة على نحو مما سبق بيانه في الرجل الصادق النية ، وقد جاء هذا الصنف مقابلا للصنف الثاني الذي هو بأفضل المنازل، غير أنه لم يذكر هنا مقابل (فهو صادق النية) فلم يقل مثلا : فهو خبيث النية ، تنبيها على كراهيتها، وإلغاء لها من الاعتبار، لكنه اكتفى فقط بترجمة اللسان عنها، إشعارا بسبب العقوبة، فالعقوبة حينئذ موجهة إلى ما ترجمه اللسان عن النية لا إلى النية، وهذا تحسير له ما بعده تحسيره إذ خسر الدنيا والآخرة ، على العكس من مقابله، والملحوظ أن أسلوب المقابلة كان الوسيلة التعبيرية العليا في البيان عن أجر العالم وثوابه،

وهو أنسب الأساليب بيانا عن هذا المقصد في هذا السياق، فبضدها تتمايز الأشياء .

الفصل الخامس

بلاغته — ﷺ — في حديثه عن

ثواب طلاب العلم

جاءت أحاديثه — ﷺ — في البيان عن ثواب طلاب العلم أكثر وأغزر من أحاديثه عن ثواب العالم؛ وذلك لأمر ظاهر هو أن العالم الذي أحس حلاوة العلم، واستشعر لذته ليس بحاجة إلى بيان ثواب لترغيبه في العلم، فقلة الأحاديث في ثواب العلماء هي مطابقة لمقتضى الحال.

أما طلاب العلم فهم بحاجة إلى دفعهم في هذا الطريق، ومدافعة الشيطان، فهو على طريق الخير راصد، ولكل سالك له دافع، ولما كان طلب العلم في الغالب الأعم في ريعان الشباب وعنفوان الصبا، وكانت هذه المرحلة من العمر مظنة ارتكاب المعاصي، كان جعل تكفير ما مضى من الذنوب بسبب طلب العلم ثوابا من ملائمات الحال لهذه المرحلة، كما أن هذه المرحلة من الطلب يعطى فيها العلم قليلا قليلا — لأن العلم ثقيل — لذا عظم النبي — ﷺ — الثواب على أي قدر من العلم وإن صغر في نظر طالبه، كما بين النبي — ﷺ — أن طالب العلم محفوف برعاية ربه، ومذكور عند الله.

عن أبي هريرة — رضى الله عنه — قال : قال رسول الله ﷺ —
 — " من نفس عن مؤمن كربةً من كُرْبِ الدنيا نفس الله عنه كربةً من
 كُرْبِ يومِ القيامةِ ، ومن يسر على مُعسرٍ يسر الله عليه في الدنيا والآخرة ،
 ومن ستر مسلماً ستره الله في الدنيا والآخرة ، و الله في عون العبد ما
 كان العبد في عون أخيه ، و من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهل الله له
 به طريقاً إلى الجنة ، وما اجتمع قومٌ في بيتٍ من بيوت الله يتلون كتاب الله
 ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة ، وحفَّتْهمُ
 الملائكةُ ، وذكَّرتهمُ الله فيمن عنده ، ومن بطأ به عمله لم يُسرَّع به نسبه " (١)

التصور الجملي للحديث :

الحديث الشريف يتكون من سبع جمل هي (من نفس . . .) و (من يسر .
 . .) و (من ستر . . .) و (والله في عون العبد . . .) و (من سلك طريقاً
) و (وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله . . .) و (من بطأ
 به عمله) والمقصود من هذا الحديث الحث على صالح الأعمال
 وأصلحها وأفضلها هو طلب العلم ببيان الثواب المرصود لطالبه.

(١) رواه مسلم في صحيحه و اللفظ له كتاب الذكر و الدعاء و التوبة و الاستغفار باب : فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى
 الذكر ، ورواه الترمذي في كتاب العلم باب فضل طلب العلم ، وباب في فضل الفقه على العبادة وكتاب القراءات باب ما جاء في أن
 القرآن نزل على سبعة أحرف وكتاب الحدود ، باب ما جاء في درء الحدود ، ورواه ابن ماجة في المقدمة فضل العلماء والحث على
 طلب العلم. ورواه أبو داود في سننه ، كتاب الصلاة ، باب في ثواب قراءة القرآن ، وكتاب الأدب ، باب في المعونة للمسلم .

اصطفاءات الألفاظ :

اصطفي — ﷺ — (يلتمس) ولم يقل مثلاً : يحصل فيه علماً لأن " في هذا إشارة إلى أن الجزء الموعود به لا يشترط في حصوله تحصيل العلم، فيجازى طالب العلم — إن شاء الله — إذا بذل الجهد بنية صادقة، وإن لم يحصل شيئاً لنحو بلادة " (١) كما أن اختيار الكلمة على صيغة (يفتعل) وزيادة المبنى تدل على زيادة المعنى يقول البقاعي: "وافتعل يأتي للتعريف، وهو للمبالغة في إثبات أصل الفعل، والاجتهاد في تحصيله، و الاعتماد فكان حصوله إذا حصل أكمل " (٢)

وفي اصطفاء (سهل) دون يسر أو غيرها إيجاء بوعورة المسالك إلى الجنة، وما يتطلبه الوصول إليها من الجد والاجتهاد والمجاهدة ، ويعرف ذلك بضد السهولة (الصعوبة) وهذا يكشف أن طريق العلم ليس طريقاً معبداً، وإنما هو طريق ممتلئ بالمخاطر و الصعوبات .

وفي اصطفاء أفعال من هذا القبيل (اجتمع ، يتلون ، يتدارسون) إيجاء بالبركة والخير الكامنة وراء العمل الجماعي التعاوني ، وبيان لما يجب أن

(١) فيض القدير شرح الجامع الصغير من أحاديث البشير النذير للعلامة محمد عبد الرؤوف المناوي ٦ / ١٩٠ .

(٢) نظم الدرر في تناسب الآيات و السور للبقاعي ٢ / ٦٨٦ ط دار الكتب العلمية بيروت ١٩٩٤ م .

تكون عليه العلاقة بين العالم والمتعلم ، من تبادل المعرفة وتحري وجه الحق فيها، سواء أكانت هذه المعرفة صادرة من العالم أم من المتعلم .

وفي اصطفاء لفظ (قوم) هنا عموم لذا قال المناوي: " والمراد بالقوم هم الرجال فقط، أو مع النساء على الخلاف، والمراد هنا العموم فيحصل لمن الجزاء الآتي باجتماعهن على ما قيل لكن الأقرب خلافه، ونكره ليفيد حصول الثواب لكل من اجتمع لذلك بغير وصف خاص فيهم كزهد أو علم " (١)

أحوال التراكيب :

نلاحظ مجيئ أغلب جمل الحديث بأسلوب الشرط، ولن أتناول الحديث كله بالدارسة بل سأدرس الجمل المتعلقة بموضوع البحث، وهي (من سلك . . إلى نهاية قوله : وذكرهم الله فيمن عنده)

أولا : قوله : (من سلك طريقا يلتمس فيه علما سهل الله له به طريقا إلى الجنة) الملحوظ أن الجملة بنيت بأسلوب الشرط تناغما مع باقي جمل الحديث حيث جاءت كلها بأسلوب الشرط، وفي ذلك تأكيد على حصول

(١) فيض القدير ٥ / ٥٠ .

الثواب، إذا ما تحقق الشرط حصل الجزاء، وليس في الأساليب العربية ما يؤدي هذا المؤدى سوى أسلوب الشرط، وقد جاء المفعول به منكرا (طريقا) " للعموم ليتناول أنواع الطريق الموصلة إلى تحصيل أنواع العلوم الدينية والدينية " (١) ويمكن أن نقول إنه جاء منكرا ليتسنى وصفه بالجملة الفعلية، والتي تبين أن مناط الخيرية متعلق بجملة النعت (يلتمس فيه علما) لا بالمنعوت (طريقا)، وقد جاء المفعول به في جملة النعت منكرا أيضا " ليشمل كل علم و آله، ويندرج فيه ما قل وكثر " (٢)

وفي قوله: (يلمس) أي : يطلب " فاستعاره اللمس ، وهي رواية (فيه) أي في غايته أو سببه ، وإرادة الحقيقة في غاية البعد للندرة " (٣) فقد استعار اللمس للطلب ، ثم حذف الطلب ، و صرح باللمس على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية ، وفي هذه الاستعارة تجسيد لما هو معنوي ، وعرض له في صورة الحسي ، ثم إن في إخراجها في صورة الحسي تأكيداً على طلب العلم كما يطلب الشيء الحسي ، وكلما كان المطلوب حسياً كان ذلك أدعى بذل غاية الوسع في الحصول عليه ، كل ذلك أدته الاستعارة .

(١) فيض القدير للمناوي ٦ / ١٩٠ .

(٢) ينظر دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين محمد بن علان ٤ / ١٤٦ ، و فيض القدير ٦ / ١٩٠ .

(٣) فيض القدير ٦ / ١٩٠ .

قوله: — ﴿سَهِّلْ﴾ — " سهل الله له به طريقا إلى الجنة " هذه هي جملة جواب الشرط، ومما ضاعف من الحث على طلب العلم هنا أن الجزاء جاء على مجرد سلوك طريق العلم، لا على تحصيله، وهذا مما يعني أن في تحصيله جزاء أعلى، وثوابا أغزر، ومما يذكر هنا أن في جملة جواب الشرط فوق ارتباطها العضوي بالشرط رابطا آخر هو (به) وفي وقوعه هذا الموقع تغزير للمعنى، فيجوز رجوع الضمير إلى (من) في فعل الشرط، وعليه تكون الباء للتعدي، ويجوز رجوعه للعلم، وعليه تكون الباء سببية، هذا ما نقله المناوي عن الطيبي: " الضمير في به عائد إلى (من) والباء للتعدي، أي: يوفقه أن يسلك طريق الجنة، قال: ويجوز رجوع الضمير إلى العلم، و الباء سببية والعائد إلى (من) محذوف، والمعنى: سهل الله له بسبب العلم طريقا من طرق الجنة، وذلك لأن العلم إنما يحصل بتعب ونصب، وأفضل الأعمال أحزمها، فمن تحمل المشقة في طلبه، سهلت له سبل الجنة، سيما إن حصل المطلوب " (١)

ونلاحظ التقديم في متعلقات الفعل فقد قدم المجرورين (له ، به) على المفعول به (طريقا) وذلك يكشف أن " تسهيل طريق الجنة خاص بالله وغيره في مقابلته كالعدم، لأنه في حقه غير مفيد، وكذا بالنسبة لسببه، فإن غير هذا السبب من أسباب التسهيل كالعدم، لأنه أقوى الأسباب المسهلة،

(١) فيض القدير ٦ / ١٩٠ .

وفيه حجة باهرة على شرف العلم و أهله في الدنيا والآخرة، لكن الكلام في العلم النافع، لأنه الذي يترتب عليه الجزاء المذكور " (١) كما أن في تقديم (له) على (به) تقديمًا للمسبب على السبب، وفيه تعجيل بالبشارة، وتأكيد عليها، إذ السالك هو المقصود بالبشارة، لذا قدمه، وقد نكر المفعول به (طريقًا) للتعظيم، لأن أي طريق إلى الجنة يكون عظيمًا، ومن التناغم التام بين جمليتي جواب الشرط أنه نكر المفعول به في الطرفين (علمًا) (طريقًا) كما تأخرًا، وتقدمت الجرورات عليهما .

وفي اختيار المسند إليه لفظ الجلالة ، و أهيب أسماء الله (الله) إشعار بأن تسهيل الطريق إلى الجنة مما يتفرد به الله — سبحانه و تعالى — لتفرد — عز و علا — بهذا الاسم ، مما يترتب عليه تفرد بما هو مسند إليه .

ثانياً : لفظه: — ﷻ — " وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة ، وغشيتهم الرحمة، وحفتهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عنده " هذه هي الجملة الثانية في حديثه — ﷻ — عن العلم ومما يذكر هنا أن هذه الجملة من سابقتها من ذكر الخاص بعد العام بيانا لشرف قدر العلم الديني على غيره من أنواع العلوم الأخرى التي شملها تنكير علم في قوله : — ﷻ — من سلك طريقا يلتمس

(١) فيض القدير ٦ / ١٩٠ .

فيه علما " ومن سمات هذه الحملة بناؤها بأسلوب القصر، وبـ (ما) و (إلا) وفيه تأكيد على حصول الأجر ، وتحقيق الثواب المذكور في الحملة مقصورا عليه (نزول السكينة — غشيان الرحمة — حف الملائكة — ذكرهم عند الله في الملأ الأعلى) والملاحظ أن كل عمل قوبل بأجر، فهناك هيئة للمجلس (الاجتماع) اختيار المكان (في بيت من بيوت الله) ما يقال في هذا المجلس (يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم) الطريقة التي يؤدي بها هذا العمل الجليل وهي المشاركة والتعاون، كما تدل عليه الصيغ المختارة، وفي ذلك إشعار بعظم الفائدة المتحققة من مجلس بهذا الوصف ، بدليل تصاعد الأجر ، وربط هذا المجلس بالسماء، فلا يرتبط بالسماء إلا خير الأعمال، وخير العاملين ، وخير ما تتحقق منه الفائدة ، لذلك ألحظ هذا التصاعد نزول السكينة ، وغشيان الرحمة ، وحف الملائكة ثم صعود أجرهم إلى السماء .

وفي إيراد التركيب بصيغ المشاركة و التعاون تناغم مع بقية الأعمال المذكورة في الحديث الشريف ، حيث جاء الحديث عن العلم في سياق أعمال تعاونية (تنفيس الكرب — التيسير على المعسر — ستر المسلم — إعانة المسلم أخاه) وهذا من التناغم بين الحديث عن العلم ، في هذا السياق والأعمال الأخرى ، ولذلك جاء هنا هذا الظرف (بينهم) والمراد بقوله:

(في بيت من بيوت الله) المسجد، ويلحق به نحو مدرسة ورباط فالتقييد بالمسجد غالبي ، فلا يعمل بمفهومه " (١)

علاقة الحديث عن العلم بالأعمال الأخرى المذكورة في الحديث :

ولأول وهلة قد يطرأ على الذهن سؤال هو : ما العلاقة بين التنفيس والستر والتيسير وبين طلب العلم ، وللجواب عن هذا أقول : العلاقة جد واضحة ، فالمقصود العام من الحديث هو الحث على الصالحات من الأعمال، وأصلحها على الإطلاق هو العلم وطلبه ، وهذا يدفعنا إلى سؤال آخر هو : إذا كان طلب العلم هو الأصلح ، فلم جاء آخر الأعمال، ولم يأت في بدايتها ؟ وللجواب عن ذلك أقول : لقد اتبع المصطفى ﷺ — طريق الترقى التصاعدي بادئا بالأدنى منتهيا بالأعلى، ويتضح ذلك بالنظر في جزاء الأعمال المذكورة في الحديث ، ففي التنفيس والستر والتعاون تناسب بين العمل وجزائه هكذا (من نفس عن مؤمن كربة . . . نفس الله عنه) و(من يسر على معسر . . . يسر الله عليه) (من ستر مسلما ستره الله) و(الله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه) أما في قوله : — ﷺ — (من سلك . . . و ما اجتمع . . .) فالجزاء جاء مضاعفا فلم يكن الجزاء مثلا أن ذكرهم الله فيمن عنده ، كما ذكروه فيما بينهم ، ولكن جاء الجزاء متكاثرا ومتعددا .

(١) ينظر النووي على مسلم ١٧ / ٢٢ ، وفيض القدير ٥ / ٥٠ .

عن عقبه بن عامر — رضي الله عنه — قال : خرج رسول الله — ﷺ — ونحن في الصُّفَّة (١) فقال : أَيُّكُمْ يحب أن يغدو كُلَّ يَوْمٍ إلى بَطْحَانَ (٢) أو العَقِيقِ (٣) فيأتي منه بناقتين كَوَماوَيْنِ (٤) في غيرِ إثم ، ولا قطع رحمٍ ؟ فقلنا : يا رسولَ الله كُلُّنا نحب ذلك ، قال : أفلا يغدو أحدُكم إلى المسجدِ فيَعْلَمَ ، أو يَقْرَأَ آيتينِ مِنْ كِتَابِ الله — عز وجل — خَيْرٌ لَهُ مِنْ نَاقَتَيْنِ ، وثلاثٍ خَيْرٌ مِنْ ثَلَاثٍ ، وأربعٍ خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَرْبَعٍ ، وَمِنْ عِدَادِهِنَّ مِنَ الْإِبِلِ " (٥)

التصور الجملي للحديث :

مقصود الحديث الترغيب في تعلم القرآن وتعليمه ببيان الثواب المرصود للمتعلم (٦) وقد خرج الحديث في ثلاث جمل، اثنتين منها على لسان الرسول — ﷺ — وهما (أيكم يحب . . .) و (أفلا يغدو أحدكم

(١) الصفة : هم فقراء المهاجرين كانوا يأوون إلى موضع مظلل في المسجد ، ينظر عون المعبود شرح سنن أبي داود ٢٣١/٤ .
(٢) بطحان : بضم الباء ، و ضبطه ابن الأثير بفتحها ، النهاية في غريب الحديث و الأثر لابن الأثير ١ / ١٣٥ . وهو اسم واد بالمدينة ، و سمي بذلك لسعته و انبساطه من البطح ، وهو البسط . يراجع شرح صحيح مسلم للسنوسي ٤١٨ / ٢ .
(٣) العقيق : يراد به العقيق الأصغر ، وهو واد على ثلاثة أميال ، و قيل : على ميلين من المدينة عليه أموال أهلها شرح صحيح مسلم للسنوسي ٤١٨ / ٢ .
(٤) كوماوين : تشية كوما ، وهي من الإبل العظيمة السنام ، يقال : كوم الشيء كوما ، عظم ، وغلب استعماله في سنام البعير ، يقال : كوم البعير ، فهو أكوم ، و الناقة كوما ، يراجع المعجم الوسيط مادة (ك و م)
(٥) الحديث رواه مسلم في صحيحه و اللفظ له — كتاب الصلاة — باب فضل تعلم القرآن و تعليمه ، ورواه أبو داود في سننه — كتاب الصلاة — باب ثواب قراءة القرآن .
(٦) المفهم للقرطبي ٤٢٩ / ٢ .

إلى المسجد . . .) والتي على لسان الصحابة هي : (يا رسول الله كلنا نحب . . .) وذلك عدا الجملة الحالية التي جاءت على لسان الراوي في قوله — رضى الله عنه — (ونحن في الصفة) والجملة الفعلية التي بدأ بها الحديث (خرج علينا رسول الله)

اصطفاات الألفاظ :

في الحديث ألفاظ اصطفاها — ﷺ — دون سواها لما توحى به في هذا السياق من المعاني واللطائف، من ذلك قوله (يحب) فلم يقل مثلاً : يريد ، لأن الإنسان قد يريد الشيء دون أن يسعى إلى تحصيله، على العكس من الحب فإن الإنسان ما أحب شيئاً إلا اجتهد في تحصيله، وهذا مما جرت به العادة، ومنه أيضاً قوله — ﷺ — (يغدو) وما فيه من استحباب التذكير في طلب الرزق، وبركة ذلك ، فلم يقل مثلاً : يسعى أو يمشي أو ما يقارب ذلك .

ومن ذلك أيضاً قوله (كوماوين) ووراء ذلك تضخيم الحجم المكسب المحصل، فإن ذكر كوم يحضر على الذهن ذلك الحجم الضخم للناقعة، وفيه تشويق وإثارة حرص على تحصيله، وهو ما لا نراه في كلمة

(عظيمتين) أو (سمينتين) أو ماشاكل ذلك من أوصاف النوق، وهي كثيرة جدا في البيان العربي .

أحوال التراكيب :

تكشف لنا الجملة الحالية التي وردت على لسان الراوي عن المقام الذي قيل فيه الحديث الشريف (ونحن في الصفة) فالمقصودون بالخطاب هم من أشد الناس فقرا في المدينة المنورة حينئذ ، ومن لطائف مطابقة الكلام مقتضى الحال أن الرسول — ﷺ — خاطبهم بما يلائم حالهم هذه، حيث هيا لكلامه — ﷺ — بالحديث عن المال، وتحصيل المكاسب، والنفس مجبولة على حب المال ، لا سيما إذا كان الفقر لها حليفا، ومن ثم قدم النبي — ﷺ — لمقصوده {الترغيب في تعلم القرآن وتعليمه} بما أورده من الحديث عن المال تهئية لسامعيه؛ وتنشيطا لهم، ولفتا لانتباههم .

وقد افتح — ﷺ — حديثه بأسلوب الاستفهام الموجه للمخاطبين، إشراكا لهم، واستمالة لأسماعهم، حيث إن الأسلوب الإنشائي يثير الانفعال، ويحرك النفس (١) أما الأسلوب الخبري فهو أسلوب تلقيني له مقامات يلائمها، هذا وقد خرج الاستفهام عن معناه الحقيقي هنا إلى معنى مجازي، وهو التقرير، وقد جاء المسند إليه مقدما على خبره الفعلي (أياكم يحب ..) .

(١) معاني التراكيب د / عبد الفتاح لاشين ٢ / ١٢٢ بتصرف ط المطبعة الإسلامية دون تاريخ .

وفي ذلك تقوية للحكم وتقرير له كقولنا : محمد يقول الشعر (١) وقد جاء متعلق الفعل (كل يوم) بلفظ دال على الاستغراق والمداومة، وفي ذلك زيادة في الترغيب، وإعلاء لإثارة العقل، وتأكيد على التشويق الذي أسهم فيه أيضا هذا التأخير (بناقتين كوماوين) فكان يمكن أن يقال: أيكم يحب أن يأتي بناقتين كوماوين من بطحان . . . ووراء هذا التأخير زيادة في التشويق، فالحديث بني من مطلعته على التشويق، وإثارة الحرص والتهييج نحو المطلوب، ومما ضاعف من التشويق ذكر هذا الوصف (كوماوين)، دلالة على ضخامة الحجم، ومتانة العافية، وفي رواية أبي داود ذكر وصف آخر للنائقتين (زهراوين) وفيه أيضا زيادة في التشويق، وإعلاء لشأن هاتين النائقتين، وفي كل ذلك زيادة في إثارة الحرص للحصول على مكسب بهذا الوصف، فضلا عن أن يكون ذلك متكررا كل يوم فقد حصل بذلك خير كثير، لقوم لا يجدون قوت يومهم، وهذا من أروع ما يكون في تهيئة المحاطب، واستمالة قلبه نحو المطلوب، فإذا أضفنا إلى ذلك ذكر المكانين المرصود فيهما ذلك الرزق العظيم (بطحان أو العقيق) وفي تحديدهما إشارة إلى مصداقية ذلك، وبشارة بتحصيل ذلك لمن ذهب إلى هذين المكانين، فإذا أضفنا إلى ذلك قرب هذين المكانين " فهما أقرب المواضع التي يقام فيها أسواق الإبل إلى المدينة " (٢) كان في ذلك زيادة في الإثارة نحو التحصيل، وفضل ترغيب في البحث عن السبيل المؤدي لذلك .

(١) ينظر خصائص التراكيب ٢٢٠ د / محمد أبي موسى ط و هبة ١٩٩٦ م .

(٢) شرح صحيح مسلم للسوسى ٤١٨ / ٢ .

وفي ذكر هذا القيد (في غير إثم و لا قطيعة رحم) زيادة تشويق أيضا؛ لأنه يعني أنه رزق خالص حلال لا شية فيه، لأن النفس لا تطمئن إلى الرزق الميسور والمكسب الوفير دون جهد يذكر، فكأن هذا القيد جاء أيضا لرد هذا الوهم، ودفع تلك الشبهة، كما أننا نلاحظ أنه — ﷺ — جعل موجب الإثم إثما، فالسرقة و الرشوة والغيبة و غير ذلك من الأعمال يوجب الإثم، وفي هذا التعبير مجاز مرسل علاقته المسببية حيث ذكر المسبب و أراد السبب، وهذا قول العلماء " في غير إثم كسرقة و غصب، سمى موجب الإثم إثما على سبيل المجاز " (١) وفي قوله (ولا قطيعة رحم) تخصيص بعد تعميم — إذ هو من جملة الآثام — وفيه إشارة إلى خطر قطع الرحم، وكأنه معصية وحده دون المعاصي، وفي ذلك إشارة إلى حرمة الاعتداء على حقوق الميراث التي شرعها الله، كما أن في هذين القيدين إشارة إلى أن الذي استقر عليه الأمر عند الناس أن الكسب الوفير دون جهد ، لا طريق له إلا بالإثم، أو قطيعة الرحم، ولنضيف إلى كل ما مضى أن قائله ليس من أفراد الناس، وإنما القائل هو الصادق — ﷺ — وذلك مما يضيفي على البشارة صدقا ما بعده صدق ، وتأكيدا على حصوله ما بعده تأكيد ، فصدق الأخبار وقيمتها بصدق وقيمة المخبر بها .

(١) عون المعبود شرح سنن أبي داود ٤ / ٢٣١ .

كان من الطبيعي بعد كل هذا الترقى التصاعدي في التشويق أن يقول الحاضرون جميعا : كلنا نحب ذلك، ونلاحظ مجيء المسند إليه بلفظ الاستغراق (كلنا) الذي يؤكد على شمول الجواب جميع الحاضرين، وقد جاء المسند إليه مقدما على خبره الفعلي لتقوية الحكم وتقريره، وجاء المسند جملة فعلية فعلها مضارع ؛ دلالة على تجدد ذلك وتكراره، ولتخيل الجواب على هذا النحو مثلا : نحب ذلك أو : نحبه ألا نرى أن حسن الجواب يقل، ويذهب عنه التأكيد الذي أفاده بناء الحديث ، وبعد كل هذه الإشارات، وذلك التشويق، الذي أعقبه إقرار جامع ، وجواب شامل مؤكدا، ألقى — ﷺ — بمقصوده وكل إعلاء لشأن ما مضى إعلاء لمقصوده — ﷺ — الآتي ذكره، وما من ريب أن إلقاءه — ﷺ — مقصوده دون هذه التهيئة فيه إفساد لمراه، وإذهاب لحلاوته .

قوله : — ﷺ — " أفلا يغدو أحدكم إلى المسجد فيعلم أو يقرأ آيتين . " نلاحظ أنه — ﷺ — بنى كلامه بأسلوب الاستفهام تحريكا للعقل، وإثارة للنفس وقد خرج إلى معنى مجازي وهو التعجب، ونلاحظ هنا حذف المعطوف عليه، ويمكن أن يكون التقدير على هذا النحو : أتتكاسلون فلا يغدو، ولهذا الحذف جماله وسره ، حيث أتاح للنفس أن تذهب في تقديره كل مذهب، كما أن في الحذف احتواء لكل أسباب التقاعس عن

العلم ، فليس الكسل هو المانع دائما، وإنما قد تكون هناك أسباب أخرى، ففي ذكر المحذوف تضيق وتحديد ينأي السياق والواقع عنه .

وفي ذكر متعلق الفعل على هذا النحو (إلى المسجد) سؤال يطرح نفسه حيث إن هذا الحديث كان في المسجد ، كما بيناه في معنى (الصفة) فلم قال : إلى المسجد ؟ ولعل في ذلك تعليما للأمة جميعها، أو أنه إشارة إلى ضرورة عقد النية على أن يكون الذهاب من المخاطبين إلى المسجد لغرض تعلم القرآن خاصة ، وأن ذلك هو الذي يستوجب الأجر المذكور، لأنه قد يكون الذهاب إلى المسجد طلبا للراحة ، أو النوم، أو الجلوس مع الأصحاب أو ما شاكل ذلك ، وكأنه إشارة أيضا إلى أن كل جالس في المسجد محصل للثواب، وفيه أيضا تنبيه للمخاطبين وقتها إلى استثمار جلوسهم في تحصيل أجر لا يتيسر لسواهم ، ولعله — ﷺ — رأي بعضهم وقتها على حال لا تليق، فنبههم إلى ما ينبغي أن يكونوا عليه، ولفتهم إلى ما هم فيه من الخير، وما يحيط بهم من الثواب لو فعلوا ، ولعل ذلك هو السر في أن قوله : — ﷺ — لم يكن كجوابهم، فقد قالوا : كلنا نحب ذلك، فكان الظاهر أن يقول : أفلا تغدون إلى المسجد، لكنه خاطبهم خطابا غير شامل على غير طريقة جوابهم الشامل .

وفي ذكر الغدو في العبارتين (المشوقة والأساسية) أوجب أحدكم أن يغدو كل يوم وقوله : أفلا يغدو أحدكم إلى المسجد فيه إشارة إلى التذكير في طلب العلم ، وأن العلم ينبغي أن يسعى إليه سعي الرجل إلى معاشه، بل ينبغي أن يكون السعي إلى العلم أولى من السعي إلى الرزق، وفي تحديد المفعول به — (آية أو آيتين) تعظيم لما يمكن أن يستقله العاملون، كما أن فيه زيادة ترغيب إذ هو ثواب عظيم مقابل عمل قليل .

وفي مجيء أفعال التفضيل (خير) موقع لطيف حيث ربطت آخر الحديث بأوله، وبينت لنا طريقة بناء الحديث وترباط جملة، فالخوار الأساسي في الحديث هو الترغيب في تعلم القرآن وتعليمه، وجاءت الجملة الأولى تشويقاً وإثارة لهذا الغرض ، ثم جاءت الجملة التي بينت الغرض الأساسي، واحتوت على أفعال التفضيل التي عقدت آخر الحديث بأوله ، كما أن مجيء أفعال التفضيل هنا إشارة إلى حقارة كل شيء في الدنيا بجانب طلب العلم بكتاب الله، و الاشتغال به خاصة ، كما أن في الحديث فتحة لآفاق الثواب بينه — ﷺ — بقوله : " وثلاث خير من ثلاث وأربع خير من أربع ومن عداهن من الإبل " وفي ذلك حث على طلب المزيد من تعلم القرآن وتعليمه، وأنه لا منتهي لهذا الثواب، وذلك قوله " ومن عداهن من الإبل " فكلما زاد المتعلم زاد المعطي في الثواب.

هذا، " وقد خاطبهم — ﷺ — على ما تعارفوه ، فإنهم أهل إيل،
 وإلا فأقل جزء من ثواب القرآن وتعليمه خير من الدنيا وما فيها، وقد قال:
 — ﷺ — ولموضع أحدكم من الجنة خير من الدنيا وما فيها " (١)

(١) المفهم للقرطبي ٢ / ٤٢٩ ، ٤٣٠ و الحديث المذكور رواه الترمذي و لفظه : " لعدوة في سبيل الله أو روحه خير من الدنيا و ما فيها ، و لقاب قوس أحدكم أو موضع يده في الجنة خير من الدنيا و ما فيها " رواه الترمذي في الجامع كتاب فضائل الجهاد عن رسول الله ، باب ما جاء في فضل العدو و الرواح في سبيل الله .

عن سَخْبَرَةَ — رضى الله عنه — عن النبي — ﷺ — قال: " مَنْ
 طَلَبَ الْعِلْمَ كَانَ كَفَّارَةً لِمَا مَضَى " (١)

التصور الجملي للحديث :

مقصود الحديث هنا بيان فضل طلب العلم، والثواب المرصود لمن
 اشتغل بذلك، وقد خرج الحديث في جملة شرطية واحدة .

اصطفاءات الألفاظ :

اصطفى — ﷺ — (طلب) ولم يقل مثلاً: علّم، أو تعلم، إذ
 الطلب أوقع في إثبات مقصوده من الألفاظ الأخرى، مما يعني أن تكفير
 الذنوب يقع بمجرد الطلب بنية صادقة — كما يشترط العلماء دوماً — بغض
 النظر عن الإفادة والاستفادة ، فكيف يكون الحال بمن أفاد واستفاد؟ وفي
 هذا يقول المناوي: " قال الحرّاليّ: وإذا كان هذا فيمن طلب، فكيف بمن يفيد
 العامة والخاصة، إذ هو أولى وأحق " (٢)

(١) رواه الترمذي في الجامع ، كتاب العلم ، باب ، فضل طلب العلم .

(٢) فيض القدير للمناوي ٦ / ٢١٦ .

(٢٠٨)

أحوال التركيب :

الحديث كله جملة شرطية واحدة ، والمسند إليه هنا هو (من) اسم الشرط ، والمسند فعل الشرط وجوابه (طلب العلم كان كفارة لما مضى) والمسند عبارة عن جملتين (فعل الشرط وجوابه) وجملة فعل الشرط (طلب العلم) وقد جاء فعل الشرط ماضيا للدلالة على تحقق الوقوع، بإخراجه في صورة المتحقق الواقع ، وإلا فكان من الممكن أن يقال: من يطلب العلم ، وقد جاء المسند إليه ضميرا مستترا يعود على اسم الشرط، وقد جاء المفعول به (العلم) معرّفاً بـأل، وقد عد العلماء اللام هنا لام العهد حيث فسرهُ أبو العلي المباركفوري (العلم) بأنه العلم الشرعي؛ ليعمل به (١) وفسره المناوي بالشرعي النافع (٢) وترى الدراسة أن الإمامين المناوي، وأبا العلي قد ضيقا واسعا حين فسرا العلم بأنه العلم الشرعي، والأفضل أن تكون اللام للعهد، ولكن يفسر العهد بأنه كل علم نافع دينيا كان أم دنيويا، كمن ابتكر دواء لعلاج المسلمين، أو سلاحا للدفاع عنهم ، وما إلى ذلك مما هو نافع، ولو أنه — ﷺ — أراد العلم الشرعي فحسب لكان من الممكن أن يقول : من طلب علم الوحي مثلاً . . .

(١) تحفة الأحوذى للمباركفوري ٧ / ٤٠٦ .

(٢) فيض القدير شرح الجامع الصغير للمناوي ٦ / ٢١٦ .

والجملة الثانية في المسند (كان كفارة لما مضى) ونلاحظ أنه —  — قال : كان كفارة لما مضى، ولم يقل : كُفِّرَ له ما مضى، وسيؤدي المعنى ويكون أوجز، ولكن وراء التعبير : كان كفارة . . . نكتة ، وهي مزيد حث وحض على طلب العلم ، حيث إن اسم كان هو ضمير يعود إلى المصدر المأخوذ من فعل الشرط، وبهذا يكون طلب العلم مذكورا مرتين صريحا في فعل الشرط، ومستترا في جوابه ، كما أن في ذلك تأكيداً على أن تكفير الذنوب متعلق بالطلب، وقد جاء المسند منكرا (كفارة) ووراء التنكير تعميم يدفع إلى الاجتهاد في طلب العلم؛ طمعا في نيل هذا الجزاء، وقد جاء متعلق الفعل (لما مضى) اسم موصول، والمراد الذنوب، وكان من الممكن أن يأتي التعبير على هذا النحو: كان كفارة للذنوب، وهو المراد كما ذكر الشراح (١) ولكن التعبير جاء بالاسم الموصول، و(ما) هي أعم الموصولات، وأدخلها في الإبهام، وهو ما يوحي على شمول الغفران الذنوب كافة، وهو مما له أثر بالغ في تعظيم أجر طالب العلم، وكلما كان الأجر أعظم كلما كان الحرص على طلبه أشد وأعلى ، ثم إن (ما مضى) تشمل كل الأعمال ظاهرها ومستترها، كبيرها وصغيرها، وذلك أن العلم يهذب النفس، ويمنعها من مقارفة الذنوب، وارتكاب المعاصي، وقد صيغ الحديث الشريف بهذه الجملة الموجزة، المتشابهة، التي اقتصرت معاني غزيرة، ودلالات وافرة .

(١) تحفة الأحوذى ٧ / ٤٠٦ .

عن أبي ذر — رضي الله عنه — قال: قال لي رسول الله ﷺ —
 " يا أبا ذرٍّ لَأَنْ تَعْدُوَ فَتَعْلَمَ آيَةً مِنْ كِتَابِ اللَّهِ خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ تُصَلِّيَ مِائَةَ
 رَكْعَةٍ، وَلَأَنْ تَعْدُوَ فَتَعْلَمَ بَابًا مِنَ الْعِلْمِ، عَمِلَ بِهِ أَوْ لَمْ يُعْمَلْ خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ
 تُصَلِّيَ أَلْفَ رَكْعَةٍ " (١)

التصور الجملي للحديث :

مقصود الحديث بيان فضل طلب العلم ، والثواب المرصود لمن اشتغل
 به، والحديث الشريف عبارة عن جملتين، جملة النداء (يا أبا ذر) والثانية
 (لأن تعدو فتعلم آية من كتاب الله خير لك من أن تصلي مائة ركعة
 وعطفت عليها جملة أخرى (ولأن تعدو. . .) إلى آخر الحديث .

اصطفاءات الألفاظ :

اصطفى — ﷺ — (تعدو) على ما يقاربها في أداء المعنى مثل :
 تسعى ، وتمشي ، وتمضي . . . لدلالاتها على ما تدل عليه الألفاظ وزيادة،
 وهي التبكير في طلب العلم ، وفيه ما ينبغي أن يكون عليه طالب العلم من
 الجِد والاجتهاد، وهو بذلك يربط بين العلم والرزق ، حيث جاء في حديث

(١) رواه ابن ماجة في سننه ، المقدمة ، باب فضل من تعلم القرآن و علمه

آخر عن أم المؤمنين عائشة— رضي الله عنها — أن النبي — ﷺ — " باكروا الغدو في طلب الرزق ، فإن الغدو بركة ونجاح " (١) وفي ذلك إيحاء بأن في طلب العلم استمساكا بحق الحياة ، كما أن طلب الرزق يدفع إليه الاستمساك بالحياة .

أحوال التراكيب :

خرج الحديث — كما أسلفت — في جملتين ، الأولى منهما جملة صغيرة، وجملة أخرى كبيرة لارتباط أختها بها بالعطف أما الجملة الأولى (يا أبا ذر) فهي افتتاح للحديث وراءه إشعار بالاهتمام الشديد، الذي يستوجب التنبيه والإقبال، لأن ما يلقي إليه هو أمر عظيم، والأمور العظيمة تحتاج إلى كهيئة النفس لها، لتلقاها بحفاوة واستعداد، كما أن أسلوب النداء فيه إشعار بالقرب؛ لذا حكى الراوي الحال، وكان يمكن أن يقول: ناداني رسول الله — ﷺ — غير أنه حكى الحال كما حدث، لتتنقل لنا الكلمات الصورة كما وقعت، وقد جاء أسلوب النداء — (يا) وهي أم الباب، وبعد هذه التهيئة، وذلك التنبيه تأتي الجملة الثانية التي هي الأساس في الحديث الشريف : لأن تغدو . . . وقد افتتحت هذه الجملة بلام التوكيد، وفيها فضل توكيد ، بعد التنبيه الذي أدته الجملة الأولى مما يشعر بأن ما سيلقى أمر

(١) الحديث في الترغيب و الترهيب للحافظ المنذري ٢ / ٥٣٠ ، وقال المنذري : رواه البراز و الطبراني في الأوسط تحقيق مصطفى عمارة ، ط المكتبة العصرية بيروت دون تاريخ .

ذو خطر عظيم ، ولعل ذلك ما يطويه مجيئ المسند إليه مؤولا بالمصدر، وهو مما يوحى بإثارة النفس و تشويقها إلى ذكر الخير، وفرق بين أن يلقي إلى النفس الخير وهي مهياة مثارة تشتااق إلى معرفته، فإذا ألقى إليها تمكن منهاخير تمكن، وأن يلقي إليها دون تشويق وتهيئة، فوق أن في مجيئ المسند إليه مصدرا مؤولا دلالة على تكرار ذلك وحدوثه، كما تدل عليه صيغة المضارع، واصطفاء هذا اللفظ كما سبق بيانه، وهذا وارد، وإن كان المسند إليه في تأويل : لغدوك .

وقد عطفت عليها جملة بحرف الفاء ، الذي يفيد عدم التراخي، أي أن الغدو يجب أن يعقبه التعلم مباشرة ، وفيه إشارة إلى اقتحام كل الموانع، واجتياز كل العواقب، وأنه ينبغي أن يكون الخروج خالصا لطلب العلم، وفي ذلك حث على طلب العلم على وجه السرعة، وقد جاء الفعل بصيغة التشديد (فتعلم) ولم يقل : فتعلم، بالتخفيف، ولعل في ذلك إشارة إلى الاجتهاد في طلب العلم ، لأنه لو قال : فتعلم لما أوحى بما يقتضيه العلم من كثرة الاستعداد ، لأن فتعلم لا توحى بصعوبة العلم ، ومن المعروف أن العلم ثقيل، والشئ الثقيل يقتضي استعدادا خاصا .

وقد جاء المفعول به (آية) منكرا للتعظيم ، وفي مجيئ المفعول به كذلك تعظيم لتعلم القرآن ، وتخصيص له بهذا الفضل، فليس المقصود هنا تعلم أي

علم ، وإلا فكان يمكن أن يحذف المفعول به، وقوله (من كتاب الله) مع أنه يمكن الاستغناء عنه فيه تعظيم للاشتغال بالقرآن، وهو ما وراء الإضافة التي تفيد التشريف، وإلا فكان من الممكن أن يقول : آية من القرآن، غير أنه أضاف الكتاب إلى أهيب أسماء الله ، فكسا المتعلم تعظيما، لعظمة ما يطلبه، وإنني ألحظ وراء هذا الامتداد في المسند إليه تشويق إلى ذكر المسند .

ثم جاء المسند (خير . . .) وقد جاء المسند أفعل تفضيل؛ إشعارا بأن ما يذكر بعد من الأجر إنما هو على وجه التقريب، وفي ذلك تعظيم للثواب، وفي ذكر هذا القيد (لك) تأكيد، لا نراه لو قلنا: خير من أن تصلي، كأنه تخصيص للمخاطب بالأجر المذكور بعد ، وفي التخصيص زيادة تحريض على طلب الأجر المرصود، وقد جاء المفضل عليه بعد ذلك (من أن تصلي مائة ركعة) والمراد بمصلاة النافلة " فإن الآية فرض ولو على سبيل الكفاية، بخلاف النافلة من الصلاة " (١) بعكس المكتوبة التي هي فرض عين، وقد جاء المفضول مصدرا مؤولا، فلم يقل مثلا: خير من صلاة مائة ركعة، فلعل ذلك يشير إلى تنامي هذا الجزاء، أي: أن تعلم آية يفضل مائة ركعة، وعن تكرار ذلك وتجدده .

(١) حاشية السندي على سنن ابن ماجه ١/١٤٣ .

ثم عطف على هذه الجملة جملة أخرى على سبيل الترقى التصاعدي الذي جاء من أمرين ، الأول أن فيه تعميما بعد التخصيص، حيث قال هنا : بابا من العلم، وقال في الأولى : آية من كتاب الله ، والتكثير في الأجر فهناك مائة ركعة ، وهنا ألف ركعة، ونلاحظ في هذه الجملة، جملة اعتراضية تميزها عن سابقتها — عمل به أو لم يعمل — وفي ذلك زيادة تحريض على طلب العلم، وقد تأول السندي هذه الجملة بقوله: " أي سواء كان علما متعلقا بكيفية العمل كالفقه ، أو لا بأن يكون متعلقا بالاعتقاد مثلا، وليس المراد أن يكون علما لا ينتفع به " (١) ووراء كل هذا البناء التركيبي للحديث دفع بكل سبيل لكل ما يمكن أن يكون سببا في التكاسل عن طلب العلم، وقد تشابهت الجملتان في البناء بما لا حاجة لإعادة الحديث عنه هنا، وقد تآزر البناء في الحديث لبيان فضل تعلم القرآن خاصة والعلم عامة، بما يدفع النفوس إلى الحرص على طلب العلم ، والاجتهاد في سبيل ذلك، واجتياز كل العوائق .

(١) حاشية السندي على سنن ابن ماجه ١/١٤٣ .

نظرة جملية لجريان الأساليب البلاغية في حديثه — ﷺ — عن الترغيب في العلم

في نهاية المطاف في حديثه — ﷺ — عن الترغيب في العلم أوجز القول في بيان جريان الأساليب البلاغية إجمالاً في بيانه الشريف في هذا الموضوع، بعد بيان أسرار ذلك في مواطنه تفصيلاً .

أولاً : أساليب المعاني :

١ — لحظنا أنه قد عدل بالأسلوب الخبري عن ظاهره، فترل خالي الذهن مترلة المنكر، وأكد له الكلام بعدة مؤكدات؛ ترغيباً في سلوك طريق العلم، كما جاء في قوله : — ﷺ — (إن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضا بما يصنع . . .)

٢ — استخدم أسلوب المجاز العقلي، في قوله : (عليكم بهذا العلم قبل أن يقبض، وقبضه أن يرفع . . .)

٣ — ذكر المسند إليه اقتضاء للمقام كما جاء في قوله: (رجل آتاه الله مالا) . ٤ — كما جاء المسند إليه معرفاً بما يلي : —

أ — اسم الإشارة : وقد جاء ذلك في قوله : (ولن تزال هذه الأمة . . .) وقوله : (هؤلاء يقرؤون القرآن ، ويدعون الله . . . هؤلاء يتعلمون) و(فهذا بأفضل المنازل)

ب — الاسم الموصول : وقد جاء في قوله : (لا يضرهم من خالفهم حتى يأتي أمر الله) و (ألا إن الدنيا ملعونة ملعون ما فيها)

ج — لام الجنس : وقد جاء ذلك في قوله : — ﴿ ٢١٧ ﴾ — " وإن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضا بما يصنع) و (لن يشبع المؤمن من خير يسمعه) و (ألا إن الدنيا ملعونة . . .) و (يصبح الرجل فيها مؤمنا ويمسي كافرا)

د — العلمية : وقد جاء ذلك في قوله : (إلا من أحياء الله بالعلم) ه — الإضافة : وقد جاء ذلك في قوله : (أفضل الصدقة . . .) و (طلب العلم فريضة . . .)

ه — نكر المسند إليه في قوله : (لا حسد إلا في اثنتين) و (فقيه واحد أشد على الشيطان من ألف عابد) و (عبد رزقه الله مالا وعلما) و (ستكون فتن يصبح الرجل مؤمنا ويمسي . . .)

٦ — قدم المسند إليه على خبره الفعلي ، وقد جاء في قوله : (من يرد الله به خيرا . . . والله يعطي) وقوله : (أيكم يحب أن يغدو كل يوم . . .) و (فهو يتقي فيه ربه . . .)

٧ — حذف المسند إليه لاقتضاء المعنى ذلك ، في قوله : (فسلط على هلكته . . .)

٨ — جاء المسند جملة فعلية فعلها مضارع ، وقد وقع ذلك كثيرا في بيانه الشريف — ﴿ ٢١٧ ﴾ — كما في قوله : (إن الملائكة لتضع أجنحتها . . . وإن العالم ليستغفرله . . .) و (هؤلاء يقرؤون القرآن ، ويدعون الله . . . وهؤلاء يتعلمون . . .) و (أيكم يحب أن يغدو كل يوم إلى بطحان أو العقيق . . . كلنا نحب ذلك)

٩ — حذف المسند في قوله : (لا حسد إلا في اثنتين)

١٠ — جاء المسند فعلا مضارعا دلالة على التجدد والحدوث في قوله (لن يشبع المؤمن من خير يسمعه) و (ستكون فتن يصبح الرجل فيها مؤمنا ويمسي كافرا)

١١ — عرف المسند بالإضافة في قوله : (الكلمة الحكمة ضالة المؤمن)

١٢ — نكر المسند في قوله (ألا إن الدنيا ملعونة ملعون ما فيها)

١٣ — ذكر المسند للتوكيد (ألا إن الدنيا ملعونة ملعون ما فيها)

١٤ — كما عدل في الحديث الشريف عن الظاهر في صيغ بعض الأفعال ، فقد عدل عن صيغة المضارع إلى صيغة الماضي ، على طريقة التفاؤل بحصول ما لم يحصل ، وقد جاء ذلك في قوله : (من طلب العلم كان كفارة لما مضى) و(من سلك طريقا يلتمس فيه علما سهل الله له به طريقا إلى الجنة) و(من علم علما فله أجر من عمل به لا ينقص من أجر العامل) و(من جاء مسجدي هذا لم يأت به إلا لخير يتعلمه أو يعلمه . . .) و(من خرج في طلب العلم كان في سبيل الله حتى يرجع)

١٥ — كما ورد ذكر متعلقات الفعل على صور متنوعة ؛ تربية للفائدة ، وتكثيرا للمعنى، وقد جاء ذلك في قوله : — ﷺ — (وإن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضا بما يصنع) و (أيكم يحب أن يغدو كل يوم إلى بطحان . . . في غير إثم ولا قطع رحم) و (من جاء مسجدي هذا لم يأت به إلا لخير يتعلمه أو يعلمه) و (يا أبا ذر لأن تغدو فتعلم آية من كتاب الله . . . أفلا يغدو أحدكم فيتعلم آيتين من كتاب الله ، و(طلب العلم فريضة على كل مسلم) و

(فهو يتقي فيه ربه ويصل فيه رحمه ويعلم لله فيه حقا) و (فهو يخبط في ماله بغير علم) و (يصبح الرجل فيها مؤمنا) و (عليكم بهذا العلم قبل أن يقبض) كما وجدنا في الحديث الشريف أحوالا متنوعة للمفعول به فتارة ينكر المفعول به، وتارة يعرف، وتارة يذكر، وتارة يحذف على مقتضى السياق، فقد عرف المفعول به بلام العهد، وذلك في قوله : — ﷺ — (رجل آتاه الله الحكمة ، فهو يقضي بها ، ويعلمها) وقوله : — ﷺ — (من طلب العلم كان كفارة لما مضى) وعرف بالإضافة في قوله : — ﷺ — (من جاء مسجدي هذا . . .) .

وقد جاء المفعول به منكرا لأغراض عدة ، فقد جاء للتعظيم في قوله : — ﷺ — (من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين) و (يا أبا ذر لأن تغدو فتعلم آية من كتاب الله . .) و (أفضل الصدقة أن يتعلم المرء المسلم علما . . .) و (عبد رزقه الله علما) ونكر للتنويع ، وقد جاء في قوله : — ﷺ — (مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم . . . كمثل الغيث أصاب أرضا) ونكر للتعميم في قوله — ﷺ — (رجل آتاه الله مالا) و (من سلك طريقا يلتمس فيه علما سهل الله له به) ونكر للتقليل في قوله : (وعبد رزقه الله علما ولم يرزقه مالا) .

وقد جاء المحرور منكرا لأغراض منها التكثر ، وذلك في قوله : (لن يشبع المؤمن من خير يسمعه) وقد جاء معرfa بلام العهد الذهني في قوله : (أشد على الشيطان) كما جاء المستثنى معرfa بالإضافة للتشريف ، في قوله : (ملعون مافيهما إلا ذكر الله) .

كما أن الحديث الشريف تقدم فيه بعض متعلقات الفعل على بعض لنكات تفوت لولا تقديمها، وذلك في قوله — ﷺ — (من سلك طريقا يتغي فيه علما سهل الله له به طريقا إلى الجنة) و (أيكم يحب أن يغدو كل يوم إلى بطحان أو العقيق، فيأتي منه بناقتين كوماوين في غير إثم، ولا قطع رحم . . .) و (عبد رزقه الله مالا وعلما) و (فهو يتقي فيه ربه)

كما أن الحديث الشريف تارة يحذف فيه المفعول كقوله (وكانت منها أجادب أمسكت الماء فنفخ الله بها الناس فشربوا وسقوا وزرعوا) و (إنما أنا قاسم والله يعطي) ولكل حذف نكته التي ذكرت في مظانها .

١٦ — واستخدم في الحديث الشريف أسلوب القصر ، واستخدمت من أدواته (النفي والاستثناء) وذلك في قوله — ﷺ — (لا حسد إلا في اثنتين) و (ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله . . . إلا نزلت عليهم السكينة) و (من جاء مسجدي هذا لم يأت به إلا لخير . . .) واستخدم (إنما) في قوله: — ﷺ — (إنما هي قيعان) و (إنما أنا قاسم) و (إنما بعثت معلما) و (إنما ورثوا العلم) و (إنما هذه الدنيا لأربعة نفر) .

١٧ — واستخدمت في الحديث الشريف أساليب الإنشاء الطلي، كالنداء (يا أبا ذر . . .) و الاستفهام (أيكم يحب أن يغدو كل يوم ؟) و (أفلا يغدو أحدكم . . .) واستخدم (لو) للتمني في قوله : (فهو صادق النية يقول لو أن لي مالا . . .) كما أخرج الإنشاء مخرج الخبر في قوله : (فمن أخذ به أخذ بحظ وافر) .

١٨ — كما استخدم في الحديث الشريف أسلوب كمال الاتصال في قوله — ﷺ — : (إن العلماء ورثة الأنبياء إن الأنبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما إنما

ورثوا العلم) و (من علم علما فله أجر من عمل به لا ينقص من أجر العامل)
(و(ألا إن الدنيا ملعونة ملعون ما فيها) .

١٩ — كما أوجز الحديث الشريف حين اقتضى المعنى الإيجاز فاستخدم إيجاز
القصر في قوله : — ﷺ — (من طلب العلم كان كفارة لما مضى) و(من
علم علما فله أجر من عمل به لا ينقص من أجر العامل) و(أفضل الصدقة أن
يتعلم المرء المسلم علما ثم يعلمه أخاه المسلم) و(فقيه واحد أشد على الشيطان
من ألف عابد) و (ألا إن الدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا ذكر الله وما والاه
وعالم ومتعلم) .

٢٠ — كما استخدم الحديث الشريف إيجاز الحذف ، فحذف الموصوف وأقام
الصفة مقامه في قوله : — ﷺ — (لا حسد إلا في اثنتين) و (فكان منها
نقية) وحذف المعطوف عليه في قوله:(أفلا يغدو أحدكم إلى المسجد فيعلم أو
يقرأ آيتين من كتاب الله)كما حذف الجملة وعوض عنها بالتثنية في قوله : —
ﷺ — (كلُّ على خير) كما جاء حذف أكثر من جملة في قوله : — ﷺ —
(حتى يكون منتهاه الجنة) .

٢١ — استخدم الحديث الشريف الإطناب مرة بالتفصيل بعد الإجمال، ومرة
بذكر العام بعد الخاص، ومرة بذكر الخاص بعد العام، وقد بين ذلك في موضعه
، كما استخدم الاحتباس في قوله: — ﷺ — (و رجل آتاه الله مالا فسلط
علىهلكته في الحق) .

ثانيا : أساليب البيان

١ — استخدم الحديث الشريف التشبيه سبيلا لبيان مقصوده — ﷺ — وذلك في قوله — ﷺ — (مثل ما بعثني الله به . . .) و (فهو بمنزلة المجاهد في سبيل الله) (فضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب) و(الكلمة الحكيمة ضالة المؤمن) و (واضع العلم عند غير أهله كمقلد الخنازير الجواهر واللؤلؤ والذهب) و(مثل هذه الأمة مثل أربعة نفر) و(فضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم)

٢ — كما استخدم الحديث الشريف المجاز المرسل في قوله: — ﷺ — (لا حسد إلا في اثنتين) و (في غير إثم ولا قطع رحم) واستخدم المجاز بالاستعارة في قوله: — ﷺ — (كل على خير) و (أفضل الصدقة أن يتعلم المرء المسلم علما) و(لن تزال هذه الأمة قائمة على أمر الله) و(إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث . . . أو ولد صالح يدعوله) و(من سلك طريقا يلتمس فيه علما سهل الله له به طريقا إلى الجنة) و(إن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضا بما يصنع) وقوله — ﷺ — (من جاء مسجدي هذا . . . ومن جاء لغير ذلك فهو بمنزلة الرجل ينظر إلى متاع غيره) و(لن يشبع المؤمن من خير يسمعه) و(فقيه واحد أشد على الشيطان) و (فهو يخبط في ماله بغير علم) و(من خرج في طلب العلم كان في سبيل الله . . .) و(يصبح الرجل فيها مؤمنا) و(إلا من أحياء الله بالعلم)

ثالثا : أساليب البديع

١ — استخدم الحديث الشريف ألوانا بديعية عدة منها المشاكلة، وذلك في قوله: — ﷺ — (من سلك طريقا يتبغي فيه علما سلك الله له به طريقا إلى الجنة)

والمقابلة في قوله : — ﴿ ٢٢٣ 》 — (مثل ما بعثني الله به . . .) حيث جاءت أقسام الأرض مقابلة أقسام الناس ، كما وردت المقابلة في قوله — ﴿ ٢٢٤ 》 — (إنما هذه الدنيا لأربعة نفر . . .) حيث قابل {الصف الثالث بالصف الأول، والصف الرابع بالصف الثاني} وجاءت المقابلة أيضا في قوله : — ﴿ ٢٢٥ 》 — (يصبح الرجل فيها مؤمنا ويمسي كافرا)

ووقع الجناس في قوله : — ﴿ ٢٢٦ 》 — (ولن تزال هذه الأمة قائمة على أمر الله لا يضرهم من خالفهم حتى يأتي أمر الله) وقوله : — ﴿ ٢٢٧ 》 — (من جاء مسجدي هذا لم يأت به إلا خيرا يتعلمه فهو بمنزلة المجاهد في سبيل الله ومن جاء لغير ذلك) والطباق في قوله : — ﴿ ٢٢٨ 》 — (وعبد رزقه الله علما ولم يرزقه مالا) كما استخدم — ﴿ ٢٢٩ 》 — أسلوب الترقى التصاعدي .

وأخيرا فقد استخدمت أدوات الربط (الفاء و ثم) في مقاماتهما؛ تنزيلا على الأغراض والمقاصد المؤمة.

كما كثر استخدام أسلوب الشرط في مواطن متعددة منها قوله: — ﴿ ٢٣٠ 》 — (من طلب العلم كان كفارة لما مضى) و(من جاء مسجدي هذا...) و(من يرد الله به خيرا . . .) و(من سلك طريقا يلتمس فيه علما سهل الله له به طريقا إلى الجنة) و(من خرج في طلب العلم كان في سبيل الله حتى يرجع).

الباب الثاني

بلاغته — ﷺ — في حديثه عن آداب

العلم، والتحذير من قبضه.

وتحتة فصول : —

الفصل الأول : بلاغته — ﷺ — في حديثه عن

وجوب تبليغ العلم والترهيب من

كتمان الكذب فيه.

الفصل الثاني: بلاغته — ﷺ — في حديثه عن آداب

مجلس العلم، والاهتمام بطلابه.

الفصل الثالث: بلاغته — ﷺ — في الترهيب من عدم

العمل بالعلم

الفصل الرابع : بلاغته — ﷺ — في الحديث عن تنزيه

العلم عما لا يليق به .

الفصل الخامس : بلاغته — ﷺ — في الحديث عن

قبض العلم .

توطئة

تحدث — ﷺ — عن آداب العلم والتحذير من قبضه ، وقد أوردت كتب السنة المطهرة كثيرا من هذه الأحاديث، وهي تمثل لوحة رائعة تضم آداب العلم من حيث وجوب تبليغه ، وتحريم كتمانها، وتحريم الكذب فيه، وتصوير عذاب من يفعل ذلك بما يحمله على الإقلاع عن الكتمان والكذب فيه ، وأحاديث أخرى في أدب مجلس العلم ، والاهتمام بطلابه، وأحاديث أخرى تتصل بأدب العلم من حيث وجوب العمل به، وقد جاءت هذه الأحاديث في صور من الترهيب تنخلع منها القلوب، ثم أحاديث أخرى تلزم أهل العلم وذويه بالتحلي بما يقتضيه شرف العلم من علو الهمة وشرف المسلك والمقصد ثم ختم هذا الباب بأحاديث جاءت كالنتيجة لعدم الالتزام بما يقتضيه العلم من أدب وتطبيق وتمثل ، وقد كشفت هذه الأحاديث عن أن العلم هو أمان الله في أرضه.

ويمكننا أن نصنفها في التناول على خمسة فصول، الفصل الأول : جعلته لأحاديثه — ﷺ — الواردة في وجوب تبليغ العلم، والترهيب من كتمانها والكذب فيه، وقد أوردت تحته أشهر الأحاديث في هذا الباب، الفصل الثاني : تناولت تحته الأحاديث الواردة في حديثه — ﷺ — عن آداب مجلس العلم والاهتمام بطلابه، الفصل الثالث : تناولت تحته الأحاديث الواردة في الترهيب من عدم العمل بالعلم، الفصل الرابع :

تناولت فيه الأحاديث الواردة في تزيه العلم عما لا يليق به، الفصل الخامس، وهو آخر الفصول تناولت تحته الأحاديث الواردة في قبض العلم، وكان جملة ما تناولته من الأحاديث في هذا الباب واحدا وثلاثين حديثا، وكانت الصورة البيانية وأسلوب الإنشاء الوسيلة العليا لتحقيق مقصوده — ﷺ — في هذا الباب .

الفصل الأول

بلاغته — ﷺ — في حديثه

عن وجوب تبليغ العلم

والترهيب من كتمانته، والكذب

فيه .

لما كان التبليغ من صفات الرسول ﷺ — شأن جميع الرسل —
صلوات الله عليهم أجمعين — شدد الرسول ﷺ — على وجوب
تبليغ العلم، وقد وقع ذلك في أحاديث متعددة بنيت كلها على
الترهيب، وتوعد من كتم العلم بأن يلجم بلجام من نار، أو يعاقب
معاقبة من كتم ما أنزل الله ، وكان التشبيه من الوسائل البيانية العالية في
تصوير عاقبة من أوتي علما فكتمه، أو من سمع علما ثم ترك خير ما قيل
إلى شر ما قيل، وقد تآزرت الألفاظ والتراكيب والصور في إشاعة جو
من الرهبة والخوف من عدم تبليغ العلم، بأنصع بيان، وأوجز أسلوب،
شأن البلاغة النبوية العالية التي هي طبقة وحدها في بيان البشر.

عن معاوية القشيري قال : قال رسول الله ﷺ — " أَلَا لِيُبْلَغِ
الشَّاهِدُ الْغَائِبَ " ^(١)

التصور الجملي للحديث

خرج الحديث الشريف في جملة واحدة مقصودها العام الأمر
بتبليغ العلم

اصطفاءات الألفاظ

اصطفى — ﷺ — (ليبلغ) ولم يقل مثلاً : ليحدث ، أو ليخبر ، لما
يدل عليه لفظ (يبلغ) من التأكيد على إيصال العلم إلى أهله ، وذلك
لما في التبليغ من معنى الإيصال ففيه معنى التحديث والإخبار وزيادة ،
وهو المناسب لمهمة الرسول — ﷺ — فقد أمر بالبلاغ في غير موضع
من القرآن الكريم ، وكأن ما أمر به اقتضاه التعبير من جنس ما أمر به ،
ففي التبليغ أمانة تحمل علم الوحي ، ومن مقتضياته إيصاله إلى كل من
على وجه الأرض .

وقد اصطفى — ﷺ — لفظ (الشاهد) على الحاضر ، أو السامع
أو ما إلى ذلك مما يمكن أن يوضع موضعه ، وذلك للتأكيد على التبليغ

(١) رواه ابن ماجه في سننه ، المقدمة ، باب : من بلغ علماً .

بكل أمان دون أن يخرم المستمع شيئاً مما قاله الرسول — ﷺ — وذلك أن " الشهود والشهادة : الحضور مع المشاهدة ، إما بالبصر ، أو البصيرة . . . والشهادة قول صادر عن علم حصل بمشاهدة بصيرة أو بصر " (١) ففي التعبير بالشاهد ، تنبيه للسامعين للقيام بمقتضيات الشهادة ، والوفاء بحقها بتمام التنبيه ، وإرعاء السمع ، لكل ما يقوله — ﷺ — لنقله إلى من لم يتمكن من حضور الموقف .

أحوال التركيب

افتتح — ﷺ — حديثه بـ (ألا) الاستفتاحية ، تنبيهاً إلى أهمية ما يلقي بعدها ، وعظيم خطره ، وقد آزر (ألا) في التنبيه إلى أهمية ما يلقي بعدها اقتران الفعل بلام الأمر ، والتعبير بـ (يبلغ) بدل يحدث كما سبق بيانه ، وكذلك مجيء المسند إليه (الشاهد) بدل الحاضر أو السامع ، وقد جاء معرفاً بلام العهد للتأكيد على من اتصف بهذا الوصف في ذلك الوقت بالتبليغ ، وإلزام كل من بلغوه تبليغ غيرهم وهكذا ، وقد جاء المفعول به معرفاً بلام الجنس ليشمل التبليغ كل من انطبق عليه وصف الغائب ، وفي التعبير بالغائب مقابل الشاهد طباق فيه تأكيد على تبليغ الشاهد ، وبحث الغائب عن الشاهد لتحصيل العلم منه .

(١) المفردات (ش هـ د) ٢٦٧ ، ٢٦٨ .

هذا، وقد ذكر النووي أن هذا اللفظ (ليبلغ الشاهد الغائب) فيه وجوب تبليغ العلم، وهو فرض كفاية، فيجب تبليغه بحيث ينتشر^(١) وقد جاءت بهذا اللفظ أحاديث أخرى، وإتماما للفائدة أذكر أحاديث أخرى ورد فيها هذا التركيب لأكشف عن ارتباط هذا التركيب بالسياق.

١ — عن عبد الرحمن بن أبي بكرة عن أبيه ذكر النبي ﷺ — قعد على بعيره، وأمسك إنسان بخطامه، أو بزمامه، قال : أيُّ يومٍ هذا؟ فسكتنا حتى ظننا أنه سيُسَمِّيهِ سِوَى اسْمِهِ، قال : أليس يومَ النحر؟ قلنا : بلى، قال : فأَيُّ شهرٍ هذا؟ فسكتنا حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه، فقال : أليس بذي الحجة؟ قلنا : بلى، قال : فإن دماءكم وأموالكم وأعراضكم بينكم حرامٌ حَرَمَ كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا في شَهْرِكُمْ هَذَا في بَلَدِكُمْ هَذَا، لِيُبَلِّغَ الشَّاهِدُ الْغَائِبَ، فَإِنَّ الشَّاهِدَ عَسَى أَنْ يَبْلُغَ مَنْ هُوَ أَوْعَى مِنْهُ" (٢)

نلاحظ أن التركيب جاء في سياق التأكيد على حرمة الدماء والأموال والأعراض، ولقد سلك الرسول ﷺ — سبيل الاستفهام طريقا للتعبير عن مراده ومقصده، وأسلوب الاستفهام يشبه أن يكون

(١) شرح صحيح مسلم للنووي ١٦٩/١١ .

(٢) رواه البخاري في صحيحه، كتاب العلم، باب : قول النبي ﷺ — رب مبلغ أوعى من سامع، وباب : ليبلغ الشاهد الغائب، وكتاب الحج، باب : الخطبة أيام منى، وكتاب المغازي، باب : حجة الوداع، وكتاب الأضاحي، باب : من قال : الأضحي يوم النحر، وكتاب الفتن، باب : قول النبي : لا ترجعوا بعدي كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض، وكتاب التوحيد، باب : قوله الله : — تعالى — (وجوه يومئذ ناضرة) ورواه مسلم في صحيحه، كتاب : القسامة والقصاص والديات، باب : تغليظ تحريم الدماء والأموال والأعراض .

الأسلوب الأساسي في هذا الحديث، والملاحظ أن الاستفهام التقريري هنا فيه إثارة وتنبيه للسامعين، فهو سؤال لا يعقل أن يكون المراد الجواب عنه بالجواب المعروف، لذا لم يكن من الصحابة — رضوان الله عليهم — إلا السكوت يقينا منهم — كما يدل السياق فإن الظن هنا بمعنى اليقين — أنه — ﷺ — لا يريد الجواب المعتاد فالجواب معروف للجميع وكأنه — ﷺ — أراد التشديد على تحريم الدماء والأموال والأعراض بقياسه على حرمة اليوم والشهر، وقد كانت حرمتها من المتعارف عليه عند العرب قبل الإسلام، وفي ذلك ما فيه من التأكيد على حرمة الدماء، وحرمة الدماء والأموال والأعراض هي ذروة المعنى والمقصد في الحديث؛ لذا لم يوردها — ﷺ — مجردة، وإنما مهد لها بما مضى بيانه، وأتبعها بالتأكيد على تبليغ ذلك لمن لم يشهد الحديث، وفي ذلك تعظيم لشأن الحرمة ما بعده تعظيم، حيث أحيط الحديث عن حرمتها بتراكيب من بين يديها ومن خلفها تتظاهر على تأكيد حرمتها، وقد صاغ حرمة هذه الأشياء في ثوب التشبيه الذي عقد الحرمة بالسياق، حيث قال: كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا، وفي رواية أضاف: في بلدكم هذا، وفي التشبيه هنا توكيد على تعظيم الحرمة، وفي ذلك قال العيني: — رحمه الله — "وشبهه — ﷺ — الدماء والأموال والأعراض في الحرمة باليوم والشهر والبلد؛ لأنهم كانوا لا يرون استباحة هذه الأشياء، وانتهاك حرمتها بحال، وكان تحريمها ثابتا في نفوسهم مقررًا عندهم بخلاف الدماء والأموال والأعراض، فإنهم في الجاهلية كانوا

يستبيحونها" (١) " وهذا منه — ﷺ — مبالغة في بيان تحريم هذه الأشياء، وإغْيَاءٌ في التنفير عن الوقوع فيها ؛ لأنهم كانوا قد اعتادوا فعلها واعتقدوا حليتها" (٢)

وقد اختصت هذه الرواية بإتباع جملة (ليبلغ الشاهد الغائب) بجملة تعليلية تؤكد على أهمية التبليغ (فإن الشاهد عسى أن يبلغ من هو أوعى له منه) وقد جاءت الجملة تأكيداً لما سبقها، على حد ما جاء في قول الشاعر :

بَكْرًا صَاحِبِي قَبْلَ الْهَجِيرِ * إِنَّ ذَاكَ النَّجَاحَ فِي التَّبْكَيرِ

ومن بلاغة هذه الجملة المؤكدة ورودها — (عسى) ففي استخدام أسلوب الترجي أدب جم منه — ﷺ — فعلى الرغم من أن ما ذكره يخص البعض ، ولا يشمل الكل ، إلا أنه أورده بعسى ، حتى لا يجبه الحضور بقلة الوعي ، وقلة الفهم فأخرجه في صورة المتوقع .

٢ — عن أبي شُرَيْحٍ أنه قال لعمر بن سعيد بن العاص، وهو يبعث البُعُوثَ إِلَى مَكَّةَ (٣): ائْذَنْ لِي أَيُّهَا الْأَمِيرُ أَحَدْتُكَ قَوْلًا، قَامَ بِهِ النَّبِيُّ — ﷺ — الْغَدَ مِنْ يَوْمِ الْفَتْحِ ، سَمِعْتُهُ أَذْنَايَ، وَوَعَاهُ قَلْبِي ، وَأَبْصَرْتُهُ عَيْنَايَ ، حِينَ تَكَلَّمَ بِهِ حَمْدُ اللَّهِ ، وَأَتْنَى عَلَيْهِ ، ثُمَّ قَالَ : إِنَّ مَكَّةَ حَرَمَهَا

(١) عمدة القاري للعيبي ٣٨/٢ .

(٢) المفهم للقرطبي ٤٧/٥ .

(٣) يعني كان عمرو بن سعيد يبعث الجند إلى مكة لقتال ابن الزبير ، وذلك أنه لما توفي معاوية توجه يزيد إلى عبد الله بن الزبير يستدعي منه بيعته ، فخرج إلى مكة ممتنعاً من بيعته فغضب يزيد ، وأرسل إلى مكة يأمر واليها يحيى بن حكيم يأخذ بيعة عبد الله فبايعه ، وأرسل إلى يزيد بيعته ، فقال : لا أقبل حتى يأتني به في وثاق ، فأبى ابن الزبير ، وقال : أنا عائد بالبيت ، فأبى يزيد وكتب إلى عمرو بن سعيد أن يوجه إليه جنداً فبعث هذه البعث (عمدة القاري ١٤١/٢)

الله، ولم يحرّمها الناسُ فلا يحلُّ لامرئٍ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفكَ بها دماً، ولا يعضدَ (أي : يقطع) بها شجرةً، فإنَّ أحدَ ترخّص لقتال رسول الله — ﷺ — فيها ، فقولوا : إنّ الله قد أذن لرسوله، ولم يأذن لكم ، وإنما أذن لي فيها ساعةً من نهارٍ، ثم عادت حرمتها اليومَ ، كحرمتها بالأمسِ ، ولْيُبَلِّغِ الشَّاهِدُ الْغَائِبَ، فْقِيلَ لأبي شريح : ما قال عمرو ؟ قال : أنا أعلمُ منك يا أبا شريحٍ، إن مكة لا تُعِيدُ عاصياً، ولا فارًّا بدمٍ، ولا فارًّا بخربةٍ " (١)

والملاحظ أن الجملة المذكورة وردت هنا في سياق تراكيب تتظاهر على تعظيم حرمة مكة، وقد احتشدت التوكيدات في التراكيب الواردة في هذا الحديث، ونرى ذلك في كلام الراوي الذي أكد على النص الذي سمعه، حيث قال : سمعته أذناي، مع أن السماع لا يكون إلا بالأذن، وقال : ووعاه قلبي، مع أن الفهم والإدراك لا يكونان إلا بالقلب (والقلب معناه العقل في هذا السياق) وكذلك جاء تعبيره — ﷺ — عن حرمة مكة بحشد من التوكيدات إن، واسمية الجملة، وإسناد التحريم لاسم الله العلم، والربط بين تقديس حرمتها والإيمان بالله واليوم الآخر، وتفصيل أنماط التحريم بالنص على أشياء فيها مثل الشجر، كما أتبع — ﷺ — بتركيب يبين فيه رد ما يمكن أن يقوى شبهة في التحريم فلذلك نص على ذلك بقوله: فقولوا إنّ الله قد أذن لرسوله ساعة

(١) رواه البخاري في صحيحه ، واللفظ له : كتاب العلم ، باب : ليلغ العلم الشاهد الغائب ، ورواه مسلم في صحيحه ، كتاب الحج ، باب : تحريم مكة ، وشجرها وخلاها ولقطنها إلا لمشد على الدوام ، ورواه الترمذي في الحج عن رسول الله ، باب : ما جاء في حرمة مكة ، ورواه النسائي في سننه ، كتاب : مناسك الحج ، باب : تحريم القتال في مكة .

من هـار . . . أي: كان ذلك استثناء، ولم يكن قاعدة، فقد أحيط
تحريمها بمؤكدات متعددة من راوي الحديث، ومنه — ﷺ — ثم جاء
الأمر بالتبليغ ذروة تأكيد ذلك، فكل ما قاله — ﷺ — وسمعه
الصحابه تجب روايته، وإنما يقع هذا التركيب في بعض السياقات مزيد
تخصيص لها بالتعظيم، الذي يتأتى من النص على تبليغها .

عن أبي هريرة — رضي الله عنه — قال : قال رسول الله — ﷺ — مَنْ سئِلَ عَنْ عِلْمٍ عَلِمَهُ، ثُمَّ كَتَمَهُ الْجَمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بَلِجَامٍ مِنْ نَارٍ" (١)

التصور الجملي للحديث

خرج الحديث الشريف في جملة واحدة شرطية، والمقصود منه الترهيب من كتمان العلم .

اصطفاءات الألفاظ

اصطفى — ﷺ — (سئل) على غيرها من مثل : طلب، فلم يقل : من طلب منه علم؛ لأن في السؤال معنى الطلب وزيادة، فالسؤال يأتي بمعنى الطلب، وبمعنى الالتماس، وبمعنى الاستفسار، كما أن الطلب عام حيث يقال فيما تسأله من غيرك، وفيما تطلبه من نفسك، والسؤال لا يقال إلا فيما تطلبه من غيرك كما قال الكفوي (٢) واصطفى — ﷺ — (كتم) على أخفى، حيث لم يقل : فأخفاه، لأن ما عبر به هنا هو الأبلغ، فقد جرت عادة القرآن الكريم على استخدام الكتمان فيما هو خطير وعظيم قال : — تعالى — (وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ

(١) رواه الترمذي في سننه ، واللفظ له ، كتاب : العلم ، باب : ما جاء في كتمان العلم ، ورواه أبو داود في سننه ، كتاب : العلم ، باب : كراهية منع العلم ، ورواه ابن ماجه في سننه ، المقدمة ، باب : من سئل عن علم فكتمه .
(٢) الكليات ٥٠١ ، ٥٨١ .

مِنْ اللَّهِ (البقرة/١٤٠) فلم يقل : ومن أخفى شهادة ، وكذلك قوله :
 — تعالى — (وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ)
 (البقرة/١٤٦) والظاهر أن الكتمان أشد في ستر الشئ من الإخفاء لذا
 استخدم في القرآن ولم يستخدم الستر ومنه جاء في قوله : — تعالى —
 (الَّذِينَ يَبْخُلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ
 فَضْلِهِ) (النساء/٣٧) والآية دالة على شدة إخفاء فضل الله، فما عبر به
 في الحديث هو الأبلغ والأنسب مع الترهيب من كتمان العلم .

أحوال التركيب

خرج الحديث الشريف في جملة شرطية، وفي التعبير بالجملة
 الشرطية تأكيد على حصول الجزاء فور وقوع الشرط، وفي ذلك أيضا
 تأكيد على استحقاق الجزاء، وقد وقع المسند إليه اسم شرط (من)
 إشارة إلى أن الترهيب ليس متعلقا بالأشخاص، وإنما بمن يرتكب تحقيق
 فعل الشرط، وبخاصة إذا كان كتمان العلم عن سائل راغب مفتقر إلى
 العلم والهداية، وقد بني الفعل للمفعول توفيراً للعناية والاهتمام على
 الفعل، ويؤازر الترهيب من الكتمان وقوع هذا المتعلق (عن علم)
 والتكثير فيه للتقليل اتساقاً مع الترهيب، وكان يمكن أن يقال : من سئل
 فكنم . . . كما أن مجيئه مجروراً يتناسب مع التعبير بالكتمان، وذلك لما
 في حرف الجر (عن) من التأكيد على ضرورة الكشف عن هذا العلم
 لما في دلالة (عن) من معنى المجاوزة ، والمجاوزة هنا مجازية لأنها في المعنى

(١) لذا لم يقل : من سئل علما، مع أن الثاني أوجز، وأيضا يؤازر الترهيب من الكتمان ذكر هذا القيد (علمه) فلو حذفنا هذه الجملة التي وقعت صفة لمتعلق الفعل (عن علم) لما ظهر تبشيع وتجريم كتمان العلم، الذي عبر عنه بالفعل الماضي، وكان يمكن أن يقال : عن علم يعلمه، ولوقال كذلك لما كان له هذا المعنى في التجريم والتبشيع، ويؤيده أنه عطف على فعل الشرط هذا الفعل (كتمه) وكان يمكن أن يستغنى بهذا عن الأول كأن يقال : من كتم علما ألجم ، لكن ذكر الكتمان بعد السؤال أعون في تبشيع الكتمان من ذكر الكتمان مباشرة ، ، وقد وقع العطف بـثم تنبيهها على انبغاء استبعاد وقوع ذلك، وليست ثم للتراخي بين وقوع السؤال والكتمان فـ " ثم هنا استبعادية ؛ لأن تعلم العلم إنما يقصد لنشره ، ونفعه الناس ، وبكتمه يزول ذلك الغرض الأكمل، فكان بعيدا ممن هو في صورة العلماء والحكماء " (٢) " وذلك لأنه — سبحانه — أخذ الميثاق على الذين أوتوا الكتاب ليعيننه للناس ولا يكتمونه، وفيه حث على تعليم العلم لأن تعلم العلم إنما هو لنشره، ودعوة الخلق إلى الحق ، والكاتم يزاول إبطال هذه الحكمة، وهو بعيد عن الحكيم المتقن، ولهذا كان جزاؤه أن يلجم ؛ تشبيهاله بالحيوان الذي سخر، ومنع من قصده ما يريد، فإن العالم شأنه دعاء الناس إلى الحق وإرشادهم إلى الصراط المستقيم " (٣)

(١) ينظر عدة السالك للشيخ محمد محيي الدين عبد الحميد ٤٣/٣ .

(٢) تحفة الأحوذى ٤٠٨ / ٧ .

(٣) فيض القدير ١٨٠/٦ .

وقد وقع جزاء الشرط بأسلوب الاستعارة المكنية، حيث شبه كاتم العلم بالحيوان، ثم حذف المشبه به، ورمزله بشئ من لوازمه (البلجام)، وفي ذلك تبشيع لصورة كاتم العلم، وقد ذكر المناوي أن هذا الأسلوب من التشبيه حيث قال : " قوله (بلجام) من باب التشبيه؛ لبيانه بقوله : (من نار) على وزان (حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ) (البقرة/١٨٧) شبه ما يوضع في فيه من النار بلجام في الدابة، ولولا ما ذكره من البيان — من نار — لكان استعارة، لا تشبيها" (١) والأظهر أن يكون الأسلوب استعارة بالكناية، لأن المشبه به (الحيوان) لم يذكر لا ظاهرا، ولا مستترا .

وفي التعبير بهذه الاستعارة إعلاء للترهيب من كتمان العلم، ومناسبة لطيفة فقد اصطفى — ﷺ — ما يتعلق بعاقبة الكتمان، وهو متعلق بالفهم، تناسبا بين العمل والجزاء، وهذا التناسب يذكره الخطابي — رحمه الله — باسم المشاكلة، وليس المراد من ذلك المشاكلة المذكورة في علم البديع، وإنما المراد أن الجزاء من جنس العمل يقول الخطابي: " الممسك عن الكلام ممثّل بمن أجم نفسه، كما يقال : التقى ملجم، وكقول الناس: كلم فلان فلانا فاحتج عليه بحجة أجمته، أي: أسكنته، والمعنى : أن الملجم لسانه عن قول الحق والإخبار عن العلم والإظهار له يعاقب في الآخرة بلجام من نار، وخرج هذا على معنى مشاكلة العقوبة

(١) فيض القدير ١٨٠/٦ .

الذنب" (١) فالتصوير بالاستعارة هو الأوقع في الكشف عن مثل هذه المقاصد التي تتجه نحو الترهيب ، فيصير الترهيب بالاستعارة محسوسا ملموسا، والنفس من عادتها الخوف من المحسوس، ومما ضاعف من الترهيب أنه جعل اللجام من النار، وكان يمكن أن يقال: من سئل عن علم، ثم كتبه أجم، ولكن هذا التعبير المقترح يطفئ لهيب الترهيب، ونار التهديد، لأنه يعني أنه سيعاقب بالبهكم، وعدم القدرة على التكلم، وهذا لا يتناسب مع خطر كتمان العلم .

وقد ذكر الخطابي العلم المقصود هنا في هذا الحديث بما مجمله أنه العلم الذي لايسع المسلم جهله من فروض العين، والعلم الذي توفر له سائل في حال لايسعه تأخير الجواب، يقول الخطابي: "هذا في العلم الذي يلزم تعليمه إياه، ويتعين عليه فرضه، كمن رأى كافرا يريد الإسلام، يقول: علموني ما الإسلام؟ وما الدين؟ وكمن يرى رجلا حديث العهد بالإسلام لا يحسن الصلاة، وقد حضر وقتها، يقول: علموني كيف أصلي وكمن جاء مستفتيا في حلال أو حرام، يقول: أفوتي وأرشدوني، فإنه يلزم في مثل هذه الأمور أن لا يمنعوا الجواب، عما سئلوا عنه من العلم، فمن فعل ذلك كان آثما مستحقا للوعيد والعقوبة، وليس كذلك الأمر في نوافل العلم التي لا ضرورة بالناس إلى معرفتها" (٢)

(١) معالم السنن (شرح سنن أبي داود) للإمام الخطابي ١٧١/٤ .

(٢) معالم السنن ١٧١/٤ .

وما ذكره الخطابي هو المناسب لما بني عليه الحديث من الترهيب،
إذ لو قصد ما كان نافلة من العلم بهذا الترهيب لهلك العلماء، والحديث
بني على الإيجاز البليغ الذي دل بالتركيب الموجز على المعنى الكثير،
وكل ما في الحديث من هيئات التركيب، واصطفاءات الألفاظ يتظاهر
على الترهيب من كتمان العلم، ببيان العاقبة الوخيمة المترتبة على ذلك .

عن جابر قال : قال رسولُ الله ﷺ — إذا لَعَنَ آخِرُ هَذِهِ
الْأُمَّةِ أَوَّلَهَا ، فَمَنْ كَتَمَ حَدِيثًا فَقَدْ كَتَمَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ " (١)

التصور الجملي للحديث

مقصود الحديث الشريف التهيب من كتمان العلم لاسيما عند الحاجة، وقد خرج الحديث في جملة نحوية واحدة تحقيقاً لهذا المقصود، وهذه الجملة جملة شرطية تطوي في رحمها جملة شرطية، وقعت جواب شرط للأولى، فإن (إذا) اسم زمان خافض لشرطه منصوب بجوابه، وجملة (لعن آخر هذه الأمة أولها) فعل الشرط، وجملة (فمن كتم...) إلى آخر الحديث جواب الشرط وجزأؤه، والجواب نفسه مكون من جملة شرطية، فإن (من) اسم شرط، وجملة (من كتم حديثاً) فعل الشرط، وجملة (فقد كتم ما أنزل الله) جواب الشرط، وهذا نمط من التركيب بديع .

اصطفاءات الألفاظ

اصطفى — ﷺ — (لعن) على ما يقاربها من مثل سب، أو شتم، أو ذم، ذاك أن اللعن أعم وأشمل في الدلالة، فهو سب ودعاء بالبعد والطرْد من رحمة الله، يقول الراغب: "اللعن: الطرد والإبعاد على

(١) رواه ابن ماجه في سننه ، المقدمة : باب : من سئل عن علم فكتمه .

سبيل السخط، وذلك من الله — تعالى — في الآخرة؛ عقوبة، وفي الدنيا انقطاع من قبول رحمته وتوفيقه، ومن الإنسان دعاء على غيره" (١) كما أنه — ﷺ — اصطفى كتم على ما يقاربها؛ تنبيها على خطر ما يكتم كما سبق بيانه في الحديث السابق .

أحوال التركيب

الحديث الشريف بني على الترهيب، لذا افتتح باسم الشرط الظرفي الذي يدل على فساد الحال، واشتداد الحاجة إلى العلم في فساد الأحوال أعظم منه في صلاح الأحوال، وقد عبر بـ (إذا) الدالة على تحقق مدخولها وفي ذلك ما فيه من الترهيب وقد وقع فعل الشرط أسلوب كناية عن صفة، حيث كنى عن انتشار الجهل بلعن آخر هذه الأمة أولها وفي ذلك يقول السندي: "قوله: (إذا لعن آخر هذه الأمة أولها) أي: إذا كثر الجهل، وحصلت الحاجة إلى العلم لأن منشأ اللعن هو الجهل، أو المراد: إذا جهلوا بفضائل الصحابة وحرمة اللعن فسبوهم" (٢) وعلى التفسير الأول يكون المراد عموم الجهل، وعلى الثاني يكون المراد الجهل بفضائل الصحابة خاصة، والتعبير لا يمنع الاثنين وفي التعبير بأسلوب الكناية تناغم مع التعبير بـ (إذا) الشرطية الدالة على تحقق مدخولها، فالتعبير بالكناية هو كسوق الدعوى بدليل فبلاغة الكناية في توفرها على

(١) المفردات مادة (ل ع ن) ٤٥١.

(٢) شرح سنن ابن ماجه للسندي ١٧١/١ .

إثبات المعنى، لا على المبالغة، وفي ذلك يقول الإمام عبد القاهر: وتفسير هذا: أن ليس المعنى إذا قلنا " إن الكناية أبلغ من التصريح أنك لما كُنيت عن المعنى زدت في ذاته، بل المعنى أنك زدت في إثباته، فجعلته أبلغ وأكد وأشد، فليس المزية في قولهم : (جم الرماد) أنه دل على قرى أكثر، بل أنك أثبت القرى الكثير من وجه هو أبلغ ، وأوجبه إيجاباً هو أشد، وادعيته دعوى أنت بما أنطق ، وبصحتها أوثق " (١) فكأنه — ﷺ — أراد أن يؤكد على حصول عموم الجهل فجاء بما هو أقوى في الدلالة على ذلك، ولا أدل عليه من استثناء الطعن على السلف، وفي أسلوب بناء الكناية لطائف منها، أنه ورد فيه أسلوب طباق بين (آخر) و(أول) وهو أدل على شدة الجحود، وهو أعظم الجهل، وهي تعادل في التعبير قولنا : إذا لعن الصغير الكبير، والولد والده، ما من ريب في أن التعبير بالطباق هنا يظهر البشاعة والفظاعة في الجحود والنكران، وهو أقرب أنواع الجهل، وإنما ذكر العلماء أن المراد بأولها هنا الصحابة (٢) — رضوان الله تعالى عليهم — لفضل قربهم من رسول الله ﷺ — وتحمل الأذى والعنت والمشقة والعذاب في سبيل إظهار الدين وانتشاره، لنقل الخير إلى الأمة من بعدهم، ولولا مؤازرتهم رسول الله ﷺ — لكان الحال غير الحال فقد تركوا أهلهم وأوطانهم، وهجروا ملذات الحياة نصرة لدين الله، ومن بعد ذلك يجزون باللعن ذاك أعظم الجهل.

(١) دلائل الإعجاز ٧٠ تحقيق الشيخ محمود شاكر، ط الخانجي ١٩٨٤م وينظر : من الأسرار البيانية في الكناية القرآنية ٥ وما بعدها د/ حمزة الدمرداش زغلول ، ط المطبعة الإسلامية الحديثة ١٤٠٨هـ .

(٢) فيض القدير ٥٤٥/١ .

كما أن المسند إليه قد جاء معرّفاً بالإضافة ؛ وذلك لما في الإضافة في هذا السياق من تبشيع الدم، وقد ضاعف من تبشيع الدم الإضافة إلى اسم الإشارة (آخر هذه الأمة) وكان يمكن أن يقال : آخر الأمة دون اسم الإشارة، لكن اسم الإشارة ضاعف من الدم، من حيث إنها أمة معظمة؛ لذا عبر باسم الإشارة الموضوع للقريب فهي الأمة الموصوفة بأنها خير أمة أخرجت للناس كما قال ربنا (كُنْتُمْ خَيْرُ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ . . .) (آل عمران / ١١٠) (وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا . . .) (البقرة / ١٤٣) فكيف يليق بمن هم منها أن يكونوا على هذا الحال من الجهل والجهود؟ فاسم الإشارة هنا يفيد التعظيم مع أن السياق للذم لأنه على النحو الذي ذكرت من النعي على من اتصف بهذا الوصف كما أن وقوع كلمة (الأمة) بدلا أو عطف بيان من اسم الإشارة للأمة يزيد من النعي على اللاعنين، وإلا فكان يمكن أن يقال : إذا لعن الآخر الأول، ولم يقل — ﷺ — : لعن آخر أمّتي أولها، إعلانا للبراءة ممن اتصف بهذا الوصف، وفي ذلك من الترهيب ما فيه، وفي وقوع المفعول به مؤخرا مع أنه موقعه الأصلي تحاش من مجاورة (لعن) للأخيار، هذا وكل ترهيب وذم أشاعه فعل الشرط هنا، إشعار بالحاجة إلى العلم، وتجريم لمن كتم العلم آنثذ .

ثم جاء جواب الشرط جملة شرطية (فمن كتم . . .) وفي وقوعه جملة شرطية تأكيد على حصول الجزاء وتحقيقه، وقد عبر بـكتم وفيها ما فيها من عظيم الخطر، وقد وقع فعل الشرط ماضيا تأكيدا على تحقق الوقوع، وفيه إشعار باستحقاق العقوبة، ووقع المفعول به (حديثا) منكرا للتعميم، وزيادة في الترهيب لمن اتصف بالكتمان أيا كان مقدار المكتوم ونوعه، وجاء جواب الشرط مفتتحا بقدر الدالة على التحقيق لدخولها على الماضي (فقد كتم ما أنزل الله) على شاكلة فعل الشرط أي : إذا تحقق الكتمان تحققت العقوبة ، وقد جاء المفعول به في الجواب دالا على التهويل والترهيب، تناسبا مع الحال الذي بينته جملة الشرط في إذا، فقد جعل كتمان الحديث هنا من أعظم الجرم؛ لأنه كتمان لما أنزل الله، لذا لم يقل فقد كتم سنتي أو كتم الشريعة، والبديع في هذا التركيب أنه لم يذكر في الجواب العقوبة، ولم ينص عليها، وإنما ذكر موجبها، فلم يقل: أجم بلجام من نار على نحو الحديث السابق، وكأنه — ﷺ — اكتفى بما هو مذكور في الذكر الحكيم من عاقبة كتمان ما أنزل الله ، وفي هذا عقد للبيان النبوي بالبيان القرآني؛ تنبيها على أنهما سياق واحد، وأن الكل من عند الله غير أن القرآن الكريم وحي باللفظ والمعنى ، والسنة المطهرة وحي بالمعنى دون اللفظ، وفي قوله (ما أنزل الله) جاء الإسناد إلى اسم الله العلم إعلان لبشاعة الجرم، وتفضيع للمرتكب كما أن هذا التركيب يحضر على الذهن مجموعة من آيات الذكر الحكيم الكاشفة عن خطر كتمان ما أنزل الله وعقوبة ذلك، من ذلك قوله : (إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ

لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ)
 (البقرة/١٥٩) وحين نضع الحديث الشريف بإزاء الآية الكريمة نرى أن
 الجزاء من جنس العمل ، فقد لعنوا مقابلة لعنهم أسلافهم ، وفي القرآن
 الكريم أيضا: (إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ
 ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ
 الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ. أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ
 بِالْهُدَى وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ) (البقرة/١٧٤، ١٧٥)
 مع الأخذ في الاعتبار أن من وصفوا بكتمان ما أنزل الله هم اليهود
 والنصارى، وقد فصل الذكر الحكيم عقوبتهم، وكشف عن مسالكهم،
 وفضحهم، وخلاصة القول أن الحديث الشريف حين اقتصر على ذكر
 موجب العقوبة دون تفصيلها كان أوقع في الترهيب من ذكر العقوبة،
 لأن ذكر موجبها يجبر الناظر في الحديث على العودة إلى كتاب الله
 لاستقراء هذه العقوبة، وهذا من الإيجاز البديع والحكمة البالغة .

عن ابن عباس — رضي الله عنهما — قال : قال رسول الله
 ﷺ — "تَسْمَعُونَ ، وَيُسْمَعُ مِنْكُمْ ، وَيُسْمَعُ مِمَّنْ سَمِعَ مِنْكُمْ"
 (١)

التصور الجملي للحديث

المقصود العام للحديث : الأمر بسماع العلم، وتبليغه، وقد خرج
 الحديث الشريف في جملة واحدة (تسمعون) وتبعتها جمل أخرى
 بالعطف (ويسمع منكم) و(يسمع ممن سمع منكم)

أحوال التركيب

"إننا حين ندرس خصائص التراكيب ، وأحواله إنما ندرس في
 الحقيقة خصائص الحس، وأحوال الشعور ؛ لأن الجملة بشيائها المتعلقة
 بالصياغة، هي في الحقيقة حالة ذهنية، أو خطرة من خطرات النفس،
 وخصائص الأحوال الروحية، وملاحظتها وشيائها دقيقة جدا وغامضة
 وملبسة، ثم هي منعكسة في الكلام بكل هذا الغموض، وكل هذه الدقة
 والإلباس والتفلت " (٢) وهذا ما نجده في هذا الحديث وفي غيره من
 البيان النبوي الشريف، فقد عكس التركيب انفعاله — ﷺ — بأمر

(١) رواه أبو داود في سننه ، كتاب : العلم ، باب : فضل نشر العلم .

(٢) دلالات التراكيب ٢٦٧ .

تبليغ العلم انفعالا أخرج المطلوب في صورة الحاصل المتحقق، حيث إن الأصل أن يقال : اسمعوا مني الحديث وبلغوه عني، وليبلغه من بلغتموه، ولكنه أخرج الإنشاء في صورة الخبر؛ تأكيداً للأمر، قال الزمخشري : " وإخراج الأمر في صورة الخبر تأكيد للأمر وإشعار بأنه مما يجب أن يتلقى بالمسارعة إلى امتثاله " (١) وقد قال البلاغيون في مثل هذا: " إن النفس إذا عظمت رغبتها في شيء تخيلت غير الواقع واقعا وبنت الكلام على هذا التخيل " (٢)

وفي ذلك من إظهار الحرص على وقوع المطلوب ما فيه، وإننا نرى الحديث قد بني على الإيجاز البليغ، فأصل الكلام : لتسمعوا مني الحديث، وتبلغوه عني، وليسمعه من بعدي منكم، وليبلغه من بعده... ووراء هذا الحذف الكثير ما وراءه من طي الكلام وتوفير العناية على السماع، وكأنه تنبيه إلى أنه لا ينبغي أن يوجد زمن فاصل بين السماع والتبليغ، وهو يتناغم مع شدة الحرص على التبليغ التي يقصد إليها الرسول ﷺ — ففي التعبير بالسماع وتكراره، وطي التبليغ، زيادة في التوكيد على التبليغ ؛ تنبيهاً على عدم التراخي في التبليغ، وقد بني السماع في الجمل المعطوفة على الجملة الأولى للمفعول توفيراً للعناية على الفعل، وزيادة حث على عدم التراخي في التبليغ بحال، ويؤيده أنه حذف المفعول حتى تذهب النفس في تقديره كل مذهب، كما أن في

(١) الكشف للزمخشري ٣٦٥/١ ، ط دار الفكر .

(٢) دلالات التراكيب ٢٦٦ ، ٢٦٧ .

حذف المفعول تأكيداً على أن السماع والتبليغ يشملان كل ما يصدر عنه — ﷺ — فقد رأينا بتركيب الحديث الناس كلهم آذاناً صاغية من كثرة تكرار مادة السماع، واصطفى السمع على غيره من أدوات الإدراك، تمشياً مع طبيعة التعبير بأعلى المدركات، لذلك رأينا القرآن الكريم يقدم السمع على البصر غالباً ؛ تنبيهاً لشرف السمع على البصر من ذلك قوله : — تعالى — (إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا) (الإسراء / ٣٦) ومثله كثير في الذكر الحكيم^(١) وتقديم السمع على البصر هو الموافق لطبيعة العرب الحافظة، التي اعتادت على حفظ معارفها في صدورها، لذا قلت سطورها، وكثرت أحاديثها.

وليس في تكرار هذه الكلمات (تسمعون، يسمع، يسمع، سمع) إخلال بفصاحة الحديث فمن المعروف أن البلاغيين اشترطوا في فصاحة الكلام أن يكون غير متنافر، وعدوا من تنافر الكلمات تكرار كلمات ذات جرس صوتي واحد أو متقارب تكراراً يكيد اللسان^(٢) وقد عابوا ما جاء من الكلام على هذا النهج، والراجح عند أهل العلم أن المرجع في الحكم على التكرار بالتنافر هو الذوق السليم، والأذن عند البلاغيين قاض في النغم نافذ القضاء كما قال الدكتور أبو موسى^(٣) هذا

(١) يونس ٣١ ، النحل ٧٨ ، المؤمنون ٧٨ ، السجدة ٩ ، الملك ٢٣ ، الأحقاف ٢٦ ، فصلت ٢٠ وغير ذلك كثير
(٢) ينظر في هذه القضية : البيان والتبيين للجاحظ ٣٧/١ ، ط دار الكتب العلمية ، بيروت ، إعجاز القرآن لأي بكر الباقلائي ٢٦٩ تحقيق السيد أحمد صقر ، ط .
(٣) ينظر خصائص التراكيب ٦٣ .

وأسلافنا من البلاغيين كانوا أحكم من أن يضعوا قواعد تخرج بعضا من القرآن والسنة من حد الفصاحة، فقد قاموا لخدمة البيانين الشريفين .

بل إن أحد الباحثين ^(١) رأى أن ما ذكره البلاغيون شاهدا على تنافر الكلمات من الشعر ضرورة لتكوين الصورة الشعرية وعلق على ذلك أحد الباحثين قائلا: " قضية التنافر قد يكون لها وجه من القبول لدى أولئك الذين يغلبون الناحية الذوقية، ونحن لا نمانع في قبول التفسير الجمالي للتنافر بشرط عدم إخلاله بفصاحة الكلام التي أيضا تعني عذوبة الألفاظ وسلاستها ووقعها الحسن في المسامع " ^(٢) فالذوق هنا قاض بأن الحديث الشريف في الفصاحة من القمة فتكرار السين وهو حرف مهموس لا يكسد اللسان، بل إنني أرى أن تكرار مادة (سمع) هنا يثير صخباً دافعاً إلى الاهتمام البالغ بكل ما يقال حديثاً عنه — ❦ — وإرعاء السمع له، وتخليص الفؤاد لوعيه .

وفي التعبير بهذا القيد (منكم) للفعل (يسمع) تأكيد على وجوب التبليغ ممن سمع، وذلك لما في حرف الجر من معنى ابتداء الغاية، ولما في كاف الخطاب من المواجهة و قصد التكليف، وإلا فكان من الممكن أن يقال : تَسْمَعُونَ، وتُسْمَعُونَ، ويُسْمَعُ مَنْ تُسْمَعُونَ، لكن ما عبر به — ❦ — هو الألفق بمقصده وغرضه، وهو التأكيد على

(١) ينظر ما كتبه د/ محمد النويهي في تطبيقاته للحكاية الصوتية للمعنى على الشعر الجاهلي في كتابه (الشعر الجاهلي منهج في دراسته وتكوينه) ومقطعات كلامه في : علم الفصاحة مقدمة في النظرية والتطبيق ١٣٠ د/ محمد علي رزق الخفاجي ، ط ، دار المعارف ١٩٨٢ م ..

(٢) علم الفصاحة — مقدمة في النظرية والتطبيق ١٤٤ .

التبليغ ، لذا تكرر حرف الجر والضمير في كلامه الشريف؛ زيادة في التأكيد على التبليغ، وزيادة في تحميل الأمانة، وقطعا لعذر كل معتذر، والحديث الشريف على قصره علم على البلاغة ، وعنوان للحكمة البالغة .

عن ثابت — رضي الله عنه — قال : سمعتُ رسولَ — ﷺ — يقول : نَضَرَ اللهُ امرءًا سَمِعَ مِنَّا حَدِيثًا ، فَحَفِظَهُ حَتَّى يُبَلِّغَهُ غَيْرَهُ ، فَرُبَّ حَامِلٍ فِقْهٍ — إِلَى مَنْ هُوَ أَفْقَهُ مِنْهُ ، وَرُبَّ حَامِلٍ فِقْهٍ لَيْسَ بِفِقْهِهِ " (١)

التصور الجملي للحديث

الحديث مسوق للحث على تبليغ العلم، وقد خرج في جملتين (نضر الله امرءا سمع منا حديثا، فحفظه حتى يبلغه غيره) والثانية (فرب حامل فقه إلى من هو أفقه منه، ورب حامل فقه ليس بفقيه) وذلك على أن الفاء استئنافية تعليلية .

اصطفاءات الألفاظ

اصطفى — ﷺ — نضر على ما يقاربها في أداء المعنى، من مثل: حسن؛ لأنها أدخل في باب البلاغة من سواها، لما لها من مزيد حض على امتثال أمره — ﷺ — فالذي سيبلغ حديثا من أحاديثه سينال الحسنيين في الدنيا والآخرة يقول المباركفوري: "معنى قوله (نضر الله امرءا) أي: خصه الله بالبهجة والسرور لما رزق بعلمه ومعرفته من القدر والمترلة بين الناس في الدنيا، ونعمه في الآخرة، حتى يرى عليه رونق

(١) رواه الترمذي في سننه، واللفظ له، كتاب العلم، باب: في الحث على تبليغ السماع، ورواه ابن ماجه في سننه، المقدمة، باب: من بلغ علما ورواه أبو داود في سننه، كتاب: العلم، باب: فضل نشر العلم، كتاب: المناسك، باب: الخطبة يوم النحر .

الرخاء والنعمة" (١) كما أن التعبير بلفظ (نضر) يحضر على الذهن ما يكافؤ به المؤمنون في الآخرة مما جاء في مثل قوله : — تعالى — (وَجُودٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ إِلَى رَبِّهَا نَاضِرَةٌ) (القيامة / ٢٢، ٢٣) و(تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ) (المطففين / ٢٤) وفي ذلك ما فيه من الترغيب في الاجتهاد في التبليغ ، وقد تنبه ابن علان إلى هذه اللطيفة — وإن لم ينص على ذلك — حين قال : " لو أبدل نضر بنحو حسن لفاتت الدقيقة الاستفادة من نضر " (٢)

واصطفى — ﷺ — امراء على ما يقاربها من مثل : عبد ، تعبيرا بما هو أشمل وأعم ، وهو المناسب لخطر التكليف بالتبليغ " ذاك أن المرء أعم من العبد ، لما في العبد من معنى الاستكانة ، والمضي لأمر الله ورسوله بلا امتناع، وعدم الاستنكاف مع أداء ما سمع إلى من هو أعلم منه ، فإن حقيقة العبودية مشعرة بذلك " (٣)

أحوال التراكيب

افتتح الحديث الشريف بأسلوب إنشائي معنى خبري لفظا، حيث جاء على صورة الماضي الواقع " تحقيقاله وتفؤلا بوقوعه ، أن هذا ثابت

(١) تحفة الأحوذى ٤١٦/٧ .

(٢) دليل الفالحين ١٤٨/٤ .

(٣) فيض القدير ٣٥٠/٦ .

بإذن الله وواقع غير ذي شك" (١) لذلك قالوا : لا يزال في وجوه المحدثين
نضارة ببركة دعائه — ﷺ — (٢) والتعبير عن الإنشاء بالخير هنا إما
أن يكون من المجاز المرسل لعلاقة الضدية ، وإما أن يكون من الاستعارة
لعلاقة تشبيه غير الحاصل بالحاصل (٣) هذا ، وقد قيل إن قوله : (نضر
الله امرءا) إخبار يعني جعله ذا نضرة ، وقيل : إنه دعاء له بالنضرة وهي
البهجة والبهاء في الوجه من أثر النعمة " (٤) لكن الأظهر هو أن
الأسلوب مما عبر به عن الإنشاء بلفظ الخير، وذلك أن دعاءه — ﷺ —
— مما لا ريب في قبوله، كما أن الدعاء أذفع للحرص على اغتنام دعوته
— ﷺ — وذلك غير الإخبار، وقد جاء المسند إليه (الله) بالاسم العلم
الذي هو أعرف المعارف، زيادة في إظهار الحرص على تحقق دعوته —
ﷺ — وجاء بالمفعول به نكرة؛ لإيلاء الاهتمام للوصف الذي حدد هذه
النكرة (سمع منا حديثا . .) وقد عبر بالسماع لأنه أعلى في الإدراك،
وقد قدم الجار والمجرور على المفعول به (منا) تنبيها إلى تحري المصدر،
ولذلك انصب اهتمام السلف على العناية بالسند كما اعتنوا بالمتن سواء
بسواء، وقد جاء المفعول به (حديثا) منكرا للتعميم، ليشمل كل
حديثه — ﷺ — ويؤيد ذلك الرواية الأخرى (سمع منا شيئا) يقول
المنائي : " المراد بقوله : (شيئا) عموم الأقوال والأفعال الصادرة من

(١) الخصائص لابن جني ٣/٣٣٢.

(٢) ينظر فيض القدير ٦/٣٥٠ ، وعون المعبود شرح سنن أبي داود ٩٤/١٠ ، ودليل الفالحين ٤/١٤٨ .

(٣) ينظر تلخيص الفتاح وشروحه ٢/٣٣٨ ، ٣٣٩ .

(٤) تحفة الأحوذى للمباركفوري ٧/٤١٦ .

المصطفى — ﷺ — وأصحابه — رضوان الله عليهم أجمعين — بدليل صيغة (منا) بلفظ الجمع " (١) .

ثم عطف على الجملة السابقة جملة أخرى تؤكد على ضرورة الوعي والإدراك، وفاء بحق أمانة التبليغ ، وكانت هذه النكتة تفوت لو قيل : من سمع منا حديثا فبلغه، ففي هذه الجملة من التأكيد على ضرورة التنبيه لحديثه — ﷺ — حين يلقي مافيه ، لما يترتب على السماع من التبليغ ، والتركيب يتيح الحفظ بأية وسيلة ملائمة ؛ لذا قال العلماء : والحفظ بالقلب أو بالكتابة (٢) ويؤيد ذلك قوله بعد ذلك (حتى يبلغه غيره) فحتى هنا غائية تبين ضرورة الحفظ إلى غاية وأنه لا إعفاء لمن سمع الحديث من تبليغه، وتدل هذه الرواية على عموم أشكال التبليغ لفظاً أو معنى، وتدل رواية أخرى أن الأعلى في تحصيل الأجر، هو نقل الحديث بلفظه (فبلغه كما سمعه) فهذه الرواية تؤكد على الرواية باللفظ لذا جاءت بأسلوب التشبيه؛ " لذا دعا — ﷺ — للضابط الحافظ ألفاظ السنة الراوي لها كذلك بما ذكر؛ لأن حفظه للسنة مع أدائها كما سمع سعي في نضارتها، فكأنه جعل المعنى بذلك غضا طرياً بخلاف ما لو أبدلها، ولو بمرادف؛ فإنه جعله مبتذلاً" (٣)

ويبين المباركفوري معنى هذا التشبيه فيقول: " قوله (فبلغه كما سمعه) أي: من غير زيادة ونقصان، وخص مبلغ الحديث كما سمعه بهذا

(١) فيض القدير ٣٥٠/٦ .

(٢) تحفة الأحوذى ٤١٦/٧ .

(٣) دليل الفالحين ١٤٨/٤ .

الدعاء؛ لأنه سعي في نضارة العلم، وتحديد السنة، فجازاه بالدعاء بما يناسب حاله، وهذا يدل على شرف الحديث، وفضله ودرجة طلابه حيث خصهم النبي ﷺ — بدعاء لم يشرك فيه أحدا من الأمة ، ولو لم يكن في طلب الحديث وحفظه وتبليغه فائدة ، سوى أن يستفيد بركة هذه الدعوة المباركة لكفى ذلك فائدة وغنما ، وجل في الدارين حظا وقسمة" (١)

ثم أتبع الجملة السابقة بجملة استئنافية تعليلية تؤكد على ضرورة التبليغ (فرب حامل فقه إلى من هو أفقه منه، ورب حامل فقه ليس بفقيه) وفي رواية أخرى (فرب مبلغ أوعى من سامع) وفي تركيب هذه الجملة بدائع ولطائف، فقد افتتحها — (رب) وأسلوب رب من أساليب الإنشاء غير الطلبي على الراجح، وهي ترد للتقليل عند الجمهور ومذهب ابن درستويه وجماعة أنها تفيد التكثير، وذهب آخرون أنها لمبهم العدد ، فيكون تقييلا وتكثيرا ، وذهب بعضهم إلى أنها لم توضع لتقليل ولا تكثير، بل ذلك مستفاد من سياق الكلام، وهو الذي اختاره أبو حيان (٢) وقد اختلف شراح الحديث في معنى (رب) هنا ذهب ابن علان أنها للتكثير حيث قال: "رب للتكثير، واستعمالها فيه حقيقة، لا مجازا؛ خلافا لزاعمه . . . ويؤخذ منه أنه قد يكون في التابعين من يمتاز على بعض الصحابة بكونه أفقه منه، وأفهم منه فيما بلغه له عنه — ﷺ

(١) تحفة الأحوذى ٤/١٧ .

(٢) ارتشاف الضرب من لسان العرب لأبي حيان التوحيدي ٤/١٧٣٨، ١٧٣٧، تحقيق د/ رجب عثمان ، ط ، الخانجي

— ولا بدع في ذلك؛ فإنه قد يكون في المفضول مزايا، لا تكون في
 الفاضل " (١) وهذا يعني أن رب موضوعه على الحقيقة للتكثير،
 واستعمالها في غيره مجاز، ولعله يقصد بقوله (خلافاً لزاعمه) التوربشتي
 فيما نقله عنه المناوي "ورب موضوعه للتقليل، فاستعيرت في الحديث
 للتكثير" (٢) ويرى القرطبي والعيني أنها تفيد التقليل، يقول العيني "إن
 قلت : كلمة رب أصلها للتقليل، وقد تستعمل للتكثير فأيهما المراد هنا؟
 قلت : الظاهر أن المراد معنى التقليل تدل عليه الرواية التي تقدمت في
 كتاب العلم (عسى أن يبلغ من هو أوعى له منه " (٣) والظاهر هنا أنها
 للتقليل، وفي استخدامها أدب جم منه — ﷺ — لأن في عدم الإتيان
 بها مجاهدة للحضور من الصحابة — رضوان الله — تعالى عليهم — بقلة
 الفهم والوعي، وهو من أجمل مواضع رب، فحاء — ﷺ — بها؛
 تحاميا من الوقوع في هذه المجاهدة" (٤) وقد وقعت (رب) مرتين في هذا
 الحديث تناهيا في الأدب الجم .

وهذه الجملة تدل على أن " المتأخر قد يفهم من الكتاب والسنة
 ما لم يخطر للمتقدم فإن الفهم فضل الله يؤتیه من يشاء، ولكن هذا ينذر
 ،ويقل، فأين البحر من الوشل، والعل من العلل، ليس التكحل في العينين

(١) دليل الفالحين ١٤٨/٤ .

(٢) فيض القدير ٣٥٠/٦ .

(٣) عمدة القارى للعيني ٨١/١٠ .

(٤) من بلاغة الإنشاء غير الطلي في البيان النبوي دراسة في الصحيحين ١٠٦، ١٠٧ . رسالة ماجستير للباحثة مخطوطة بكلية
 الدراسات الإسلامية للعرية للبنات بالقاهرة — جامعة الأزهر الشريف ٢٠٠٠ م .

كالكحل" (١) وفي ذلك ما فيه من تأكيد الحرص على التبليغ، إعمالاً للفهم في حديثه — ﷺ — و لم يحرم — ﷺ — المبلغ من الأجر، فلولاه ما وصل الفقيه إلى الفقه، فوق أنه تشريف للمبلغ بحمل الفقه، لذا قال (حامل فقه) ففي الإضافة تشريف، وترغيب في التبليغ؛ لذا لم يقل: حامل حديث كما يقتضيه الظاهر، وفيه حث للفقيه على التقاط ما عند الراوي من الحديث، كما أنه فاضل بين المبلغ والفقيه بأفعل التفضيل، وهذا يعني عدم انعدام الفقه عند المبلغ، وإنما يعني التفاوت في الفقه، وهومن الرزق والتفاوت في الرزق غير منكور، وجاءت جملة أخرى لتثبيت الأجر والفضل للمبلغ وإن لم يكن عنده فقه (ورب حامل فقه ليس بفقيه) وفي التعبير بالفقه بيان لفضل علوم الشريعة الضابطة للعبادات والمعاملات وغيرها، والملحوظ أن الحديث اصطفي من الألفاظ والتراكيب ما يلائم الغرض وهو التبليغ، فدارت ألفاظه وتراكيبه حول هذا المقصد، فقد رأينا حشدا من الألفاظ الملائمة للتبليغ (سمع — حفظ — بلغه — حامل فقه) وقد بني الحديث على أسلوبين إنشائيين، والأساليب الإنشائية ذات ثراء بالغ في التأثير في النفس، والتحريض على الوفاء بالمطلوب، لذا استخدم ما هو أدنى إلى النفس من الأساليب .

(١) المفهم للقرطبي ٩/٤٩ ، والوشل : الماء القليل يتحلب من جبل أو صخرة يقطر منه قليلا لا يتصل قطره ، والعلل :

الشرب الثاني ، يقال : شرب عللا بعد ثقل (الوسيط : ماء (و ش ل) و (ع ل ل)

عن أبي هريرة — رضي الله عنه — قال : قال : رسولُ الله — ﷺ — مَثَلُ الَّذِي يَجْلِسُ يَسْمَعُ الْحِكْمَةَ، ثُمَّ لَا يُحَدِّثُ عَنْ صَاحِبِهِ إِلَّا بِشَرٍّ مَا يَسْمَعُ، كَمَثَلِ رَجُلٍ أَتَى رَاعِيًا، فَقَالَ: يَا رَاعِي أَجْزَرْنِي شَاةً مِنْ غَنَمِكَ، قَالَ: اذْهَبْ، فَخُذْ بِأُذُنِ خَيْرِهَا، فَذَهَبَ فَأَخَذَ بِأُذُنِ الْكَلْبِ" (١)

التصور الجملي للحديث

خرج الحديث الشريف في جملة واحدة مكونة من مبتدأ (مثل...) وخبر (كمثل...) وقد حوت هذه الجملة في رحمتها جملاً أخرى، وكان المقصود العام للحديث الترهيب من تبليغ الضار من العلم، وكتمان النافع .

اصطفاءات الألفاظ

اصطفى — ﷺ — (الحكمة) على العلم، ذاك أن الحكمة أعم وأشمل فقد ذكروا أن الحكمة " العدل والعلم، والحكم، والنبوة، والقرآن، والإنجيل، ووضع الشيء في موضعه، وصواب الأمر وسداده . . . وفي عرف العلماء : هي استعمال النفس الإنسانية باقتباس العلوم النظرية، واكتساب الملكة التامة على الأفعال الفاضلة قدر طاقتها، وقال بعضهم:

(١) رواه ابن ماجه في سننه ، كتاب الزهد ، باب : الحكمة .

الحكمة: هي معرفة الحقائق على ماهي عليه بقدر الاستطاعة، وهي: العلم النافع المعبر عنه بمعرفة ما لها، وما عليها، المشار إليه بقوله: — تعالى — (يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا) (البقرة/ ٢٦٩) . . . وأكثر أهل العلم على أن الحكمة ليست للعلم المجرد، بل للعلم مع زيادة مبالغة فيه، أول للعلم مع العمل ^(١) ثم إن لفظ الحكمة فيه تشنيع على مضيعها أكثر من التعبير بالعلم، وذلك لما هو مركز في الطباع من الاجتهاد في طلب الحكمة، وإنفاق الجهد والمال في تحصيلها، وتضييعها بعد تحصيلها، أدل على قبح مضيعها، وذلك كله سيفوت لو عبر بالعلم مكان الحكمة في هذا السياق.

وقد اصطفى — ﷺ — الشاة في هذا السياق دون سواها من النعم؛ ذاك أنه متناسب مع ذكر (أجزري) لأن هذه اللفظة تستعمل في الغنم خاصة قال ابن الأثير في "حديث خوات (أبشر بجزرة سمينة) أي: شاة صالحة لأن تجزر: أي تذبح للأكل، يقال: أجزرت القوم، إذا أعطيتهم شاة يذبحونها، ولا يقال إلا في الغنم خاصة" ^(٢) وفي ذلك قال أبو البقاء أيضا: "الجزرة اسم لما أعد لجزر، وذبح وهو الشاة لا البعير والبقرة، فإنهما يصلحان لعمل آخر، والجمع يتناول البعير يركب أو لا، ولا يتناول بقرا ولا شاة" ^(٣) كما أن التعبير بالشاة، يتناسب مع ذكر (الكلب) لأن العادة جرت بوجود الكلب مع الغنم، لا مع الإبل، ولا مع

(١) الكليات ٣٨٢ .

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر مادة (ج ز ر)

(٣) الكليات ٣٥٦ .

البقر، كما أنه — ﷺ — اصطفى (أجزرنى) على أعطني شاة صالحة للذبح لأن ما عبر به أوجز والبلاغة الإيجاز كما قال البلاغيون، كما اصطفى — ﷺ — (أتى) على جاء لأن " الإتيان مجيئ بسهولة والإتيان قديقال باعتبار القصد " (١) و القصد والسهولة هما المناسبان للسياق؛ زيادة في تبشيع الصورة .

أحوال التركيب

اصطفى النبي — ﷺ — التشبيه التمثيلي وسيلة بيانية لبيان مقصوده، فقد بني التشبيه على تبشيع من يعمد إلى الضار ويعنى به، ويترك النافع مع تمكنه منه ، وقد اصطفى — ﷺ — عناصر لبناء هذا التشبيه تفي بغرضه، من ذلك أن الحديث افتتح بـ (مثل) وهو تنبيه من أول الأمر على أن ما يرد من الغرابة والعجب بمكان، ففي الافتتاح بهذا اللفظ إثارة للعقل وتنشيط للحس، ثم أضاف المسند إليه لاسم الموصول إطالة ومطلا للمشبه وبيانا لصفاته ، وفي ذلك تشنيع عليه، ويؤيد ذلك أنه ذكر (يجلس) مع أن الأوجز أن يقال : مثل الذي يسمع الحكمة، وخاصة أن التحديث مبني على السماع لا الجلوس، لكن التعبير بـ (يجلس) له لطيفة في هذا السياق، فهي تعني التعمد والقصد للاقتصار في تبليغ الحكمة على الضار مع المعرفة بالنافع، فهي تدل على الاطمئنان حين السماع، والوعي والإدراك فلم يكن

(١) المفردات في غريب القرآن مادة (جاء) .

سماعاً عابراً حتى يكون مبلغ الشر من المعذورين، لأن الجوارح إذا اطمأنت تفرّغ العقل للإدراك، فلقد كان جالسا مطمئنا، وقد أكد على تشنيع صورته بالتعبير عن ذلك بالفعل المضارع (يجلس — يسمع) وكان يمكن أن يقال: يجلس في مجلس الحكمة، لكن هذا التعبير لا يفيد القصدية التي يؤديها التعبير المذكور في الحديث، كما أن التعبير المذكور يضاعف من تبشيع تارك الحكمة في البلاغ إلى الضرر مع تمكنه من الحكمة، ويؤيده التعبير بـ (الحكمة) وفي ذكرها ما ذكرته في اصطفاءات الألفاظ من زيادة التشنيع على المشبه، وهو ما يتجه إليه التشبيه بالقصد، وقد عبر بـ (ثم) وهي تفيد هنا الاستبعاد، لا التراخي، أي: فليس من المعقول ولا المقبول بعد إنفاق الجهد في تحصيل النفس تضييعه، وقد عطف على ما سبق جملة بنيت بأسلوب القصر مبالغة في بيان قبح المشبه (ثم لا يحدث عن صاحبه إلا بشر ما يسمع) وقد صيغ بأقوى أدوات القصر (النفي والاشتثناء) التي ترد في مقامات الإنكار، وهو قصر صفة (التحديث) على موصوف (الشر) لقصد المبالغة في التشنيع على المشبه وتقبيحه.

وفي قوله: (عن صاحبه) زيادة تبشيع وتقبيح للمشبه، لما في ذلك من خيانة الصاحب صاحبه، ونسبته إلى الذم والقبح، بنقل الشر عنه، مع تحدثه بالخير وقصده إليه، وكان ذلك يفوت لو قيل مكانه: ثم لا يحدث، بدون ذكر القيد، خاصة أنه قال في السماع: يسمع الحكمة دون أن يقول: يسمع الحكمة من صاحبه، وقوله (بشر ما يسمع) فيه

إشكال فكيف يتفق التحدث بالحكمة مع التحدث بالشر، وقد أجاب عن ذلك السندي في شرحه الحديث، حيث قال: "أي: أن صاحب الحكمة لا يخلو عن سهو ونسيان وخطأ" (١) وفي التعبير بالشر هنا تشنيع على الناقل، وفي تسمية السهو والخطأ شرا مجاز مرسل حيث عبر بالمسبب عن السبب، وذلك أن الخطأ والسهو يترتب عليهما شر، فالتعبير بالمجاز هنا فيه إيجاز بليغ حيث نبه على خطر قصر التبليغ على ما به الضرر، وأن ذلك يفوت لو قيل: ثم لا يحدث عن صاحبه إلا بما أخطأ فيه أو سها فيه، حيث لا يقبح هذا التعبير صورة المشبه، ولا يكشف عن خطر النقل السيئ، وكل ذلك ينافي أدب التبليغ وأمانته.

ثم جاء المشبه به تصويرا وتجسيذا لهذا المعنى القبيح، وقد جاء المشبه به صورة لا ينكر قبح صاحبها أحد، كما لا يماري أحد في غباء من يصنع هذا الصنيع، تناسبا مع حال المشبه وما عليه من القبح والبشاعة، وفي صورة المشبه به عناصر كاشفة عن قبح المشبه، وجاء بأداة التشبيه كافا وهي أصل الباب وأدخلها على لفظ (مثل) تأكيدا للتشبيه، وفي إضافة (مثل) إلى (رجل) هنا تبشيع لأن ذكر الرجولة ينافيه القبح المذكور بعد ذلك، لذا لم يعبر به اسم موصول مقابل المشبه، وكان الظاهر أن يقال: كمثل الذي أتى راعيا، لكن ذلك لن يكشف عن البشاعة كالتعبير بلفظ الرجولة، وعبر بأتى للكشف عن التمكن من تحصيل الطيب وتركه — مع التمكن من تحصيله — إلى الخبيث،

(١) شرح السندي على سنن ابن ماجه ٤/٥٦٤ .

ويضاعف قوله (أجزرنى شاة من غنمك) من تقبيح المشبه، فلقد طلب من ملك غيره، ولم يخل المطلوب منه بشئ، كما أن المحدث بالحكمة لم يمنع السامع شيئاً مع عنائه وتعبه في تحصيلها حتى كانت له بمثابة الملك، ومن فرط في ملك غيره فتفريطه في ملكه أولى، ولا أدل على الغباء من ذلك .

ومما ضاعف من تقبيح المشبه تصويره بهذا الحال من الاختيار وإتاحة الفرصة في اصطفاء الطيب، وذلك في قوله : اذهب، حيث لم يقل:خذ هذه، وإنما ترك له حرية الاختيار فانكشف غباؤه، وظهر قبحه وعدم تمييزه كل ذلك أداه فعل الأمر (اذهب) مع أنه نص على اصطفاء خيرها (فخذ بأذن خيرها) والملاحظ أنه لم يقل : فخذ خيرها، ولعل التعبير بالأذن هنا فيه تناسب مع ما جاء في المشبه من التعبير بالسماع، نعم جرت العادة أن الغنم تقاد حين الذبح من أذنها، ولكن هذا لا يمنع من المناسبة التي أشرت إليها، ثم دلت الصورة على سرعة تجاوبه بالعطف بالفاء (فذهب فأخذ بأذن كلب الغنم) يالها من بشاعة، وقبح تمييز، وجهالة وعمى، وهي صورة نادرة من بدائع البيان النبوي الشريف، وفي التعبير بها هنا إلهاب وتهيج لترك الاتصاف بمثل هذا الوصف القبيح، وهو تشبيه تمثيلي عند علماء البلاغة جميعاً؛ لأن وجه الشبه عقلي مركب، ومن المعروف أن التشبيه يكون تمثيلاً عند الإمام عبد القاهر إذا كان وجه الشبه عقلياً غير غرزي، والتمثيل عند الخطيب والجمهور ما كان وجه الشبه فيه مركباً، والتمثيل عند السكاكي ما

كان وجه الشبه فيه مركبا عقليا ^(١) وهو هنا كذلك، فوجه الشبه هو القصد إلى الخبيث مع التمكن من الطيب، والغرض من التشبيه هنا تقبيح المشبه؛ حملا له على الإقلاع عن هذا الوصف الخبيث، وفي ذلك من الترهيب من عدم الأمانة في التبليغ ما فيه، والتشبيه حين القصد إلى التقبيح هو الوسيلة البيانية العليا في تحقيق هذا الغرض والوفاء بهذا المقصد، وقد دل أسلوب النداء (ياراعي) على الاهتمام؛ لأن النداء طلب إقبال وتنبه للمطلوب منه، ولا يكون هذا إلا في الأمور المهمة، وهذا مما يزيد المشبه قبحا، لأن الوسائل التي اختارها دلت على حسن مسلكه، فإذا بمنتهاه أقبح منتهى .

(١) ينظر: أسرار البلاغة للإمام عبد القاهر الجرجاني ١٠٨ وما بعدها ، ومفتاح العلوم للسكاكي ٣٤٦ وما بعدها و الإيضاح للخطيب القزويني ٢٥٣:٢٥٥ ، ط دار الكتب العلمية ، بيروت ١٩٨٥م، ولباب البيان ٨٥ وما بعدها د/ محمد حسن شرشر و البيان في نور القرآن ٨، ٩ د/ إبراهيم صلاح المهدد ، ط الجريسي ١٤١٥ هـ .

عَنْ عَلِيٍّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ — رضي الله عنه — قَالَ ، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ — لَا تَكْذِبُوا عَلَيَّ ، فَإِنَّهُ مَنْ كَذَبَ عَلَيَّ فَلْيَلْجِ النَّارَ " (١)

التصور الجملي للحديث

مقصود الحديث : الترهيب من الكذب على رسول الله ﷺ — الذي هو أساس العلم ومعدنه، والحديث مكون من نهي (لا تكذبوا علي) وجوابه (فإنه من كذب علي فليج النار) لذلك دخلته الفاء، كما يقول العيني : " قوله : (فإنه من كذب علي . . .) جواب النهي، ولذلك دخلته الفاء " (٢)

اصطفاءات الألفاظ

اصطفى — ﷺ — (يلج) على ما يقاربها مثل : يدخل، لأن ما عبر به أدخل في باب الترهيب؛ ذاك " أن الولوج : هو الدخول في مضيق " (٣) قال تعالى : (وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ) (الأعراف/ ٤٠)

(١) رواه البخاري في صحيحه ، واللفظ له ، كتاب : العلم ، باب : إثم من كذب على النبي — صلى الله عليه وسلم — ورواه مسلم في صحيحه ، المقدمة ، باب في تغليظ الكذب على رسول الله ، رواه ابن ماجة في المقدمة ، باب : في تغليظ الكذب على رسول الله — صلى الله عليه وسلم .

(٢) عمدة القاري ١٤٨/٢ .

(٣) المفردات (ول ج) ٥٣٢ .

كما اصطفى — ﷺ — (الكذب) على الافتراء، لأن ما عبر به
أدخل في باب الترهيب؛ ذاك أن "الافتراء: هو العظيم من الكذب" (١)
فذكر — ﷺ — عقوبة الأدنى حتى تكون ردعا عن ارتكاب الأشنع .

أحوال التراكيب

افتتح — ﷺ — حديثه بجملة إنشائية (لا تكذبوا علي) والنهي
هنا على حقيقته، وفي الافتتاح به إثارة وتنبيه للمستمعين، وهو "نهي
بصيغة الجمع، وهو عام في كل كذب مطلق في كل نوع منه" (٢) وفي
مجيئ المسند إليه (واو جماعة) مواجهة بالخطاب للحاضرين، وفيه من
الترهيب ما فيه ؛ لأنه إذا كان من حظوا بشرف صحبته — ﷺ — قد
خوطفوا بهذا الخطاب في النهي عن الكذب عليه — ﷺ — فخطاب
غيرهم أولى، وترهيب غيرهم أعلى، وكان ذلك يفوت لو قيل :
لا يكذبن أحد علي، أو لا يجوز الكذب علي، أو يحرم الكذب علي .

وفي تقييد الفعل بالجار والمجرور (علي) زيادة ترهيب من الكذب
على رسول — ﷺ — خاصة، وإلا فكل كذب ممقوت ومتوعد عليه
بالعذاب، يقول العيني في ذلك: "فإن قلت: الكذب من حيث هو
مَعْصِيَةٌ، فكل كاذب عاص، وكل عاص يلج النار لقوله : — تعالى —

(١) الكليات ١٥٤ .

(٢) عمدة القاري ١٤٨/٢ .

(وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا)
 (النساء/ ١٤) فما فائدة لفظة (على) فإن الحكم عام في كل من كذب
 على أحد؟ قلت: لاشك أن الكذب على الرسول ﷺ — أشد
 من الكذب على غيره لكونه مقتضيا شرعا عاما باقيا إلى يوم القيامة،
 فخص بالذكر لذلك، أو الكذب عليه كبيرة، وعلى غيره صغيرة،
 والصغائر مكفرة عند الاجتناب عن الكبائر، أو المراد من قوله: —
 تعالى — (وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ) الكبيرة (١)

وهنا سؤال يلح علينا، هل هذا القيد يخص الكذب المحرم بما
 كان عليه — ﷺ — ويجيز ما سواه كأن يكون كذبا له لمصلحة الدين
 مثلا أم أن الحكم فيهما سواء؟ وقد أجاب العيني — رحمه الله — عن
 هذا السؤال بعدما طرحه، فقال: "قلت: معنى كذب عليه: نسب الكلام
 إليه كاذبا سواء كان عليه أو له، والكذب على الله داخل تحت الكذب
 على الرسول — ﷺ — إذ المراد من الكذب عليه الكذب في أحكام
 الدين" (٢) لذا قال العلماء: "لامفهوم لقوله (علي) لأنه لا يتصور أن
 يكذب له لنهي عن مطلق الكذب، وقد اغتر قوم من الجهلاء فوضعوا
 أحاديث في الترغيب والترهيب، وقالوا نحن لم نكذب عليه بل فعلنا
 ذلك لتأييد شريعته، وما دروا أن تقويله — ﷺ — ما لم يقل يقتضي
 الكذب على الله — تعالى — لأنه إثبات حكم من الأحكام الشرعية

(١) عمدة القاري ٢ / ١٤٨ .

(٢) عمدة القاري ٢ / ١٤٨ .

سواء كان في الإيجاب أو النذب وكذا مقابلهما، وهو الحرام والمكروه، ولا يعتد بمن خالف ذلك من (الكرامية^(١)) حيث جوزوا وضع الكذب في الترغيب والترهيب في تثبيت ما ورد في القرآن والسنة، واحتج بأنه كذب له، لا عليه، وهو جهل باللغة العربية، وتمسك بعضهم بما ورد في بعض طرق الحديث من زيادة لم تثبت، وهي ما أخرجه البزار من حديث ابن مسعود بلفظ (من كذب علي ليضل به الناس . . .) وعلى تقدير ثبوته، فليست اللام للعلة، بل للصيرورة^(٢) والخلاصة أن في ذكر القيد (الجار والمجرور) في هذا السياق تأكيداً للحكم، لا تخصيصاً له.

ثم أكد — ﷺ — على النهي بإتباعه جملة تعليلية، وأكد على مآل الكاذب بإيراد ذلك بأسلوب التوكيد فقد جاءت الجملة التعليلية مؤكدة بـ (إن) واسمية الجملة، والجملة التعليلية مركبة من (إن) واسمها (الضمير) وخبرها، وهو جملة الشرط (من كذب علي . . .) وفي إتباع النهي بهذه الجملة زيادة ترهيب في الحمل على الإقلاع عن الكذب على رسول — ﷺ — وعدم الاقتراب من ذلك .

(١) الكرامية: هم أصحاب أبي عبد الله بن كرام، كان مطروداً من سجستان إلى غرجستان، وأتباعها بنيسابور، وهم من الصفاتية لأنهم يشنون الصفات إلا أنه ينتهي فيها إلى التجسيم والتشبيه، وهم طوائف بلغ عددهم إلى اثني عشرة فرقة، ومن أهم مزاعمهم أن المعبود جسم له حد ونهاية من تحته ومن الجهة التي منها يلاقي عرشه، وأن العرش مكان له، كما زعموا أن معبودهم محل للحوادث، ويدع أخرى كثيرة (ينظر / الفرق بين الفرق لعبد القاهر الاسفرائيني ٢١٥ وما بعدها، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، ط، بيروت، المكتبة العصرية ١٤١١هـ، الملل والنحل للشهرستاني ١/١٠٨ وما بعدها، تحقيق / محمد سيد كيلاني، ط، بيروت، دار صعب ١٤٠٦هـ .

(٢) فتح الباري ١/١٦١، ١٦٢.

والملاحظ أن خبر (إن) جاء جملة شرطية زيادة في التهيب؛
لتحقق الجزاء بوقوع الشرط، وقد جاء جواب الشرط جملة طلبية؛ لذا
اقترن بالفاء، وفي مجيئ جواب الشرط جملة طلبية مزيد إهانة للكاذب،
لأن من المهان والمذلة أن يذهب المجرم إلى عذابه بنفسه طوعا، وفي ذلك
تنبيه إلى أن الجزاء من جنس العمل، ذاك أن كذبه على رسول الله —
ﷺ — كان طوعا، فذهب إلى عذابه طوعا إذلالا له، ثم إن قوله — ﷺ —
— (فليلج النار) فيه إيحاء بأن النار ستحيط به من كل جانب وتلفه
بداخلها، وقد سبقت الإشارة إلى سر التعبير بيلج .

وقد استشكلوا وقوع الأمر بالولوج جزاء للشرط، وأجابوا عن
ذلك بجوابين قالوا: من المعروف أن " الشرط سبب للجزاء، فكيف
يتصور سببية الكذب للأمر بالولوج، نعم إنه سبب للولوج نفسه؟
قلت: هو سبب للاحظه؛ لأن لازم الأمر الإلزام، وكون الكذب سببا
لإلزام الولوج معنى صحيح " (١) أو هو بلفظ الأمر ومعناه الخير، ويؤيده
رواية مسلم: (من يكذب علي يلج النار) ولا بن حاجة (الكذب علي
يولج النار) " (٢) ويكون وراء التعبير به ما أسلفته من الإهانة والإذلال،
والذي لا يتأتى على التعبير بلفظ الخير، كما أن التعبير عن الخير بلفظ
الإنشاء يلائم ما يجري عليه سياق الحديث من التهيب، ويطابق الواقع

(١) عمدة القاري ١٤٨/٢ .

(٢) فتح الباري ١٦٢/١ .

فإن الكذب على رسول ﷺ — من أخطر المفاصد التي تفسد على المسلمين دينهم، والحديث تتآزر مفرداته وتراكيبه على الترهيب من الكذب على رسول الله ﷺ — باصطفاء الكشف عن العقوبة وسيلة لذلك .

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو — رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا — قَالَ : قَالَ رَسُولُ
اللَّهِ ﷺ — بَلَّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً ، وَحَدِّثُوا عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ ، وَلَا
حَرَجَ ، وَمَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَّبِعُوا مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ " (١)

التصور الجملي للحديث

مقصود الحديث : الأمر بتبليغ العلم، والترهيب من الكذب
فيه، وقد خرج الحديث لتحقيق هذا المقصود في جملة رئيسية (بلغوا عني
ولو آية) تبعثها جملتان بطريق العطف (وحدثوا عن بني إسرائيل ...)
والثانية (ومن كذب علي . . .)

اصطفاءات الألفاظ

اصطفى — ﷺ — (بلغوا) على حدثوا أو انقلوا، وذلك لما
في لفظ التبليغ من وجوب الاحتياط والتحري في المبلغ، وعدم الكذب
أو التغيير فيه وقد تأول العلماء معنى التبليغ بما يكشف سر اصطفاء هذا
الفعل على سواه، وكلها تأويلات تدور على دلالة الفعل على الاحتياط
الشديد في النقل، فقد نقل المناوي عن الطيبي "أنه يحتمل أن يكون المراد
بـ (بلغوا عني) اتصال السند بنقل عدل ثقة عن مثله إلى متناه؛ لأن

(١) رواه البخاري في صحيحه ، كتاب : أحاديث الأنبياء ، باب : ما ذكر عن بني إسرائيل ، ورواه الترمذي في سننه ، كتاب :
العلم ، باب : ما جاء في الحديث عن بني إسرائيل .

التبليغ من البلوغ، وهو انتهاء الشئ إلى غايته، ويحتمل أن يراد أداء اللفظ كما سمعه من غير تغيير، والمطلوب بالحديث كلا الوجهين لوقوع قوله : (بلغوا عني) مقابلا لقوله الآن (حدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج) إذ ليس في التحديث ما في التبليغ من الحرج والضيق، ويعضد هذا التأويل آية (يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ) (المائدة/٦٧) أي: وإن لم تبلغ لما هو حقه، فما بلغت ما أمرت به، وحديث : نضر الله عبدا سمع مقالتي فحفظها . . . " (١)

واصطفى — ﷺ — (آية) ولم يقل: حديثا، لبيان شدة الاهتمام بنقل الآيات لأن الاهتمام بنقل القرآن هو الأعلى، ويأتي في الرتبة الأولى لذا قال المناوي : " وقد اختلف العلماء في المراد بالآية، فقليل: الواحدة من القرآن، وخصها لأنها أقل ما يفيد في باب التبليغ، ولم يقل: ولو حديثا، إما لشدة اهتمامه بنقل الآيات؛ لأنها المعجزة الباقية من بين سائر المعجزات، ولأن حاجة القرآن إلى الضبط والتبليغ أشد، إذ لا مندوحة عن تواتر ألفاظه، وإما للدلالة على تأكيد الأمر بتبليغ الحديث، فإن الآيات مع كثرة حملتها واشتهارها، وتكفل الله لها عن التحريف واجبة التبليغ، فكيف بالأحاديث فإنها قابلة للإخفاء والتغير " (٢)

(١) فيض القدير ٣/٢٤٩، ٢٥٠.

(٢) فيض القدير ٣/٢٥٠.

وقد اختلفوا في المراد بالآية على وجوه، منها : أنها الكلام المفيد ويكون المراد على ذلك : بلغوا عني أحاديثي ولو كانت قليلة، أو أنها الحكم الموحى إليه — ﷺ — وهو أعم من المتلوة وغيرها بحكم عموم الوحي الجلي والخفي، أو أن المراد بالآية العلامة، أي : ولو كان المبلغ فعلا أو إشارة بنحو يد أو أصبع، فإنه يجب تبليغه حفظا للشريعة (١)

أحوال التراكيب

افتتح الحديث الشريف بالأسلوب الإنشائي (بلغوا) والأسلوب الإنشائي هو ألصق الأساليب بمثل هذه المقامات لما فيه من استنهاض للمخاطب، وإثارة له ولفت لانتباهه ، وتنشيط لاهتمامه تهية لما يلقي إليه، وقد جاء المسند إليه بضمير واو الجماعة مجاهدة للمخاطبين الحاضرين بهذا الأمر، وإلزاما لهم بالقيام بحق الأمر، وفي ذكر هذا القيد (عني) مزيد حض وحث على التبليغ بذكر المصدر المبلغ عنه، وهو رسول الله — ﷺ — وقد حثنا الذكر الحكيم على الامتثال لقوله، قال: — تعالى — (وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا) (الحشر/٧) وقد فسر المناوي الفعل بقوله : " أي : انقلوا عني ما أمكنكم ليتصل بالأمة نقل ما جئت به " (٢)

(١) ينظر : عمدة القاري ٤٥/١٦ وفيض القدير ٣/ ٢٥٠ وتحفة الأحوذى ٤٣٢/٧ .

(٢) فيض القدير ٢٤٩/٣ .

وقد مضى سر اصطفاء لفظ (بلغوا) على انقلوا وغيره، وما فيه من الإشارة إلى الاحتياط في نقل المبلغ، وقد وقع تركيب نادر في هذا الحديث في الحمل على التبليغ — ولو على أدنى وجه — لانظيره في الأحاديث الأخرى الواردة في تبليغ العلم وهو (ولو آية) وقد بني الأسلوب على الإيجاز بالحذف، وتقدير الكلام : ولو كان المبلغ آية ، إيجاء بالإسراع إلى تنفيذ الأمر ؛ شَبَّهًا باختصار الكلام وإيجازه ، ويؤيده تنكير المسند (آية) وهو هنا للتقليل، يقول العيني : " وإنما قال : آية ليسارع كل سامع إلى تبليغ ما وقع له من الآي ، ولو قل ليشمل بذلك نقل جميع ما جاء به ﷺ (١) وخص الآية بالذكر لأنها أقل ما يفيد في باب التبليغ كما سبق بيانه ، وعلى تأويل معنى الآية بالعلامة يكون الأسلوب (ولو آية) إطنابا نوعه : " تتميم " (٢) المقصود منه المبالغة في تبليغ كل ما يصدر عنه — ﷺ — وفي ذلك من الحث على التبليغ ما فيه .

ثم عطف على الجملة السابقة قوله (وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج) وهو أسلوب إنشائي يلائم ما كان عليه الحال قبل الإباحة من النهي، وقد خرج الأمر من معناه الحقيقي إلى معنى مجازي وهو الإباحة، بقرينة الجملة المعطوفة على هذه الجملة (ولا حرج) قال العيني " إنما الأمر يقتضي الوجوب بصيغته إذا تجرد عن القرائن، وهنا قوله

(١) عمدة القاري ٤٥/١٦ .

(٢) فيض القدير ٢٥٠/٣ .

(ولاحرج) قرينة على أنه ليس بواجب، ولا هو للندب" ^(١)، وقال الكرماني : الأمر للإباحة إذ لا وجوب ولا ندب فيه بالإجماع" ^(٢) وقد اختلف العلماء في المباح التحدث به عنهم على أقوال منها : أن المراد التحدث عنهم بما كان من أمر حسن، أما ما علم كذبه فلا، أو : حدثوا ماورد موافقا للقرآن والحديث الصحيح، أو : حدثوا عنهم بقصتهم مع أخيهم يوسف، وهذا بعيد وفيه تضيق كما قال العيني ^(٣) والذي أراه أن المراد : حدثوا عنهم بما يكون غرضا في العظة والاعتبار بأحوالهم ، بما لا يخالف كتابا ولا سنة، ولعل ذلك هو الغرض من الإباحة بعد النهي، لأن ذلك هو المناسب للجملة الأولى وما بنيت عليه من الاحتياط الشديد في النقل والتبليغ .

وقد ذكر العلماء أنه يمكن أن يكون المراد: رفع الحرج عن حاكمي أخبارهم لما فيها من الألفاظ المستبشعة نحوقولهم : اذهب أنت وربك فقاتلا وقولهم: اجعل لنا إلها ^(٤)

ثم عطف على الجملة الأولى جملة شرطية أخرى أكدت على الأمانة في التبليغ ، وتظاهرت على بيان التهيب من الكذب (ومن كذب علي متعمدا فليتبوأ مقعده من النار) يقول المناوي: مبينا مناسبة

^(١) ينظر : عمدة القاري ٤٥/١٦ . ٤٦ .

^(٢) الكواكب الدراري للكرماني ٩٣/١٤ .

^(٣) ينظر : عمدة القاري ٤٥/١٦ .

^(٤) ينظر : عمدة القاري ٤٥/١٦ .

آخر الحديث لصدوره " قوله (ومن كذب ..) يعني : ومن لم يبلغ حق التبليغ ، ولم يحفظ في الأداء ، ولم يراع صحة الإسناد (فليتبوأ) أي : فليتخذ (مقعده من النار) أي : فليدخل في زمرة الكاذبين نار جهنم " (١) وفي جواب الشرط نكات جمّة منها ، أن الفعل (فليتبوأ) قال الخطابي عنه " ظاهره أمر ومعناه خير ، يريد أن الله — تعالى — يبوؤه مقعده من النار ، وقال الطيبي : الأمر بالتبوء تمكّم وتغليظ ، إذ لو قيل : كان مقعده في النار لم يكن كذلك ، وأيضا فيه إشارة إلى معنى القصد في الذنب وجزائه ، أي : كما أنه قصد في الكذب التعمد فليقصد في جزائه التبوء ، وقال الكرماني : يجوز أن يكون الأمر على حقيقته ، والمعنى من كذب فليأمر نفسه بالتبوء ، قلت : والأولى أن يكون أمر تهديد أو يكون دعاء على معنى بوأه الله " (٢) وفيما ذكره الأئمة ، ونقله العيني في هذا التركيب كفاية .

(١) فيض القدير ٣ / ٢٥٠ .

(٢) عمدة القاري ٢ / ١٥٩ .

الفصل الثاني

بلاغته — ﷺ — في

حديثه عن آداب مجلس

العلم والاهتمام بطلابه.

يتناول هذا الفصل خمسة أحاديث تبين أدب الإقبال على مجلس العلم ومكانة من يقبل على مجلس العلم، وعاقبة من يدبر عن مجلس العلم، كما تبين ضرورة الاجتماع على مجلس العلم وعدم التفرق فيه، كما تبين وجوب الإنصات لحديث العلم، كما تبين أدب مجلس العلم من وجوب احترام مكان من سبق إلى مجلس العلم وأحقته بالمكان، كما تلزم من سبق إلى المجلس التوسعة لمن أتى متأخرا، كما أوردت حديثا واحدا في وجوب الاهتمام بطلاب العلم، والاستيلاء خيرا بهم؛ لقاء ما تحملوه من عناء السفر طلبا للعلم والتفقه في الدين.

عَنْ أَبِي وَاqِدِ اللَّيْثِيِّ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ — بَيْنَمَا هُوَ جَالِسٌ فِي الْمَسْجِدِ وَالنَّاسُ مَعَهُ ، إِذْ أَقْبَلَ ثَلَاثَةُ نَفَرٍ ، فَأَقْبَلَ اثْنَانِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ — وَذَهَبَ وَاحِدٌ ، قَالَ : فَوَقَفَا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ — فَأَمَّا أَحَدُهُمَا فَرَأَى فُرْجَةً فِي الْحَلَقَةِ ، فَجَلَسَ فِيهَا ، وَأَمَّا الْآخَرُ فَجَلَسَ خَلْفَهُمْ ، وَأَمَّا الثَّالِثُ فَأَذْبَرَ ذَاهِبًا ، فَلَمَّا فَرَغَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ — قَالَ : " أَلَا أُخْبِرُكُمْ عَنِ النَّفَرِ الثَّلَاثَةِ ، أَمَّا أَحَدُهُمْ فَأَوَى إِلَى اللَّهِ فَأَوَاهُ اللَّهُ ، وَأَمَّا الْآخَرُ فَاسْتَحْيَا فَاسْتَحْيَا اللَّهُ مِنْهُ ، وَأَمَّا الْآخَرُ فَأَعْرَضَ فَأَعْرَضَ اللَّهُ عَنْهُ " (١)

التصور الجملي للحديث

مقصود الحديث : بيان فضل الإقبال على مجلس العلم، وقد خرج

الحديث — فيما ورد على لسان رسول الله ﷺ — في جملتين :

الأولى : (ألا أخبركم عن النفر الثلاثة)

الثانية : (أما أحدهم فأوى إلى الله . . . إلى آخر الحديث) وقد

حوت هذه الجملة جملاً أخرى بالعطف عليها .

وقد خرج ما ورد على لسان الراوي — رضي الله عنه — في أربع

جمل رئيسية حوت داخلها جملاً أخرى تابعة للجمل الرئيسية، وما جاء

(١) رواه البخاري في صحيحه ، واللفظ له ، كتاب العلم ، باب : من قعد حيث ينتهي به المجلس ، ومن رأى فرجة في الحلقة ، فجلس فيها ، ورواه في كتاب الصلاة ، باب : الخلق والجلوس في المسجد ، ورواه مسلم في صحيحه ، كتاب السلام ، باب : من رأى فرجة في الحلقة جلس فيها ، وإلا جلس خلفهم ، ورواه الترمذي في سننه ، كتاب : الاستئذان والآداب عن رسول الله ، باب : اجلس حيث انتهى بك المجلس .

على لسان الراوي كشف عن المقام الذي ورد فيه الحديث الشريف، وهو ما يعرف في علوم الحديث بسبب الورود :

الجملة الأولى : (أن رسول الله ﷺ — بينما هو جالس في المسجد والناس معه إذ أقبل ثلاثة نفر) وقد تظاهرت هذه الجملة على بيان صفة مجلس رسول الله ﷺ .

الجملة الثانية : وقعت مقترنة بفاء الاستئناف (فأقبل اثنان إلى رسول الله ﷺ — وذهب واحد ، فوقفا على رسول الله) وقد تظاهرت هذه الجملة على وصف موقفهم من مجلس العلم جملة .

الجملة الثالثة : وقعت مقترنة بفاء الاستئناف (فأما أحدهما فرأى فرجة في الحلقة فجلس فيها، وأما الآخر فجلس خلفهم، وأما الثالث فأدبر ذاهبا) وقد تظاهرت هذه الجملة على وصف تصرفاتهم تجاه مجلس العلم تفصيلا .

الجملة الرابعة : وقعت مقترنة بفاء الاستئناف (فلما فرغ رسول الله ﷺ — قال) وقد تظاهرت هذه الجملة على وصف موقفه — من تصرفات النفر الثلاثة ، وبيان أن قوله ﷺ — جاء بعد الفراغ من مجلس العلم، مما يشير إلى إجلال مجلس العلم عن الانقطاع مهما كان السبب، وأن من آداب مجلس العلم الاستمرار فيه إلى نهاية ما يريد العالم عرضه من مسائل العلم، وأنه إذا كان من تنبيه فليكن بعد الانتهاء من حديث العلم .

اصطفاءات الألفاظ

اصطفى — ﷺ — (أخبركم) على أنبئكم؛ ذاك أن " النبأ خبر ذو فائدة عظيمة يحصل به علم أو غلبة ظن، ولا يقال للخبر في الأصل (نبأ) حتى يتضمن هذه الأشياء الثلاثة " (١) واستعمالات الكتاب والسنة تدل على استعمال (النبأ) في جسيم الأمور وعظيمها، قال: — تعالى — (قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ) (ص/٦٧) و(عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ عَنِ النَّبَأِ الْعَظِيمِ) (النبأ/٢١) ويقول: — ﷺ — (ألا أنبئكم بأكبر الكبائر) (٢) أما الخبر فيستعمل فيما دون ذلك يقول الراغب: " الخبر : العلم بالأشياء المعلومة من جهة الخبر . . وأخبرت أعلمت بما حصل لي من الخبر " (٣) فقد عبر بما هو مناسب للحدث من الألفاظ، ولا يعقل أن يعبر عن الكبائر بما يعبر به عن الإقبال على مجلس العلم .

واصطفى — ﷺ — (أوى) ولم يستخدم أقبل، لما في أوى من الدلالة على اللجوء والاحتواء، وليس هذا في أقبل، كما عبر — ﷺ — بـ (أعرض) تشنيعاً لانصرافه عن مجلس العلم، وعدم الإقبال عليه؛ لذا لم يقل: فانصرف .

(١) المفردات (ن ب أ) ٤٨١ .

(٢) رواه البخاري في صحيحه ، كتاب : الشهادات ، باب : ما قيل في شهادة الزور ، ومسلم في صحيحه ، كتاب : الإيمان ، باب : بيان الكبائر وأكبرها ، والترمذي في سننه ، كتاب : البر والصلة ، باب : ما جاء في عقوب الوالدين .

(٣) المفردات (خ ب ر) ١٤١ .

أحوال التراكيب

الذي يعني هنا هو كلامه — ﷺ — وقد افتتح — ﷺ — كلامه بجملة فيها إثارة وتشويق؛ تنبيهاً إلى أهمية الخير الذي سيلقى، فيتمكن من النفس خير تمكن، وقد ذكر العيني أن "ألا للتنبيه، سواء فيه ما كان المخاطب مفرداً أو مثني أو مجموعاً، ويحتمل أن تكون الهمزة للاستفهام، و لا للنفي" (١) واستخدام أداة التنبيه في مفتتح الكلام، مما ينشط النفس ويشيرها، ويجذب اهتمامها، ومن شرائط المعلم البارع جذب الاهتمام، ترسيخاً لما يريد تعليمه، كما أن في هذه الجملة تنبيهاً إلى ضرورة توظيف المواقف في تعليم المتعلمين، واستثمارها، لأن تلقي المعرفة من خلال المواقف الحادثة أقعد في النفس، وأرسخ في الفهم، لذا ربط — ﷺ — بين الموقف الحاصل، وبين ما يريد إيصاله من بيان فضل الإقبال على مجلس العلم.

وبعد تهيئة النفس هذه التهيئة ألقى — ﷺ — ما يريد قوله على وجه مشوق بادئاً بالأعلى ثم الأدنى فضلاً وجزاء، وقد صيغت الجمل بحرف التفصيل المتضمن معنى الشرط، لفتاً للانتباه من أول الكلام إلى آخره لمعرفة العمل والجزاء، فافتتح الجمل بالحرف المشير إلى الأمرين معاً؛ إيجازاً واختصاراً وتشويقاً (أما أحدهم فأوى إلى الله فأواه الله) والملاحظ أنه — ﷺ — لم يسم من فعل على الرغم من معرفته به،

(١) عمدة القاري ٣٣/٢ .

ولعل في ذلك تفاديا من التباس الأمر على الناس في ارتباط الجزاء بالشخص المسمى، لذا لم يسمه؛ تنبيها إلى أن الجزاء معلق على العمل، لا على الشخص، وقد بني الجزاء على أسلوب المشاكلة، تنبيها على أن الجزاء من جنس العمل، وفي قوله (فآواه الله) إشارة إلى أن من أوى إلى مجلس العلم فقد أوى إلى ركن شديد، وهو الله — عز و علا — وفي ذلك بيان لفضل العلم، ومن يركن إليه، ويبان لشرف المجلس وعظيم فضله عند الله — سبحانه — لذا لم يقل : فأوى فوعده الله بالجنة، لأنه عبر بما يدل على كل جزاء حسن يمكن أن ينصرف إليه الذهن، وعبر بالاسم العلم (الله) إشارة إلى التفرد في الجزاء، وذكر العلماء معنى قوله (فآواه الله) فقالوا: "أي : جازاه بنظير فعله بأن ضمه إلى رحمته ورضوانه، أو يؤويه يوم القيامة إلى ظل عرشه" (١) وكل ذلك يحتمله التركيب، وهذا من ثرائه .

ثم جاء على مقتضى الترتيب بالرجل الثاني (وأما الآخر فاستحيا فاستحيا الله منه) وفي هذا التركيب تنبيه على الأدب الجمل الذي كان عليه الرجل الثاني، وفي ذلك جبر له بالمدح، وقد فسر العلماء الاستحياء بقولهم : "أي : ترك المزاحمة كما فعل رفيقه؛ حياء من النبي — ﷺ — والحاضرين، قاله القاضي عياض، وقيل معناه : استحيا من الذهاب عن المجلس كما فعل رفيقه الثالث" (٢) وقد ذكروا أن معنى : " فاستحيا الله

(١) فتح الباري شرح صحيح البخاري ١/١٢٨ ، وإرشاد الساري للقسطاني ١/١٦٥ .

(٢) عمدة القاري ٢/٣٣، ٣٤ .

منه: أي: جازاه بمثل فعله بأن رحمه، ولم يعاقبه " (١) وذلك على التأويل الثاني .

وجاء الثالث مؤخرا إبعادا له عن القبول بأي حال (وأما الآخر فأعرض فأعرض الله عنه) وقد عبر بأعرض تشنيعا عليه، وبيانا لاستحقاق الجزاء و " (أعرض الله عنه) أي: جازاه بأن سخط عليه " (٢) والملاحظ أنه — ﷺ — لم يسم الرجل الثاني والثالث مع معرفته بهما، وذلك لعدم فهم أن الجزاء أو العقوبة يتعلق أحدهما بشخص بعينه، كما أنني ألحظ أن أسلوب المشكلة هو أشيع الأساليب في هذا الحديث فقد ورد ثلاث مرات، وقد فسر العلماء المشكلة هنا فقالوا في قوله (فأواه الله — استحيا الله منه — أعرض الله عنه) " مشكلة، حيث سمي مجازاته باسم فعله بطريق المجاز، وذلك لأن الإيواء هو الإنزال عندك، وهو لا يتصور في حق الله — تعالى — فيكون مجازا عن لازمه، وهو إرادة إيصال الخير ونحوه، فيكون من ذكر الملزوم، وإرادة اللازم . . . والحياء: تغير وانكسار يعتري الإنسان عند خوف ما يذم به، أو يعاب عليه، وهذا محال على الله — تعالى — فيكون مجازا عن ترك العقاب للاستحياء، فيكون هذا أيضا من قبيل ذكر الملزوم، وإرادة اللازم... والإعراض الالتفات إلى جهة أخرى، وذلك لا يليق في حق الله — تعالى — فيكون مجازا عن السخط والغضب . . . والقاعدة في مثل هذه

(١) عمدة القاري ٣/٣٣، ٣٤ .

(٢) عمدة القاري ٣/٣٤ .

الإطلاقات التي لا يمكن حملها على ظاهرها أن يراد بها غاياتها ولوازمها،
والعلاقة بين المعنى الحقيقي والمعنى المجازي اللزوم، والقرينة الصارفة عن
إرادة الحقيقة هو العقل إذ لا يتصور العقل صدور هذه الأشياء من الله
تعالى " (١) وفائدة إطلاق ذلك بيان الشئ بطريق واضح، كما يقول
ابن حجر العسقلاني (٢)

وقد ذكر الكرمانى أن هذا يحتمل أن يكون من باب التشبيه، أي
: يفعل الله — تعالى — كما يفعل المؤوي والمستحي والمعرض " (٣)
ولعله يقصد الاستعارة التمثيلية، لأن مفهوم التشبيه لا ينطبق على مثل
هذا، وقد ذكر الزمخشري مثل ذلك عند قوله — تعالى — (إِنَّ اللَّهَ لَا
يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَبْعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا) (البقرة / ٢٦) فإن قلت
: كيف جاز وصف القديم بالاستحياء ؟ قلت : هو جار على سبيل
التمثيل، مثل تركه بترك من يترك شيئاً حياء منه " (٤)

هذا، ويحتمل أن يكون قوله (فأواه الله ، وقوله : فأعرض الله
عنه) خبراً، ويحتمل أن يكون إنشاء في صورة الخبر، قاله العيني، لكنه
رجح أن يكون خبراً بما جاء في رواية أنس (وأما الآخر فاستغنى فاستغنى
الله عنه) حيث رأى أنه يؤيد معنى الإخبار " (٥)

(١) عمدة القاري ٣٣/٢، ٣٤.

(٢) فتح الباري ١٢٨/١.

(٣) الكواكب الدراري للكرمانى ٢٦/٢.

(٤) الكشف ١ / ٢٦٢، ط دار الفكر.

(٥) عمدة القاري ٣٤/٢.

عن جَابِرِ بْنِ سَمُرَةَ — رضي الله عنه — قَالَ : دَخَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ — الْمَسْجِدَ وَهُمْ حَلَقٌ ، فَقَالَ : " مَالِي أَرَاكُمْ عَزِينَ " (١)

التصور الجملي للحديث

مقصود الحديث: الحث على الاجتماع والنهي عن التفرق في مجلس العلم، وقد خرج الحديث لتحقيق هذا المقصود في جملتين، الأولى وردت على لسان الراوي، وهي: (دخل رسول الله ﷺ — المسجد وهم حلق) وقد تظاهرت هذه الجملة على بيان سبب الورود الذي هو جزء من المقام، والثانية جاءت على لسانه — ﷺ — (مالي أراكم عزين)

اصطفاءات الألفاظ

اصطفى — ﷺ — (عزين) على متفرقين، أو ما يقاربها مثل: أشتات؛ ذاك أن عزين، معناها: جماعات في تفرقة، كما يقول الراغب (٢) لذا قال العلماء في تفسيرها عند الآية الكريمة (عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عَزِينَ) (المعارج/٣٧) "أي: حال كونهم جماعات جماعات،

(١) رواه أبوداود في سننه كتاب الأدب، باب: في التحلق، واللفظ له، ورواه مسلم في صحيحه، كتاب الصلاة، باب: الأمر بالسكون في الصلاة والنهي عن الإشارة باليد.

(٢) المفردات ٣٣٤.

وحلقا حلقا متفرقين فرفاشتي" (١) فقد عبر — ﷺ — باللفظ المطابق للواقع، لكنه لو قال متفرقين لاحتمل تفرقهم فرادى، كما يحتمله جماعات، وكذلك أشتاتا .

أحوال التركيب

توفرت جملة الراوي على بيان سبب الورود، وقد أدت هذا المعنى الجملة الحالية (وهم حلق) وقد عبر — ﷺ — عن إنكاره هذا الحال بأسلوب الاستفهام الإنكاري، فهو أنسب الأساليب دلالة على رفض ما هم عليه، وحملهم على الإقلاع عنه، وقد كانوا يتبارون — رضي الله عنهم — على مرضاته — ﷺ — طلبا لمرضاة الله، وقد كان أكره شيء إلى فؤاده — ﷺ — هو أن يرى تفرق الأمة في أي مظهر من مظاهر حياتها ، ذاك أن هلاكها في تفرقها وقد خاطبها ربنا قائلا : (واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا . . .) (آل عمران / ١٠٣)

فالاستفهام إنكاري توبيخي قال المناوي نقلا عن الطيبي : "قوله (مالي أراكم عزيز) هذا إنكار منه على رؤية أصحابه متفرقين أشتاتا، والمقصود: الإنكار عليهم كائنين على تلك الحالة، يعني : لا ينبغي أن تتفرقوا، ولا تكونوا مجتمعين بعد توصيتي إياكم بذلك" (٢)

(١) ينظر : نظم الدرر للبقاعي ١٥٦/٨ .

(٢) فيض القدير ٥٦٢/٥ .

هذا وقد لمح المناوي مبالغة وراء استخدام لفظة (أرى) هنا ، وكان من الممكن أن يقال: مالكم متفرقون ؛ ذاك أن المبالغة حاصلة من إنكاره على نفسه أن يراهم على هذا الحال، وهذا أبلغ في الإنكار أي كأنه لا يتصور حصول ذلك مما يجعله ينكر على نفسه رؤيته، ولو قال : مالكم متفرقون دون أن يذكر الرؤية لكان ذلك إنكارا مباشرا لتفرقهم دون إنكار لرؤية ذلك على وجه التوكيد كما جاء في الحديث، قال المناوي في ذلك: " ولو قال: مالكم متفرقون، لم يفد المبالغة، ونظيره قوله : — تعالى — (مَالِيَ لَا أَرَى الْهُدُودَ) (النمل/٢٠) أنكر على نفسه عدم رؤيته إنكارا بليغا على معنى أنه لا يراه وهو حاضر، وهذا قاله وقد خرج على أصحابه فرآهم حلقا فذكره، ثم قال : ألا تصفون كما تصف الملائكة عند ربها يتمون الصف الأول فالأول، ويتراصون في الصفوف " (١)

وقد ذكر المناوي أن تخلقهم كان على ما لافائدة فيه، حيث قال: " وهذا لا ينافيه أن المصطفى ﷺ — كان يجلس في المسجد وأصحابه محققون كالمثقلين؛ لأنه إنما كره تخلقهم على ما لافائدة فيه ولا منفعة بخلاف تخلقهم حوله، فإنه لسماع العلم والتعلم منه " (٢) ولكني أرى أنهم كانوا متحلقين على مافيه فائدة، بقرينة توجه الإنكار إلى رؤيته إياهم عزين، أي حلقا متفرقين، ولو كان اجتماعهم على ما

(١) فيض القدير ٥/٥٦٢ .

(٢) فيض القدير ٥/٥٦٢ .

لأفائدة فيه لتوجه الإنكار إلى خوضهم في أحاديث في المسجد، كأن
يقال : مالكم تخوضون في أحاديث، وقياسه على حلقة الرسول ﷺ —
— قياس غير قوي لأن الصحابة كانوا يتحلقون حوله، لا يتحلقون
حلقة متفرقة كالحالة التي رأى — ﷺ — الصحابة عليها، والحديث
متجه بتركيبه إلى الحث على الاجتماع والنهي عن التفرق، ففي
الاجتماع خير للأمة، وفي التفرق كل شر .

عَنْ جَرِيرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الْبَجَلِيِّ — رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ — أَنَّ النَّبِيَّ —
 ﷺ — قَالَ لَهُ فِي حَجَّةِ الْوَدَاعِ : اسْتَنْصِتِ النَّاسَ، فَقَالَ : لَا تَرْجِعُوا
 بَعْدِي كُفَّارًا يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ ^(١)

التصور الجملي للحديث

مقصود الحديث العام : الترهيب من اقتتال المسلمين بعده — ﷺ —
 — وقد سبق هذا المقصود جملة تحث على الإنصات؛ تنبيهاً لأهمية ما
 يلقي بعدها، وسينصب اهتمامي على هذه الجملة لأنها محل
 البحث، والتي تشير إلى أن من آداب مجلس العلم الإنصات للعالم .

اصطفاءات الألفاظ

اصطفى — ﷺ — (استنصت) على : استسمع؛ ذاك أن "
 الاستماع قد يكون مع السكوت، وقد يكون مع النطق بكلام آخر
 لا يشتغل الناطق به فهم ما يقول الذي يسمع منه ^(٢)) أما الإنصات فهو

(١) رواه البخاري في صحيحه ، واللفظ له ، كتاب : العلم ، باب : الإنصات للعالم ، وكتاب الديات باب ، قول الله — تعالى —
 — (ومن أحيائها فكأنما أحييا الناس جميعا) وكتاب الفتن ، باب : قول النبي لا ترجعوا بعدي كفارا ورواه مسلم في صحيحه ،
 كتاب : الإيمان ، باب : بيان معنى قول النبي — ﷺ — لا ترجعوا بعدي كفارا ورواه النسائي في سننه ، كتاب : تحريم الدم ،
 باب : تحريم القتل ، ورواه ابن ماجه في سننه ، كتاب الفتن ، باب : لا ترجعوا بعدي كفارا ، ورواه أبو داود في سننه : كتاب
 : السنة ، باب : الدليل على زيادة الإيمان ونقصانه

(٢) فتح الباري شرح صحيح البخاري ١/١٧٥، ١٧٦ .

سماع مع سكوت، وهو أدعى للتفكر؛ لذا قال أهل اللغة: "أنصت : أحسن الاستماع للحديث" (١)

وأقوى الأدلة على الفرق بين (الإنصات والاستماع) هو قوله :
 — تعالى — (وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ) (الأعراف/ ٢٠٤) قال البقاعي في الآية " فاستمعوا له: أي : ألقوا إليه أسماعكم مجتهدين في عدم شاغل يشغلكم عن السمع، ولما كان بعض الفهماء يسمع وهو يتكلم، أشار إلى أن هذا الكتاب أعلى قدرا من أن يناله من يشتغل عنه بأدنى شغل، فقال : (وأنصتوا) أي : للتأمل والتدبر لتنجلي قلوبكم فتعلموا حقيقته فتعملوا بما فيه، ولا يكون في صدوركم حرج منه " (٢) وهذا يعني أن المطلوب ليس الاستماع، وإنما ما هو أعلى من ذلك، وهو الاستماع بتدبر، فما عبر به هو أوجز.

أحوال التركيب

وردت الجملة بالأسلوب الإنشائي لأنه الألفق بمثل هذا المقام، الذي هو بحاجة إلى لفت الانتباه، وإثارة الاهتمام لما سيلقى بعده؛ لذا قال النووي في معنى الجملة "أي: مرهم بالإنصات ليسمعوا هذه الأمور المهمة والقواعد التي سأقررها لكم، وأحملكموها" (٣) وقد كشفت هذه

(١) المعجم الوسيط (ن ص ت)

(٢) نظم الدرر ١٧٨/٣ .

(٣) شرح النووي على صحيح مسلم ٥٦/٢ .

الجملة عن خطر ما بعدها؛ لذا جاءت الجملة بعدها مبنية على التعليل، إذ شبههم — ﷺ — بالكفار حين يضرب بعضهم رقاب بعض قال القرطبي " يحمل الحديث على التشبيه تعليلًا، وذلك أن المسلمين إذا تهاجزوا وتقاتلوا، فقد ضلت الطائفة الباغية منهما، أو كلاهما إن كانتا باغيتين عن الحق وكفرت حق الأخرى وحرمتها، وقد تشبهوا بالكفار، وكأنه اطلع على ما يكون في أمته من المحن والفتن، فحذّر من ذلك؛ بذلا للنصيحة ومبالغة في الشفقة " (١)

هذا، والإنصات للرسول — ﷺ — وإن كان مطلوبًا لكل كلامه، فإنه هنا أشد مطلبًا لعظم، وخطر ما قاله — ﷺ — كما بينه القرطبي في شرحه للحديث (٢) وقد ذكر ابن حجر العسقلاني أن الأمر بالإنصات أتى من كثرة الجمع (٣) وهذا لا يمنع أن هذه الجملة الإنشائية تفيد مع ذلك خطر ما يلقي بعدها، وصفوة القول أن هذه الجملة تشير إلى الاهتمام بالعلم، وبيان أن من آدابه الإنصات له .

(١) المفهم لما أشكل من تلخيص مسلم ٤٩/٥ .

(٢) ينظر : المفهم لما أشكل من تلخيص مسلم ٤٩/٥ .

(٣) ينظر : فتح الباري ١٧٥/١ .

عَنْ ابْنِ عُمَرَ — رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا — عَنِ النَّبِيِّ — ﷺ — قَالَ :
لَا يُقِيمُ الرَّجُلُ الرَّجُلَ مِنْ مَجْلِسِهِ ، ثُمَّ يَجْلِسُ فِيهِ ، وَلَكِنْ تَفْسَحُوا
وَتَوَسَّعُوا " (١)

التصور الجملي للحديث

مقصود الحديث : بيان بعض آداب مجلس العلم من التفسح والتوسع ، وقد خرج الحديث لتحقيق هذا المقصد في جملتين ، عطف إحداهما على الأخرى (لا يقيم الرجل الرجل ...) (ولكن تفسحوا وتوسعوا)

اصطفاءات الألفاظ

اصطفى — ﷺ — لفظ (مجلسه) على لفظ مقعده ، ويجلس على (يقعد) في هذه الرواية ، ذاك أن القعود يكون " لما فيه لبث بخلاف الجلوس ، ولهذا يقال : قواعد البيوت ، ولا يقال جوالسه ، ويقال أيضا : فلان جليس الملك ، ولا يقال قعيده " (٢)

(١) رواه مسلم في صحيحه ، واللفظ له ، كتاب : الأدب ، باب : في الرجل يقوم للرجل من مجلسه ، ورواه البخاري في صحيحه ، كتاب : الجمعة . باب : لا يقيم الرجل أخاه يوم الجمعة ويقعد في مكانه ، ورواه الترمذي في سننه ، كتاب : الأدب ، باب : إذا قام الرجل من مجلسه ، ثم رجع إليه فهو أحق به وأبو داود في سننه ، كتاب : الأدب ، باب : النهي عن أن يقام الرجل من مجلسه .

(٢) الكليات للكفوي ٧٢٨ .

أحوال التركيب

يخاطب — ﷺ — أمته، معلما لها بكمال رحمته، وتمام رأفته مراعاة حسن الأدب بين أفرادها، مستخدما أسلوبيين من أساليب الإنشاء الطلبي، أسلوب النهي في قوله (لا يقيم الرجل... والأمر (تفسحوا وتوسعوا) والنهي هنا على حقيقته، وقد اختلف في النهي على قولين الأول: أنه للتحريم، الثاني: للكرهية، وقد رجح القرطبي الأول^(١) وقد جاء المسند إليه بلفظ الرجل على التغليب، وإلا فالحكم يشمل النساء أيضا، ولعل في التعبير بلفظ (الرجل) بهذا الوصف في المسند إليه والمفعول به إشارة إلى ذم من يصنع ذلك فلا يجوز ممن اتصف بوصف الرجولة، أن يصنع هذا بمن اتصف بوصف الرجولة، وإلا فكان يمكن أن يكتفى عن ذلك بقولنا : لا يقيم أحدكم أحدا من مجلسه، لكن ما عبر به — ﷺ — فيه حمل بلطف على ترك ذلك والإقلاع عنه؛ لأنه مما لا يليق صنعه من الرجال، ولا بالرجال، ولعل مما يؤيد ذلك ما جاء في الرواية الأخرى (لا يقيم أحدكم أحدا) حيث ذكر متعلق الفعل (المفعول به) بعنوان الأخوة، وفي ذلك ما فيه من الحث على عدم مقارفة ذلك لصلة الدين التي هي أقوى من صلة الدم .

ولعل مما يؤيد ذلك الإضافة في قوله (مجلسه) وما فيها من الإشعار بالغضب، والاعتداء على حق الغير، وهو محرم شرعا، وكأن من سبق

(١) المفهم لما أشكل من تلخيص مسلم للقرطبي ٥٠٩/٥ .

إلى مجلس كان أحق به ممن جاء متأخرا، وفي ذلك قال القرطبي: "إنما كان ذلك لأجل أن السابق لمجلس قد اختص به إلى أن يقوم باختياره عند فراغ غرضه، فكأنه قد ملك منفعة ما اختص به من ذلك، فلا يجوز أن يحال بينه وبين ما يملكه" ^(١) ثم عطف على ذلك جملة (ثم يجلس فيه) والظاهر من السياق أن (ثم) ليست للتراخي الرتي، وإنما هي للاستبعاد، كأنه — ﷺ — استبعد أن يحدث ذلك، أو كأن مثل هذا الفعل ينبغي أن يكون بعيدا، لأنه مناف لأدب العلم، فكيف يصدر هذا ممن جاء لطلب العلم، ثم يجلس لطلبه، وثم هنا على حدها في قوله: — تعالى — (ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً) (البقرة/ ٧٤) فإن "ثم هنا لاتدل على التراخي الزمني، وإنما تدل على استبعاد وقوع القسوة بعد جلاء الآية، وهذا معنى دقيق ينهض به هذا الحرف في كثير من الصياغات، انظر إلى قول جعفر بن علبة الحارثي:

لَا يَكْشِفُ الْغَمَاءَ إِلَّا ابْنُ حُرَّةٍ * يَرَى غَمَرَاتِ الْمَوْتِ ثُمَّ يَخُوضُهَا

لو قلت إن ثم هنا تفيد التباعد الزمني لكان ذلك إفسادا للمعنى، لأنه يعني أنه يزور الغمرات، ويخوض الحروب بعد رؤيتها بزمن متراخ، وكأنه متردد في ذلك، وهذه ليست أوصاف الشجاع الباسل، وإنما (ثم) هنا للاستبعاد، أي: للإشارة إلى أن خوض الغمرات وزيارتها بعد رؤية أهوالها أمر بعيد إلا على هذه القلوب الجسورة" ^(٢)

(١) المفهم لما أشكل من تلخيص مسلم للقرطبي ٥٠٩/٥ .

(٢) التصوير البياني ٢٨، ٢٧ . د/ محمد أبو موسى .

ثم عطف على الجملة الأولى جملة أخرى بأسلوب الأمر (ولكن تفسحوا وتوسعوا) وقد ذكر القرطبي أن الأمر هنا على حقيقته حيث قال: "وظاهر ذلك أنه على الوجوب تمسكا بظاهر الأمر، وكان القائم يتأذى بذلك، وهو مسلم، وأذى المسلم حرام، ويحتمل أن يقال: إن هذه آداب حسنة، ومن مكارم الأخلاق، فتحمل على الندب" (١) وقد جاءت هذه الجملة عونا على إنفاذ النهي في الجملة الأولى، ذاك أن الأولى توفرت على القادم متأخرا، وهذه توفرت على القادم مبكرا، وكما توفرت الأولى على نهي القادم متأخرا، توفرت هذه على أمر الجالس مبكرا، وفي كل ذلك تنظيم لأدب مجلس العلم مابعده من تنظيم، وهو توازن بديع بين طرفين مهمين في مجلس العلم؛ بيانا لما على كل منهما من الآداب الرفيعة، لاسيما في مجلس العلم الذي هو أرفع المجالس على الإطلاق، ويليه في ذلك كل مجلس يضم المسلمين، وما يجب على الجالس والقادم من الآداب.

وقد ذكر القرطبي مناسبة هذه الجملة لما قبلها حيث قال: "وذلك أنه لما نهي عن أن يقيم أحدا من موضعه تعين على الجلوس أن يوسعوا، ولا يتركوه قائما، فإن ذلك يؤذيه، وربما ينجله، وعلى هذا فمن وجد من الجلوس سعة تعين عليه أن يوسع له" (٢) ويؤيده التأكيد على ذلك بقوله: (تفسحوا وتوسعوا) فلم يكتف بقوله: تفسحوا،

(١) المفهم للقرطبي ٥/٥١٠.

(٢) المفهم للقرطبي ٥/٥١٠.

وإنما عطف عليه ما يؤكده، ويؤيد ذلك أيضا التعبير بصيغة الفعل الدالة على الاجتهاد في وقوع الفعل فقد جاء الفعلان بصيغة (تفعل)، أي : افعلوا ذلك ولو على سبيل التكلف، أو كلفوا أنفسكم ذلك، وإن خالف هواكم، وعلى الجملة فقد تعاونت الجملتان على بيان آداب المجالس عامة، وآداب مجلس العلم خاصة، وبيان ما على القادم والجالس من الآداب .

عن أبي سعيد الخدري — رضي الله عنه — أن النبي ﷺ —
 — قال : " إن الناس لكم تبع ، وإن رجالاً يأتونكم من أقطار الأرض
 ، يتفقون في الدين ، فإذا أتوكم فاستوصوا بهم خيراً " (١)

التصور الجملي للحديث

مقصود الحديث : الحث على الاهتمام بطلاب العلم ، وقد خرج
 الحديث الشريف في جملة عطفت عليها جمل (إن الناس لكم تبع) (وإن
 رجالاً يأتونكم من أقطار الأرض يتفقون في الدين) (فإذا أتوكم
 فاستوصوا بهم خيراً)

اصطفاءات الألفاظ

اصطفى — ﷺ — الإتيان على المجيء ، لدلالة الإتيان على
 القصد، ولكونه أخص من المجيء على عكس المجيء، قال الراغب : " المجيء
 كالإتيان، لكن المجيء أعم لأن الإتيان مجيء بسهولة، والإتيان قد يقال
 باعتبار القصد، وإن لم يكن منه الحصول، والمجيء يقال اعتباراً بالحصول
 " (٢) وهذا يعني أن الإتيان لعلماء الصحابة سيكون عن قصد، وهذا مما

(١) رواه الترمذي في سننه ، كتاب : العلم ، باب : ما جاء في الاستيلاء بمن يطلب العلم ، ورواه ابن ماجه في سننه ، المقدمة ،
 باب : الوصاة بطلب العلم .

(٢) المفردات ١٠٣ .

يشدد في تحميل المسؤولية على علماء الصحابة، حتى لا يردوا من قصدوهم بالمجئ قصدا .

أحوال التراكيب

المخاطب بالحديث هم العلماء من الصحابة (١) — رضوان الله عليهم — ومن نصح نصحهم من علماء الأمة أيضا، ذاك أنهم عن مكارم الأخلاق أخذوا، وعن خير قدوة ومثل سلوكا وعلما وعملا تلقوا، وقد بدأ — ﷺ — حديثه بجملة بدیعة في تركيبها، وفي موقعها، ففي موقعها تحريض للمخاطبين على القيام بحق هذه المسؤولية، وقد أكدت الجملة — (إن) واسمية الجملة، وقد جاء المسند إليه معرفا بلام الجنس (الناس)، يقول المناوي: "التعريف في الناس لاستغراق الجنس، والمراد: حق على جميع الناس في مشارق الأرض ومغاربها متابعتكم" (٢) هذا فوق ما في اللفظ من الدلالة على العموم، فلم يقل: المسلمون، ولا المؤمنون، وفي ذلك بيان لخطر المسؤولية، وإلهاب لنفس المخاطبين للحرص على الإبقاء على تبعية الناس لهم، وفي تقديم الجار والمجرور على المسند (لكم) تأكيد على هذه التبعية، وفي التعبير بالمسند (تبع) تأكيد على هذه التبعية، ذاك أن تبع يقال وصفا أو خبرا للمفرد، كما يقال وصفا أو خبرا للجمع، أما تابعون فلا يقال إلا وصفا للجمع أو إخبارا

(١) ينظر : تحفة الأحوذى ٤٠٩/٧ .

(٢) فيض القدير ٤٩٧/٢ .

عنهم، ففيما عبر به تأكيد على قوة هذه التبعية ووحدها على حد (ظهير) في قوله: — تعالى — (وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ) (١) (التحریم/٤) لذا قال المناوي: "وتبع، أي: تابعون، فوضع المصدر موضعه؛ مبالغة نحو قولهم: رجل عدل" (٢) فالجملة بألفاظها وتركيبها قد تعاونت على تحريض المخاطبين على الاستمسك بهذا الشرف الذي يجعلهم يدا عليا، وفي القيام بحق هذه الأمانة، وفي هذا خير تهئية لإلقاء الوصية .

ثم عطف على هذه الجملة بعد أن هيا أصحابها لتلقي ما بعدها جملة تبين غلط هذه المسؤولية (وإن رجالا يأتونكم من أقطار الأرض يتفقون في الدين) وقد جاءت الجملة مؤكدة تناسبا مع الإخبار بالغيب، وتأكيدا على حصول هذه المسؤولية، وقد وقع المسند إليه (رجالا) تنبيها على علو شأنهم، والتذكير في المسند إليه للتنويع، قال المناوي " : والتذكير في المسند إليه للنوع، أي: رجالا صفت نياهم، وخلصت عقائدهم، يضربون أكباد الإبل لطلب العلم، وإرشاد الخلق " (٣) وصفوة القول أن التعبير بالرجولة على حده في قوله : — تعالى — (مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَّنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَّنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا) (٤) (الأحزاب / ٢٣) وفي

(١) قال البقاعي في تفسير (ظهير) " أخبر عن الجمع باسم الجنس ؛ إشارة إلى أنهم على كلمة واحدة في المظاهرة " نظم الدرر ٤٩/٨ .

(٢) فيض القدير ٤٩٧/٢ .

(٣) فيض القدير ٤٩٧/٢ .

(٤) قال البقاعي في معنى (رجال) : " أي : في غاية العظمة عندنا " نظم الدرر ٩٣/٦ .

محيي المسند إليه بهذا اللفظ إلهاب لعلماء الصحابة ومن شابههم على الاهتمام بهم ، لأن القاصدين ليسوا من دهماء الناس ، وإنما هم من خيارهم ، ومن نفائس معادتهم، وكان ذلك كله سيفوت لو قال: وإن طلابا، أو وإن طلاب علم، وقد سبق أنه عبر بالإتيان، ولم يعبر بالمحيي كشفا عن القصد والعمد في المحيي، وذلك ألهب في الحمل على عدم ردهم، والحث على الاهتمام بهم، كما أن في ذكر مكان الإتيان دلالة على شرف القصد، وصحة النية (من أقطار الأرض) وفي التعبير بذلك ما فيه من الدلالة على تحمل المشاق في سبيل طلب العلم، والذي أراه أن التعبير بالإتيان، وذكر مكانه تحقيق لوصفهم بالرجولة، كما أن في ذكر الفعل بصيغة المضارع (يأتونكم) دلالة على تجدد حدوث الفعل، وما يتبعه من ضرورة تجدد إكرام الآتي والقيام بحقه، من إظهار البشر وطلاقة الوجه، وحسن الود، وبذل العلم .

ثم جاءت بعد ذلك جملة (يتفقهون في الدين) وهي إما أن تكون استئنافية لبيان علة الإتيان، أي : أنها فصلت عن الجملة السابقة لما بينهما من شبه كمال الاتصال، وإما أن تكون الجملة حالا من المرفوع في (يأتونكم) وقد ذكر المباركفوري نقلا عن الطيبي أن هذا الوجه أقرب إلى الذوق (١) وقد بني الفعل بصيغة تدل على الاجتهاد في طلب الفقه، كما أن محيئها كذلك جعل الفعل يتعدى إلى مفعوله بحرف الوعاء، وفي هذا دلالة على أن مرادهم ليس علم الدين، وإنما التعمق في

(١) تحفة الأحوذى ٤٠٩/٧ .

مسائل الدين، لذا لم يقل: يطلبون الفقه، أو يفقهون الفقه، وإنما عبر بما عبر به حتى يكون الطلب على قدر المشقة، وفي ذلك ما فيه من الحث على الاهتمام بهم .

ثم عطف على ما سبق جملة أخرى بالفاء ؛ تنبيها على عدم التواني في الوفاء بحقهم عند مجيئهم، وقد عبر — ﷺ — بـ (إذا) التحقيقية ؛ تحقيقا لحصول ما في حيزها، وفي هذا "تحقيق للوعد، وإظهار للإخبار عن الغيب، فهذا من معجزاته — ﷺ — إذ هو إخبار عن غيب وقع" (١) وفي بناء الجملة بأسلوب الشرط إشارة إلى وجوب تحقق الجزاء بتحقيق الشرط، وقد جاء جواب الشرط عاما (فاستوصوا بهم خيرا) فلم يقل : ففقهوهم، أو علموهم، أو أحسنوا إليهم، وإنما عبر بما يشمل كل ذلك، وقال فاستوصوا، ولم يقل: فافعلوا لما في التعبير بالوصية من بيان شفقة الموصي، وحرصه على الموصى بهم، ولما في ذلك من الحث على إنفاذ في ما حيزها، وقد تأول العلماء معنى استوصوا فقالوا : " أي: في تعليمهم علوم الدين، وحقيقة: استوصوا، اطلبوا الوصية، والنصيحة بهم من أنفسكم، فالسين للطلب، والكلام من باب التجريد، أي : ليجرد كل منكم شخصا من نفسه، ويطلب منه التوصية في حق الطالبين، ومراعاة أحوالهم، وقيل الاستيضاء : طلب الوصية من نفسه، أو من غيره بأحد أو بشئ يقال : استوصيت زيدا بعمر وخيرا، أي : طلبت من زيد أن يفعل بعمر وخيرا، والباء في (بهم) للتعدية، وقيل :

(١) ينظر : فيض القدير ٤٩٧/٢ ، وتحفة الأحوذى ٤٠٩/٧ .

الاستيضاء قبول الوصية، ومعناه : اقبلوا الوصية مني بإيتائهم خيرا، وقيل : معناه : مروهم بالخير وعظوهم وعلموهم إياه " (١) والحق أن كل هذه التأويلات واردة، وأرى أنها مرادة كلها، وذلك لعموم اللفظ، ولصلاحية التركيب لكل هذه التأويلات، وهو مما يعين عليه السياق السابق في بيان الاهتمام بطلاب العلم، وكوفهم صنفا متميزا من الناس بتحمل المشاق وصدق النية، وخلوص الغرض لله — سبحانه — وقد نكر (خيرا) للتكثير، وفي كل ذلك مزيد حض على الاهتمام بهم، والحديث تتآزر مفرداته وتراكيبه في الحث على الاهتمام بطلاب العلم.

(١) تحفة الأحوذى ٤٠٩/٧، ٤١٠.

الفصل الثالث:

بلاغته — ﷺ — في الترهيب

من عدم العمل بالعلم

العلم هو المصباح الهادي، والسراج المنير، وهو الماء بالنسبة للحياة، ولكن ذلك كله لا يكون بالعلم وحده، وإنما بمباشرته عملاً وتطبيقه سلوكاً؛ لذا أولى — ﷺ — العمل بالعلم، والترهيب من عدم العمل به اهتماماً بالغاً وقد ورد ذلك في أحاديث متعددة، تآزرت الألفاظ والتراكيب والصور في تبشيع صورة من لم يعمل بعلمه، لأنه كمن ملك مصباحاً وبدلاً من أن يضيئ به الحياة، أشعل به حرائق، فأحال الخير شراً، فكان عمله من أبشع الأعمال، وكان نهجه أسوأ نهج، وسبيله شر سبيل، وعاقبته شر عاقبة، وقد رسمت أحاديثه — ﷺ — صورة مروعة لمن اتصف بهذا الوصف، في بيان بديع، وأسلوب ممتع، شأن البلاغة النبوية الشريفة .

عن أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ — رضي الله عنهما — قال : — سمعتُ رسول الله — ﷺ — يقول : يُؤْتَى بِالرَّجُلِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، فَيُلْقَى فِي النَّارِ ، فَتَنْدَلِقُ أَقْتَابُ بَطْنِهِ ، فَيَدُورُ بِهَا كَمَا يَدُورُ الْحِمَارُ بِالرَّحَى ، فَيَجْتَمِعُ إِلَيْهِ أَهْلُ النَّارِ ، فَيَقُولُونَ : يَا فُلَانُ ! مَا لَكَ ؟ ! أَلَمْ تَكُنْ تَأْمُرُ بِالْمَعْرُوفِ ، وَتَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ ؟ فيقول : بلى ، كُنْتُ أَمُرُ بِالْمَعْرُوفِ ، وَلَا آتِيهِ ، وَأَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ وَآتِيهِ " (١)

التصور الجملي للحديث

مقصود الحديث العام بيان جزاء من لم يعمل بعلمه، وقد خرج الحديث الشريف لتحقيق هذا المقصود في جملة رئيسية تطوي جملاً أخرى بالعطف: يؤتى بالرجل يوم القيامة، ثم تبتعها جمل أخرى بالعطف فيلقى... فتندلق... فيدور... فيجتمع... فيقولون... فيقول...)

اصطفاءات الألفاظ

اصطفى — ﷺ — الرجل، على سواه من مثل العالم؛ إيماء إلى نفي صفة العلم عمن لم يعمل بعلمه؛ مع مكابدة المشاق في سبيل

(١) رواه البخاري في صحيحه ، كتاب : بدء الخلق ، باب : صفة النار وأهلها مخلوقة ، وكتاب : الفتن ، باب : ما جاء في تكذيب من يأمر بالمعروف ، وهو يأتي المنكر ، ورواه مسلم في صحيحه ، واللفظ له ، كتاب : الزهد والرقائق ، باب : عقوبة من يأمر بالمعروف ، ولا يفعله ، وينهى عن المنكر ويفعله .

تحصيله وأدائه للناس، لذا ذكر الوصف غير المميز له عن بقية الناس، مع أنه كان يمكنه تمييز نفسه بالعمل بما علم، وقد عبر — ﷺ — بالاسم العلم (يوم القيامة) فلم يقل: يوم الحساب، و لا يوم الحشر، ولا يوم النشر، ولا غير ذلك من أسماء يوم القيامة، لأن (يوم القيامة) علم يشمل كل الأفرع في الآخرة، من نشر وحشر وحساب وصراط وميزان وغير ذلك .

واصطفى — ﷺ — تندلق على ما يقاربها من مثل تخرج، لأن الاندلاق أدل على شدة الاندفاع من الخروج، فوق أن ما عبر به في الحديث الشريف أوجز لأنه تصوير للخروج على صفة مخصوصة فإنه يقال : دلق دلوقا : خرج سريعا . . . واندلق الشئ : اندفع من مكانه، يقال : طعنه فاندلقت أحشاء بطنه، والسيل : اندفع وهجم " (١) كما أنه — ﷺ — اصطفى لفظة (يلقى) وفي رواية أخرى (يطرح) والروايتان تتعانقان في الدلالة على المهانة والمذلة التي تلحق بالذي لا يعمل بعلمه يوم القيامة، وبالجمع بينهما يبين أن المراد أنه يلقي طريقا، " والطريح : المطروح، والمتروك، لا حاجة لأحد فيه؛ لقلة الاعتداد به، أولحقارته " (٢) كما أن الإلقاء يوحي بالبغض والكراهة .

(١) اللسان و المعجم الوسيط مادة (د ل ق) .

(٢) اللسان و الوسيط مادة (ط ر ح)

أحوال التركيب

الجملة الأم هي (يؤتى بالرجل يوم القيامة) وقد ورد المسند بالبناء للمفعول توفيراً للعناية على الفعل، وكشفاً عن سرعة الأخذ؛ وإيجازاً؛ لذا لم يقل: يأتي ملائكة العذاب بالرجل، فوق أن التعبير بالبناء للمفعول يدل على إرغامه على الجحيم أيضاً، فقد كان يمكن أن يقال: يأتي الرجل يوم القيامة، ولو قال ذلك لفسد الكلام؛ لأنه يدل آنئذ على مجيئه راغباً، والواقع أنه سيؤتى به مرغماً، وقد جاء المسند إليه هنا مجروراً (بالرجل) ومعرفاً بلام العهد فهو رجل معين بوصف، وليس أي رجل، ويؤيد ذلك رواية الإمام أحمد "يجاء بالرجل الذي كان يطاع في معاصي الله" (١) وفي ذكر متعلق الفعل (يوم القيامة) مع أنه معلوم من سياق الحديث زيادة ترهيب، وذلك لما يليق به ذكر هذا الاسم من ظلال التخويف والترهيب، فهو يوم لا ملجأ فيه ولا مفر، ثم عطف على الجملة جملة أخرى بالفاء، والعطف بالفاء يتناغم مع التعبير بالبناء للمفعول، في الكشف عن شدة الأخذ الناتجة عن قوة الغضب؛ لبشاعة صنيعه، وقد تتابعت الفاءات في الحديث وتلاحقت، إنه أخذ عزيز مقتدر .

وفي قوله (فيلقى في النار) لطائف منها التعبير بالبناء للمفعول؛ إيجازاً واختصاراً، تناسبا مع الكشف عن سرعة العقوبة الذي هو من سمات التركيب في الحديث الشريف، كما أن التعبير بيلقى إشارة إلى

(١) رواه الإمام أحمد في مسنده كتاب مسند الأنصار ، باب: باقي حديث أبي الدرداء .

الإهانة والمذلة بقرينة الرواية الأخرى (يطرح) كما مضى بيانه، كما أن في ذكر المجرور زيادة ترهيب (في النار) مع أنه يمكن أن يفهم من السياق.

وفي قوله (فتندلق أقتاب بطنه) لطائف منها، أن العطف بالفاء دل على أن ذلك حصل له على وجه السرعة دون مهلة، وذلك أدل على قوة النار، وشدة العذاب، ويؤازر ذلك أيضا التعبير بـ (تندلق) دون سواها كما مضى بيانه، فقد ذكر العيني أن تندلق "أي: تنصب أمعاؤه من جوفه، وتخرج من دبره" ^(١) وفي ذكر (بطنه) زيادة توكيد للتقبيح، لأن الأمعاء لا تكون إلا في البطن، وربما يكون في ذكر البطن إشارة إلى السبب الذي من جرائه عمل بضد ما علم، وأن الدافع إلى ذلك هو شهوة البطن لاغير، وفي ذلك دلالة على أن الجزاء من جنس العمل، وقد جاء في رواية أخرى للحديث عند البخاري (في النار) وفي إعادة ذكر النار مع إمكان الاستغناء عنها زيادة ترهيب، لمن اتصف بهذا الوصف .

قوله: (فيدور بها كما يدور الحمار بالرحى) وهي صورة تشبيهية بديعة، فقد شبه — ﷺ — العالم الذي يعمل بضد ما يعلم من الخير مع تحمل العناء والمشقة في سبيل تحصيله وأدائه، بالحمار الذي يهلك نفسه في إدارة الرحى دون أن يعود عليه نفع إلا المشقة والعنت بجامع

(١) عمدة القاري ١٥/١٦٦ .

تحصيل الشر مع الاجتهاد في فعل الخير، وهو تشبيه تمثيلي، والغرض من التشبيه تقبيح المشبه، وفي ذلك حمل لكل من اتصف بهذا الوصف على الإقلاع عنه، مع أن صورة المشبه في إدارته بأمعائه أبشع من صورة الحمار؛ فالأول مكلف والثاني غير مكلف، وذلك مما يدل على أن من يتصف بالعمل بضد ما يعلم أبشع من الحمار الذي يدور برحاه .

قوله: (فيجتمع إليه أهل النار) وذلك مما يوحي ببشاعة صورته في عين أهل النار، على بشاعة ما هم فيه، مع أن الكل مشغول بما فيه من مكابدة العذاب الذي لا يمكن أن يشتغل به المعذب عن سواه إلا أن يكون ذلك من أبشع ما يكون، فأية صورة تلك، وأية بشاعة تلك، تشغل أهل النار عما هم فيه؟! ويؤيد ذلك التعبير بـ (يجمع) فلم يقل : فيعجب منه أهل النار، أو فيسأله أهل النار، أو تحذف الجملة، ويكتفى بما بعدها، كما أن التعبير بـ (إليه) يوحي بشدة قبح الصورة، التي كأنها دعوتهم للاجتماع؛ لذا لم يقل: عليه، وفي تعريف المسند إليه بالإضافة تبشيع للصورة (أهل النار) .

قوله: (فيقولون: يا فلان مالك؟ ألم تكن تأمر بالمعروف، وتنهى عن المنكر؟) دلت الفاء على شدة قبح حاله، حيث لم يكن عندهم مهلة في إلقاء السؤال من هول ما رأوا على هول ما هم فيه، ثم دل أسلوب النداء على الإحساس المفعم بهول ما فيه صاحبهم مما أنساهم هولهم (يا فلان) وكان يمكن أن يقال: فيقولون: مالك، وكان ذلك أوجز، لكن

التعبير المقترح يفيت الكشف عن إحساسهم بما فيه صاحبهم من الهول، وقد ورد النداء في بعض الروايات — (أي) وفي بعضها بـ (يا)، وعلى كل فالنداء يدلنا على موقف مفعم، وحس طاغ، وفي ذلك يقول د/ أبو موسى: "وأكثر هذه المواقع — يقصد مواقع النداء — تجري في السياقات ذات الحس الطاعني، والموقف المفعم، وترى الأداة في كثير منها، وكأنها صيحة أو صرخة يطلقها الشاعر والبليغ المبين" ^(١) ومما يضاعف من الكشف عن الإحساس الطاعني بقبح ما هو فيه تتابع الأساليب الإنشائية التي هي أدنى إلى الروح، وقد ذكر الإمام العيني أن الاستفهام على سبيل الاستخبار ^(٢) ولا أرى مانعا من حمل الاستفهام على معنى التعجب؛ تناسبا مع شدة حاله الداعية إلى العجب، "فإن قيل: كيف صار المأمور بالمعروف في النار؟ والجواب: أنهم لم يمتثلوا ما أمروا به، فعذبوا بمعصيتهم، وعذب أميرهم بكونه كان يفعل ما ينهاهم عنه" ^(٣) وكأني بالحديث الشريف يكشف عن اختصاص الأمر بالمعروف والناهي عن المنكر بنوع عذاب، يمتاز به عن المأمورين، تناسبا بين الذنب والعقوبة، فكما كانوا في انبهار بمكانته في الدنيا وعلمه، فهم كذلك في انبهار من عقوبته في الآخرة، وقد وقع الاستفهامان على سبيل التتابع كشفا عن شدة عجبهم مما رأوا، لذا استفهموا إجمالا بقولهم: (مالك؟) ثم أتبعوا ذلك باستفهام تقريرى: ألم تكن . . . ؟ يكشف عن سبب تعجبهم مما رأوا، وقد بنيت الجملة على أسلوب

(١) دلالات التراكيب ٢٦٣ د / محمد أبو موسى .

(٢) عمدة القاري ١٥/١٦٦ .

(٣) فتح الباري ١٣/٤٤٠٨١٤٠٨ .

المقابلة حيث قبول (تأمر) — (تنهى) و (المعروف) — (المنكر) وجاء الجواب كذلك بأسلوب المقابلة، وأسلوب المقابلة هو أولى الأساليب بمقامات التناقض، الدال على استحقاق العذاب، ويؤيده التعبير بالمضارع الدال على تجدد ذلك وحدوثه؛ إشعاراً بأن أثر الشئ كالشئ، وقد جاء جوابه كذلك بالمضارع دلالة على التجدد والحدوث؛ كشفاً عن ألم ما هو فيه، وقد عبر بما هو أشمل للخير (المعروف) وما هو أشمل للشر (المنكر) فقد ذكر العيني أن المعروف: اسم جامع لكل ما عرف من طاعة الله — عز وجل — والتقرب إليه، والإحسان بين الناس، وكل ما ندب إليه الشرع، ونهى عنه من المحسنات والمقبحات، وهو من الصفات الغالبة، أي: أمر معروف بين الناس لا ينكرونه، والمنكر ضد المعروف، وكل ما قبحه الشرع، وحرمه وكرهه، فهو منكر ^(١) وفي التعبير بما هو عام في كل خير، وفي كل شر زيادة تبشيع حيث كان على علم بكل أبواب الخير، وقد دل عليها، وعمل بضدها، فاستحق أبشع الذم، وقد تآزرت التراكيب وتتابعت في بيان قبح صورة العامل بضد علمه، اتجاه نحو تحقيق المقصد، وهو الترهيب ممن هذه صفته .

(١) عمدة القاري ١٦٦/١٥ .

عن عبد الله بن مسعود — رضي الله عنه — عن النبي — ﷺ —
 — قال: لا تزول قدما ابن آدم يوم القيامة من عند ربه، حتى يسأل
 عن خمس: عن عمره فيم أفناه، وعن شبابه فيم أبلاه، وعن ماله من
 أين اكتسبه، وفيم أنفق، وماذا عمل فيم علم" (١)

التصور الجملي للحديث

مقصود الحديث العام : القيام بحق الشكر لمجموعة النعم المذكورة
 في الحديث، التي منها العمل بالعلم، والترهيب من عدم القيام بذلك،
 وقد خرج الحديث لتحقيق هذا المقصود في جملة واحدة (لا تزول قدما
 ابن آدم يوم القيامة من عند ربه حتى يسأل عن خمس) وما ذكر بعد
 هذه الجملة بدل من خمس المذكورة في الجملة .

اصطفاءات الألفاظ

اصطفى — ﷺ — (ابن آدم) على ما يقاربه من مثل: إنسان،
 حيث لم يقل: قدما إنسان، لأن ما عبر به أنسب لحالة الضعف التي
 سيكون عليها المسئول يوم القيامة؛ لما في ذكر ابن آدم من التذكير بحال
 الخلق الأول من التراب والطين وما في ذلك من الضعف من ذلك قوله :
 — تعالى — (إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ

(١) رواه الترمذي في سننه ، كتاب : صفة القيامة ، باب : في القيامة .

قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ) (آل عمران/٥٩) وفي رواية لأبي برزة الأسلمي (عبد) بدل ابن آدم، وفيها تناسب مع قوله من بعد (من عند ربه) واصطفي — ﷺ — (ربه) على إلهه أو الله لما في معنى الربوبية من التذكير بحق المنعم، من شكر ما أنعم به على عبده .

أحوال التركيب

(لاتزول قدما ابن آدم يوم القيامة من عند ربه حتى يسأل عن خمس) جاء المسند منفيًا، ولم يأت مثبتًا، فلم يقل مثلاً: تزول قدما ابن آدم يوم القيامة من عند ربه بعد أن يسأل عن أربع؛ لأن النفي أبلغ في التهيب من الإثبات، فإن مبادرة النفس بنفي الحركة أوقع في الكشف عن الخوف من مبادرتها بإثبات الحركة، وضاعف من هذا التهيب التعبير بالجاز المرسل (قدما) حيث عبر بالجزء عن الكل تشديداً في التهيب من شدة الموقف، وكأن قدميه من الخوف لم تستطيعا حركة، ولا تحولا، كما أن ذلك يدل على عدم الراحة، ومكابدة الهول، فالمستول واقف، وذلك أدل على الهول، فإن النفس لا تتلقى الشدائد إلا وتفزع واقفة من شدة الهول؛ لذا لم يقل: لا يزول ابن آدم، وفي تعريف المسند إليه بالإضافة كشف عن حال الضعف التي يكون عليها المستول كما مضى بيانه في اصطفاءات الألفاظ، وقد صعد من التهيب ذكر يوم القيامة، الذي هو علم على كل ما في الآخرة من أهوال النشر والحشر والصراط والميزان والحساب، كما أن التعبير بالجار والمجرور (من

عند ربه) ترهيب ما بعده ترهيب فليت الموقف بين يدي من يمكن التحلل منه، أو الكذب عليه، أو الاستنجاد بعظيم، أو اللجوء لكبير، إنه من أنعم، وإنه عليم بالسر والعلن، ومن المعلوم أن شدة الموقف تتضاعف كلما كان بين يدي عظيم، فما الحال بالوقوف بين يدي من خلق كل عظيم؟

وقد وقعت (حتى) هنا كاشفة عن شدة الحال لأن ما بعدها من المسئول عنه مخوف منه، فكما قيل من نوقش الحساب أخذه العذاب، وفي التعبير بالبدل هنا ترهيب لأنه إجمال والإجمال يدل على تفصيل بعده، فهو وقوف طويل كما يوحي به ذكر العدد، ففي ذكر العدد زيادة ترهيب، ثم وقع البدل بعد مرتبا ترتيبا منطقيًا من الأعم إلى الأخص جريا على نهج البدل، فبدأ بقوله (عن عمره) وفي البدء به ترهيب وتخويف، لأن النفس المسئولة تستحضر طول عمرها، وما عملت فيه، بكل مراحلها، ليله ونهاره، صبحه وأمسه، وإذا ما تذكرت النفس طول عمرها، وما عملت فيه استلبها الخوف، وابتلعها الرهبة، وأيقنت بالهلاك، والسؤال عن العمر — شأن بقية الأسئلة — سؤال مخيف، فقد كان يمكن أن يقال: عن خمس فيم أفنى عمره؟ لكن بناء السؤال بهذه الهيئة أشد في الترهيب لما يوحي من تكرار السؤال عن العمر، فكأنه قد أوقع عليه السؤال بإعراب البدلية، والتقدير: عن خمس عن عمره، ثم يأتي السؤال الثاني: فيم أفناه؟ والسائل عليم بالجواب بلا ريب، بيد أن المواجهة بالسؤال أقوى في الحجة، ثم خصص بعد التعميم

(وعن شبابه فيم أبله) " وفيه إشارة إلى المسامحة في طرفيه في حال صغره وكبره، وقال الطيبي — فيما نقله المباركفوري عنه في التحفة — : " فإن قلت: هذا داخل في الخصلة الأولى، فما وجهه؟ قلت: المراد سؤاله عن قوته وزمانه الذي يتمكن منه على أقوى العبادة" (١) كما أن في التخصيص بعد التعميم زيادة ترهيب من فترة الشباب لما فيها من القدرة على فعل الخير والشر، وفي التعبير — (أبله) استعارة حيث شبه الشباب بالثوب، ثم حذف المشبه به ورمزله بشئ من لوازمه، وفي التعبير بالاستعارة إحياء بضرورة الحفاظ على هذه الحقبة من العمر، والاهتمام بها كالأهتمام بالثوب الذي يمكن أن يחדشه الشئ الصلب، والذي يمكن الحفاظ عليه بتعاهده بالتنظيف، الذي يقابل التطهير بالتوبة، وإزالة الأوساخ عنه بالماء، الذي يقابله في جانب المشبه المداومة على الوضوء، وغير ذلك من الإشارات والإيحاءات التي يمكن أن توحى بها هذه الاستعارة، وفي ذلك يقول المباركفوري: " كأنه من بلى الثوب، وأبله، كأن الشباب في قوته كالثوب الجديد، فلما ولى الشباب، وضعف البدن، فكأنما بلى " (٢) .

ثم ذكر من بعد ذلك ما يناسب هذه الحقبة من الاجتهاد في جمع الثروة لما فيها من القوة والنشاط، وفي تقديم شق الاكتساب على شق الإنفاق مع منطقيته إلا أن فيه ترهيبا من الكسب الحرام، وقال: من أين

(١) تحفة الأحوذى ١٢٥/٧ .

(٢) تحفة الأحوذى ١٢٦/٧ .

اكتسبه؟ ولم يقل: من أين جمعه؟ لما في التعبير بالاكتساب من الاجتهاد والتعب في سبيل تحصيل المال، هذا ولما كان الحرام والحلال لا يتوصل إليهما إلا بالعلم كان مما يسأل عنه بعد ذلك العمل بالعلم، وهذا سر الترتيب .

(وماذا عمل فيما علم) الملحوظ أنه قد عدل عن الأسلوب، وللجواب عن ذلك نقل صاحب التحفة قول القاري: "لعل العدول عن الأسلوب للتفنن في العبارة المؤدية للمطلوب، وقال الطيبي: إنما غير السؤال في الخصلة الخامسة، حيث لم يقل: وعن علمه ماذا عمل به؛ لأنها أهم شئ وأولاه، وفيه إيذان بأن العلم مقدمة العمل، وهو لا يعتد به لولا العمل" (١) وقد جاء السؤال عن العمل بالعلم آخر سؤال تنبيهها على أن العمل بالعلم نجاة من كل سؤال يطرح، وليس في التأخير هنا تقليل للأهمية، وإنما هو ختم للشئ بما هو أهم، وفي ذلك من الترهيب من عدم العمل بالعلم ما فيه، ذاك أن العمل بالعلم مسئول عن إحالة كل ما مضى من الأسئلة إلى خير، ومن هنا كان تناولي للحديث تحت هذا العنوان .

(١) تحفة الأحوذى ١٢٥/٧ .

عن أبي هريرة — رَضِيَ اللهُ عَنْهُ — قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ : —
 ﷺ — اللَّهُمَّ أَنْفَعْنِي بِمَا عَلَّمْتَنِي، وَعَلِّمْنِي مَا يَنْفَعُنِي، وَزِدْنِي عِلْمًا،
 الْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى كُلِّ حَالٍ، وَأَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ حَالِ أَهْلِ النَّارِ" (١)

التصور الجملي للحديث

مقصود الحديث العام: طلب الانتفاع بالعلم بتيسير العمل بمقتضاه، وطلب الزيادة من العلم، وقد خرج الحديث لتحقيق هذا المقصود في عدة جمل الجملة الأولى (اللهم انفعني بما علمتني) وقد عطف عليها جملتين (وعلمي ما ينفعني) و(وزدي علما) الجملة الثانية: (الحمد لله على كل حال) الجملة الثالثة، وذلك على أن الواو استئنافية (وأعوذ بالله من حال أهل النار) .

اصطفاءات الألفاظ

اصطفى — ﷺ — (انفعني) على أفدني، ذاك أن النفع محض في الدلالة على الخير، يقول الراغب: " النفع: ما يستعان به في الوصول إلى الخيرات، وما يتوصل به إلى الخير، فهو خير، فالنفع خير، وضده الضر، قال : — تعالى — (وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا) (الفرقان / ٣)

(١) رواه الترمذي في سننه ، واللفظ له ، كتاب : الدعوات ، باب : في العفو والعافية ، ورواه ابن ماجة في سننه ، المقدمة :

باب : الانتفاع بالعلم والعمل به ، كتاب : الدعاء ، باب : دعاء رسول الله ﷺ

"(١) أما الفائدة فهي ما يترتب على الشيء، ويحصل منه خيرا كان أم غير ذلك، يقول أبو البقاء الكفوي: "الفائدة: هي من الفيد بالياء، لا بالهمزة، وهي لغة ما استفيد من علم أو مال، وعرفا: ما يكون الشيء به أحسن حالاً منه بغيره، واصطلاحاً: ما يترتب على الشيء، ويحصل منه من حيث إنه حاصل منه"(٢) الحمد والشكر متقاربان معنى، فلم اصطفى — ﷺ — الحمد على الشكر؟ والجواب أنه — ﷺ — ذكر ماهو أعم جريا على نسق الحديث في اصطفاء الأعم من الألفاظ (على كل حال) وفي الفرق بينهما يقول ابن الأثير "الحمد والشكر متقاربان، والحمد أعمها؛ لأنك تحمد الإنسان على صفاته الذاتية، وعلى عطائه، ولا تشكره على صفاته، ومنه الحديث (الحمد رأس الشكر ، ما شكر الله عبداً لا يحمده)"(٣) كما أن كلمة الإخلاص رأس الإيمان وإنما كان رأس الشكر؛ لأن فيه إظهار النعمة والإشادة بها؛ ولأنه أعم منه فهو شكر وزيادة"(٤)

واصطفى — ﷺ — أعوذ على أستجير أو سواها مما يقاربها، لأن العوذ أبلغ من الاستجارة، وكأن: المعنى ألصق نفسي بفضل الله ورحمته، يقول الكفوي: "العوذ: الالتجاء والاستجارة، فمعنى أعوذ بالله، أي: ألتجئ إلى رحمته وعصمته، والعوذ: الإلصاق أيضا... وعلى هذا

(١) المفردات في غريب القرآن مادة (ن ف ع) .

(٢) الكليات ٦٩٤ .

(٣) الحديث رواه السيوطي في الجامع الصغير ، حديث رقم (٣٨٣٥) ط ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، دون تاريخ .

(٤) النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير، مادة (ح م د) .

فمعناه: ألصق نفسي بفضل الله ورحمته " (١) كما أن التعبير بـ (أعوذ) مناسب للحديث لأنه دعاء، والعوذ يستخدم في جنب الله غالباً، كما يؤدي إليه النظر في المصحف الشريف، فقد وردت الاستعاذة ست عشرة مرة، ووردت بغير ذلك مرة واحدة في قوله: — تعالى — (وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا) (الجن / ٦) (٢)

أحوال التراكيب

جعل النبي ﷺ — طلب العمل بالعلم، والاستزادة منه، محور حديثه الشريف؛ لذا استولى العلم على عدة جمل، وقد افتتح — ﷺ — حديثه بأسلوب النداء (اللهم) والملاحظ أنه عبر بالاسم العلم، فلم يقل يارب؛ تعظيماً لما بعده، وقد ذكر العلماء أن كلمة اللهم " تستعمل فيما إذا قصدنا استثناء أمر نادر مستبعد، كأنه يستعان بالله في تحصيله، وحذف حرف النداء، وأخر ما عوض عنه من الميم المشددة؛ تبركاً بالابتداء باسمه — سبحانه — وهو الأكثر في الاستعمال من كلمة (يا) الموضوع للبعيد، مع أنه أقرب قرب علم، ألا إنه بكل شيء محيط، وأصل (اللهم) (يا الله) وهو قول أهل البصرة، فتمحض ذكراً، و(يا الله) أمناً بخير) أي: اقصدنا بخير، وهو قول أهل الكوفة، فلم يك تعظيماً

(١) الكليات ٦٥١ .

(٢) البقرة ٦٧ ، آل عمران ٣٦ ، الأعراف ٢٠٠ ، هود ٤٧ ، التحل ٩٨ ، غافر ٥٦، ٢٧ ، مريم ١٨ ، المؤمنون ٩٧، ٩٨ ، فصلت ٣٦ ، الدخان ٢٠ ، الناس ١ ، الفلق ١ .

خالصا" (١) وعلى كل ففي أسلوب النداء تنبيه على أن ما يلقي بعده أمر من الأهمية بمكان فهو "طلب إقبال المخاطب على المتكلم ليصغي إلى أمر ذي بال" (٢) وفي أسلوب النداء هنا ما فيه من إظهار التضرع والخشوع في الطلب .

ثم أعقب أسلوب النداء بأسلوب أمر، وفي تتابع الأساليب الإنشائية إحياء بالحس المفعم بالخشوع، ورفع أكف الضراعة، وتلك أرقى الأحوال، وأرفع المراقي إلى الفلاح، وقد خرج الأمر إلى معنى مجازي هو الدعاء والتضرع، وقد عبر باسم الموصول متعلقا للفعل طمعا في تعميم النفع من كل ما تعلم، فـ (ما) هي أعم الموصولات وأدخلها في الإبهام، ثم أتبع أسلوب الإنشاء بأسلوب من جنسه ترقيا في الخشوع والضراعة (وعلمي ما ينفعني) وفي تكرار ياء المتكلم إحياء بتلief النفس إلى العمل بالعلم، وتعلم ما ينفع؛ لذا لم يقل: انفع بما علمت، وعلم ما ينفع، فتكرار ياء المتكلم يكشف عن شدة حاجة من غفرله ما تقدم من ذنبه وما تأخر، فكيف بحاجة من لم يكن كذلك؟ ! ثم ترقى — ﷺ — فقال: (وزدني علما) وكأنه يؤكد على ما مضى، لأن قوله (وعلمي ما ينفعني) يتضمن طلب الزيادة، فكأنه طلبها تلميحا، وأكد عليها تصريحاً، وقد تكرر لفظ العلم ثلاث مرات على وجه التتابع، مما يدل على أن إحساسه — ﷺ — كان مفعما بطلب العمل بالعلم، والاستزادة منه،

(١) الكليات ١٧٢ .

(٢) المعاني في ضوء أساليب القرآن ١٣٨ ، د/ عبد الفتاح لاشين ، ط دار الفكر العربي ٢٠٠٢ م .

فإن النفس إذا امتلأ إحساسها بشئ لهجت به وكررت، وألحت في طلبه وهو طلب فيه تعميم، لذا نكر (علما) ويأتي طلب المزيد منه — ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ (طه / ١١٤) وقد ذكروا عند الآية أن "هذا دليل على أن التأني في العلم بالتدبر، وبإلقاء السمع أنفع من الاستعجال المتعب للبال المكدر للحال، وأعون على الحفظ، فمن وعى شيئا حق الوعي، حفظه غاية الحفظ" (١) هذا وقد تعاطفت الجمل لما بينها من الاتفاق في الإنشاء لفظا ومعنى .

ثم جاءت جملة بعد ذلك مقطوعة عما قبلها، لأن الأولى إنشائية لفظا ومعنى، والثانية خبرية لفظا ومعنى، وقد عبر بالحمد في جملة اسمية تنبيهها على استمراره على ذلك؛ وأكدته ببناء المسند على معنى الديمومة (على كل حال) وقد عقد السندي هذه الجملة بسابقتها حيث رأى أن المراد بقوله: (على كل حال) "زيادة العلم، وقبل أن يرداد" (٢) وقال الطيبي : وما أحسن موقع الحمد في هذا المقام، ومعنى المزيد فيه (لَكِنَّ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ) (إبراهيم / ٧) وموقع الاستعاذة من الحال المضاف إلى النار تلميحاً إلى القطيعة والبعد، وهذا الدعاء من جوامع الكلم التي لا مطمح وراءها" (٣)

(١) نظم الدرر للبقاعي ٥٠/٥ .

(٢) شرح السندي على سنن ابن ماجه ١٦٣/١ .

(٣) فيض القدير ١٦٦/٢ .

قوله: (وأعوذ بالله من حال أهل النار) الواو استئنافية لتأسيس معنى جديد، حيث إن الجمل الأول بنيت على طلب الجلب، وهذه بنيت على طلب الإبعاد؛ لذا أستحسن أن تكون استئنافية لما في الاستئناف من التأسيس لمعنى جديد، وقد أخرج الإنشاء في صورة الخبر (والتقدير وأعذني من حال أهل النار) والغرض من الأمر على ذلك الدعاء، وإخراج الإنشاء في صورة الخبر فيه ما فيه من التفاؤل بالحصول؛ تعبيرا عما تتمناه النفس من تحقيقه، والنفس إذا رغبت في شيء أخرجته مخرج المحقق .

والواضح من تراكيب الحديث الشريف أن طلب العمل بالعلم هو محور هذا الحديث لذا ربط العلماء جملة الحمد بما قبلها، وبناء الحديث بهذه الطريقة فيه حث على العمل بالعلم، وطلب العلم النافع، وأنسب الأساليب للتعبير عن ذلك الأساليب الإنشائية التي هي السمة الغالبة على تراكيب الحديث بأبلغ بيان وأوجز أسلوب .

عن جابر قال : قال رسولُ الله ﷺ — سَلُوا اللهَ عِلْمًا نَافِعًا، وَتَعَوَّذُوا بِاللَّهِ مِنْ عِلْمٍ لَا يَنْفَعُ " (١)

التصور الجملي للحديث

المقصود من الحديث: طلب العلم النافع، والاستعاذة من العلم غير النافع، وقد خرج الحديث لتحقيق هذا المقصود في جملتين إنشائيتين عطفت إحداهما على الأخرى (سلوا الله...) و(تعوذوا بالله...)

اصطفاءات الألفاظ

اصطفى — ﷺ — (سلوا) على ما يقاربها في أداء المعنى من مثل : اطلبوا، ذاك أن الطلب عام، حيث "يقال فيما تسأله من غيرك، وفيما تطلبه من نفسك، والسؤال لا يقال إلا فيما تطلبه من غيرك" (٢) والثاني هو المناسب لهذا السياق، وقد سبق بيان إثارة اصطفاء النفع على الإفادة، والتعوذ على الاستجارة في الحديث السابق، فلا حاجة إلى إعادته هنا.

(١) رواه ابن ماجه في سننه ، كتاب : الدعاء ، باب : ما تعوذ منه رسول الله ﷺ

(٢) الكليات ٥٨١ .

أحوال التراكيب

كان الحديث السابق تطبيقاً عملياً من النبي ﷺ — لقوله :
 — تعالى — (وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا) (طه / ١١٤) وهذا الحديث
 الشريف تعليم من النبي ﷺ — للأمة كيف تسأل ربها طلب العلم،
 وقد بني الحديث على الأسلوب الإنشائي لأنه الأليق بمقام السؤال،
 والأليق بمقام الطلب، وقد اصطفى — ﷺ — من أساليب الطلب
 أسلوب الأمر، وقد خرج الأمر في الجملتين (سلوا — تعوذوا) من المعنى
 الحقيقي إلى المعنى المجازي، والغرض من ذلك النصح والإرشاد، لكنه لم
 يعبر بما هو صريح في النصح والإرشاد، فلم يقل (أنصحكم أن تسألوا الله
 علماً نافعاً) لأن ما عبر به هو الأبلغ، ذاك أن الأمر فيه إلحاح وإلزام،
 ودفع إلى إنفاذ النصح، وتطبيق الإرشاد، لأن النفس إذا اهتمت بشئ
 ألحت في طلبه، وهو ما يصور حنوه ورفقه — ﷺ — على الأمة،
 ويمكن أن يكون الأمر على حقيقته، لأنه من الأعلى إلى الأدنى، لكن
 إجراءه على المجاز أبلغ لما فيه من تكثير المعنى، وبيان الرفق والحنو، وهو
 الذي يؤيده التعبير بأسلوب المقابلة فإن: (سلوا) يقابل (تعوذوا) على
 وجه خفي، لأن التعوذ طلب للإبعاد والسؤال للإقبال و (علماً نافعاً)
 يقابل (علم لا ينفع) وأسلوب المقابلة فيه حث على الطلب، وذلك لما
 في وضع الضد مقابل ضده من بيان المنافع والمضار، وذاك مما يحمل على
 الالتصاق بالنافع، واجتناب المضار، فإجراء أسلوب الأمر على المجاز هو
 الأنسب للسياق — فيما أرى — وقد جاء المسند إليه في الجملتين ضمير

جماعة لما في المواجهة بالخطاب من الحث على الخير والتأكيد عليه، فكأن كل من قرأ الحديث أو سمعه من الأمة اعتقد أنه هو المقصود بالخطاب، وفي ذلك من التوكيد على النصح ما فيه، ويؤيده وضع المظهر موضع المضمّر في الجملة الثانية (سلوا الله تعوذوا بالله) فقد كان الظاهر أن يقال: وتعوذوا به من علم، لكن العدول عن الظاهر فيه تأكيد على اللجوء إلى الله وحده بهذا المطلب، وهو سر التعبير بالاسم العلم للذات العلية، لذا لم يقل: سلوا ربكم، وكأن هذين المطلبين من الخطر بمكان بحيث لا يلجأ فيهما إلا لمن تفرد بالوحدانية، كما أنه لم يعبر بالأسماء الأخرى من مثل: العليم لما في ذلك من اللبس؛ ذاك أن العليم يطلق على الله — سبحانه — وعلى البشر، أما لفظ الجلالة فلا يطلق على غيره جل جلاله .

والسؤال الذي يطرح نفسه هو: لماذا ذكر الجملة الثانية، مع أن الأولى تتضمنها، فسؤال العلم النافع، يقتضي عدم سؤال العلم غير النافع؟ والجواب أن في ذكر التعوذ من العلم غير النافع تصريحاً، بعد ذكره ضمناً تأكيداً على شدة ضرر العلم غير النافع، وذلك أن النفس إذا أيقن ضررها بشئ ألحت في طلب الإقلاع عنه، وفي ذلك ما فيه من بيان حرصه — ﷺ — على الأمة، ورفقه بها، لأن من الرفق التنبيه إلى مواطن الضرر .

هذا، وقد ذكر العلماء أن العلم يكون نافعا بتيسير العمل بمقتضاه، وقد اتفقوا على أن شرف العلم العمل به (١) وقد فسر بعض العلماء العلم غير النافع بعلم السحر، وغيره من العلوم المضرة في الدين، أو الدنيا، وفسره بعضهم بعلم النسب، وعلق على هذا العلامة المناوي بقوله: وهذا وإن كان محتملا، لكن الأقرب منه أن يراد في الحديث المشروح العلم الذي لا عمل معه، فإنه غير نافع لصاحبه، بل ضار له يهلكه، فإنه حجة عليه" (٢)

وفي الجملة الأولى قال (علما نافعا) والتنكير فيه للتعظيم، وكان مقتضى أن يقول في مقابله: من علم غير نافع، لكن التعبير بالجملة الفعلية (لا ينفع) يكثر من ضرر العلم غير النافع، أي: أن ضرره لا يثبت على حال، ولكنه يجدد ضررا بعد ضرر، والحديث الشريف على قصره فيه إيجاز كثير الفوائد جم المحاسن، وسوق مثل هذه الأحاديث في هذا الثوب الوجيز دافع لسرعة حفظه واسترجاعه عند الحاجة، وهو خير معين للتذكير .

(١) إحياء علوم الدين للغزالي ٢٢/١ .

(٢) فيض القدير ١٣٩/٤ .

الفصل الرابع

بلاغته — ﷺ — في الحديث

عن تزيه العلم عما لا يليق به .

يضم هذا الفصل عشرة أحاديث تتظاهر تراكيبها على الترهيب مما يمكن أن ينطوي عليه القصد من طلب العلم لغير الله — عز و علا — وتتوعد من يفعل ذلك بالحرمان من نعيم الجنة ، واتخاذ مقعد في النار، كما تبين الترهيب من الاستخفاف بالعلم بمجاراة العلماء، وممارة السفهاء، وصرف وجوه الناس إليه، والترهيب من التنطع ، وادعاء علم لاشأن له به، والترهيب من تقرب العلماء إلى السلطان، لأنهم مهما احتاطوا لذلك ؛ حفاظا على دينهم فلن يستطيعوا لذلك سبيلا، كما تبين الترهيب من محالسة العلماء لأهل المعاصي، حتى لا يصيبهم ما أصاب بني إسرائيل، ووجوب أطر العلماء الناس على الحق أطرا، كما تبين هذه الأحاديث الترهيب من تعلم بلاغة القول؛ بغية سبي قلوب الرجال، كما رهبت من المراءاة بالعلم ، كما رهبت من يمتطي صهوة البيان؛ تقعرا ، وجاء ذلك في بيان رائع موجز يحمل على الإقلاع عن ارتكاب مثل هذه الأعمال، كما تحمل أهل العلم على التسامي بالعلم عن هاتيك الأفعال الخسيسة، وتلك المقاصد الدنيئة.

عن أبي هريرة — رضي الله عنه — قال : قال رسول الله —
 ﷺ — مَنْ تَعَلَّمَ عِلْمًا مِمَّا يُتَعَى بِهِ وَجْهُ اللَّهِ — عَزَّ وَجَلَّ — لَا
 يَتَعَلَّمُهُ إِلَّا لِيُصِيبَ بِهِ عَرَضًا مِنَ الدُّنْيَا لَمْ يَجِدْ عَرَفَ الْجَنَّةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ
 " (١)

التصور الجملي للحديث

مقصود الحديث العام : الترهيب من طلب العلم لغير وجهه الله،
 وقد خرج الحديث لتحقيق هذا المقصود في جملة شرطية (من تعلم . .
 . لم يجد. .)

اصطفاءات الألفاظ

اصطفى — ﷺ — (يتعَى) على يطلب؛ ذاك أن الابتغاء طلب
 مخصوص، يقول الراغب: " البغي : طلب تجاوز الاقتصاد فيما يُتَحَرَّى:
 تجاوزه، أو لم يتجاوزه، فتارة يعتبر في القدر الذي هو الكمية، وتارة
 يعتبر في الوصف الذي هو الكيفية، يقال: بَغَيْتَ الشَّيْءَ إِذَا طَلَبْتَ أَكْثَرَ
 مَا يَجِبُ، وَابْتَغَيْتَ كَذَلِكَ، قَالَ: — عَزَّ وَجَلَّ — (لَقَدْ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِنْ
 قَبْلُ) (التوبة/٤٨) وَقَالَ: (يَبْغُونَكُمْ الْفِتْنَةَ) (التوبة / ٤٧) والبغي على

(١) رواه أبو داود في سننه ، كتاب : العلم ، باب : في طلب العلم لغير الله ، ورواه ابن ماجة في المقدمة ، باب : الانفعال
 بالعلم والعمل به .

حزبين: أحدهما محمود، وهو تجاوز العدل إلى الإحسان، والفرض إلى التطوع، والثاني: مذموم، وهو تجاوز الحق إلى الباطل، أو تجاوزه إلى الشبه^(١) وذكر البقاعي "أن الابتغاء: تطلب رضا الله"^(٢) وقد جاء التعبير بـ (وجه الله) بدل رضا الله؛ إشارة إلى علو المتبغى، ونبل المطلب.

واصفى — ﷺ — (عرضاً) بدل: حظاً، أوجاهاً، أو مالاً؛ إشارة إلى حقارة، وتفاهة هذا المطلوب، يقول الراغب: "العَرَض: ما لا يكون له ثبات، ومنه استعار المتكلمون العرض، لما لا ثبات له إلا بالجوهر، كاللون والطعم، وقيل: الدنيا عرض حاضر؛ تنبيهاً أن لا ثبات لها، قال: — تعالى — (تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ) (الأنفال/٦٧)"^(٣) واصطفى — ﷺ — الدنيا بدل الحياة؛ إشارة إلى حقارتها، وبياناً لدنو مطلبها.

أحوال التركيب

بني الحديث الشريف بأسلوب الشرط، والمسند إليه اسم الشرط (من) والمسند: فعل الشرط وجوابه، وفي إيراد الترهيب بأسلوب الشرط تأكيد على تحقق الجزاء ووقوعه إذا ما وقع فعل الشرط، وقد وقع فعل

(١) المفردات مادة (ب غ ي) ٥٥ .

(٢) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور للبقاعي ٤٥٠/٨ .

(٣) المفردات مادة (ع ر ض) ٣٣١ .

الشرط بصيغة (تَفَعَّل) وهذه الصيغة تنبئ بالاجتهاد في دراسة هذا العلم والإحاطة بفروعه ودقائقه، ومنطق العقل قاض بأن من اجتهد في طلب شيء استثمره في الخير، ونزحه عن الخسران، وقد جاء المفعول به منكرا تعظيما لشأن العلم، تساوقا مع الفعل المعبر عن الاجتهاد في طلب العلم والإحاطة بدقائقه، وكل ذلك مما يضاعف من تقبيح شأن من يحيل العظيم إلى فساد .

وقد جاء هذا القيد (مما يتغنى به وجه الله) "صفة كاشفة؛ لأن الكلام في العلم المحمود، وذلك لابتغاء لازم له، وأنه احتراز عن العلوم التي ليست كذلك؛ لعدم وجوبها، كعلم العروض، أو لتحريمها كعلم السحر" ^(١) وهذا القيد فوق أنه صفة كاشفة فيه إشارة إلى الأصل الذي يجب توفره في نية من طلب العلم، ومن المفيد أن أستأنس هنا بما ذكره البقاعي عند قوله: — تعالى — (وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى) (الليل / ١٩، ٢٠) حيث قال: "عبر بالوجه؛ إشارة إلى أن قصده أعلى القصود، فلا نظره إلا إلى ذاته — سبحانه وتعالى — التي عبر عنها بالوجه؛ لأنه أشرف الذات، وبالنظر إليه تحصل الحياة والرغبة والرغبة، لا إلى طلب شيء من دنيا، ولا آخرة" ^(٢) وفي التعبير بالوجه كناية عن طلب رضا الله، والكناية إثبات للمعنى بالدليل؛ وذاك أن الوجه محل ظهور الرضا والسخط، وفي التعبير

(١) دليل الفالحين ١٤٩/٤ .

(٢) نظم الدرر ٤٥٠/٨ .

بالوجه إشارة إلى أنه ينبغي على طالب العلم الشرعي أن يكون قصده بهذا العلم أعلى القصور، وأن هذا العلم هو باب لأعلى القصور، وفي ذلك ما فيه من الترهيب والتقبيح لمن يطلب العلم الذي الفرض فيه أن يكون باباً لأشرف الأغراض فيتركه إلى أحقر الأغراض .

وفي التعبير بالوجه ومثله إشكال عند العلماء، فالعلماء في هذا وشبهه على مذهبين: فريق يؤول ماورد من ذلك ومثله على المجاز، وهو مذهب الخلف، ومذهب السلف قبول ذلك كما ورد، ولكن في إطار قوله : — تعالى — (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ) (الشورى / ١١) كما أن هذا ومثله كان سبباً لاختلاف العلماء في القول بالمجاز فمنهم من يثبت في اللغة والقرآن، ومنهم من يثبت في اللغة، ولا يثبت في القرآن الكريم، ومنهم من ينكر القول به في اللغة والقرآن الكريم، ولكل حجة، والراحج عند جمهور العلماء القول بالمجاز في اللغة والقرآن الكريم، وأن الخلاف عقدي، لا لغوي (١)

ومما يضاعف من الترهيب والتقبيح لمن غير العلم عن مقصده الأعلى، وشرفه الأسمى هذا الإطناب (عز وجل) فهو إطناب طريقه

(١) ينظر في هذه القضية البحر اخطط في أصول الفقه للزركشي ١٥٨/٢ وما بعدها، تحقيق د/ عبد الستار أبو غدة ، ط دار الصحوة ١٣١٣هـ ، الحقيقة وانجاز في القرآن الكريم المرحوم د/ علي العماري ٩٢:٥ ، ط السعادة ١٣٩٤هـ ، التصوير البياني ١٠ وما بعدها د / محمد أبو موسى ، ط وهبة ١٤٠٠هـ ، البيان في ضوء أساليب القرآن ١٣٣ وما بعدها د / عبد الفتاح لاشين ، ط دار المعارف ١٩٩٢م .

الاعتراض، وفائدته الثناء والتعظيم، كما نص البلاغيون (١) فكل إعلاء لشرف المطلوب بالتعلم، تقبيح وتسفيه لمن ينحرف عن هذا الغرض وذلك المقصد .

ثم جاء القيد بالحال في قوله (لا يتعلمه إلا ليصيب به عرضا من الدنيا) وقد بين ابن علان موقع هذا القيد وسره فقال: "قوله: (لا يتعلمه . . .) جملة حالية من الفاعل، أو المفعول لتخصيصه بالوصف، و(إلا) استثناء من أعم العلل، أي: لا يطلبه لغرض من الأغراض إلا (ليصيب به عرضا من الدنيا) أي: من تمتعائها، وإن قل، ومعلوم أن قصد هذا، ولومع قصد الآخرة موجب للإثم، فيحتمل أن التقييد به ليرتب العقاب الآتي عليه، أو لأن الغالب أن من قصد الدنيا، لا يقصد معها الآخرة" (٢) وقد صيغ هذا القيد بأسلوب القصر تأكيدا على أن المقصود بالنهي من تمحض تعلمه لغرض الدنيا؛ لذا عبر بـ (يصيب) دون ينال أو غيرها؛ لما في الإصابة من الاجتهاد في الوصول للهدف وتحديد به بكل دقة، وتعتمد القصد إليه، كما أن التعبير بـ (عرضا) يشير إلى سرعة الزوال، وقلة التمتع، وهو مما يكشف عن سفاهة من يطلب متعة سريعة الزوال بسبيل شريف، ويؤازر ذلك كله التعبير بالدنيا بوصف هو عنوان الحقارة، كما أن التعبير بهذا القيد أشعر بالجزاء، ومهدله، فقد تهيأت النفس إلى أن جزاءه سيكون أحقر جزاء، وأن عقوبته ستكون شر

(١) ينظر: النبيان في علم المعاني والبديع والبيان للطبي ٣٨٣ والإيضاح للخطيب القزويني ٢٠٦ ، علوم البلاغة للمراغي ١٩٦، ١٩٧ ، ط دار الكتب العلمية ١٩٩٣ م .

(٢) دليل الفالحين ١٤٩/٤ .

عقوبة، لما أحال الشريف الذي يطلب به أعلى المقاصد إلى أحقر المقاصد، فقد حقر الشريف، ورخص الثمين .

ثم جاء جواب الشرط بعد كل ذلك مسوقا في ثوب أسلوب الكناية، وفيها ما فيها من المبالغة في المعنى بإقامة الدليل عليه، وقد توفر أسلوب الكناية على التأكيد على حرمان من طلب العلم لغير وجه الله من الجنة، بأبلغ أسلوب حيث أكد أسلوب الكناية على أن مثل هؤلاء بعيدون عن الجنة غاية البعد، وقد نص ابن علان على هذا الأسلوب حيث قال: " وهذا كناية عن مباحثته عنها، فقد جاء عند الطبراني : (وإن عرفها ليجد من مسيرة خمسمائة عام) وعن عدم دخولها ، إما مطلقا إن استحل ذلك ؛ لأن حرمة طلب العلم لذلك مجمع عليها معلومة من الدين بالضرورة ، أو مقيدا بأنه لا يدخلها مع الناجين، أو لا يجد عرفها في الموقف الذي هو المراد بيوم القيامة حقيقة إن لم يستحل ذلك، وعلى الثالث: فيكون في الحديث إيماء إلى أن من صح قصده في طلب العلم الشرعي يمد الله برائحة الجنة يوم القيامة؛ تقوية لقلبه؛ وإزالة لكربه بخلاف من لم يكن كذلك؛ فإنه لمرض قلبه يصير يوم القيامة كذي مرض بدماعه يمنعه من إدراك الروائح " (١)

وقد توفر صاحب عون المعبود على بيان أثر الكناية على المعنى حيث قال: " قوله: (لم يجد عرف الجنة يوم القيامة) مبالغة في تحريمه الجنة؛

(١) دليل الفالحين ١٤٩/٤ .

لأن من لم يجد ربح الشيء، لا يتناوله قطعاً، وهذا محمول على أنه يستحق أن لا يدخل أولاً، ثم أمره الله — تعالى — كأمر أصحاب الذنوب كلهم إذا مات على الإيمان ^(١) ومعلوم أن ذلك لا يكون إلا يوم القيامة، لكنه نص على ذلك ترهيباً لما هو معلوم من أثر ذلك اليوم، والحديث بألفاظه، وتراكيبه يتآزر في سبيل الترهيب من الانحراف عن القصد المرصود لطلب العلم وتعلمه، وترهيبه عن متاع الدنيا القليل، وعرضها الزائل .

(١) عون المعبود ، شرح سنن أبي داود ٩٨/١٠ .

عن عبد الله بن عمر — رضي الله عنهما — عن النبي — ﷺ —
 — قال : مَنْ تَعَلَّمَ عِلْمًا لغيرِ الله ، أو أَرَادَ بِهِ غيرَ الله فليتبوأ مقعده من
 النار " (١)

التصور الجملي للحديث

مقصود الحديث: الترهيب من طلب العلم لغير وجه الله، وقد
 خرج الحديث لتحقيق هذا المقصود في جملة شرطية واحدة .

اصطفاءات الألفاظ

اصطفى — ﷺ — (يتبوأ) على ما يقاربها في أداء المعنى من مثل
 : يتخذ، ذاك أن (يتبوأ) أبلغ من يتخذ في هذا السياق لأن التبوأ اتخاذ
 مع لزوم، وإقامة، قال ابن الأثير: أصل البواء: اللزوم (٢) يقال: "تبوأ
 المكان وبه: نزله وأقام به" (٣) ويؤيده أنه — ﷺ — اصطفى (مقعده)
 على مكانه، وذلك لما في التعبير بالمقعد من التمكن واللزوم .

(١) رواه الترمذي في سننه ، كتاب : العلم ، باب : في من يطلب بعلمه الدنيا ، ورواه ابن ماجة في سننه ، المقدمة ، باب :
 الانقطاع بالعلم والعمل به .

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر مادة (ب و أ) .

(٣) لسان العرب ، والمعجم الوسيط مادة (ب و أ) .

أحوال التركيب

بني الحديث الشريف بأسلوب الشرط وفي هذا تأكيد على الترهيب بوقوع الجزاء فور وقوع الشرط، وقد جاء فعل الشرط بصيغة (تفعل) دلالة على الاجتهاد في طلب العلم ودراسته، والإحاطة بدقائقه وفروعه، وقد جاء المفعول به منكرا دلالة على التعظيم، وفيه إشعار بحقارة من يجد هذا الجهد، ويتعب هذا التعب، ثم يفسده بتغيير قصده، وفساد نيته، وقد قيد الفعل بالجار والمجرور (لغير الله) إشعارا باستحقاق العقوبة، لذا عبر بالاسم العلم (الله) إظهارا للمهابة، وقد عطف قوله (أو أراد به غير الله) إمعانا في بيان استحقاق من يفعل ذلك العقوبة الشديدة، كما أن في تكرار ذلك تشنيعا عليه، وفضحا لنيته، والمراد بتعلم العلم لغير الله: "التنعم بالدنيا والتوصل إلى الجاه والمترلة إلى الحكام" (١) وقد ذكر المباركفوري أن الظاهر أن (أو) للشك، ولا دليل عليه، لكن الترهيب الذي بني عليه الحديث يشعر بأن أو للعطف لا للشك، ويكون السر في تكرارها هو ما مضى بيانه، ولا يحتاج على ذلك بأن العطف يقتضي المغايرة، فأين المغايرة؟ والجواب أن قوله: (من تعلم) يمكن أن يكون مناسبا لمن بدأ تعلمه بهذه النية، ويكون قوله: أراد به غير الله مناسبا لمراحل بذله وأدائه، ويكون ذلك أنسب للترهيب الذي بني عليه الحديث الشريف بحيث يجب أن يخلص طالب العلم والعالم نيتهما لله حال التعلم، وحال التعليم .

(١) فيض القدير للمناوي ١٣٣/٦ .

ثم جاء جواب الشرط مقترنا بالفاء لأنه جملة طلبية (فليتبرأ مقعده من النار) وهذا التركيب مشعر بأن الجزاء من جنس العمل، لأن طالب العلم ومؤديه لا يخلوان من جلوس على مقعد، لكنهما لما أحالا ما يورثه هذا المقعد من العز والخير عند الله، إلى غير مقصده كان جزاؤهما مجلس ذل ومهانة، والأمر هنا ليس على حقيقته وإنما مجاز يراد منه التهديد، ولا تبعد عنه الإهانة؛ لأن أمر المجرم بتعذيب نفسه واصطفاء مكان تعذيبه فيه من الإهانة والإذلال ما فيه، ويؤيده التعبير بالمقعد الذي يوحى بالتهكم، فهل مع العذاب قعود؟ وهل في جهنم جلوس ففي الأسلوب استعارة تكهمية حيث شبه لزوم العذاب وتمكنه منه بلزوم المقعد طلباً للراحة، ثم حذف المشبه لزوم العذاب، وصرح بالمشبه به (المقعد) والقرينة هي ذكر النار، وفي ذلك من الترهيب ما فيه، وما أوقع قول من قال: "مثل من يتعلم العلم لاكتساب الدنيا، والرفعة فيها كمن رفع العذرة بملعقة من الياقوت، فما أشرف الوسيلة، وما أحسن المتوسل إليه" (١) وهو كلام من تدبر تراكيب الحديث وفقهها على وجهها، وقد بني الحديث على الإيجاز، وفي الإيجاز عون على استحضاره كلما هم طالب العلم ومعلمه بإفساد نيته، وفي ذلك من الرفق بالأمة ما فيه، لأن من أعظم الرفق التنبيه إلى مواطن الهلكة، ومواضع الخطر.

(١) فيض القدير ١٣٣/٦.

عَنْ كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ — رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ — قَالَ : — سَمِعْتُ
رَسُولَ اللَّهِ — ﷺ — يَقُولُ : " مَنْ طَلَبَ الْعِلْمَ لِيُجَارِيَ بِهِ الْعُلَمَاءَ أَوْ
لِيُمَارِيَ بِهِ السُّفَهَاءَ ، وَيَصْرِفَ بِهِ وُجُوهَ النَّاسِ إِلَيْهِ أَذْخَلَهُ اللَّهُ النَّارَ " (١)

التصور الجملي للحديث

مقصود الحديث الشريف : الترهيب من طلب العلم لغير وجه الله
— عز وجل — وقد خرج الحديث لتحقيق هذا المقصود في جملة شرطية
واحدة .

اصطفاءات الألفاظ

اصطفى — ﷺ — (طلب) في هذا السياق على اتخذ، حيث لم
يقل من اتخذ العلم سبيلا، لأن التعبير بالطلب دال على القصد والعمد
إلى الغرض الخبيث المنهي عنه شرعا، لكن التعبير باتخذ قد يدل على أن
ذلك الغرض كان بعد طلب العلم وتحصيله، واصطفى — ﷺ —
(يجاري) على يناظر أو ما شاكلها؛ لأن في التعبير بالمجارة معنى المناظرة
وزيادة، لأن المجارة تدل على السبق في المناظرة، وهو المناسب لصرف
وجوه الناس إليه، كأنه يناظر العلماء؛ طلبا للسبق، وشئ آخر هو أن

(١) رواه الترمذي في سننه ، كتاب : العلم ، باب : في من يطلب بعلمه الدنيا ، ورواه ابن ماجة في سننه ، المقدمة ، باب :
الانقطاع بالعلم والعمل به .

المناظرة: "النظر بالبصيرة من الجانبين في النسبة بين الشيئين إظهارا للصواب ... والمناظرة : المباحثة والمباراة في النظر، واستحضار كل ما يراه ببصيرته، والنظر: البحث" (١) وفي التعبير بها في هذا السياق نسبة فضل إلى من طلب العلم بهذا الغرض، وهو ما لا يناسب سياق الترهيب من الاتصاف بهذا الوصف، ويحسن أن نورد كلام العلماء في تفسير (يجاري) تأكيداً لما ذكرته، قال المناوي: "ليجاري به العلماء: أي: يجري معهم في المناظرة والجدال ليظهر علمه في الناس رياء وسمعة . . . قال القاضي: المجارة: المفاخرة من الجري؛ لأن كلا من المتفاحرين يجري مجرى الآخر" (٢) واصطفى — ﷺ — (يماري) على (يجادل) مع تقاربهما؛ لأن ذلك هو الأنسب للسياق؛ ذاك أن المماراة "المحاجة والمجادلة، من المرية، وهو الشك؛ فإن كلا منهما يشك فيما يقول صاحبه أو يشككه بما يورد على حجته، أو من المرئي: وهو مسح الحالب الضرع ليستترل ما به من اللبن؛ فإن كلا من المتناظرين يستخرج ما عند صاحبه" (٣) والتأويل الثاني هو المناسب لسياق ترتيب العلل في الحديث، ولو عبر بيجادل لما لاءم هذا المعنى، ولما ناسب ترتيب المقاصد التي يوحى ترتيبها بأن وراء كل منها ثمرة يرجوها ذلكم القبيح.

واصطفى — ﷺ — لفظ (السفهاء) على لفظ الجهال لما في السفه من خفة العقل وطيشه، والإشعار بسبه، ففي السفاهة معنى الجهل

(١) الكليات ٤٩٨ .

(٢) فيض القدير ٢١٧/٦ .

(٣) فيض القدير ٢١٧/٦ .

وزيادة؛ لأن السفه "خفة في الدين . . . واستعمل لنقصان العقل في الأمور الدنيوية والأخروية" (١) أما الجهل فهو "عدم العلم عما من شأنه أن يكون عالما . . . ويقرب الجهل من الغفلة" (٢) فكأن التعبير بالسفهاء بدل الجهلاء فيه سب لهم وتشنيع عليهم .

أحوال التركيب

بني الحديث الشريف بأسلوب الشرط، والمسند إليه هو اسم الشرط، والمسند هو فعل الشرط وجوابه، وفي إيراد الحديث بأسلوب الشرط تأكيد للترهيب فإن تحقق الجزاء يكون فور تحقق الشرط، وقد عبر في فعل الشرط بـ (طلب) تأكيداً على استحقاق العقوبة الناتجة عن تعمد أخبث الأغراض بأشرف الوسائل .

واللام في المفعول به (العلم) لام العهد؛ لأن المقصود العلم الشرعي، وقد علق جزاء الشرط على عدة أغراض، وعبر فيها بلام التعليل، وقد رتب هذه العلل ترتيباً تصاعدياً بحيث تسلم كل علة إلى أختها، فإنه إذا ما كان على مجازاة العلماء قديراً فهو على ممارسة السفهاء أقدر، فإذا تم له ذلك مع الصنفين كان اتجاه الناس بكليتهم إليه فففي ترتيب العلل إشعار بأنها خطوات كل خطوة تسلم إلى أختها إلى أن

(١) ينظر المفردات مادة (س ف هـ) (٢٣٤، ٢٣٥) .

(٢) ينظر الكليات ٣٥٠ .

ينال غرضه ويحقق هدفه ،وقد عبر بفعلين على صيغة المفاعلة (يجماري — يماري) دلالة على اجتهاده في ذلك؛ لما في المفاعلة من المجاذبة بين الطرفين والتعاند الشديد، وإلا فكان يمكن أن يقال: ليغلب به العلماء، ويهزم به السفهاء، وإنما تنال المشقة فيما هو شريف من المقاصد، لكن أن يعني نفسه بخبيث المقاصد، فذلك أحرى أن يعذب عذاباً أليماً، فكأنه يعني نفسه في سبيل تعذيبها !

كما نلاحظ أن كل فعل جاء مناسباً مفعوله، فقد ذكر في جنب العلماء (يجماري) وذكر في جنب السفهاء (يجماري) ذاك أن الغرض من صنيعه مع العالم الغلبة والسفيه استدرار المنافع؛ لذا عبر بمرى لأنها هي المناسبة لهذا الغرض كما مضى بيانه في اصطفاءات الألفاظ، وفي الفعل استعارة على التأويل الثاني لمعنى الممارسة، فقد شبه ملاينة السفيه ومجادلته استدرا لمال منه أو غير ذلك من منافع الدنيا، بمسح الضرع استترالا لما به من اللبن، وتكون الاستعارة على ذلك تبعية، ويمكن أن تجرى الاستعارة بغير هذا السبيل، كأن نقول شبه السفيه بالدابة التي تحلب، ثم حذف المشبه به ورمزله بشئ من لوازمه على سبيل الاستعارة بالكناية، لكن هذه الاستعارة جرت مجرى الحقيقة لكثرة استخدامها في الجدل، فهي من المجازات التي صارت بمنزلة الحقائق .

ونلاحظ أنه كرر القيد (به) ثلاث مرات في الحديث تشنيعاً عليه في إهانة العلم وهو الشريف، وكان يمكن أن يقال: ليجماري العلماء،

ويماري السفهاء ويصرف وجوه الناس إليه، لكن تكرار القيد فيه تشنيع عليه ما بعده تشنيع، حيث صور العلم مطية له إلى كل ما هو خبيث، وسبيلا إلى كل ما هو خسيس، وقد ضاعف تقديم الجار والمجرور على المفعول به في المواضع الثلاثة من هذا التشنيع، ونلاحظ طباقا بين العلماء والسفهاء يكشف عن قبح طالب العلم بهذا القصد الذي لا يعنيه الجمع بين المتناقضات وصولا إلى تحقيق مأرب دنيوي، ومكسب زائل، فقد صارت كل المتناقضات ميدانا لكسبه، ونزالا لحربه في سبيل الدنيا، وقوله (يصرف به وجوه الناس إليه) وفي التعبير بالصرف إشعار بشدة الجهد والعنت في سبيل ذلك، وفيه تأكيد أنه يريد أن يكون كل التوجه إليه، وكل الإقبال عليه، وإلا فكان يمكن أن يقال: يلفت بدل يصرف، كما أن في التعبير بـيصرف إحياء بأن الوجوه كانت من قبل غير ملتفتة إليه، وغير مهتمة به .

والتعبير بـ (وجوه) مجاز مرسل علاقته الجزئية، ذاك أن المراد به الكل، ولكن لما كان الوجه عنوان الإقبال، ودليل الاهتمام، عبر به عن الكل وفي التعبير بالمجاز المرسل تعبير عن مقصده وغرضه وأطماعه وطموحاته، ويؤيده التعبير بهذا القيد (إليه) فليست غايته صرف وجوه الناس عن غيره، وإنما الغاية صرف الوجوه إليه .

ثم جاء جواب الشرط بيانا لعقوبة كل ذلك (أدخله الله النار) وفعل الشرط مشعر بالجواب، وفي إسناد الفعل إلى لفظ الجلالة إشعار

بالمهابة؛ تخويفا وترهيبا، وفي التعبير بالماضي تحقيق لوقوع الفعل وتأكيده له وفي ذلك من الترهيب ما فيه، وفي عدم النص على نوع العذاب في النار ترهيب؛ ذاك أنه يوحي بأنه سيلقى كل ألوان العذاب في النار، لأنه من الممكن أن يطرح علينا سؤال، وهو أن الجزاء ليس متناسبا مع تعدد القبائح، فكان المتوقع مع ذكر هذه القبائح التهويل من الجزاء، لكن ما عبر به هو الأنسب لأنه ترك الباب مفتوحا بعد دخول النار أمام كل ألوان العذاب، وفي الذكر تحديد ونص على لون العذاب، وهو ما لا يناسب الإعلاء من الترهيب الذي يوحي به فعل الشرط وعلله كما مضى بيانه .

عن عبد الله بن مسعود — رضي الله عنه — عن النبي — ﷺ —
 — قال : " ألا هلك المتنطعون ثلاث مرّات " (١)

التصور الجملي للحديث

مقصود الحديث : الترهيب من التنطع في العلم ، وقد خرج في جملة واحدة (ثلاث مرّات) على نهج التوكيد اللفظي، والذي أدخل الحديث معنا في الدراسة أن التشدد في الكلام والتعمق والمغالاة غالبا ما يصدر عن علماء السوء، فإن كان النهي عن التنطع في الكلام عام لكل الناس فهو على العلماء أشد نهيًا .

اصطفاءات الألفاظ

ذكر العلماء أن معنى المتنطعين: " المتعمقون، المغالون في الكلام المتكلمون بأقصى حلوّقهم، مأخوذ من النّطع، وهو الغار الأعلى في الفم ثم استعمل في كل تعمق قولاً وفعلاً " (٢) يقال : "تنطع في الكلام: تعمق وغالى وتأنق " (٣) وهنا سؤال يرد وهو: لماذا لم يقل : — ﷺ — المغالون بدل المتنطعون؟ والجواب: أن ما عبر به — ﷺ — هو الأولى؛

(١) رواه مسلم في صحيحه ، كتاب العلم ، باب النهي عن اتباع متشابه القرآن والتحذير من متبعيه ، ورواه أبو داود في سننه ، كتاب السنة ، باب : النهي عن الجدال في القرآن .

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر مادة (ن ط ع)

(٣) القاموس المحيطة مادة (ن ط ع)

ذاك أن التنطع مغالاة مع تكبر وتكلف كأنهم " يتكلمون بأقصى حلوقهم تكبرا " (١) " المتنطع : المتعمق في الشيء المتكلف للبحث عنه على مذاهب أهل الكلام الداخليين فيما لا يعينهم الخائضين فيما لا تبلغه عقولهم " (٢) ولو عبر بالمغالاة لما كان لها من التقييح ما للفظ التنطع الذي يوحي بالقبح بمجرد سماعه، والحديث جار على نهج تقييح صورة المتنطع لاسيما إذا كان من العلماء .

أحوال التركيب

افتتح الحديث بأداة الاستفتاح (ألا) وفي الافتتاح بها تنبيهه للسامعين إلى خطر ما بعدها وكونها للتنبيه هو وجه من خمسة أوجه تأتي عليها (٣) وفي الافتتاح بها يقول د/ محمد أبو موسى " نجد كلمات كثيرة في اللغة تمثل في كثير من المواقف قمة الإحساس والحاجة الملحة إلى لفت من يسمع وإيقاظه، مثل كلمة (ألا) و (أما) وغيرها من المقاطع الصوتية المفتوحة التي ترسل الصوت في امتداد متسع . . . وقد رأيتها تكثر في كلام سيدنا أبي بكر — وكان — رحمه الله — رقيق الحس

(١) لسان العرب مادة (ن ط ع)

(٢) معالم السنن للخطابي ٢٧٧/٤ .

(٣) " (ألا) على خمسة أوجه : أن تكون للتنبيه ، فتدل على تحقق ما بعدها ، وتدخل على الجملتين . . . ويقول العربون فيها : حرف استفتاح ، فيبينون مكانها ، ويهملون معناها ، وإفادتها التحقيق من جهة تركيبها من الهمزة و لا . . . وهمزة الاستفهام إذا دخلت على النفي أفادت التحقيق نحو : أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى (القيامة / ٤٠) " مغني اللبيب ٦٨/١ وقد ذهب الأكثرون إلى أنها بسيطة لا تركيب فيها الكلمات ١٦٨ ، وحاشية الصاوي على الجلالين ١٠/١ ط دار الجيل بيروت دون تاريخ .

شاعر القلب كما رأيتها تكثر في كلام رسول الله ﷺ — في مقاطع معنوية خاصة مثل : ألا وشهادة الزور وما شابه ذلك " (١) فالافتتاح بها في هذا المقام مما يؤكد على قبح من اتصف بهذا الوصف، كما يكشف الافتتاح بها عن مدى انفعاله — ﷺ — ببغض وكره المتنطعين .

ويؤيده أنه عبر بالفعل الماضي دلالة على تحقق الوقوع، ويمكن أن يكون الأسلوب من خروج الإنشاء في صورة الخبر، تأكيداً لوقوعه، وتحقيقه وفيه من الترهيب ما فيه، ولعل الأصل: أهلك اللهم المتنطعين، لكن إخراجها في صورة الخبر تأكيد على تحققه ووقوعه كأنه بمثابة ما وقع وأخبر عن وقوعه، وفي إسناد الهلاك إليهم بدل أهلك الله المتنطعين تسجيل لسبب العقوبة عليهم، فكأنهم هلكوا باختيارهم ورغبتهم، ومما ضاعف من هذا التقبيح وذلك الترهيب أنه — ﷺ — كرهه ثلاثاً، والنفس إذا امتلأ بغضها وكرهها لشيء كررته ولهجت به، فكما قالوا " الفائدة في التوكيد التحقيق وإزالة التجوز في الكلام " (٢) فالتوكيد اللفظي كاشف عن شدة البغض والكره للمتنتطعين، وإذا ما كان ذلك من عامة الناس قبيحاً فهو من العلماء أقبح، ففي بناء الحديث بهذه الهيئة من الكشف عن خطر التنطع ما فيه بأوجز عبارة وأبلغ أسلوب .

(١) دلالات التراكيب ٢٦٢ .

(٢) أسرار العربية لأبي البركات عبد الرحمن الأنباري ٢٨٣ تحقيق محمد بركة البيطار، ط، مطبعة الترقى، دمشق ١٣٧٧هـ .

عَنْ عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ — ﷺ — "مَنْ تَطَبَّبَ، وَلَمْ يُعْلَمْ مِنْهُ طَبٌّ قَبْلَ ذَلِكَ، فَهُوَ ضَامِنٌ" (١)

التصور الجملي للحديث

مقصود الحديث : الترهيب من ادعاء العلم بضرب الطبيب الجاهل مثالا لذلك، وفي ذلك تنبيه بالأدنى على الأعلى، فإذا كان من تعاطى علما دنيوياضامنا، فكيف بحال من يكون سببا في ضياع آخرة من يفتيهم بجهل؟ ! وقد خرج الحديث لتحقيق هذا المقصود في جملة شرطية واحدة .

اصطفاءات الألفاظ

ذكر علماء اللغة أن الضامن هو الكفيل، والكفيل: الضامن (٢) ولئن كان المعنى مترادفا، فلم عبر الرسول — ﷺ — بـ (الضامن) ولم يعبر بالكفيل؟ وللجواب نذكر أن "الضمان أعم من الكفالة؛ لأن من الضمان ما لا يكون كفالة، وهو عبارة عن رد مثل الهالك إن كان مثليا، أو قيمته إن كان قيميا، وتقدير ضمان العدوان بالمثل ثابت بالكتاب... وتقديره بالقيمة ثابت بالسنة . . . وكلاهما ثابت بالإجماع المنعقد على

(١) رواه النسائي في سننه ، كتاب : القسامة ، باب : دية جنين المرأة ، ورواه أبو داود في سننه ، كتاب : الديات ، باب : فيمن تطيب ولا يعلم منه طب ، ورواه ابن ماجه في سننه ، كتاب : الطب ، باب : من تطيب ، ولم يعلم منه طب .

(٢) لسان العرب مادة (ض م ن) ومادة (ك ف ل)

وجوب المثل، أو القيمة عند فوات العين " (١) فالمعبر به هو الأبلغ لأنه أعم، وهو ألصق بمقام الترهيب وسياقه .

أحوال التركيب

بني الحديث بأسلوب الشرط، وفي هذا تأكيد على تحقيق الجزاء بتحقيق الشرط، وبني فعل الشرط بصيغة (تفعل) وهي صيغة كاشفة عن التكلف، وتعتمد التعامل (٢) وفي ذلكم يقول المناوي: " ولفظ التفعل: يدل على تكلف الشيء، والدخول بكلفة لكونه ليس من أهله " (٣) ففي مجيء فعل الشرط بهذه الصيغة؛ إشعار باستحقاق الجزاء ونوعه، لأن التكلف في كل شيء ممقوت بغض إلى كل نفس سوية .

وقد شرح العلماء لفظ (تطبب) " يشمل كل من طب بوصفه، أو قوله، وهو ما يخص باسم الطبائي، وبمروده، وهو الكحال، وبمراهمه هو الجرائحي، وبموساه، وهو الخاتن، وبريشته، وهو الفاصد، وبمحاجمه وشرطه، وهو الحمام، وبخلعه ووصله ورباطه، وهو الجبر، وبمكواته وناره، وهو الكواء، وبريشته، وهو الحاقن، فاسم الطبيب يشمل الكل،

(١) الكليات ٥٧٥، ٥٧٦ .

(٢) شذا العرف في فن الصرف للأستاذ أحمد الحملاني ٤٣ ، ط المكتبة العلمية ، بيروت ، دون تاريخ .

(٣) فيض القدير للمناوي ١٣١/٦ .

وتخصيصه ببعض الأنواع عرف حادث^(١) والخلاصة أن المراد من يتظاهر بما هو خاص بالأطباء حسب كل زمان .

وقد وقعت بعد فعل الشرط جملة حالية قيда له (و لم يعلم منه طب) وفي ذكر هذا القيد تأكيد على استحقاق الجزاء، وبيان الاعتبار بشهادات الخلق للخلق، فكما قيل: ألسنة الخلق أقلام الحق، وقد عبر بالمبني للمفعول؛ توفيراً للعناية على الفعل دون نظر إلى الشاهد، وقد وقع نائب الفاعل (طب) منكراً بيانا لانتفاء ذلك منه تماماً، ولو على وجه القلة، وقال (منه) ولم يقل عنه؛ لبيان أن الشهادة تكون لمباشرة منه تحقّقاً، لا سماعاً، ويقال ذلك في كل مدع للعلم، وقد أكد على ضرورة الخبرات السابقة بذكر هذا القيد (قبل ذلك) في التأثير على الضمان، وفيه إشعار بعدم القصاص على من علم منه طب، ولم يتكلفه، قال الخطابي: " لا أعلم خلافاً في المعالج إذا تعدى فتلف المريض كان ضامناً، والمتعاطي علماً أو عملاً، لا يعرفه متعدد، فإذا تولد من فعله التلف ضمن الدية، وسقط عنه القود؛ لأنه لا يستبد بذلك دون إذن المريض، وجناية الطبيب في قول عامة الفقهاء على عاقلته^(٢) .

وقد اقترن جواب الشرط بالفاء لأنه جملة اسمية، وفي مجيئه جملة اسمية تأكيد على وجوب الضمان عليه، وأنه حق ثابت دائم مستمر، وليس قابلاً للتغيير، وفي ذلك من التهيب من الإقدام على مثل هذا ما

(١) فيض القدير للمناوي ١٣١/٦ .

(٢) معالم السنن ٣٥/٤ .

فيه، لاسيما أن المخاطب بذلك هو من يجتهد في طلب الدنيا بالباطل، كما دل على ذلك فعل الشرط، فكان ردعه مناسبا لما فيه من الخسارة الدنيوية المترتبة على فعله الذي يطلب به الدنيا، وقد جاء المسند إليه ضميرا تأكيدا على أن الاستحقاق مبني على فعل الشرط السابق، والحديث مبني على الإيجاز وفيه تناسب بديع بين الشرط والجزاء على النحو الذي ذكرته، وقد ذكرت هذا الحديث ضمن حديثه — ﷺ — عن العلم لأنه حديث عن نوع من العلم وبحثي في بلاغته — ﷺ — في حديثه عن العلم، فذكرته لذلك .

عن ابن عباس — رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا — عَنِ النَّبِيِّ — ﷺ — قَالَ : " إِنْ أَنَسًا مِنْ أُمَّتِي سَيِّفَقَهُونَ فِي الدِّينِ ، وَيَقْرَأُونَ الْقُرْآنَ ، وَيَقُولُونَ نَأْتِي الْأَمْرَاءَ ، فَنُصِيبُ مِنْ دُئْيَاهُمْ ، وَنَعْتَرُلُهُمْ بِدِينِنَا ، وَلَا يَكُونُ ذَلِكَ ، كَمَا لَا يُجْتَنَى مِنَ الْقِتَادِ إِلَّا الشَّوْكُ ، كَذَلِكَ لَا يُجْتَنَى مِنْ قُرْبِهِمْ إِلَّا " قال محمد بن الصباح : كأنه يعني الخطايا " (١)

التصور الجملي للحديث

مقصود الحديث: تنزيه العلم عن طلب الدنيا به، وقد خرج الحديث لتحقيق هذا المقصود في ثلاث جمل، الأولى: (إن أناسا من أمتي سيفقهون في الدين . . .) الثانية : (ولا يكون ذلك) الثالثة: (كما لا يجتنى من القتاد إلا الشوك كذلك لا يجتنى من قربهم إلا)

اصطفاءات الألفاظ

اصطفى — ﷺ — السين على سوف، لأنها في هذا السياق أبلغ، ذاك أن السين تناسب مقصوده — ﷺ — من توكيد الكلام وتقويته فقد ذكروا أن " السين للاستقبال القريب مع التوكيد . . . والسين في الإثبات مقابلة لـ (لن) في النفي، ولهذا قد تتمحض للتوكيد

(١) رواه ابن ماجه في سننه ، المقدمة ، باب : الانفعال بالعلم والعمل به .

من غير قصد إلى معنى الاستقبال " (١) واصطفى — ﷺ — (يكون) على يحدث أو يحصل أو غير ذلك، ذاك أن التعبير بـ (يكون) هو الأكيد في النفي " فإنهم لما أرادوا نفي الأمر بأبلغ الوجوه قالوا: ما كان لك أن تفعل كذا، حتى استعمل فيما هو محال أو قريب منه، فمن الأول قوله: — تعالى — (مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ) (مريم / ٣٤) ومن الثاني قوله : — تعالى — (وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَأً) (النساء / ٩٢) أي : ما صح له وما استقام " (٢) فنفي الكون أبلغ في الدلالة على عدم الحصول من غيره .

أحوال التراكيب

بنيت الجملة الأولى على التوكيد حيث وردت مؤكدة بـ — (إن) واسمية الجملة والسين على النحو الذي بيته، والافتتاح بالتوكيد مناسب للمقام من وجهين أولهما: أنه إخبار بأمر مستقبلي، والإخبار بالأمور المستقبلية يلائمها التوكيد، الوجه الثاني: أن المتحدث عنهم فقهاء قراء للقرآن يتمحلون الأدلة لارتكاب ما يريدون من مطالب الدنيا فهم يصنعون ما يصنعون عن قصد وعمد؛ لذا ناسب الحديث عنهم التوكيد.

(١) الكليات ٤٩٩، ٥٠٠ .

(٢) الكليات ٧٤٨ .

وقد جاء المسند إليه منكرا للتحقير بالنظر إلى سياق الحديث كله المبني على التهيب، ويمكن أن يكون التنكير للتعظيم بالنظر إلى ما وصفوا به من الفقه في الدين وقراءة القرآن، لكن الأول أنسب لسياق التهيب، والذم الذي بني عليه الحديث، وفي ذكر هذا القيد (من أمي) تلويح لهم واستمالتهم للإقلاع عما هم فيه، لما فيه من الدلالة على نسبتهم لأمة أشرف الخلق، ثم أتبع ذكرهم بذكر ما يكونون عليه (سيتفقهون في الدين) ولسياق الحديث ذكر السندي أنهم يدعون الفقه في الدين (١) ويؤيده سياق الحديث، والتعبير عن ذلك بصيغة التكلف (يتفقهون) وإلا فكان يمكن أن يقال : إن أناسا من أمي سيكونون فقهاء في الدين، وفي ذكر المتعلق (في الدين) تخصيص، فالفقه لغة : العلم بالشئ، والفهم له والفطنة (٢) وفي هذا التخصيص ذم لهم وتوبيخ إذ وضعوا ما الشأن فيه الرفعة في أحسن المواضع حين طلبوا به الدنيا، ثم عطف على هذه الجملة جملة أخرى تكشف عن سفههم في اشتراء الدنيا بالدين (ويقرؤون القرآن) مع أن قراءة القرآن من الدين إلا أن في تخصيصه بعد التعميم مزيد ذم لهم وتوبيخ على بيعهم ذاك النفيس بثمن خسيس ! وفي التعبير بالمضارع في الفعلين كشف عن تجدد ذلك وحدوثه منهم، مما يستوجب تجدد ذم بعد ذم، ثم عطف على هاتين الجملتين جملة كشفت عن ذمهم إذ قرنوا هذين النفيسين مع طلب الدنيا (ويقولون: نأتي الأمراء فنصيب من دنياهم، ونعتزلهم بديننا) ويمكن أن

(١) حاشية السندي على ابن ماجه ، ١٦٦/١ .

(٢) لسان العرب مادة (ف ق هـ)

تكون الواو واو الحال أي : يفقهون ويقرؤون قائلين . . . ويكون في ذلك مزيد تشنيع عليهم إذ يكشف هذا عن أنهم يتفقهون، ويقرؤون بهذا القصد وتلك النية فهو القيد الذي يتحركون في ظلاله، وقد كشف التركيب عن قصدهم ذاك بتقديم منفعة الدنيا على منفعة الدين مما يدل على أن مقصودهم الأول بالتفقه والقراءة هو الدنيا، لا الدين، لذا لم يقل: نأتي الأمراء فنعتزلهم بديننا، ونصيب من دنياهم، وفي التعبير بالإصابة دليل على تحرير القصد، وجعله مرمى لإصابتهم، وهدفا لمسعاهم، وفي ذلك من التشنيع عليهم ما فيه .

ولما كان ذلك غير ممكن، وكانوا هم يوقنون بإمكانه أتبع مقالتهم تلك بجمل تؤكد عدم حصول شيء من ذلك ألبتة، وأقيم بقية الحديث على انتفاء حدوث ذلك، وجاء التركيب على سبيل الترقى في انتفاء حصول ذلك فقد ذكر أولا جملة عارية عن التصوير (ولا يكون ذلك) وفي هذا التعبير إيجاز، حيث اكتفى باسم الإشارة عن ذكر المشار إليه (يقولون نأتي الأمراء . . .) وفي ذلك صيانة للأسلوب عن الترهل، وفي التعبير باسم الإشارة الموضوع للبعد في هذا السياق تحقير لما فيه من الدلالة على البعد، وسبق البيان عن سر التعبير بـ (يكون) وأنها أكد في النفي من غيرها، ثم أتبع هذا الأسلوب بأسلوب تشبيه؛ تأكيدا لانتفاء

الحصول؛ تلاؤما مع حال المخاطبين، ومع واقع الحال (كما لا يجتنى من القتاد إلا الشوك كذلك^(١)) لا يجتنى من قريبهم إلا (

وقد جاء أسلوب التشبيه واقعا مما قبله موقع كمال الاتصال فهو منه بمثابة التوكيد المعنوي، والتشبيه هنا تشبيه تمثيل على مذهب كل البلاغيين، فقد شبه — ﷺ — اجتناء العلماء الخطايا والضرر من قرب الأمراء باجتناء الشوك من القتاد بجامع تحقق الضرر وانتفاء النفع مع قصد النفع وتحامي الضرر في كل، يقول السندي: " نه بهذا التمثيل على أن قرب الأمراء لا يفيد سوى المصرة الدينية أصلا، وهذا إما مبني على أن ما قدرله من الدنيا فهو آت لا محالة، سواء أتى أبواب الأمراء أم لا، فحينئذ ما بقي في إتيان أبوابهم فائدة إلا المصرة المحضة، أو على أن النفع الدنيوي الحاصل بصحبته بالنظر إلى الضرر الديني، كلا شيء، فما بقي إلا الضرر"^(٢)

هذا، ومع أن في التشبيه توكيدا على انتفاء حصول النفع، وتحقيق حصول الضرر إلا أن الطرفين جاءا أيضا بأسلوب القصص، وبأقوى أدواته (النفي والاستثناء) (لا يجتنى من القتاد إلا الشوك) (لا يجتنى من قريبهم إلا) وفي ذلك من التأكيد على تحقق الضرر وانتفاء النفع ما فيه،

(١) الكاف تنصدر أدوات التشبيه وتأتي في مقدمتها فهي أكثرها استعمالا وأخفها لفظا لبنائها على حرف واحد وأخصها في إفادة التشبيه واسم الإشارة مشبه به : ينظر : من دقائق التشبيه في محكم التنزيل (الكذوات) ٥٩ / هاشم يوسف الديب ، ط/دار الطباعة الخمدية ١٤١٠هـ .

(٢) حاشية السندي على ابن ماجه، ١/ ١٦٦ .

مع أن الفعل جاء مبنيًا بصيغة (افتعل) والافتعال دال على شدة التكلف وكثرة العمل لتحقيق النفع، والفرار من الضرر، وفي ذلك دلالة على انتفاء الفرار من الضرر وحصول النفع مهما بولغ في الحذر في سبيل تحقيق ذلك .

وقد جاء الحذف هنا على نهج بديع: (لا يجتنى من قربهم إلا) وقد قدر المحذوف بالخطايا، غير أن الحذف أبلغ ففيه جملة إيجاءات، ولطائف إشارات منها أن في الحذف إشارة إلى ظهور الضرر ووضوحه مما لا يحتاج معه إلى نص، حيث يصل إليه المخاطب بنفسه، وفي ذلك تأكيد على حصول الضرر وتحقيقه حتى عند من كان ينكره، كما أن في الحذف إشارة إلى أن قربهم مؤد إلى كل ما يذم، وكل ما يضر، فتقديره تضيق لمتسع، وحجب لما يمكن أن يكون، كما أن في الحذف اتساعا يستوعب كل ما يمكن أن يكون على مر الزمان من مستجدات مضار قرب العلماء من السلاطين .

وعلى الجملة الحديث جاء على نهج الترقى في بيان حصول الضرر وانتفاء النفع تناسبا مع من أخبر عنهم من التفقه في الدين وقراءة القرآن والحذر عند قرب السلاطين بحيث يصيب هؤلاء من دنياهم مع سلامة دينهم، وقد تآزرت التراكيب في الكشف عن تزيه العلم عن طلب الدنيا به، وبيان أن ذلك لا يكون أبدا مهما كان الحذر والاحتياط في

(٣٦١)

بيان موجز بليغ، وتشبيه نادر عجيب في اصطفاء عناصره، وهيئة
تركيبها .

عن عبد الله بن مسعود — رضي الله عنه — قال : قال رسولُ
الله — ﷺ — لَمَّا وَقَعَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ فِي الْمَعَاصِي نَهَتْهُمْ عُلَمَاؤُهُمْ، فَلَمْ
يَنْتَهُوا، فَجَالَسُوهُمْ فِي مَجَالِسِهِمْ ، وَوَاكَلُوهُمْ ، وَشَارَبُوهُمْ، فَضَرَبَ اللهُ
قُلُوبَ بَعْضِهِمْ بِبَعْضٍ، وَلَعَنَهُمْ (عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ
ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ) قَالَ : فَجَلَسَ رَسُولُ اللهِ — ﷺ —
— وَكَانَ مُتَكِنًا ، فَقَالَ : لَأَ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ حَتَّى تَأْطُرُوهُمْ عَلَى
الْحَقِّ أَطْرًا " (١)

التصور الجملي للحديث

مقصود الحديث : ترهيب العلماء من عدم مجانبة أهل المعاصي،
وذم من يفعل ذلك، وقد خرج الحديث لتحقيق هذا المقصود في جمل
عدة، منها ما هو على لسان رسول الله — ﷺ — ومنها ما هو على
لسان الراوي .

فأما التي على لسان الرسول — ﷺ — (لما وقعت بنو إسرائيل
في المعاصي نهتهم علماؤهم فلم ينتهوا فجالسوهم. . . فضرِب . . .

(١) رواه الترمذي في سننه ، واللفظ له ، كتاب تفسير القرآن عن رسول الله ، باب : من سورة المائدة ، ورواه أبو داود في
سننه ، كتاب الملاحم ، باب : الأمر والنهي ، ورواه ابن ماجة في سننه ، كتاب الفتن ، باب : الأمر بالمعروف والنهي عن
المنكر.

ولعنهم. . .) و (لا والذي نفسي بيده . . .) وأما التي على لسان الراوي فهي : (فجلس رسول الله ﷺ — وكان متكئا)

اصطفاءات الألفاظ

اصطفى — ﷺ — (وقعت) على ما يقاربها في أداء المعنى مثل : ارتكبت؛ لأن فيما عبر به — ﷺ — مجاز يثري المعنى كما سيأتي بيانه في أحوال التراكيب، فوق أن هذا اللفظ أبلغ في الترهيب، فقد كثر استخدام القرآن له في العذاب والشدائد، من ذلك قوله : تعالى — (إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ. لَيْسَ لَوْفَعَتِهَا كَاذِبَةٌ) (الواقعة / ٢،١) وقوله: (سَأَلْ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ) (المعارج ٢،١) (١) وليس أشد على الإنسان من الوقوع في المعاصي التي يسأل عنها يوم لا ينفع مال، ولا بنون .

واصطفى — ﷺ — (تأطروهم) على تحملوهم، لما في التعبير بـ (تأطروهم) من الاجتهاد في الحمل على الحق؛ ذاك أن معنى " (تأطروهم على الحق أطرا) أي : تردوهم إليه، وأصل الأطر: العطف والتشي، وفي النهاية: تأطروه على الحق: تعطفوه عليه " (٢)

أحوال التراكيب

(١) المفردات مادة (و ق ع) ٥٣٠

(٢) معالم السنن للخطابي ٣٢٤/٤ ، والنهاية في غريب الحديث والأثر مادة (أ ط ر)

افتتحت الجملة بـ (لما) الشرطية والتي تقتضي جملتين وجدت
 ثانيتهما (نحتهم علماؤهم) عند وجود الأولى (وقعت بنو إسرائيل...) .
 وفي التعبير بقوله (وقعت بنو إسرائيل في المعاصي) أسلوب استعارة
 بالكناية، فقد شبه المعاصي بالحفر، ثم حذف المشبه به ورمزله بشئ من
 لوازمه (وقعت في) وفي التعبير بالاستعارة هنا كشف عن سوء المعاصي،
 وبيان مكان مرتكبها، كما كشفت هذه الاستعارة عن العلو الذي يرقى
 به المؤمن بعمل الصالحات، وفي التعبير بالوقوع ما فيه من الترهيب من
 ارتكاب المعاصي، وهو ما لا ينهض به التعبير بارتكب، والحديث مبني
 على الترهيب، ويلائمه التعبير بمثل هذه الألفاظ والأساليب .

وفي مجيئ المسند إليه معرفا بالإضافة (بنو إسرائيل) توبيخ لهم؛
 حيث ذكرهم باسم نبيهم، ولم يقل : لما وقعت اليهود، ولم يقل: لما وقع
 الإسرائيليون، والمراد ببني إسرائيل : اليهود والنصارى، ويمكن أن يكون
 ذكرهم بالنسبة إلى الأب بيانا إلى عدم انتفاعهم بهذا النسب، فإنه
 لانسب لأحد عند الله دون التقوى، لاسيما في يوم الفصل إذ الأخلاء
 يومئذ بعضهم لبعض عدو على حد ما ذكره البقاعي عند قوله : —
 تعالى — (لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى
 ابْنِ مَرْيَمَ...) (المائدة / ٧٨) (١) وفي التعبير بحرف الوعاء (في) دلالة
 على إحاطتهم بالمعصية ولفهاهم من كل جانب، كما أن في التعبير بـ

(١) نظم الدرر ٥١٨/٢ .

(وقعت) ما فيه من الدلالة على الهوي والسقوط، والسفول، وفي كل ذلك ما فيه من تقبيح مرتكب المعصية، وكل ما يدل على سوء حال مرتكب المعصية وسفول مكانته هو بالضرورة يعود بالذم على كل عالم يلزم هؤلاء ويجالسهم .

وجاء جواب الشرط مترتباً على الشرط، وجاء المسند فعلاً ماضياً لتحقيق الوقوع على غرار فعل الشرط، وجاء المسند إليه معرفاً بالإضافة (علمائهم) تنبيهاً للعلماء إلى ما يجب أن يكونوا عليه من الاجتهاد في الحرص على تحنيب أهليهم وذويهم ويلات المعاصي، واختراق كثير من السبل في حماية بني جلدتهم، لا مخالطتهم مع قيامهم على المعاصي، وصياغة الجملة بأسلوب الشرط تدل على أن النهي وقع على هيئة السرعة، وعطفت جملة على جواب الشرط تدل على إسراعهم في عدم الانتهاء (فلم ينتهوا) ثم جاءت جمل معطوفة بفاء التعقيب؛ دلالة على مسارعة العلماء إلى مخالطتهم (فجالسهم في مجالسهم ، وواكلهم وشاربوهم) وقد صيغ المسند في كل الجمل بصيغة المفاعلة الدالة على المشاركة ؛ وفي ذلك ما فيه من الكشف عن شدة الألفة بين العلماء، وبين بني إسرائيل، كما أن في التعبير بالإضافة في قوله (مجالسهم) كشف عن مدى مسارعة العلماء فهم الذين يذهبون إلى مجالسهم، وفي ذلك من الدلالة على خسة مقاصد هؤلاء العلماء مافيه، وفي ذلك أيضاً من التشنيع عليهم ما فيه ، وفي تعاطف هذه الجمل وتلاحقها تشنيع على هؤلاء العلماء، وإلا فكان يمكن أن يغني عنها (فخالطوهم) وقد اصطفى

هذه الأحوال دون سواها؛ دلالة على قوة مخالطتهم لأن المخالطة في المجلس والمأكل والمشرب من أقوى مظاهر المخالطة، وفي ذلك من التشنيع على علمائهم ما فيه، كما أن فيه إعلانا على استحقاق العقوبة واللعن، كما أن عطف هذه الجمل المثبتة وقعت مقابل جملة منفية تقتضي أن يكون سلوك العلماء على النفي، لا على مواجهة النفي بالإثبات، فكان المقتضى أن يكون سلوكهم: فلم ينتهوا، فانتهوا عن مجالستهم في مجالسهم، ولم يؤاكلوهم، ولم يشاربوهم لكن سلوكهم جاء متناقضا، وفي كل ذلك ما فيه من التشنيع على هؤلاء العلماء وذمهم، وفي كل ذلك إيماء ببناء الجزاء، وهيئة العقوبة.

ثم جاء جزاؤهم بفاء السببية تناسبا مع ما سبق من بيان جرمهم، وفساد صنيعهم (فضرب الله قلوب بعضهم ببعض ولعنهم) وقد ذكر العلماء أن الباء للسببية، والمعنى: "سود الله قلب من لم يعص بشئ من عصي، فصارت قلوب جميعهم قاسية بعيدة عن قبول الحق والخير أو الرحمة بسبب المعاصي ومخالطة بعضهم بعضا" ^(١) ويرى السندي أن الباء للتشبيه، وهذا من خلال تفسيره للكلام، يقول: جعل قلوب الذين تركوا النهي والإنكار مثل قلوب من ارتكبوا المنكر ^(٢) وفي الأسلوب على ذلك استعارة تكشف عن أن الجزاء من جنس العمل، فكما كان اختلاط بعضهم ببعض على الوجه الذي لا يرضي الله، كان كذلك

(١) عون المعبود، شرح سنن أبي داود ٣٢٧/١١.

(٢) حاشية السندي على ابن ماجه، ٣٦٠، ٣٦١.

الجزاء، فضرب الله بعضهم ببعض، من ضرب اللبن بعضه ببعض أي : خلطه (١) مما يكشف عن أنهم في السوء صاروا سواء، وإجراء الاستعارة على ذلك فقد شبه اختلاط قلوبهم بسواد المعصية، على السواء باختلاط اللبن بعضه ببعض بالضرب، وفي هذه الاستعارة ما فيها من تصوير المعنوي في صورة الحسي؛ ترهيباً من التلبس بهذه الصورة، ثم عطف على جملة الاستعارة جملة أخرى؛ تشديداً في العقوبة (ولعنهم) واللعن هو أشد الطرد من رحمة الله .

ثم أتبع — ﷺ — جملة (لعنهم) بأسلوب اقتباس تأكيداً للمعنى السابق (على لسان داود . . .) وفي التعبير بأسلوب الاقتباس زيادة تأكيد على حصول الجزاء، وليس من همي هنا الوقوف عند هذا التركيب إلا من حيث كونه اقتباس لأنه تركيب قرآني، ثم أتبع ذلك بجملة للراوي (فجلس رسول الله — ﷺ — وكان متكئاً) وقد كشفت هذه الجملة عن إنكاره — ﷺ — لذلك الصنيع الذي تجسد تغييراً في حركته ؛ تنبيهاً على خطر الأمر وإنكاره .

ثم جاءت بعد ذلك جملة خاطفة سريعة (لا) وبعد قوله : (لا) جملة محذوفة تذهب النفس في تقديرها كل مذهب، ويمكن أن يقدر بـ : لا يكون هكذا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وفي الحذف إشارة إلى إسقاط ما اعتبره هؤلاء العلماء نهياً عن المنكر عن الاعتبار، كأنه

(١) المفردات (ض رب) ٢٩٥ .

ليس حقيقاً بأن يذكر، ثم أكد — ﷺ — على عدم قبول ذلك منهم، وعدم عده أمراً بالمعروف ونهياً عن المنكر بأسلوب قسم يؤكد ما مضى من نفي كون ما صنعوه أمراً بالمعروف ونهياً عن المنكر (والذي نفسي بيده) والملاحظ أنه لم يقل: لا والله، وإنما جاء بنمط من القسم يدل على تأكيد المقسم عليه "بالتنبية إلى ما في الافتراء على الله من المخاطرة بالنفس، كأنه قال : كيف أجروا أن أقول على الله ما ليس لي بحق، وروحي في يده وهو القادر على أن ينتقم من الكاذب، فهذا منه — ﷺ — إشارة إلى قوله : — تعالى — (وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ) (الحاقة / ٤٤: ٤٧) ^(١) ثم أتبع ذلك بقوله: (حتى تأطروهم على الحق أطراً) وفي هذا التعبير ما فيه من الكشف عن عناد اليهود، وإصرارهم على المعاصي.

وهذا ما رأيت في التعبير — (تأطروهم) والتعبير — (على) والتعبير بالمصدر (أطراً) دلالة على التأكيد لما في قوله: (تأطروهم على الحق) من الإشارة إلى قهرهم على الحق، ولما في الثاني (أطراً) من الدلالة على تأكيد وقوع الفعل، كما أن فيه إشارة لعلماء المسلمين بعدم الملل من إصرار العصاة على معصيتهم، وإنما عليهم أن يبذلوا جهداً غير عادي في نهي العصاة عن المنكر، كما أن في الحديث دلالة على ضرورة مقاطعة القائمين على المعصية وعدم مخالطتهم، مهما كانت صلتهم بهم ،

(١) المختار من كنوز السنة د / محمد عبد الله دراز ١٤٦ ، تقديم د/ بخارى أحمد عيده ، ط دار الأنصار ١٣٩٨ هـ .

وإلا أصابهم ما ذكره — ﷺ — وقد تعاونت الألفاظ والتراكيب في ذم
العلماء المخالطين لأهل المعاصي، في بيان بديع، ولفظ بليغ، وتركيب
موجز .

عن أبي هريرة — رضي الله عنه — قال : قال رسول الله — ﷺ — مَنْ تَعَلَّمَ صَرْفَ الْكَلَامِ لِيَسْبِيَ بِهِ قُلُوبَ الرِّجَالِ ، أَوِ النَّاسِ لَمْ يَقْبَلِ اللَّهُ مِنْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ صَرْفًا وَلَا عَدْلًا " (١)

التصور الجملي للحديث

مقصود الحديث : الترهيب من طلب العلم لغير وجه الله، وقد خرج في جملة شرطية لتحقيق هذا المقصود .

اصطفاء الألفاظ

اصطفى — ﷺ — (صرف) على سواها من مثل: تزيين الكلام، أو تحسين الكلام؛ ذاك أن ما عبر به يشمل كل ذلك، ويدل عليه مع الدلالة على تكلفه، وتحسين الكلام يقبل ما لم يكن متكلفا، وكذلك تزيينه وليس شرطا أن يكون متكلفا دائما يقول ابن الأثير: " أراد بقوله: صرف الكلام: ما يتكلفه الإنسان من الزيادة فيه على قدر الحاجة، وإنما كره ذلك لما يدخله من الرياء والتصنع، ولما يخالطه من الكذب والتزوير " (٢) فما عبر به هو الأنسب للسياق وهو الأوجز، واصطفى — ﷺ —

(١) رواه أبو داود في سننه ، كتاب : الأدب ، باب : التشديق في الكلام .

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر (ص ر ف) .

(يسبي) على ما يقاربها في أداء المعنى؛ ذاك أن فيما عبر به — ﷺ — مجاز يصور اجتهاد من يصنع هذا الصنيع؛ وصولاً إلى غرض دنيوي.

أحوال التركيب

بني الحديث بأسلوب الشرط؛ تناسبا مع حال من يتعلم صرف الكلام، فهو يصنع ذلك بغية أجر، فجاء أسلوب الشرط منبهاله أن صنيعه هذا سترتب عليه جزاء وخيم، وقد وقع فعل الشرط بصيغة التكلف (تفعل) تناسبا مع ما يبذله من الجهد، وقد جاء المفعول به مناسبا للفعل، وقد سبق بيان معنى صرف الكلام، وعلق علي فعل الشرط فعلا آخر؛ كشفا عن غرضه ومقصده، وقد جاء ذلك بأسلوب الاستعارة التصريحية التبعية، فقد شبه الاجتهاد في الحصول على الإعجاب باليسبي، أي: (يطلب الإعجاب — يسبي) فمعروف أن اليسبي يكون في الحروب لنساء العدو، فكأنه في حرب يتغنى فيها الغنيمة، فقد شبه الرسول — ﷺ — من يجتهد بكلامه المحسن المتكلف؛ بغية السيطرة على قلوب الرجال، بالفارس الذي يتمرس على صنوف القتال؛ بغية النصر والغنيمة، ويمكن إجراء الاستعارة على نحو آخر على أنها مكنية، ويكون على ذلك قد شبه ميدان الخطابة والكلام بميدان الحرب، ثم حذف المشبه به (ميدان الحرب) ورمزله بشئ من لوازمه (يسبي) وفي التعبير بالاستعارة إخراج للمعقول في صورة المحسوس، وقد جاء المفعول به (قلوب الرجال أو الناس) كاشفا عن شدة الجهد في الوصول إلى هذا المكان العميق الذي لا يوصل إليه بالهويني، وهو يطوي وراءه كثيرا

من العنت والمشقة وكان من المنطق الصحيح توجيه هذا الجهد إلى غرض شريف، لكن أن يصنع ذلك لعاقبة وخيمة، فغير معقول ولا مقبول، وقد جاء المفعول به مضافاً إلى الرجال، ثم عطف عليه بأو (الناس) وفي ذلك إطناب طريقه التعميم بعد التخصيص، وخصص أولاً؛ إشارة إلى ما يحتاجه الرجال في الغالب من قدرة بيانية فائقة للوصول إلى قلوبهم .

ثم جاء جواب الشرط مصدراً بـ (لم) التي تفيد النفي والجزم والقلب، وجاء جواب الشرط وجزاؤه بالفعل (يقبل) تأكيداً على عدم النفع؛ لذا لم يقل: لم ينفع له صرف ولا عدل، وقد جاء المسند إليه بالاسم العلم (الله) إشعاراً بالمهابة؛ زيادة في الترهيب، وحملًا للإقلاع عن هذا الصنيع، وفي ذكر هذا القيد (منه) تأكيد لرفض أي عمل صادر منه، وفي ذكر هذا القيد (يوم القيامة) زيادة ترهيب، وفي تأخير المفعول به (صرفاً ولا عدلاً) وتقديم هذه القيود عليه، تنبيهاً على كراهيته — سبحانه — لكل ما يمكن أن يظنه الموصوف بذلك نافعا، وفي التعبير بالمفعول به (صرفاً) تنبيه على أن الجزاء من جنس العمل، وقد فسر العلماء الصرف بالتوبة، وقيل النافلة، والعدل بالفريضة، وقيل الفدية لأنها تعادل المفدى (١) وفي التنكير وما يفيد من التعميم تناسب مع الغضب الذي ينتج عنه عدم القبول، ومما ضاعف من الترهيب هنا أنه لم ينص على نوع العذاب، ولكن ترك الباب مفتوحاً على مصراعيه، أكد على

(١) النهاية في غريب الحديث والأثر (ع د ل) .

أنه لاسبيل إلى رد العذاب عنه على الإطلاق، وأن كل ما يقدم لدفع العذاب غير مقبول أبدا، وفي ذلك من الترهيب ما فيه، لما في عدم النص على العذاب من ورود احتمال أي نوع من العذاب، وقد تكون أنواعا متعددة ومتنوعة، فالنفس تذهب في تقدير العذاب كل مذهب، تناسبا مع صنيعه في الذهاب بصنوف الكلام كل مذهب بغية الحصول على نفع دنيوي، فجاء الجزء من جنس العمل، ويمكن أن يكون في التعبير بـ (صرف) تعبير عن السبب بالمسبب، لأن ما يقدم من نفل أو فرض أو غير ذلك إنما يكون سببا لصرف العذاب عنه، ويكون في التعبير بالمجاز المرسل بعلاقة المسببية إيجازا، ومبالغة في الرفض، والخلاصة أن كل ذلك يتجه إلى التأكيد على عدم قبول أي شئ مهما كان على الإطلاق، وقد بني الحديث بأوجز أسلوب، حتى يسهل حفظه وترديده، فترتدع النفس وترعوي .

عن أبي هريرة — رضي الله عنه — قال : سمعتُ رسولَ الله — ﷺ — يقولُ : أَوَّلُ النَّاسِ يُقْضَىٰ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثَلَاثَةٌ : رَجُلٌ اسْتَشْهَدَ فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَفَهُ نِعْمَهُ فَعَرَفَهَا ، قَالَ : فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا ؟ قَالَ : قَاتَلْتُ فِيكَ حَتَّى اسْتَشْهَدْتُ ، قَالَ : كَذَبْتَ ، وَلَكِنَّكَ قَاتَلْتَ لِيقَالَ فُلَانٌ جَرِيٌّ ، فَقَدْ قِيلَ ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ ، فَسُحِبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ ، وَرَجُلٌ تَعَلَّمَ الْعِلْمَ وَعَلَّمَهُ وَقَرَأَ الْقُرْآنَ ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَفَهُ نِعْمَهُ فَعَرَفَهَا ، قَالَ : فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا ؟ قَالَ : تَعَلَّمْتُ الْعِلْمَ وَعَلَّمْتُهُ ، وَقَرَأْتُ فِيكَ الْقُرْآنَ ، قَالَ : كَذَبْتَ ، وَلَكِنَّكَ تَعَلَّمْتَ الْعِلْمَ لِيقَالَ عَالِمٌ وَقَرَأْتَ الْقُرْآنَ لِيقَالَ قَارِئٌ ، فَقَدْ قِيلَ ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ ، وَرَجُلٌ وَسَّعَ اللَّهُ عَلَيْهِ ، وَأَعْطَاهُ مِنْ أَصْنَافِ الْمَالِ كُلِّهِ ، فَأُتِيَ بِهِ ، فَعَرَفَهُ نِعْمَهُ فَعَرَفَهَا ، فَقَالَ : مَا عَمِلْتَ فِيهَا ؟ قَالَ : مَا تَرَكْتُ مِنْ سَبِيلٍ تُحِبُّ { قَالَ أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ : لَمْ أَفْهَمْ تُحِبُّ } كَمَا أَرَدْتُ أَنْ يُنْفَقَ فِيهَا إِلَّا أَنْفَقْتُ فِيهَا لَكَ ، قَالَ : كَذَبْتَ ، وَلَكِنْ لِيُقَالَ إِنَّهُ جَوَادٌ ، فَقَدْ قِيلَ ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ فَأُلْقِيَ فِي النَّارِ" (١)

(١) رواه النسائي في سننه ، كتاب : الجهاد ، باب : من قاتل ليقال فُلَانٌ جَرِيٌّ ، واللفظ له ، ورواه مسلم في صحيحه ، كتاب : الإمارة ، باب : من قاتل للرياء والسمعة استحق النار ، ورواه الترمذي في سننه ، كتاب : الزهد ، باب : ما جاء في الرياء والسمعة .

التصور الجملي للحديث

مقصود الحديث العام : الترهيب من الرياء في الأعمال الصالحة، وتغليظ عقوبة مرتكبه، وقد خرج الحديث لتحقيق هذا المقصود في جملة نحوية واحدة، حوت في داخلها جملاً متعددة، والجملة مكونة من مبتدأ وخبر (أول الناس يقضى لهم يوم القيامة) (مبتدأ) ثلاثة (خبر) ثم أبدل من الخبر بدل بعض من كل (رجل استشهد . . .) ثم عطف على البدل صنفين آخرين (ورجل تعلم العلم . . .) و (رجل وسع الله عليه . . .) وقد بني كل تابع من هذه التوابع على عدة جمل داخلية تصف كل صنف، ومخاطبته، فالتركيب النحوي يشبه شجرة متشابكة.

اصطفاءات الألفاظ

اصطفى — ﷺ — (يوم القيامة) مع أن الظاهر والألصق بالمناسبة التعبير بـ (يوم الحساب) لكن التعبير بيوم القيامة هو الأعم والأشمل، وفي ذلك زيادة في الترهيب فيوم القيامة هو الاسم العلم لكل أفزاع الآخرة من حشر ونشر وصراط وميزان وحساب . . . الخ، وعبر بالرجل — مع أن هذه الأعمال تقوم بها المرأة — على جهة التغليب، ولا يمتنع دخول المرأة ضمناً، واصطفى — ﷺ — (سحب) على جر، لأنها أبلغ في الإهانة، لذلك عبر بها في قوله — تعالى — (يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ) (القمر / ٤٨) وهو

الملائم للتعبير بـ (أتى) الذي يدل على سهولة إحضارهم لمهانتهم وضعفهم في هذا اليوم، لذا لم يقل: فجئى به قال الراغب: "والجئى كالإتيان، لكن الجئى أعم لأن الإتيان مجئى بسهولة" (١)

أحوال التركيب

ورد حديثه — ﷺ — عن العلم في سياق حديثه عن التحذير من الرياء والترهيب منه، والمناسبة الجامعة للتحذير من الرياء بالعلم مع التحذير من الرياء بالشهادة، والتحذير من الرياء بالنفقة، هي الجمع بين بذل النفس، وما تتعلق به النفس، وقد بدأ بالتحذير من الرياء في أعلاها، وهو بذل النفس، ثم ثنى بأشرفها، وهو بذل العلم، ثم ختم بأحبها إلى النفس، وهو إنفاق المال، والذي يعيننا هنا هو تحليل ما ورد في الحديث عن العلم .

وقع الحديث عن التحذير من الرياء في العلم معطوفا على ما وقع بدل بعض من كل (رجل استشهد . . .) الذي وقع بدلا من الخبر (ثلاثة) وفي هذا ترهيب وتخويف لأن المرائي بالعلم وقراءة القرآن من أول من يحاسب يوم القيامة ، وفي الأولية في العقاب ما فيها من الخوف والرعب، وقال : رجل تعلم العلم . . . ولم يقل: عالم، مع أنه أوجز؛ لأن فيما عبر به إيماء إلى انتفاء صفة العلم عنه بسبب الرياء، ولو قال:

(١) المفردات ١٠٣ (جاء) .

عالم تعلم العلم لما أوماً بهذا الإيماء، ففي التعبير بـ (رجل) ترهيب يناسب ما بني عليه الحديث الشريف، ووصف هذا الرجل بما يكشف عن تعب وعناءه في سبيل تحصيل العلم حيث وصفه بما يكشف تلقي العلم (تعلم) وفي صيغة التفعّل ما فيها من الكشف عن شدة الجهد في تلقي العلم؛ لذا لم يقل: رجل علم وعلم، ووصفه بالشق الثاني من حق العلم، وهو أداؤه وبذله (وعلمه) وهذا يعني أنه بذل كل ما عنده، بقرينة الضمير؛ لذا لم يقل: تعلم وعلم، وإنما ذكر المفعول به اسماً ظاهراً في تلقي العلم، وضميراً في أدائه وفيه من المشقة ما فيه تلقياً وأداءً، مما يكشف عن استحقاقه العذاب الأليم حيث يضيع كل هذا الجهد، وتلك المشقة لقاء ثمن قليل من متاع الدنيا يحصله بالرياء، ففي ذلك تحسير للمرائي بالعلم، وترهيب له، ويؤيده أنه وصفه أيضاً بقوله: (وقرأ القرآن) وفي هذا مزيد تحسير للمرائي بالعلم والقرآن، لما في ذلك من الدلالة على أنه كان بإمكانه تحصيل أعظم الثواب، ونيل أعظم الدرجات، ثم عطف على وصفه بهذه الأوصاف الحديث عن حسابه (فأتى به) وسبق الكشف عن سر اصطفاء (أتى) على (جيئ) وقد جاء العطف بالفاء؛ زيادة ترهيب لما في ذلك من الدلالة على قصر الزمن بين الجرم والجزاء، وهذا مما يرهب المرائي الذي يراني ركونا إلى الحياة الدنيا ظاناً طول بقائه فيها، ثم عطف على ذلك بالفاء محاسبته (فعرفه نعمه) وقد ذكر الضمير هنا بلا مرجع ترهيباً، وإشارة إلى تعين السائل، وأن تعينه لا يلتبس في هذا اليوم، لذا كانت استجابته سريعة (فعرّفها) فتتابع الفاءات هنا يكشف عن شدة الغضب الذي يكشفه طي الزمن؛ تعجيلاً بعقابه .

ثم جاءت جملة مترتبة على إقراره ذلك، مقترنة بالفاء (فما عملت فيها) وأرى أنها الفاء الفصيحة عن شرط مقدر، والتقدير: إن عرفتها فما عملت فيها، وفي حذف فعل الشرط إيحاء بأن إقراره بها لا يحتاج نصاً عليه في الأسلوب، وجاء جواب الشرط بالاستفهام التقريري، تأكيداً للعدالة الإلهية، باستحقاق العقوبة، وعبر بحرف الجر (في) في قوله: (فيها) ولم يعبر بالباء، لما في الظرفية من الإشارة إلى إحاطة نعمة الله به، وبيان فضله عليه، وليس في الباء شيء من ذلك، وجاء جوابه: (تعلمت العلم وعلمته، وقرأت فيك القرآن) فجاء الجواب سريعاً، مسارعة بإعلان كذبه في يوم لا يجوز فيه الكذب إلا من فاجر لا يرعوي، وفي ذلك تسجيل لكذبه، وتأكيد على استحقاقه العقوبة، بل أشدها، وأهونها وأذلها؛ لأن في كذبه بحضرة خالقه استهانة ما بعدها استهانة، وكل ذلك مما يشعر بالعقوبة ونوعها، وهيئتها، ومن فجوره واستهانتته أنه يؤكد بقرينة حرف الجر (فيك) على إخلاصه في قراءة القرآن وبذل العلم لله.

ويؤيد ذلك أنه لم يكتف بقوله — سبحانه — له : كذبت، وإنما عطف على هذه الجملة جملة أكدت على كذبه (ولكنك تعلمت العلم ليقال عالم، وقرأت القرآن ليقال قارئ) وهو توبيخ ما بعده توبيخ، وفضح ما بعده فضح وهذه الجملة مع ما سبق من وصفه، وسؤاله كرر محتواها ثلاث مرات في مساحة قصيرة من الكلام، وفي تكرار هذه الأوصاف إشاعة لفضيحة المرائي بالعلم، وقد جاءت فضيحته مقرونة بالهدف الذي سعى إليه، فجاء باللام ربطاً للمسبب بسببه الحقيقي،

وغرضه وهدفه الذي دفعه لبذل كل هذا الجهد الذي كشفه التركيب،
 (ليقال : عالم . . . ليقال : قارئ) تأمل قوله: ليقال، أي: كل الجهد
 ضيعه طلبا لقول، انظر إلى شرف الجهد وخسة الغرض وتفاهته، وما في
 ذلك من الكشف عن سفاهته ، الذي يستحق بها أذل عقوبة، وكان
 ذلك سيفوت لو قيل: كذبت إنما تعلمت لتلقب بالعالم . . . ثم عطف
 على ذلك جملة بالفاء، إشارة إلى تحصيل بغيته، وتحصيل الأجر الذي
 وضعه وسعى إليه (فقد قيل) ولا يترتب حصول العقوبة على تحقق
 القول، وإنما على عقد النية على الرياء؛ لذا قال السندي: " هذا مبني على
 أن العادة حصول هذا القول وإلا فحبوط العمل لا يتوقف على هذا
 القول، بل يكفي فيه أنه نوى الرياء والله — تعالى — أعلم " (١) وقد
 جاء التعبير بالمبني للمفعول تحقيرا للمقول، ثم عطف على هذه الجملة
 جملة أخيرة، لكن العطف جاء بـ (ثم) وفي ذلك دلالة على تراخي
 الزمن، وذلك ألصق بمقام الترهيب، فإن الزمن الذي أوحى به (ثم) هنا
 بعد تسجيل كذبه يجعله يذهب في تصور كل ألوان العذاب كل
 مذهب، وتوقع الهول أشد من الهول .

أما جملة (فسحب على وجهه حتى ألقي في النار) فقد عطفـت
 بالفاء لما في سرعة السحب من المهانة والمذلة للمرائي بالعلم، وقد كرر
 هذا الجزاء مع الأصناف الثلاثة، لأنهم في النية سواء فقد عقدوا جميعا
 النية على المراءاة بما يعملون، وكان يمكن أن يذكر هذا الجزاء مرة

(١) حاشية السندي على سنن النسائي ٢٥/٦ .

واحدة، لكن في تكراره مع كل صنف تأكيد للترهيب من الرياء، وهو ما بني عليه الحديث الشريف .

وفي التعبير بـ (سحب على وجهه) تأكيد على شدة مهاتته، والمبالغة في إذلاله تناسبا مع ما سبق من أوصافه، وفي ذكر حتى الغائية (حتى ألقى في النار) إيجاء بطول زمن الإهانة، وهو المناسب لسياق الترهيب ، وفي التعبير بألقي بدل أدخل إشعار بشدة الإهانة والمذلة، وسخط المكلفين بإدخاله النار عليه، وفي التعبير بحرف الجر (في) تأكيد للترهيب فإن النار تحيط به من كل جانب، وقد تآزرت الألفاظ وهيئة بنائها في الترهيب من المراعاة بالعلم، بما يحمل كل من ينوي ذلك على الإقلاع فور سماع الحديث الشريف .

عن عبد الله بن عمرو بن العاص — رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا — قَالَ :
 قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ — إِنَّ اللَّهَ — عَزَّ وَجَلَّ — يُبْغِضُ الْبَلِغَ مِنَ
 الرِّجَالِ الَّذِي يَتَخَلَّلُ بِلِسَانِهِ تَخَلَّلَ الْبَاقِرَةَ بِلِسَانِهَا " (١)

التصور الجملي للحديث

مقصود الحديث : الترهيب من التشدق في الكلام، وقد خرج
 الحديث لتحقيق هذا المقصود في جملة نحوية رئيسية مكونة من إن واسمها
 وخبرها، وجملة أخرى فرعية (الذي يتخلل بلسانه . . .) وقعت صفة
 للمفعول به في جملة خبر (إن) .

اصطفاءات الألفاظ

اصطفى — ﷺ — (يبغض) على يكره، أو ما يقاربها، لأنه أشد
 من الكره، وأقل من المقت، كما تدل على ذلك كتب اللغة، قال
 الكفوي : " البغض عبارة عن نفرة الطبع عن المؤلم المتعب، فإذا قوي
 يسمى مقتاً " (٢) كما أن الكره بالفتح " هو المشقة التي تنال الإنسان من
 خارج مما يحمل عليه بإكراه . . . وبالضم : ما يناله من ذاته، وهو
 الكراهة، (وكره إليكم الكفر) فلتضمين معنى البغض " (٣) واصطفى —

(١) رواه أبو داود في سننه ، كتاب : الأدب ، باب : ما جاء في التشدق في الكلام .

(٢) الكليات ٣٩٨ .

(٣) الكليات ٧٦٩، ٧٦٨ .

ﷺ — البليغ على الفصيح، لأن البليغ أشمل من الفصيح إذ يدل على الثاني وزيادة، ويكشف عن الغرض من البلاغة، وهو بلوغ ما يهدف إليه، وهو يدل ضمنا على الفصاحة، مع دلالاته على الغرض من الفصاحة، ولو قال الفصيح لما دل هذه الدلالة .

أحوال التركيب

أورد — ﷺ — الحديث عن التحذير من التشديق في الكلام مؤكداً، بـ (إن) واسمية الجملة، وقد وقع المسند إليه بالاسم العلم؛ إشعاراً للمهابة، وهو المناسب لما يهدف إليه — ﷺ — من الترهيب من التشديق في الكلام، والحمل على الإقلاع عن هذه الصفة القبيحة، وقد جاء المسند جملة فيها كثير من اللطائف، فقد جاء المسند مجازاً مرسلاً علاقته السببية، فقد عبر عن المسبب بالسبب، فإن البغض سبب في شدة العذاب، يقول المناوي " بغض الله إرادته عقاب من أبغضه، وإيقاع الهوان به" ^(١) وفي التعبير بالمجاز المرسل ترهيب، حيث لم ينص على العقاب، مما يجعل النفس تذهب فيه كل مذهب، وقد وقع بالمضارع دلالة على التجدد والحدوث، وفي هذا ترهيب لما في تجدد البغض من تجدد ما يترتب عليه من العقاب، ووقع المفعول به (البليغ) ولا يعني هذا بغض الله للبلاغة والبيان فهو المنعم بالبلاغة والبيان على عباده، ولكن

(١) فيض القدير ٢/ ٣٥٤ .

المقصود بالبغض " ما كان على جهة الإعجاب والتعظيم " (١) لذا قالوا : " البليغ : أي : المظهر للتفصح؛ تيها على الغير، وتفاصيلها، واستعلاء ووسيلة إلى الاقتدار على تصغير عظيم، أو تعظيم حقير، أو بقصد تعجيز غيره، أو تزيين الباطل في صورة الحق أو عكسه أو إجلال الحكام له ووجاهته، وقبول شفاعته " (٢) وهو تفسير لمعنى البليغ بما يلائم سياق الحديث، وإلا فهو يرد في مقامات أخرى كثيرة دالا على المدح، والمفعول به هو محور هذا الحديث، فإن التحذير دائر عليه، وفي ذكر هذا القيد (من الرجال) لا يدل على أن من كانت صفته كذلك من النساء غير مقبح ؛ ذاك أن ذكر هذا القيد قائم على التغليب، مطابقة للواقع لكثرة من كذلك من الرجال دون النساء، فذكر النساء ضمني، ثم أتبع المفعول به بصورة تشبيهية نادرة، وهو تشبيه مؤكد (بليغ) والمشبه : تحلل البليغ بلسانه، والمشبه به : تحلل البقرة بلسانها، وفي المشبه استعارة أيضا في (يتحلل) حيث شبه بحت اللسان عن الكلمات، بالتحلل داخل الأشجار والحشائش بحثا عما يشبع النفس، وصورة المشبه به يمكن فهمها على وجهين، وذلك من مرونة الصورة وثرائها، فيمكن أن نقول: إن المقصود بالتقبيح (البليغ) على وجه الإعجاب يدير لسانه حول أسنانه وفمه حال التكلم، كالبقرة حال أكلها، قال المناوي : " ووجه الشبه : إدارة لسانه حول أسنانه وفمه حال التكلم ، كما تفعل البقرة بلسانها حال الأكل " (٣) وفي ذلك من تقبيح صورته ما

(١) فيض القدير ٣٥٤/٢ .

(٢) فيض القدير ٣٥٤، ٣٥٣/٢ .

(٣) فيض القدير ٣٥٤/٢ .

فيه، ويمكن أن نقول : شبه البليغ الذي يقصد ببلاغته تحصيل مال أو مكسب دون تمييز لحلاله وحرامه، بالبقرة التي لا تستطيع أن تميز في رعيها بين الرطب والشوك، والحلو والمر، بل تلف الكل بلسانها لفاء، فكذا هؤلاء لا يميزون في مأكلمهم بين الرطب الحلال والحرام" (١) ويؤيده أنه قد " ورد في رواية أخرى (يتجمل) بالجيم فيكون تشبيهه في تكلمه بالهجر وفحش الكلام" (٢) وقد خص البقرة من بين سائر البهائم لضرب المثل بها " قيل : لأن سائر البهائم تأخذ النبات بأسنانها والبقرة لا تحتش إلا بلسانها" (٣) والصورة التشبيهية تفيض بالتقبيح والتبشيع لمن اتخذ نعمة الله عليه بالبيان وسيلة إلى أحسن المقاصد، ونيل أغراض الدنيا، وفي التعبير بالمضارع في المشبه استحضر للصورة الحاصلة لذلك القبيح، ونحن نرى بالتشبيه صورة البليغ، وقد أخرج لسانه، وصار كالبهيمة، وقد أخرج هذا التشبيه المعنوي في صورة الحسي، تأكيداً للتقبيح، وتنفيراً من الاتصاف بهذه الصفة، والصورة لوحة فنية رائعة لبشاعة المنظر ، وقبح البليغ على جهة الإعجاب ، وفي ذلك تحذير للعالم — لأن البلاغة من مقوماته — من أن يكون على هذه الصورة القبيحة .

(١) فيض القدير ٣٥٤/٢.

(٢) فيض القدير ٣٥٤/٢.

(٣) فيض القدير ٣٥٤/٢.

الفصل الخامس

بلاغته — ﷺ — في الحديث

عن قبض العلم

حذر — ﷺ — من قبض العلم، في أحاديث متعددة، بأساليب متنوعة، وكأن العلم هو أمان الله — سبحانه — في هذه الأرض، وقد عقد — ﷺ — بين قبض العلم، وظهور الجهل والفساد، كما كشف — ﷺ — عن طريقة قبض العلم، وكيفية انتزاعه، والغاية التي يصل إليها قبض العلم، كما بين أن الطريقة المثلى للحفاظ على بقاء العلم الذي بقاءه بقاء لأمن أهل الأرض من العذاب هي العمل به وتمثله سلوكا، وقد استخدم أساليب من البيان والمعاني للكشف عن مقصده ومراده.

عن أنس بن مالك — رضي الله عنه — قال : قال رسول الله ﷺ — إِنَّ مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ أَنْ يُرْفَعَ الْعِلْمُ ، وَيُثْبِتَ الْجَهْلُ ، وَيُشْرَبَ الْخَمْرُ ، وَيُظْهَرَ الزَّنا " (١)

التصور الجملي للحديث :

خرج الحديث الشريف في جملة واحدة (إن من أشراط الساعة أن يرفع العلم) وعطف عليها قوله: (ويثبت الجهل ويشرب الخمر ويظهر الزنا) والمقصود العام من الحديث الشريف بيان بعض أشراط الساعة، والتي من أهمها رفع العلم .

اصطفاءات الألفاظ :

اصطفى — ﷺ — لفظ (أشراط) على لفظ (علامات) لما في معنى الشرط من التأكيد على حدوث ما يترتب عليه، وهو ما ليس موجودا في لفظ (علامات) و إن كان اللفظ الآخر يدل على وقوع ما جاء

(١) رواه البخاري في صحيحه ، كتاب : العلم ، باب : رفع العلم وظهور الجهل ، و اللفظ له ، ورواه مسلم في صحيحه ، كتاب : العلم ، باب : رفع العلم وظهور الجهل ، وكتاب : الإيمان ، باب : الزمان الذي لا يقبل فيه الإيمان ، وكتاب : الزكاة ، باب : الترغيب في الصدقة ، وكتاب : الفتن ، باب : إذا تواجه المسلمان بسيفيهما ، كتاب : النكاح ، باب : يقل الرجال ، ويكثر النساء ، وكتاب : الأشربة ، باب : باب قول الله — تعالى — (إنما الخمر والميسر) كتاب : الحدود ، باب : إثم الزنا ، ورواه الترمذي في سننه ، كتاب : الفتن ، باب : ما جاء في أشراط الساعة ، ورواه ابن ماجة في سننه ، كتاب : الفتن ، باب : ما جاء في أشراط الساعة ، ورواه أبو داود في سننه ، كتاب : الفتن والملاحم ، باب : ذكر الفتن ودلائلها .

علامة عليه، لكن قوة الارتباط بين علامة الشئ والشئ، ليست كقوة الارتباط بين الشئ وشرطه.

اصطفى — ﴿٣٨٨﴾ — لفظ (يرفع) على يحى في مقابل (يثبت) وغيره لما في الرفع من بيان لمكان ومكانة العلم والعلماء، حيث إن مادة (رفع) تدور حول عدة معان منها: رفع الذكر، ومنه قوله : تعالى — (وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ) (الشرح / ٤) وقوله: (رَفَعُ الدَّرَجَاتِ مَنْ نَشَأُ) (يوسف/ ٧٦) وقوله : (رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ) (غافر / ١٥) كما أن الرفع والخفض عند العرب مستعملان في المكان و المكانة، والعز والإهانة، ورفع الأجسام الموضوعة: إعلائها، و رفع البناء : تطويله، ورفع المترلة : تشريفها (١)

اصطفى — ﴿٣٨٩﴾ — (يثبت) دون سواها من مثل يخفض في مقابل يرفع، وذلك أن (يثبت) هنا من الثبات، وهو ضد الزوال (٢) — فيما أرى — و السياق يؤيد هذا، فالجهل موجود كائن في كل عصر، وحتى يكون علامة من علامات قيام الساعة، لا بد أن يتصف بصفة زائدة على المعهود، يؤيد هذا رواية الإمام مسلم للحديث (و يظهر الجهل) والظهور شيوع وانتشار و تمكن، وقد ذهب العيني إلى أن (يثبت) من

(١) ينظر المفردات مادة (ر ف ع) ٢٠٠ ، والكليات للكفوي ٤٧٧ .

(٢) ينظر المفردات (ث ب ت) ٧٨ .

الثبوت الذي ضده النفي (١) وذهب الكفوي : إلى أن التحقق والوجود والحصول والثبوت والكون كلها ألفاظ مترادفة (٢)

اصطفى — — (يظهر) على غيره من الألفاظ، لأن من معانيه : الإعلان، يقال : ظهر بفلان : أعلن به، وظهر الشيء : أصله : أن يحصل شيء على الأرض، فلا يخفى، وبطن : إذا حصل في بطنان الأرض فيخفى، ثم صار مستعملا في كل بارز مبصر بالبصر والبصيرة (٣) ورواية البخاري هنا (ويظهر الزنا) ورواية مسلم (ويفشو الزنا) والروايتان تتفقان، ولكن تنفرد رواية البخاري بلطفية لا تؤذيها رواية مسلم، وهي فشو الزنا وانتشاره، ووصول الزاني إلى مرتبة المتبحح الذي يحارب ربه علانية، و المجاهرة بهذه المعصية من أدل ما يكون على ذهاب الدين، و استثناء عدم الحياء .

أحوال التركيب :

جاءت الجملة الأساسية في الحديث الشريف مؤكدة — (إن) واسمية الجملة، وقدم فيها المسند على المسند إليه، والتوكيد مناسب للموضوع، وهو الإخبار بأمور غيبية، وفي تأخير المسند إليه تشويق وإثارة، وذلك كله مما يجعله بعد سماعه متمكنا في النفس خير تمكن، وأمر

(١) عمدة القاري ٨٢/٢ .

(٢) الكليات ٢٩٦ .

(٣) المفردات (ظ ه ر) ٣١٨ ، الكليات ٥٩٢ .

بهذا الخطر، يكون كل ما يعين على تمكينه في النفس هو الألتصق به، كما أن في إيراد الحديث بهذا الأسلوب تناسبا مع كثرة التساؤلات، التي أورد القرآن الكريم طرفا منها من مثل قوله : — تعالى — (يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ) (الأحزاب / ٦٣) وقال: (يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَفَّتِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمُ إِلَّا بَغْثَةٌ يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ خَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ) (الأعراف / ١٨٧) وغير ذلك كثير.

وقد جاء المسند إليه بـ (أن) المصدرية، و في ذلك إطالة وتشويق لذكر الخبر وهو مما يزيده تمكنا في النفس، وقد جاء الفعل (يرفع) مبنيًا للمفعول، تنبيها على سرعة الاستلاب، و توفيرًا للعناية على الفعل، ودلالة على التجدد و الحدوث، والملاحظ أن العلم جاء مسندا إليه، والمعروف أن العلم شئ معنوي لا يقع عليه رفع، وإنما المراد رفع العلماء، وفي هذا الإسناد المجازي مبالغة كاشفة عن ذهاب العلماء بالكلية، حتى لا يبقى منهم واحد، وهذا هو الذي جعل العلماء يفسرون رفع العلم "بموت حملته، و قبض العلماء، وليس المراد محوه من صدور الحفاظ، وقلوب العلماء، والدليل عليه ما رواه البخاري في صحيحه عن كيفية قبض العلم (إن الله — عز وجل — لا يقبض العلم انتزاعا ينتزعه من العباد، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء حتى إذا لم يبق عالما اتخذ

الناس رؤساء جهالا فيسألوا فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا)"^(١) وهذا من تثبيت الجهل، أن يقبض العلماء، ويبقى المتعلمون الذين يؤسسون للجهل، و يرسخونه، فيحكمون في دين الله برأيهم، ويفتون بجهلهم.

ونلاحظ أن الحديث عن أشراط الساعة جاء في ثوب الجملة الاسمية، وداخل هذه الجملة جاء المسند إليه مصدرا مؤولا من أن و الفعل المضارع (يرفع) وكأن المراد التجدد و الحدوث مع الاستمرار على هذا التجدد، فتعلق الشرط بالاستمرار، لا بالظهور و الاختفاء، وذلك أن قبض العلماء مستمر في كل زمان، و لكن المراد — كما يوحي به هذا التركيب كثرة تجدد ذلك وحدوثه، بما يجعله مستمرا إلى انتهاء وجود العلماء من الأرض، فجاء التركيب تطبيقا لقوله : — تعالى — (أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤُوفٌ رَحِيمٌ) (النحل / ٤٧) أي على تنقص شيئا فشيئا .

ففي قوله : (يرفع العلم) تجوز حيث أسند الرفع للعلم، وهو لأهل العلم لعلاقة الإضافة، وفي التجوز هنا مبالغة في عدم بقاء شيء من العلم ألبتة، بخلاف ما لو كان الإسناد حقيقيا، فقد يفهم منه أن القبض لبعض أهل العلم دون بعض، واللام في (العلم) للعهد، لأن المراد بالعلم : " العلم الشرعي المؤدي لمعرفة الله والإيمان به، وعلم أحكامه، إذ العلم

(١) ينظر عمدة القاري ٨٣/٢ .

الحقيقي هو ذلك " (١) وهذا ما يؤيده حديث البخاري السالف الذكر، وليس معقولا أن تكون اللام للجنس، وذلك أن العلم الديني لا علاقة له بهذا السياق .

قوله : (ويثبت الجهل) جاء معطوفا على اسم (إن) وهو تأكيد لما سبق، لأن رفع العلم يلزم منه بقاء الجهل واستشراؤه، ولكنه جاء زيادة في التوكيد، و ترقيا في العقوبة، ففي ذكر تثبيت الجهل نص على ما يكون الناس فيه من الضلال و التيه، فقد يرفع العلم، ويقول المسئول: لا أدري، ولكن أن يفتي بما لا يعلم فهذا هو الضلال الخالص الذي لا وجه فيه لخير، و قد جاء بالفعل المضارع أيضا دلالة على التجدد والحدوث، فهو جهل متجدد متلون بلون المخاطب حريص على إضلاله، واللام في (الجهل) هي لام العهد أي : الجهل بالعلم الشرعي النافع، الذي يلزم الجاهل به الإثم العظيم، والملحوظ أن الفعل بني للمعلوم هنا، وهو إسناد مجازي فيه من المبالغة مافيه، فالأصل أن يقال: ويثبت أهل الجهل، لكن توجه الإسناد إلى المضاف إليه، وحذف المضاف، مما يكشف عن شيوع الجهل وانتشاره، وكأنه صار ينتشر ويفشو بنفسه، كما أن الأسلوب جاء على طريقة الطباق، زيادة في إظهار بشاعة الجهل، وتمييزا بين ما به نور الدنيا وهو العلم، وما به ظلامها وهو الجهل .

(١) فيض القدير ٢ / ٣٤١ .

ثم عطف على المسند إليه قوله: (ويشرب الخمر) ويقال في دلالة الفعل ما قيل في نظيره، و الملحوظ أن الفعل وقع مبنيًا للمجهول، توفيراً للعناية على المشروب فالتحريم متعلق به، وقد اختلف العلماء حول المراد بشرب الخمر، هل المراد مطلق الشرب؟ أم كثرة الشرب؟ والعلماء على قولين :

الأول : أن المراد كثرة شرب الخمر وفشوه؛ احتجاجاً بأن مطلق الشرب كان موجوداً على عهد النبي ﷺ — وأن مطلق الشرب لا يعد علامة، وإنما لا بد أن تتصف العلامة بصفة زائدة . وهو ما ذهب إليه الكرمانى حيث يقول : "فإن قلت : شرب الخمر كيف يكون من علاماتها، والحال أنه كان واقعاً في جميع الأزمان، وقد حد رسول الله ﷺ — بعض الناس بشربه إياها؟ قلت : المراد منه أن يشرب الناس شرباً فاشياً، أو أن نفس الشرب وحده ليس علامة، بل العلامة مجموع الأمور المذكورة " (١)

وقد ذهب القسطلاني إلى ذلك حيث يقول: "ويشرب الخمر، أي : يكثر شربه، وفي النكاح من طريق هشام عن قتادة : (ويكثر شرب الخمر) فالمطلق محمول على المقيد؛ خلافاً لمن ذهب إلى أنه لا يجب حملة عليه والاحتياط بالحمل ههنا أولى؛ لأن حمل كلام النبوة على أقوى محامله أقرب، فإن السياق يفهم أن المراد بأشراط الساعة وقوع أشياء لم

(١) الكواكب الدراي ، شرح صحيح البخاري للكرمانى ٦٠/٢ .

تكن معهودة حين المقالة، فإذا ذكر شيئا كان موجودا عند المقالة، فحمله على أن المراد يجعله علامة أن يتصف بصفة زائدة على ما كان موجودا، كالكثرة والشهرة أقرب " (١)

الثاني : أن المراد مطلق الشرب، وهو ما ذهب إليه العيني حيث رد قول الكرمانى قائلا: " لانسلم أن المراد كثرة ذلك، بل شرب الخمر مطلقا هو جزء العلة من أشراط الساعة، وقوله في الرواية الأخرى، (ويكثر شرب الخمر) لا يستلزم أن يكون نفي مطلق الشرب من أشراط الساعة؛ لأن المقيد بحكم لا يستلزم نفي الحكم المطلق، والأصل إجراء كل لفظ على مقتضاه، ولاتنافي بين حكم يمكن حصوله معلقا بشرط تارة، وبغيره أخرى، ونظيره الملك، فإنه يوجد بالشرء وغيره " (٢) وقد رد العيني السؤال الذي طرحه الكرمانى قائلا: " هذا السؤال غير وارد؛ لأنه لا يلزم من وقوعها في جميع الأزمان، وحد النبي ﷺ — شارها ألا يكون من علامات الساعة، نعم قوله : بل العلامة مجموع الأمور المذكورة، هو كذلك؛ لأنه — العلية — جمع بين الأشياء الأربعة بحرف الجمع، و الجمع بحرف الجمع كالجمع بلفظ الجمع، ووجود المجموع هو العلامة لوقوع الساعة، وكل منها جزء العلة، فحينئذ تقييد الشرب بالكثرة لا يفيد، وقد قلنا: إن ما ورد من قوله: ويكثر شرب الخمر لا ينافي كون مطلق الشرب جزء علة، وكل من

(١) إرشاد الساري ١/ ١٨١ .

(٢) عمدة القاري ٢/ ٨٢ .

الشرب المطلق، والشرب المقيد بالكثرة، والشهرة جزء علة لأن العلة الدالة على وقوع الحكم هي العلة المركبة من وجود الأشياء الأربعة^(١)

والذي أميل إليه هو المذهب الأول، لقوة أدلته، وتأييده بالرواية الأخرى (يكثر شرب الخمر) وبدلالة السياق، ثم إن القول بأن مجموع الأشياء الأربعة هي العلامة فيه نظر، فلو كانت كذلك لوجب أن تجتمع في كل رواية، وواقع البيان النبوي يدل على غير هذا، فقد تذكر بعض هذه الأشياء في رواية دون الأخرى، والذين ذهبوا إلى أن المراد مطلق الشرب يلزمهم أن يقولوا ذلك في بقية العلامات، فيكون المراد — (يرفع) و(يثبت) و(يظهر) مطلق الفعل في كل، وأن يكون تأسيس البيان عن العلامة قائما على الجمع بينها في الوجود دون نظر لقلة أو كثرة، وهو ما يخالف الواقع في كل زمان، فمطلق هذه الأشياء موجود في كل زمان، والذي أراه أن جعلها علامة مرتبط بالفشو والكثرة، لا بالجمع، كما بينت التراكيب المبنية على المبالغة والله أعلم .

قوله (و يظهر الزنا) جاء معطوفا على المسند إليه، والملاحظ أن الفعل بني للمعلوم، و المسند إليه أمر معنوي لا حسي، وهو مجاز عقلي علاقته الإضافية، والأصل: ويظهر أهل الزنا زناهم، لكن الإسناد العقلي

(١) عمدة القاري ٨٢/٢ .

بين لنا أن الانتشار والفشو تعدى الحسي إلى المعنوي، حتى أضحي الزنا منتشرًا بنفسه .

وهناك أسئلة تلح علينا في طلب الجواب، ما العلة في الجمع بين هذه العلل؟ وما السر في ترتيبها على هذا النحو؟ وهل رفع العلم عقوبة أم معصية؟ وللجواب عن ذلك أقول — بحول الله — العلة في الجمع بين هذه الأشياء أن شرب الخمر فيه إذهاب للعقل، والعقل وعاء العلم، وفشو الزنا يؤدي إلى اختلاط الأنساب، واختلاط الأنساب يؤدي إلى أعظم الجهل، فماذا بعد ألا يعرف أب، وعم ولا أخ؟!

أما السر في ترتيبها، فيجاب عنه بأن العلم، هو أساس الخير، والجهل أساس الشر، فلما انتفى الخير تأسس الشر أثبت تأسيس، وإذا تأسس الجهل اعتدي على وعاء العلم، تأكيداً لتثيت الجهل، ورأس الاعتداء على وعاء العلم شرب الخمر، وإذا غاب العقل غابت المعرفة الأولى (معرفة الأنساب) وطريق غيابها الزنا .

أما رفع العلم فنرى أنه عقوبة، لأن قبض العلماء بيد الله، لا بيد العباد، وإنما يكون نتيجة انتشار المعصية، وعدم الاستجابة للعلماء، مما يؤهل الأمة الموجودة لسخط الله، ويؤيد ذلك أن الأمة على خير ما ائتمرت بالمعروف، وتناهت عن المنكر، وبهذا علم كيف تقدمت العقوبة على المعصية، فكأن ترتيب الكلام في الحديث جاء على طريقة إيراد

(٣٩٧)

السبب (رفع العلم) ثم المسبب (يثبت الجهل، و يشرب الخمر، و يظهر
الزنا) .

عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : سمعت رسول الله —
 ﷺ يقول : " إِنَّ اللَّهَ لَا يَقْبِضُ الْعِلْمَ انْتِزَاعًا يَنْتَزِعُهُ مِنَ الْعِبَادِ ،
 وَلَكِنْ يَقْبِضُ الْعِلْمَ بَقْبِضِ الْعُلَمَاءِ ، حَتَّى إِذَا لَمْ يُبْقِ عَالِمًا اتَّخَذَ النَّاسُ
 رُءُوسًا جُهَّالًا ، فَسُئِلُوا فَأَفْتَوْا بِغَيْرِ عِلْمٍ ، فَضَلُّوا ، وَأَضَلُّوا " (١)

التصور الجملي للحديث :

المقصود العام للحديث الشريف: بيان كيفية قبض العلم، وقد
 خرج الحديث الشريف في جملتين، الجملة الأولى إن واسمها وخبرها
 (إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من العباد) وعطف عليها هذه
 الجملة (ولكن يقبض العلم بقبض العلماء) و الجملة الثانية جملة شرطية
 وقعت بعد حتى الابتدائية (حتى إذا لم يبق عالماً اتخذ الناس رؤوساً
 جهالاً) وعطف عليها عدة جمل هي: (فسئلوا فأفتوا بغير علم فضلوا
 وأضلوا) وجملة الشرط متولدة عن الجملة الأولى عند التحقيق فنحن أمام
 جملة كبيرة، تحوي في رحمها جملاً عدة .

(١) رواه البخاري في صحيحه ، و اللفظ له كتاب العلم ، باب : كيف يقبض العلم ، ورواه مسلم في صحيحه ، كتاب العلم
 ، باب كيفية رفع العلم ، و رواه الترمذي في سننه ، كتاب العلم ، باب : ما جاء في ذهاب العلم ، ورواه ابن ماجه في سننه ،
 المقدمة ، باب : اجتناب الرأي والقياس .

اصطفاءات الألفاظ :

حينما نتأمل هذه الرواية وهي للإمام البخاري نرى أنه اصطفي في هذه الرواية (يقبض) على ما جاء في روايات آخر (يرفع) لأن في التعبير بالقبض إيذاناً بأن العلم حياة، وامتداد من واهب الحياة — سبحانه وتعالى — وهو ما يؤيده الحديث (مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضاً . . .)^(١) وتتناغم معها رواية يرفع، تناسبا مع شرفه، حيث تكشف رواية البخاري عن أهمية العلم لأهل الأرض، و تكشف الرواية الثانية عن مكانته عند الله، لذا لم يرد في أية رواية — في حدود اطلاعي — إن الله لا يذهب العلم، وبهذا تتلاقى الروايات، و لا تتعارض .

واصطفى — ﷺ — (العباد) على الناس، إيذاناً بأن المراد بالعلم العلم الشرعي، وذلك عقوبة إخلالهم بالعبودية، واصطفى — ﷺ — (انتزع) على استلب مثلاً، لأن الانتزاع اقتلاع، يلائم الكشف عن التدرج عكس الاستلاب، الذي يدل على احتطاف الشيء مرة واحدة، واصطفى (يبق) على يترك مثلاً، لأن الترك طرح وتخلية، يقال: ترك الشيء: طرحه وخلاه^(٢) قال : — تعالى (وَأَتْرُكُ الْبَحْرَ رَهْوًا...) (الدخان/ ٢٤) لكن البقاء "ثبات الشيء على حاله الأولى، وهو يضاد

(١) رواه البخاري في صحيحه ، كتاب العلم ، باب : فضل من علم و علم ، و رواه مسلم في صحيحه كتاب النبوات ، باب : مثل ما بعث به النبي — صلى الله عليه و سلم — من الهدى و العلم .

(٢) المعجم الوسيط (ت ر ك)

الفناء " (١) والملائم للسياق انتفاء حالة كانت موجودة، لا طرحها وتخليتها كما هي، فكان الملائم هو ماورد عليه الحديث الشريف، والمجئ بلفظ يوحي بالتدرج تنبيها للعباد إلى مراجعة أمرهم مع ربهم بموت العلماء وفيه تناسب مع وصفهم بالعباد .

أحوال التراكيب :

وقعت الجملة الأساسية مؤكدة بـ (إن) واسمية الجملة، تناسبا مع الكشف عن أمر غيبي، وهو ما يقتضي التأكيد، وقد وقع المسند إليه مقدما على خبره الفعلي وفيه من التوكيد ما فيه، ومعرفا بأعرف المعارف (الله) وهو أهيب أسماء الله — عز وجل — زيادة في التوكيد، وإعلاء لشأن التهيب، لذا لم يقل: إن العليم، أو القابض أو ما إليه من أسمائه — سبحانه — وذلك أن الإسناد إلى الألوهية يعني التفرد في القدرة .

وقد وقع المسند جملة فعلية فعلها مضارع دلالة على التجدد والحدوث، وفي التجدد و الحدوث في هذا السياق إشعار بالتنبيه إلى حدود الله كلما قبض عالما، و اللام في المفعول به (العلم) للعهد حيث إن المراد به العلم الشرعي بقرينة السياق اللاحق (فسئلوا فأفتوا بغير علم) وقد ذكر العلماء وجوها في إعراب (انتزعا) فهو إما أن يكون

(١) المفردات (ب ق ي)

مفعولا مطلقا مقدما على عامله (ينتزعه) ومنعه النحاة لأن المفعول المطلق تؤكد لعامله فلا يجوز أن يتقدم عليه، وإما أن يكون نائبا عن مفعول مطلق، و العامل (يقبض) و إما أن يكون حالا من العلم على تأويل (منتزعا) (١) وعلى كل الوجوه فقولہ: (انتزعا ينتزعه من العباد) قيد للمسند يؤكد على التدرج في الفعل (يقبض) وأن ذلك سيكون رويدا رويدا، لا اقتلاعا مفاجئا، وفيه من الإمهال — الدال على شدة الأخذ عند عدم التنبه — ما فيه، لذا قال: (انتزعا ينتزعه) وكان يمكن أن يقول: انتزعا من العباد، كما أن فيه إقامة للحجة على العباد، وإظهارا لرحمة الله بعباده، وتنبههم بالبلوى إلى الرجوع إليه، كل هذا الجمال سيضيع لو قلنا: إن الله يقبض العلم بقبض العلماء، وأسقطنا كل هذه القيود، لكن الحديث الشريف بني على الجمال، وما اقترحته بني على الجلال، وفرق كبير بين الجمال والجلال .

والمراد بقوله (العباد) المسلمون أو المؤمنون كما دل السياق الذي سبق بيانه، وليس الناس فيما ذهب إليه الشيخ العيني حيث قال: "أي : أن الله لا يقبض العلم من بين الناس على سبيل أن يرفعه من بينهم . . . " (٢) وليس المراد بالعباد العلماء فيما ذهب إليه العلامة المناوي حيث قال: "العباد الذين هم العلماء لأنه أكرم الأكرمين، وهو وهبهم إياه فلا يسترجعه" (٣) وما ذهب إليه ابن علان حيث قال: "قال: في فتح الإله:

(١) ينظر عمدة القاري ١٣١/٢ .

(٢) عمدة القاري ١٣١/٢ .

(٣) قبض القدير ٣٤١ / ٢ .

فيه غاية البشرى لأهل العلم، و أن الله أمنهم من سلب ما وهبهم" (١)
وذلك أن الحديث دال على أن قبض العلماء عقوبة للعباد، وليس عقوبة
للعلماء .

قوله (ولكن يقبض العلم بقبض العلماء) بيان لكيفية القبض
التدريجي، جاء بواو العطف، و لكن الاستدراكية لأهميته بالبيان فالجملـة
" استدراك من مفهوم الكلام قبله الموهـم لعدم انتزاعه بالكلية بإثبات
طريق انتزاعه . . . وفي التعبير بما ذكر إيماء إلى أنهم كنوز مودعة في
الأرض لنفع الخلق، فإذا أراد الله رفع تلك الكنوز قبضهم إليه " (٢)

وقوله: (و لكن يقبض العلم) خرج على خلاف مقتضى الظاهر،
قد وضع المظهر موضع المضمـر؛ تعظيما لشأن العلم، وإجلالا لقدره .

قوله: (حتى إذا لم يبق عالما اتخذ الناس رءوسا جهالا فسئلوا فأفتوا
بغير علم، فضلوا وأضلوا) (حتى) هنا ابتدائية على ما ذكر أهل العلم،
وهي "تدل على أن ذلك واقع بالتدريج" (٣) وهو إمهال ما بعده إمهال،
فما من ريب في استحقاق العذاب لمن لم يتعظ بالتدريج حتى وصل
الأمر إلى منتهاه.

(١) دليل الفالحين ١٥٠/٤ .

(٢) دليل الفالحين ١٥٠/٤ .

(٣) عمدة القاري ١٣١/٢

وبنيت الجملة بأسلوب الشرط، تناسبا مع الغرض، لأن الحديث بني على استحقاق العباد العقوبة بارتكابهم ما حرم الله عليهم، وتعديهم حدوده، وجاء أسلوب الشرط بـ (إذا) لا بـ (إن) "ليدل على أن ذلك واقع لا محالة" (١) "لأن الفرق بينهما هو أن (إن) تستعمل في الشرط غير المقطوع بوقوعه، تقول: إن جئتني أكرمتك، إذا كنت غير قاطع بمجيئه، و(إذا) تستعمل في الشرط المقطوع بوقوعه، تقول: إذا جئتني أكرمتك، إذا كنت قاطعا بمجيئه، أو مرجحا ذلك" (٢)

وقد لحظ الشيخ العيني ملحظا لطيفا، حيث رأى أنه قد يقع إشكال في دلالة كل من (إذا) و (لم) حيث إن الأولى ظرف لما يستقبل من الزمان والثانية، تقلب المضارع (ييق) ماضيا، فأجاب بقوله: "لما تعارضا تساقطا فبقي على أصله وهو المضارع، أو تعادلا فيفيد الاستمرار" (٣)

وقد لحظ العيني إشكالا آخر في نفي الشرط، حيث علق اتخاذ الجهلاء على عدم بقاء العلماء، و الواقع أن الناس قد يتخذون الجهلاء مفتين في وجود العلماء، و أجاب — رحمه الله عن ذلك — حيث قال: "فإن قلت: إذا كانت (إذا) شرطية يلزم من انتفاء الشرط انتفاء المشروط، ومن وجود المشروط وجود الشرط، لكنه ليس كذلك؛ لجواز

(١) ينظر عمدة القاري ١٣١/٢، و فيض القدير ٣٤٢/٢.

(٢) خصائص التراكيب ٣٢٢ د / محمد أبو موسى.

(٣) عمدة القاري ١٣١/٢.

حصول الاتحاد مع وجود العالم . قلت: ذلك في الشروط العقلية، أما في غيرها فلا نسلم اطراد هذه القاعدة، ثم ذلك الاستلزام إنما هو في موضع لم يكن للشرط بدل، فقد يكون لمشروط واحد شروط متعاقبة كصحة الصلاة بدون الوضوء عند التيمم، أو المراد بالناس جميعهم، فلا يصح أن الكل اتخذوا رءوساً جهالاً إلا عند عدم بقاء العالم مطلقاً، و ذلك ظاهر " (١) وفي جوابه الثاني مقنع، لأن الحديث يتوفر على التدرج في قبض العلماء إلى عدم بقاء أحد منهم، فلا يجد الناس من يفرعون إليه إلا الجهلاء .

وفي قوله (اتخذ الناس رءوساً جهالاً) لطائف لا تنهاى، وذلك أن اتخذ دلت على تعمد الناس الفرع إلى الجهال، وقصدهم إلى الضلال قصداً، وذلك دال على استثناء الضلال، وعموم الجهل، ويظهر ذلك لو قلنا: حتى إذا لم يبق عالماً أفتى الجهال، غير أن التركيب المقترح لا يؤدي ما يؤديه تركيب الحديث الشريف، وإنما قد يدل على أن في الناس خيراً، فوق أنه لا يجزم بعمل الناس بفتاوى الجهال، أما ما بني عليه الحديث الشريف فهو الغاية في الإيجاز، إذ يدل على أن الجهل مطلبهم، والضلال مأربهم، و القناعة بفتاوى الجهال غايتهم، و يؤيده مجيئ المسند إليه هنا (الناس) باللفظ العام، حيث يعبر بهذا اللفظ عند إرادة كل الناس مؤمنهم وكافرهم، وهو المناسب لنهاية التدرج في قبض العلماء، فقد عبر في أول الحديث بـ (العباد) وهو المناسب لمبتدأ التدرج، وعبر هنا

(١) عمدة القاري ١٣١/٢ .

بالناس لأنه المناسب لانتهااء التدريج، فالحديث الشريف اتبع أسلوب الترقى من الأدنى إلى الأعلى .

وفي قوله (رعوسا) مفعولا به لـ (اتخذ) مجاز مرسل علاقته الجزئية، حيث عبر بالجزء، وأراد الكل، وفيه من الإيجاز والمبالغة ما فيه، أما الإيجاز فإنه أحصر في الدلالة على جهل الناس من قولنا: اتخذ الناس علماء، ليست لهم عقول، وإنما لهم رعوس، أما المبالغة فلا أوصف لعقول أدعياء العلم من هذا الوصف، حيث يتساوى البشر كلهم في هذا الوصف، فللذكر والأنثى، والصغير والكبير، والأحمق والنابه رأس، بل إن الرعوس في كل دابة على وجه الأرض، فقد بلغ التركيب الغاية في البيان عن عموم الجهل، وقد ضاعف من أمر المبالغة بوصف الرعوس بالجهل (جهالا) وهذا دال على تمام تعطل العقل، حيث تعدى الجهل العقل إلى الرأس التي هي جارحة، وكل ذلك يدل على استثناء الضلال في الناس، حيث إن من و صفوا هذا الوصف الآنف سيصيرون مقصد الناس، وملاذهم في الاستفتاء !! .

ثم عطف على جملة الشرط (فستلوا) بفاء العاقبة الدالة على عدم تحريهم، و عدم تأنيهم في السؤال، وبني الفعل للمجهول إسقاطا لحق السائلين في عدهم من الناس، وتوفيرا للعناية، على من تكون بهم الطامة، فهم على الباطل أجراً، و لمحاربة الله هم أشد، وقد عطف عليها جملة أخرى بالفاء أيضا (فأفتوا بغير علم) دلالة على أنهم كقاصديهم بالسؤال

إسراعاً إلى الجهل، وفي وقوع هذا القيد (بغير علم) زيادة في التشنيع عليهم، وإلا فقد كان يكفي وصفهم السابق بأنهم جهال .

وقوله: (فضلوا و أضلوا) نلاحظ تعاقب الفاءات في هذه الجمل، وهي تناسب مرحلة نهاية التدريج، حيث تتلاحق الأحداث وتتسارع، وقد جاء ترتيب التركيب على ترتيب المسبب على السبب، فالضلال والإضلال متربتان على الإفتاء بغير علم، وقد استشكل العيني هذا الترتيب، حيث إن الإضلال مترتب على الإفتاء بغير علم بعكس الضلال الذي هو سبب في الإفتاء بغير علم، وقد أجاب عن ذلك بقوله: " المعنى هو المجموع المركب من الضلال و الإضلال هو متعقب على الإفتاء، وإن كان الجزء الأول مقدماً عليه، إذ الضلال الذي بعد الإفتاء غير الضلال الذي قبله، فإن قلت: الإضلال ظاهر، و أما الضلال فإنما يلزم أن لو عمل بما أفتي، وقد لا يعمل به، قلت: إن إضلاله للغير ضلال له، عمل بما أفتي، أو لو يعمل " (١) وعلى كل حال فالتركيب يعني أن الضلال، والإضلال سمة آخر الزمان، وأن تعليق ذلك على الإفتاء بغير علم صورة من صور هذا الإضلال، فالمضلون يفتنون دون استفتاء، ويقدمون جهالاتهم دون عرض .

وقد ذكر العيني أن ورود الحديث كان في حجة الوداع، حيث قال : " وقد كان تحديث الرسول ﷺ — في حجة الوداع، كما

(١) عمدة القاري ١٣١/٢ .

رواه أحمد والطبراني من حديث أبي أمامة رضي الله عنه.^(١) وذلك دال على تحقق حديثه — ﷺ — " بعثت أنا و الساعة كهاتين . .^(٢)) حيث إن قبضه — ﷺ — كان بداية هذا التدريج، فنسأل الله ألا يدركنا هذا الزمان، وألا ندرك هذا الزمان .

(١) عمدة القاري ١٣٢/٢ .

(٢) رواه ابن ماجة في سننه ، المقدمة ، باب : اجتناب البدع والجدل ، والدارمي في سننه ، كتاب : الرقاق ، باب : في قول النبي — صلى الله عليه وسلم — بعثت أنا والساعة كهاتين .

عن أبي الدرداء — رضي الله عنه — قال : كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ — ﷺ — فَشَخَصَ بَبَصَرِهِ إِلَى السَّمَاءِ ، ثُمَّ قَالَ : هَذَا أَوَّانٌ يُخْتَلَسُ الْعِلْمُ مِنَ النَّاسِ ، حَتَّى لَا يَقْدِرُوا مِنْهُ عَلَى شَيْءٍ ، فَقَالَ زِيَادُ بْنُ لَبِيدٍ الْأَنْصَارِيُّ : كَيْفَ يُخْتَلَسُ مِنَّا ، وَقَدْ قَرَأْنَا الْقُرْآنَ ؟ فَوَا اللَّهُ لَنَقْرَأَنَّهُ ، وَلَنُقَرِّئَنَّهُ نِسَاءَنَا وَأَبْنَاءَنَا . قَالَ : تَكَلَّتْكَ أُمُّكَ يَا زِيَادُ إِنْ كُنْتُ لَأَعُدُّكَ مِنْ فُقَهَاءِ أَهْلِ الْمَدِينَةِ ! هَذِهِ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ عِنْدَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى ، فَمَاذَا تُعْنِي عَنْهُمْ ؟ " (١)

التصور الجملي للحديث :

مقصود الحديث العام: بيان اقتراب وقت اختلاس العلم من الناس وقد خرج الحديث في عدة جمل، منها ما هو على لسان الرسول — ﷺ — ومنها ما هو على لسان زياد بن لبيد، ومنها ما هو على لسان راوي الحديث على النحو التالي :

على لسان أبي الدرداء: (كنا مع النبي — ﷺ — فشخص ببصره إلى السماء)

على لسان لبيد: (كيف يختلس منا، وقد قرأنا القرآن؟ فوا الله لنقرأه، ولنقرئنه نساءنا وأبنائنا)

(١) رواه الترمذي في سننه ، و اللفظ له ، كتاب العلم باب ما جاء في ذهاب العلم ، ورواه ابن ماجه في سننه ، كتاب الفتن ، باب : ذهاب القرآن والعلم .

على لسانه — ﷺ — (هذا أوان يختلس العلم من الناس حتى لا يقدرُوا منه على شيء) (ثكلتك أمك يا زياد) (إن كنت لأعدك من فقهاء أهل المدينة) (هذه التوراة والإنجيل عند اليهود والنصارى، فماذا تغني عنهم؟)

اصطفاءات الألفاظ :

اصطفى الراوي (شخص) على (نظر) وذلك لأن شخص أدل على حاله — ﷺ — حين قول هذا الحديث حيث إنه لم يكن مجرد رفع نظر إلى السماء، بل كان نظرا له سمت وخصوصية، وقد نقل المباركفوري عن الطيبي قوله: "فكأنه — ﷺ — لما نظر إلى السماء كوشف باقتراب أجله، فأخبر بذلك" ^(١) وتدلنا المعاجم، واستخدامات القرآن الكريم أن شخص ببصره معناه: فتح عينيه، ولم يطرف بما متأملا، أو مترعجا، وفي التزويل العزيز: (إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ) (إبراهيم/٤٢) ويشرح المفسرون (تشخص) في الآية بقولهم: أي تشخص فيه أبصارهم، فلا تقرر في أماكنها من هول ما ترى، وشخص البصر ارتفاعه، وعدم استقراره في مكانه من حدة النظر، وقيل: بقاءه مفتوحا بحيث لا يغمض، ولا يرد إليه طرفه ^(٢)

(١) تحفة الأحوذى ٤١٢/٧

(٢) ينظر المعجم الوسيط (ش خ ص) أنوار التزويل للبيضاوي ١٤٠/٣ ، وحاشية زادة على البيضاوي ١٤٠/٣ .

واصطفى — ﴿١﴾ — لفظة (أوان) على وقت، أو حين لكونها أدل على قرب حصول الشيء من نظائرها، فالكلمتان الأخريان يدلان على عموم الوقت، وليس نصا في قربه، واصطفى — ﴿٢﴾ — (يختلس) على يذهب في هذه الرواية، لأن الاختلاس: استلاب، أي: اختطاف للشيء مرة واحدة، أما الذهاب فزوال الأثر (١) ويمكن الجمع بين الروایتين بأن المراد: سرعة الزوال، وبهذا تتعانق الروایتان في التظاهر على بيان اقتراب زوال العلم.

أحوال التراكيب :

مدار قوله — ﴿٣﴾ — على قرب وقوع المخبر به (اختلاس العلم من الناس) ومن ثم جاء المسند إليه معرفا باسم الإشارة الموضوع للقريب (هذا) وجاء المسند لفظة تدل على اقتراب الوقع (أوان) لذا يقال: آن الأوان، ولا يقال: آن الحين أو آن الوقت .

وقد أضيف المسند إلى هذه الجملة (يختلس العلم من الناس حتى لا يقدرُوا منه على شيء) ومع أن الجملة وقعت كذلك إلا أنها هي الأساس الذي تدور عليه تراكيب الحديث الشريف، فبها يتعلق التهريب، والمراد بالعلم "علم الوحي" (٢) وقد بني الفعل للمجهول؛ توفيراً للعناية على من

(١) ينظر المعجم الوسيط (خ ل س / ذهب)

(٢) تحفة الأحوذى ٤١٢/٧ .

يقع عليه الاختلاس (العلم) وقد قيد المسند بلفظ عام (من الناس) ولم يقل: منكم، أو من أمتي على اعتبار عموم الوحي كما دل عليه قوله: — تعالى — (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا) (سبأ / ٢٨) وجاء قيد آخر في الجملة (حتى لا يقدرُوا منه على شيء) وقد جاء بحتى الغائية، وقيد الفعل الوارد بعدها بهذا القيد (على شيء) والتنكير للتقليل، أي لا يقدرُوا على القليل منه، وتصور حتى وما بعدها مدى انتهاء العلم، ومدى انتباه الناس للحاجة الشديدة إليه بعد ذهابه، لذلك قال: لا يقدرُوا، الذي يصور شدة طلبهم له، ومحاولة الاستنقاذ به، بدافع التخلص من شديد البلوى بالعلم دون جدوى، ولم يقل: حتى لا يبقى منه شيء؛ لأن الأخير يدل على ذهاب العلم فقط، دون بيان لأثر ذلك على الناس .

وقد عكست التراكيب الواردة على لسان لبيد — ﷺ — قدر الدهشة والخوف، والاستعداد، وشحذ الهمم، للتوجه نحو العلم حفظاً وأداءً، لذا افتتح هذا الأسلوب بالاستفهام التعجبي: (كيف يحتلس منا) وأتبع بجملة حالية، كشفت عن سر تعجبه (وقد قرأنا القرآن) ثم أتبع بجملة كلها توكيدات، وقد كشفت هذه الجملة عن قدر الخوف الذي وجلت منه القلوب، فتوجهت نحو الاستعداد، والاجتهاد في عدم لحاق ذلك الاختلاس لهم (فوا الله لنقرأه، ولنقرئنه نساءنا وأبنائنا) وكان يكفي أن يقال: فوا الله لنقرأه، ولكن ذلك لا يكفي في إظهار الاستعداد، فقد "أقسم باصطناع وسائل لعدم حدوث ذلك، و الحيلولة

دون وقوعه، وهي قراءة القرآن، وإقراؤه الأبناء والنساء" (١) وقد رأينا الصحابي الجليل كيف أكد على ذلك بالبيان عن توريث هذا العلم، بتوفر كل على تعليمه أهله و ذويه، لذا لم يقتصر على الحملة الأولى، ولم يتحدث بصيغة المفرد.

وقد جاء رده — ﷺ — ملائما المقام، مطابقا الحال، فقال له أولا: (ثكلتك أمك يا زياد) وأتبعه بقوله: (إن كنت لأعدك من فقهاء أهل المدينة) ثم أتبعه بقوله: (هذه التوراة و الإنجيل عند اليهود والنصارى فماذا تغني عنهم؟) التركيب الأول جاء مناسبا للرد على تعجب زياد ابن لبید، فالأسلوب هنا ليس على أصله في الدعاء، وإنما خرج الأسلوب إلى " الاستعظام، فقد استعظم رسول الله — ﷺ — ما صدر من الصحابي الجليل، وقرينة السياق المقالية قاضية بهذا" (٢) لأنه رد على استبعاد الصحابي ذلك، ولا يمنع ذلك من أن يكون الأسلوب قد خرج من الدعاء إلى التعجب كما ذكر العلماء (٣) فالنكات البلاغية تتعانق ولا تتعاند.

وقد أكد الرسول — ﷺ — على رده استبعاد الصحابي بأسلوب النداء الذي جاء عقب أسلوب الدعاء، وفي النداء ما فيه من اللفت والانتباه ، إلى أهمية الرد الذي سيقال، وهذا تصعيد وتشويق إلى ذكر

(١) خلاف الظاهر في الدعاء على المخاطب ٦٠ د / إبراهيم صلاح المهدهد ط الجريسي ٢٠٠٠ م .

(٢) خلاف الظاهر في الدعاء على المخاطب ٥٩ .

(٣) تحفة الأحوذى ٤١٣ / ٧ .

الرد يلهب النفس ويشوقها إلى الرد، فيقع منها بعد ذلك خير موقع، ثم جاءت جملة تضاعف من هذا التشويق، حيث وصفه بأنه كان معدوداً من فقهاء أهل المدينة، ولأهل المدينة من المترلة ما لهم لقربهم منه — ﷺ — وتلقيهم العلم مشافهة، وهذا التركيب قد نبه زياد — ﷺ — إلى أنه أخطأ في الفهم خطأ فاحشاً، حين تصور أن قراءة القرآن كفيلة بعدم ذهاب العلم! وهو فهم خاطئ، فإذا ورد ذكره على لسان من كان معدوداً من فقهاء المدينة، فكيف بسواه، بل كيف بمن لم يكن من أهل المدينة؟ وكأن هذه الجملة إشارة إلى بداية ذهاب العلم، وهذا التركيب فيه تشويق ما بعده تشويق إلى ذكر الخبر، وسوق الجواب، غير أنه — ﷺ — ضاعف من ذلك، وترقى بإلهاب النفس إلى الجواب إلى أعلى مستوى، حينما دلل له على خطئه في الفهم بقوله (هذه التوراة . . .) وقد أورده — ﷺ — بأسلوب اللف والنشر المرتب؛ اعتماداً على فهم السامع، وثقة بأنه سيعين لكل من اللف ماله من النشر، وافتتح الأسلوب باسم الإشارة الموضوع للقريب؛ زيادة في إظهار الخطأ في الفهم، فكيف نكرر الخطأ في الفهم مع قرب من يقر الجميع بخطئهم من المخاطب في المدينة المنورة، وقدم ذكر الكتابين على ذكر المترلة إليهم تعظيماً للكتابين، ولبيان أن العبرة ليست بحفظ القرآن، ولا بقراءته، ولا إقراءه، بدليل ما يرى من اليهود على قراءتهم التوراة، والنصارى على قراءتهم الإنجيل، ثم ختم — ﷺ — الحديث باستفهام إنكاري كاشفاً به عن أن قراءتهم التوراة والإنجيل لم تغن عنهم شيئاً .

وبعد كل هذا الإلهاب لم يأت جواب منه —  — ولا كشف عن الطريقة التي ندفع بها اختلاس العلم، وهذا من بديع الأساليب، كأنه أكتفى باستعظام مقالة الصحابي، وما أتبعه من بيان بطلانها عن الجواب الصريح؛ إلماعاً إلى ظهوره ووضوحه، وأن الطريق إلى ذلك هو تطبيق القرآن عملاً، لا العكوف عليه قراءة، وهو ما فهمه المخاطب حينها، لذا لم يرد جواباً، كما رد أولاً، وهذا من البلاغة بمكان ففرق بين أن تلقى بالجواب، وبين أن تلجئ المخاطب إلى التعرف على الجواب، ما من ريب أن الطريق الثاني يكون أكد في إثبات ما يريد المتكلم، وأقعد عند المخاطب.

عن حذيفة بن اليمان — رضي الله عنه — قال : قال رسول الله — ﷺ — يَدْرُسُ (١) الإسلام كما يدرسُ وشي (٢) الثوب، حتى لا يُدرى ما صيام، ولا صلاة، ولا نُسك، ولا صدقة، و ليسرى (٣) على كتاب الله — عز وجل — في ليلة، فلا يبقى في الأرض منه آية، و تبقى طوائف من الناس الشيخ الكبير، والعجوز (٤) يقولون : أدركنا آباءنا على هذه الكلمة : لا إله إلا الله ، فنحن نقولها " (٥)

التصور الجملي للحديث

مقصود الحديث العام: تصوير هيئة ذهاب العلم، وقد خرج الحديث الشريف في ثلاث جمل، الأولى (يدرس الإسلام كما يدرس وشي الثوب حتى لا يدرى ما صيام، ولا صلاة وصدقة) الثانية (وليسرى على كتاب الله — عز وجل — في ليلة فلا يبقى في الأرض منه آية) الثالثة (ويبقى طوائف من الناس الشيخ الكبير والعجوز يقولون : أدركنا آباءنا على هذه الكلمة: (لا إله إلا الله ، فنحن نقولها) .

(١) درس : يقال : درست الدار معناه : بقي أثرها ، و بقاء الأثر يقتضي انحناؤه في نفسه ، فلذلك فسر الدروس بالانحناء (المفردات ١٦٧)

(٢) وشي : وشيت الشيء وشيا ، جعلت فيه أثرا يخالف معظم لونه (الوسيط / وشي)

(٣) وليسرى : يقال : سرى الليل سرىا و سراية ، و سرى : مضى و ذهب (الوسيط / س ر ي)

(٤) الشيخ أسن من العجوز كما يبين لنا استعمال القرآن الكريم قال : — تعالى — (قالت يا ويلتى أألد و أنا عجوز وهذا بعلي شيخا) (هود / ٧٢) يقول البيضاوي : و أنا عجوز ابنة تسعين أو تسع وتسعين ، وهذا بعلي شيخا ابن مائة أو مائة وعشرين ، أنوار التنزيل ٥٤/٣ .

(٥) رواه ابن ماجه في سننه ، و انفرد به ، كتاب : الفتن ، باب : ذهاب القرآن و العلم .

اصطفاءات الألفاظ :

اصطفى — ﷺ — (يدرس) على ينمحي إشارة إلى أن معالم الدين كالمعالم المحسوسة فيما ينبغي أن تكون عليه من الثبات والرسوخ، لأن درس تستخدم في المباني و المعالم الظاهرة، واصطفى — ﷺ — (ليسرى) على غيرها، لأنها مختصة بالليل وفي أحداث الليل ما فيها من المفاجأة و المباغتة، واصطفى — ﷺ — (يبقى) المنفية على (ترك) للإشارة إلى كره القرآن الكريم للبقاء بين ظهراي أهل الأرض، أما التعبير بترك فلا يؤدي ذلك .

أحوال التراكيب

خرج الحديث الشريف في تصوير بديع لذهاب العلم بالدين، ففي قوله : (يدرس الإسلام) استعارة مكنية حيث شبه الإسلام بالديار والمعالم الظاهرة، ثم حذف المشبه به ورمزله بشئ من لوازمه، وهو (يدرس) وفي ذلك ما فيه من تجسيد معالم الدين، ولحظنا أن الإسناد سلط على الإسلام، والأصل أن يوجه إلى معلمه، فيقال: تدرس معالم الإسلام، غير أن التركيب المذكور أبلغ في الدلالة على الانتهاء التام من الأرض، وهو ما يؤيده الحديث الشريف بعد ذلك .

ثم زاد الرسول ﷺ — من تحسيد ذهاب العلم، بتشبيه ذلك الدروس بدروس معالم الثوب (كما يدرس وشي الثوب) فقد شبه الرسول ﷺ — دروس معالم الإسلام بدروس نقش الثوب بجامع فقدان الأثر في كل، وفي هذا التصوير ما فيه من الرمز إلى قيمة معالم الإسلام في الأرض، وأن الإسلام ومعلمه بمتزلة الثوب الذي يقي الأرض وأهلها شر الحر والقر، ومعنى أن يلى ويذهب أن تعرى الأرض مما يقيها عذاب الله وأحذه، وهو تصوير بديع .

ثم وقعت حتى الغائية كاشفة عن المدى الذي سيكون عليه هذا الدروس (حتى لا يدرى ما صيام ولا صلاة ولا نسل ولا صدقة) والملاحظ أنه — ﷺ — اصطفى من أركان الإسلام أبنائها وأظهرها تنبيهها بذهاب الأعلى على ذهاب الأدنى، حتى مفاهيم هذه العبادات سوف تدرس، لذا لم يقل: حتى لا يصلى، ولا يصام ولا يتصدق . . . لأنه لا يريد الإخبار بذهاب العمل ، وإنما يريد الإخبار بذهاب العلم، وهي معالم الدين التي أخبر عن دروسها في صدر الحديث، فالأركان بمثابة المعالم، وذهابها دليل على ذهاب ما دونها من مكارم الأخلاق .

ثم جاء بعد ذلك التنبيه على ذهاب أمان الله من أهل الأرض وهو القرآن الكريم (وليسرى على كتاب الله — عز وجل — في ليلة فلا يبقى في الأرض منه آية) وقد أورده — ﷺ — مؤكدا بلام الابتداء، والواضح أنه — ﷺ — أولى الظرف في هذا التركيب اهتماما خاصا حيث قال:

(يسرى — في ليلة) مع أن السرى لا يكون إلا ليلاً، وذلك للتنبيه على السرعة المباغتة، وفيها من عدم الإدراك ما فيها، والذهاب هنا ذهاب من الصدور والسطور، وليست كثرة المصاحف مانعة من ذلك، وبناء الفعل (يسرى) للمفعول لتوفير العناية على الفعل، وتقديم الجار والمجرور (على كتاب الله) وفي إضافة كتاب إلى لفظ الجلالة إنباء عن القدرة المتفردة إذ أضافه إلى عنوان الألوهية، لذا لم يقل: القرآن، وعطف عليه جملة بفاء العاقبة التي تدل على سرعة الحدوث، وأسند الفعل (يبقى) المبني للمعلوم إلى الفاعل (آية) كشفاً عن هجر القرآن الناس كما هجروه، وبغضه إياهم كما أهملوه، ومجئ الفاعل (آية) منكراً يفيد العموم، وفي تأخير الفاعل إشارة إلى غيابه التام، وفي التعبير بهذا القيد (منه) إشارة إلى أن ذلك على الحقيقة لا على المجاز، فلو حذف هذا القيد لظن أن المراد بذهاب الآية ذهاب أثرها أو ما إلى ذلك، كما أن في التعبير بهذا القيد (في الأرض) إشارة إلى أنه سيرفع إلى السماء، ولا يذهب بالكلية، فالتركيب كله يوفر العناية على الكشف عن المحو التام لمعالم الدين وحلقته الأخيرة ذهاب دستوره وسجله (كتاب الله) .

وقد اهتمت التراكيب السابقة ببيان هيئة ذهاب العلم، وجاءت الجملة الأخيرة كاشفة حال الناس بعد ذهاب العلم، و إلى أية مرتبة من مراتب الجهل وصلوا (وتبقى طوائف من الناس الشيخ الكبير والعجوز) وهؤلاء هم من يفترض فيهم العلم، والصلاح والتقوى لأنهم بإدبار من الدنيا، وإقبال من الآخرة، وجهلهم دليل على أن جهل غيرهم أشد لأنه

" قد يعبر بالشيخ فيما بيننا عمن يكثر علمه لما كان من شأن الشيخ أن تكثر تجاربه ومعارفه " (١) وفي قوله (وتبقى) طباق سلب مع قوله (لا يبقى) يصور ذهاب الخير وبقاء الشر و الجهل، ثم جاءت جملة تابعة لهذه الجملة، وهي كناية عن غاية الجهل الذي وصل إليه أهل الأرض (يقولون: أدركنا آباءنا على هذه الكلمة: لا إله إلا الله فنحن نقولها) فبدل أن يقول: وتبقى طوائف جاهلة، جاء بأسلوب الكناية تأكيداً للدعوى بالدليل، وتمثل هذه الجملة ذروة الانحناء لمعالم الإسلام، نرى ذلك في وصفها بالكلمة، كما نرى إمهال الله لعباده، فقد أدرك هؤلاء، وهم من هم بهذا الوصف من الطعن في السن آباءهم على تلك الحال من الجهل، فوصل الأمر بهم من الجهل إلى ألا يعرفوا حتى معنى هذه الكلمة التي أدركوا آباءهم عليها، فماذا بقي من العلم بعد ذلك بعد ذهاب العلم بهذه الكلمة؟ فلا حول ولا قوة إلا بالله .

(١) المفردات مادة (ش ي خ)

نظرة جملية لجريان الأساليب البلاغية في حديثه — ﷺ — عن آداب العلم والتحذير من قبضه

في نهاية المطاف في حديثه — ﷺ — عن آداب العلم، والتحذير من قبضه أجمل القول في بيان جريان الأساليب البلاغية في بيانه الشريف في هذا الموضوع، بعد بيان أسرار ذلك في مواطنه تفصيلاً :

أولاً : أساليب علم المعاني : —

١ — لحظت أن الخبر جاء مؤكداً في حديثه — ﷺ — عن العلم حين اقتضى المقام التأكيد ووقع ذلك في مواطن متعددة منها قوله — ﷺ — (إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام) و(. . . فإن الشاهد عسى أن يبلغ من هو أوعى منه) و(إن مكة حرمها الله) و(إن الناس لكم تبع وإن رجالاً يأتونكم من أقطار الأرض) و(لا تكذبوا علي فإنه من كذب علي فليلق النار) و(إن أناساً من أممي سيتفقهون في الدين) و(إن الله ييغض البليغ من الرجال . . .) و(إن من أشراط الساعة أن يرفع العلم . . .) و(إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من العباد) .

٢ — استخدم أسلوب المجاز العقلي وذلك في قوله — ﷺ — (إن من أشراط الساعة أن يرفع العلم ويثبت الجهل ويشرب الخمر ويظهر الزنا)

٣ — وقع المسند إليه معرفاً بأنواع المعارف على النحو التالي :

أ — بالعلمية : في قوله — ﷺ — (نضر الله امرأ . . .) و(لم يقبل الله منه صرفا) و(إن الله يبغض البليغ من الرجال) و(إن الله لا يقبض العلم انتزاعا)

ب — ب — (أل) العهدية في قوله — ﷺ — (ألا ليلغ الشاهد الغائب) و(إن من أشراط الساعة أن يرفع العلم)

ج — ب — (أل) التي للجنس في قوله — ﷺ — (إن الناس لكم تبع)
 د — باسم الإشارة، وفي ذلك قوله — ﷺ — (إن أناسا من أمي سيتفقهون في الدين . . . ولا يكون ذلك) و(هذا أوان يختلس العلم من الناس . . . هذه التوراة والإنجيل عند اليهود والنصارى)

ه — بالإضافة، وذلك في قوله — ﷺ — (إذا لعن آخر هذه الأمة أولها) و(مثل الذي يجلس يسمع الحكمة . . .) و(لاتزول قدما ابن آدم . . .) و(لما وقعت بنو إسرائيل في المعاصي . . .)

٤ — نكر المسند إليه، وذلك في قوله — ﷺ — (وإن رجالا يأتونكم من أقطار الأرض) و(إن أناسا من أمي سيتفقهون في الدين) و(يدرس الإسلام . . . فلا يبقى في الأرض منه آية)

٥ — قدم المسند إليه على خبره الفعلي كما في قوله — ﷺ — (إن الله لا يقبض العلم انتزاعا ينتزعه من العباد) و(إن أناسا من أمي سيتفقهون في الدين) و(إن رجالا يأتونكم من أقطار الأرض)

٦ — جاء المسند جملة فعلية فعلها مضارع في قوله — ﷺ — (وإن رجالا يأتونكم من أقطار الأرض يتفقهون في الدين) و(إن الله يبغض البليغ من الرجال)

- ٧ — جاء المسند منكرا في قوله — ﷺ — (بلغوا ولو آية)
- ٨ — جاء المسند مقيدا بـ (إذا) الشرطية ، وذلك في قوله — ﷺ — (إذا لعن آخر هذه الأمة أولها . . .) و(إذا أتوكم فاستوصوا بهم خيرا) و(إن الله لا يقبض العلم انتزاعا . . . حتى إذا لم يبق . . .)
- ٩ — ورد المسند مبنيا للمفعول ، وذلك في قوله — ﷺ — (ويسمع منكم) و(من سئل عن علم . . .) و(يؤتى بالرجل يوم القيامة فيلقى في النار) و(من تطيب ولم يعلم منه طب)
- ١٠ — ورد ذكر متعلقات الفعل على صور متنوعة؛ تربية للفائدة، وتكثيرا لها وذلك في قوله — ﷺ — (من سئل عن علم علمه) و(لا تكذبوا علي فإنه من كذب علي . . .) و(بلغوا عني ولو آية) و(إن رجالا يأتونكم من أقطار الأرض يتفقهون في الدين) و(يؤتى بالرجل يوم القيامة فيلقى في النار) و(لا تزول قدما ابن آدم يوم القيامة من عند ربه) و(من تعلم علما مما يبتغى به وجه الله — عز وجل — لا يتعلمه إلا ليصيب به عرضا من الدنيا لم يجد عرف الجنة يوم القيامة) و(من تعلم علما لغير الله — أو أراد به غير الله — فليتبوأ . . .) و(ليسري على كتاب الله — عز وجل — في ليلة فلا يبقى في الأرض منه آية).
- ١١ — وجدنا صورا متعددة للمفعول به في الحديث الشريف فتارة يذكر المفعول اسما ظاهرا ، وتارة يذكره ضميرا ، وذلك في قوله — ﷺ — (ورجل تعلم العلم وعلمه) وتارة يذكره منكرا ، وذلك في قوله — ﷺ — (فمن كنتم حديثا فقد كنتم ما أنزل الله) و(نضر الله امرءا سمع منا حديثا) و(فاستوصوا بهم خيرا) و(وزدني علما) و(سلوا الله علما نافعا)

و(من تعلم علما مما يتغى به وجه الله) و(من تعلم صرف الكلام . . . لم يقبل الله منه يوم القيامة صرفا ولا عدلا) وتارة يرد معرفا بلام الجنس (ألا ليلغ الشاهد الغائب) ولام العهد (من طلب العلم ليحاري به العلماء) و(إن الله لا يقبض العلم . . .) كما ورد المجرور منكرا في قوله — ﷺ — (من سئل عن علم علمه) كما ورد معرفا بلام العهد (يؤتى بالرجل يوم القيامة) كما ورد مضافا (لا يقيم الرجل الرجل من مجلسه) كما وجدنا الحديث الشريف تقدم فيه بعض متعلقات الفعل على بعض لنكات تفوت لولا تقديمها كما في قوله — ﷺ — (نضر الله امرءا سمع منا حديثا) و(من طلب العلم ليحاري به العلماء أو يماري به السفهاء ويصرف به وجوه الناس إليه أدخله الله النار) و(من تعلم صرف الكلام ليسبي به قلوب الرجال أو الناس لم يقبل الله منه يوم القيامة صرفا ولا عدلا)

١٢ — استخدم أسلوب القصر في الحديث الشريف بطريق النفي والاستثناء في (ثم لا يحدث عن صاحبه إلا بشر ما يسمع) و(من تعلم علما مما يتغى به وجه الله لا يتعلمه إلا ليصيب به عرضا من الدنيا) و(ولا يكون ذلك كما لا يجتنى من القتاد إلا الشوك كذلك لا يجتنى من قريحهم إلا)

١٣ — استخدمت أساليب الإنشاء الطلبي كالأستفهام في قوله (أي يوم هذا؟ أي شهر هذا؟) وقوله (مالي أراكم عزيز؟) و(مالك؟ ألم تكن تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر؟) و(فما عملت فيها؟) و(هذه التوراة والإنجيل عند اليهود والنصارى، فماذا تغني عنهم؟) واستخدم أسلوب

الأمر، وذلك في قوله — ﷺ — (ألا ليلغ الشاهد الغائب) (فليج النار) و(بلغوا عني ولو آية وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج، ومن كذب علي متعمدا فليتبوأ مقعده من النار) و(استنصت الناس) و(سلوا الله علما نافعا وتعودوا بالله من علم لا ينفع) و(من تعلم علما لم يغير الله — أو أراد به غير الله — فليتبوأ مقعده من النار) و(اللهم انفعني بما علمتني وعلمي ما ينفعني وزدني علما) و(ولكن تفسحوا وتوسعوا) واستخدم أسلوب النهي في قوله (لا ترجعوا بعدي كفارا) و(لا تكذبوا علي) و(لا يقيم الرجل الرجل من مجلسه) واستخدم أسلوب النداء في قوله (يا راعي أجرني شاة من غنمك) (فيقولون: يا فلان: مالك؟) و(اللهم انفعني) (ثكلتك أمك يا زياد)

١٤ — استخدم الحديث الشريف من أساليب الإنشاء غير الطلبي الترجي في قوله (فإن الشاهد عسى أن يبلغ من هو أوعى له منه) ورب في قوله (فرب حامل فقه إلى من هو أفقه منه، ورب حامل فقه ليس بفقيه) و(فرب مبلغ أوعى من سامع) والقسم في قوله (لا والذي نفسي بيده حتى تأطروهم على الحق أطرا)

١٥ — في الحديث الشريف أخرج الإنشاء مخرج الخبر، وذلك في قوله (تسمعون ويسمع منكم ويسمع ممن سمع منكم) و(نضر الله امرءا سمع منا حديثا) و(أعوذ بالله من حال أهل النار) و(ألا هلك المتنطعون) و(ثكلتك أمك يا زياد) كما أخرج — ﷺ — الخبر مخرج الإنشاء في قوله (ومن كذب علي متعمدا فليتبوأ مقعده من النار) و(لا تكذبوا علي فإنه من كذب علي فليج النار)

١٦ — واستخدم أسلوب الفصل لشبه كمال الاتصال في قوله (وإن رجالا يأتونكم من أقطار الأرض يتفقهون في الدين) ولكمال الاتصال في قوله (إن أناسا من أمي سيتفقهون في الدين ويقرؤون القرآن ويقولون نأتي الأمراء فنصيب من دنياهم ونعتزلهم بديننا ولا يكون ذلك كما لا يجتنى من القتاد إلا الشوك كذلك لا يجتنى من قريهم إلا) كما استخدم أسلوب الوصل للتوسط بين الكمالين مع عدم وجود المانع من الوصل (اللهم انفعني بما علمتني وعلمني ما ينفعني وزدني علما)

١٧ — كما استخدم الحديث الشريف الإطناب مرة بذكر العام بعد الخاص (من تعلم صرف الكلام ليسبي به قلوب الرجال أو الناس) ومرة بذكر الخاص بعد العام (إن أناسا من أمي سيتفقهون في الدين ويقرؤون القرآن) و(لاتزول قدما ابن آدم يوم القيامة من عند ربه حتى يسأل عن خمس عن عمره فيم أفناه؟ وعن شبابه فيم أبلاه) كما استخدم التتميم (بلغوا ولو آية) والاعتراض (من تعلم علما مما يبتغى به وجه الله — عز وجل — لا يتعلمه . . .)

ثانيا : أساليب البيان :

١ — استخدم الحديث الشريف التشبيه سبيلا لبيان مقصوده — ﷺ — في قوله (إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا) (فبلغه كما سمعه) و(مثل الذي يجلس يسمع الحكمة ثم لا يحدث عن صاحبه إلا بشر ما يسمع كمثل رجل أتى راعيا)

و(لا ترجعوا بعدي كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض) و(يؤتى بالرجل يوم القيامة فيلقى في النار فتندلق أقتاب بطنه فيدور بها كما يدور الحمار بالرحى) و(لا يكون ذلك كما لا يجتنى من القتاد إلا الشوك كذلك لا يجتنى من قريهم إلا) و(إن الله ييغض البليغ من الرجال الذي يتخلل بلسانه تخلل الباقرة بلسانها) و(يدرس الإسلام كما يدرس وشي الثوب)

٢ — استخدم الحديث الشريف المجاز المرسل من ذلك قوله (ثم لا يحدث عن صاحبه إلا بشر ما يسمع) و(لا تزول قدما ابن آدم يوم القيامة) و(من طلب العلم ليحاري به العلماء أو يماري به السفهاء أو يصرف به وجوه الناس إليه أدخله الله النار) و(من تعلم صرف الكلام ليسبي به قلوب الرجال أو الناس لم يقبل الله منه يوم القيامة صرفا ولا عدلا) و(إن الله ييغض البليغ من الرجال) و(حتى إذا لم يبق عالما اتخذ الناس رءوسا جهالا)

٣ — استخدم الحديث الشريف الاستعارة، من ذلك قوله (ألجم يوم القيامة بلجام من نار) و(وعن شبابه فيم أبلاه) و(أما أحدهم فأوى إلى الله فأواه الله، وأما الآخر فاستحيا فاستحيا الله منه وأما الآخر فأعرض فأعرض الله عنه) و(فليتبوا مقعده من النار) و(يماري به السفهاء) و(لما وقعت بنو إسرائيل في المعاصي) و(فضرب الله قلوب بعضهم ببعض) و(من تعلم صرف الكلام ليسبي به قلوب الرجال) و(إن الله ييغض البليغ من الرجال الذي يتخلل بلسانه تخلل الباقرة بلسانها) و(يدرس الإسلام كما يدرس وشي الثوب)

٤ — استخدم الحديث الشريف أسلوب الكناية في قوله (إذا لعن آخر هذه الأمة أولها) و(من تعلم علما مما يتغنى به وجه الله لا يتعلمه إلا ليصيب به عرضا من الدنيا لم يجد عرف الجنة يوم القيامة) و(وتبقى طوائف من الناس الشيخ الكبير والعجوز يقولون : أدركنا آباءنا على هذه الكلمة : لا إله إلا الله فنحن نقولها)

ثالثا : أساليب البديع :

١ — استخدم الحديث الشريف الطباق في قوله (أ لا ليبلغ الشاهد الغائب) و(إذا لعن آخر هذه الأمة أولها) و(من طلب العلم ليحاري به العلماء أو ليماري به السفهاء) و(إن من أشراط الساعة أن يرفع العلم ويثبت الجهل) و(ليسري على كتاب الله — عز وجل — في ليلة فلا يبقى في الأرض منه آية، وتبقى طوائف من الناس)

٢ — استخدم الحديث الشريف أسلوب المقابلة في قوله (ألم تكن تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر؟ فيقول: بلى كنت أمر بالمعروف ولا آتية وأنهى عن المنكر وآتية) و(سلوا الله علما نافعا وتعوذوا بالله من علم لا ينفع)

٣ — استخدم الحديث الشريف أسلوب اللف والنشر في قوله (هذه التوراة والإنجيل عند اليهود والنصارى فماذا تغني عنهم؟) وأسلوب المشاكلة في قوله (أما أحدهم فأوى إلى الله فأواه الله، وأما الآخر فاستحيا فاستحيا الله منه وأما الآخر فأعرض فأعرض الله عنه) وأسلوب الاقتباس في قوله (لما وقعت بنو إسرائيل في المعاصي نتهتهم علماءهم فلم ينتهوا فجالسوه في مجالسهم وواكلوهم وشاربوهم فضرب الله قلوب

بعضهم ببعض ولعنهم على (لسان داود وعيسى بن مريم ذلك بما عصوا
وكانوا يعتدون)

كما استخدم أسلوب الترقى التصاعدي وأسلوب التجريد أيضا
في قوله (. . . فإذا أتوكم فاستوصوا بهم خيرا)

وأخيرا فقد كثر في الحديث الشريف استخدام أسلوب الشرط،
وأدوات الربط الفاء وثم في مقاماتها؛ تزيلا على الأغراض والمقاصد
المؤمة .

الختامة

الحمد لله على المبتدا والمنتهى، والصلاة والسلام على النبي المجتبى،
وبعد هذا الإبحار ألقى عصا التسيار، بعد أن التقطت من رياضه
الشريف — ﷺ — عبق الأزهار، وقبست من نوره — ﷺ — بعض
الأنوار، ووقعت في بيانه — ﷺ — على ذرو من الأسرار، هدايا إليها
ربي الغفار، وكان من أهم نتائج هذا البحث ما يلي : —

١ — أن حديثه — ﷺ — عن العلم حديث ممتد بسيط، يدل على أهمية
العلم للبشرية، وأنه تناول جوانب متعددة مثل بيان فضل العلم وقيّمته،
وفضل أهل العلم، والثواب المرصود لأهله علماء وطلاباً، وأدب تبليغه
ونقله، وتحري الأمانة فيه سماعاً ونقلًا، والاهتمام بطلابيه، ووجوب
تسامي أهله عن دنيا الدنيا وخسائسها، وتزويجه عما لا يليق به،
والتحذير من قبضه، لأن قبضه تزول الدنيا.

٢ — أن أحاديثه — ﷺ — عن العلم اتسمت بالإيجاز البليغ، فقد بنيت
معظم الأحاديث على الجملة النحوية الواحدة التي تطوي في رحمتها جملاً
عدة، وقعت تبعاً لها بالعطف أو النعت أو البدل، وقد بلغت الأحاديث
التي بنيت على هذا النحو ثلاثة وأربعين حديثاً، بينما بلغت الأحاديث
التي بنيت على أكثر من جملة نحوية عشرة أحاديث .

٣ — أن أحاديثه — ﷺ — عن الترغيب في العلم اتكأت على أحوال
التراكيب — أعني أبواب علم المعاني — أكثر من اتكائها على الصورة
البيانية .

٤ — أن أحاديثه — ﷺ — عن آداب العلم والتحذير من قبضه اتكأت على الصورة البيانية؛ تناسبا مع سياق الترهيب الذي بنيت عليه أحاديث هذا الباب، على أنني لم أهمل عناصر بناء الصورة البيانية عند التحليل.

٥ — أن الأساليب الإنشائية كثرت في حديثه — ﷺ — عن آداب العلم؛ تناسبا مع سياق الترهيب، بينما لم تكثر في حديثه — ﷺ — عن الترغيب في العلم.

٦ — أن أسلوب القصر كثر وروده في حديثه — ﷺ — عن الترغيب في العلم، بينما لم يكثر في حديثه — ﷺ — عن آداب العلم.

٧ — أن تأكيد الجملة الخبرية كثر في حديثه — ﷺ — عن آداب العلم؛ تناسبا مع سياق الترهيب، بينما لم يكثر في حديثه عن الترغيب في العلم.

٨ — أن العدول بصيغ الأفعال عن ظاهرها كالعدول بالفعل عن صيغة المضارع إلى صيغة الماضي على طريقة التفاؤل بحصول ما لم يحصل قد كثر في حديثه — ﷺ — عن الترغيب في العلم، تناسبا مع سياق الترغيب، بينما لم يكثر في حديثه — ﷺ — عن آداب العلم.

٩ — كثر في حديثه — ﷺ — ذكر متعلقات الفعل، وتقديم بعضها على بعض، تربية وتكثيرا للفائدة في البابين.

١٠ — أن الألوان البديعية كانت قليلة في عموم حديثه — ﷺ — عن العلم في البابين، وفي ذلك تناسب مع موضوع الحديث، ومع أحوال المخاطبين.

١١- أن أسلوب الشرط كثر في حديثه ﷺ - حيث بني خمسة عشر حديثاً على أسلوب الشرط ، ثمانية منها في حديثه ﷺ - عن الترغيب في العلم، وسبعة منها في حديثه ﷺ - عن آداب العلم والتحذير من قبضه.

وعلى الجملة فإن الألفاظ والأساليب والصور والألوان البديعية جاءت في كلامه الشريف ﷺ - وافية بالغرض لا يقوم سواها مقامها، ولا يفي غيرها بمقصوده ﷺ - كما جاءت ملائمة للحال، مطابقة للمقام ، شأن بيانه الشريف كله ﷺ - فيما أحسب، وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

الفهارس

- ١ . فهرس الآيات القرآنية .
- ٢ . فهرس لما درس من الأحاديث الشريفة .
- ٣ . فهرس المصادر والمراجع .
- ٤ . فهرس الموضوعات .

فهرس الآيات القرآنية

الآية	رقمها	السورة	الصفحة
إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ	٢٦	البقرة	٢٨٧
وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي	٣٠	البقرة	١٢٣
وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا	٣١	البقرة	٢١
قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ	٣٣	البقرة	١٢٣
فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ	٣٧	البقرة	١٢٢
ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ	٧٤	البقرة	٢٩٧
وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً	١٤٠	البقرة	٢٣٧
وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا	١٤٣	البقرة	٢٤٥
وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ	١٤٦	البقرة	٢٣٧
إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا	١٥٩	البقرة	٢٤٦
إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ	١٧٥:١٧٤	البقرة	٢٤٧، ٣٨
حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ	١٨٧	البقرة	٢٣٩
الَّذِينَ يَنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ	٢٧٧، ٢٦٢	البقرة	١٧٠
يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ	٢٦٩	البقرة	٢٦١
إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ	١٩	آل عمران	١١٣
إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ	٥٩	آل عمران	٣١٥
قُلْ إِنْ الْهُدَى هُدَى اللَّهِ	٧٣	آل عمران	٦٢
وَاَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا	١٠٣	آل عمران	٢٨٩

٢٤٥	آل عمران	١١٠	كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ . . .
١٦٩	آل عمران	١٧١	وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ . . .
٤٠	آل عمران	١٨١	لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا . . .
٤١	آل عمران	١٨٣	الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا . . .
٤٠	آل عمران	١٨٧	وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا . . .
١٧٠	آل عمران	١٩٩	وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ . . .
٧٥	النساء	١١	يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ . . .
٢٦٨	النساء	١٤	وَمَنْ يَعَصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ . . .
٢٣٧	النساء	٣٧	الَّذِينَ يَبْخُلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ . . .
٣٥	النساء	٨٣	وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ . . .
١٠٥	النساء	٩٠	وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ . . .
٣٥٦	النساء	٩٢	وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا . . .
١٧١	النساء	٩٣	فَجَزَاءُُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا . . .
٤٢	النساء	١١٣	وَأَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ . . .
١٠٦	المائدة	٥٤	فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ . . .
٢٧٤	المائدة	٦٧	يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ . . .
٣٦٣	المائدة	٧٨	لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ . . .
١٧٠	الأنعام	١٥٧	سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ . . .
٢٦٧	الأعراف	٤٠	وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى . . .
٦٥	الأعراف	١٨٠	وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ . . .
٣٨٨	الأعراف	١٨٧	يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ . . .

٢٩٣	الأعراف	٢٠٤	وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ
٣٣٣	الأنفال	٦٧	تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا
٣٢	التوبة	٣٩	إِلَّا تَنْفَرُوا يُعَذِّبَكُمُ
٣٨	التوبة	٣٤	إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ
٣٢	التوبة	٤١	انْفَرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا
١٤٨	التوبة	٤٦	وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا
٣٣٢	التوبة	٤٧	يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ
٣٣٢	التوبة	٤٨	لَقَدْ ابْتِغُوا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ
١٤٨	التوبة	٨٣	فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا
١٤٩، ١٤١، ٣١	التوبة	١٢٢	وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفَرُوا كَافَّةً
١٥٢	يونس	٦٢	أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ
١٦	يوسف	٢١	وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي
١٥	يوسف	٥٥	اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ
١٧٠	يوسف	٥٧	وَلَا جُرْ الْآخِرَةَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ
٣٨٦	يوسف	٧٦	تَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ
١٦٥	يوسف	٨٢	وَأَسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا
١٠٩	يوسف	٨٠	فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ
٣٢٤	إبراهيم	٧	لَنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ
٤٣	إبراهيم	١٤	وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ
٤٠٦	إبراهيم	٤٢	إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ
٤٣	النحل	١٤	وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ

٤٣	النحل	٣٥	فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ
٣٧	النحل	٤٣	وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا
٢٣، ٧	النحل	٤٤	وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ
٣٨٩	النحل	٤٧	أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ
٤٣	النحل	٨٢	فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ
٧٨	الإسراء	٦	وَأَمَدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ
١٢٢	الإسراء	٢٤	وَإِخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ
٢٥٠	الإسراء	٣٦	إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ
١٢٥	الإسراء	٤٤	وَأِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ
٣٤	الإسراء	٨٥	وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا
١٧٠	الكهف	٣٠	إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ
٧٨	الكهف	٤٦	الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا
١٠٩	الكهف	٦٠	لَا أَتْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ ...
٣٤	الكهف	٦٦	قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ
٣٤	الكهف	٦٩	قَالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا
٣٥٦	مريم	٣٤	مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ
٦١	مريم	٧٦	وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى
٤٤	مريم	٩٧	فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ
٣٢	طه	١١١	وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ
٣٢٧، ٣٢٤	طه	١١٤	وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا
٣٧	الأنبياء	٧	وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا

١٧٠	المؤمنون	١١	إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا
٤٣	النور	٥٤	وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ
٣٢٠	الفرقان	٣	وَلَا يَمْلِكُونَ لِنَفْسِهِمْ ضَرًّا
١٢٤	الشعراء	٢١٥	وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ
٢١	النمل	١٦	وَعَلَّمَنَا مَنَظِقَ الطَّيْرِ
٢٩٠	النمل	٢٠	مَالِيَ لَا أَرَى الْهَدْهَدَ
٤٣	العنكبوت	١٨	وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ
٣٠٢	الأحزاب	٢٣	مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا
٣٨٧	الأحزاب	٦٣	يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ
١٧٠	سبأ	١٧	ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا
٤٠٧، ١١١	سبأ	٢٨	وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ
٣٠	فاطر	٢٧	أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ
٣٠	فاطر	٢٨	إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ
٨٠	يس	١٢	إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ
٢٨٣	ص	٦٧	قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ
٤٦	ص	٨٦	وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ
٢٩	الزمر	٩	أَمَّنْ هُوَ قَانَتْ آَنَاءُ اللَّيْلِ
٣٨٦	غافر	١٥	رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ
٣٣٥	الشورى	١١	لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ
٦٢	الشورى	٢٨	وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ
١٧٠	الشورى	٤٠	فَاجْرُهُ عَلَى اللَّهِ

٤٤	الزخرف	٥٨:٥٧	وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا
٣٦٩	الدخان	٢٤	وَأَثَرِكِ الْبَحْرِ رَهْوًا
١١٥	الحجرات	٥	وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ
١٧٧	الحجرات	١٠	إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ
٢٢	الحجرات	١٦	أَتَعْلَمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ
٣٧٣	القمر	٤٨	يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ
٢١	الرحمن	٢٤١	الرَّحْمَنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ
٢٨، ٢٧	الرحمن	٤:١	الرَّحْمَنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ
٣٦٢	الواقعة	٢٤١	إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ
٢٩	المجادلة	١١	يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ
١٠٥	الحشر	٦	وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ
٢٧٥	الحشر	٧	وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ
٣٠٢	التحريم	٤	وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ
٣٦٧	الحاقة	٤٧:٤٤	وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ
٣٦٢	المعارج	٢٤١	سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ
٢٨٨	المعارج	٣٧	عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ
٣٢٢	الجن	٦	وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنسِ
٤٢	القيامة	١٩:١٧	ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ
٢٥٤	القيامة	٢٣:٢٢	وَجُودٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ
١٧١	الإنسان	١٢	وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً
٢٨٣	النبأ	٢٤١	عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ

٢٥٤	المطففين	٢٤	... تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ
١٠٤	الليل	١١:٥	... فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى
٣٣٤	الليل	٢٠:١٩	... وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ
٣٨٦	الشرح	٤	... وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ
١٠١	الضحى	٥	... يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى
٢٦	العلق	٥:١	... اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ
٢١	العلق	٥،٤	... عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ
٨٩	العاديات	٨	... وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ
١٠٢	الفلق	٥	... وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ

فهرس لما درس من الأحاديث الشريفة

الصفحة	الحديث الشريف
٢٤٢	قال رسول الله ﷺ — (إِذَا لَعَنَ آخِرُ هَذِهِ الْأُمَّةِ أَوَّلَهَا .)
٧٤	قال رسول الله ﷺ — (إِذَا مَاتَ ابْنُ آدَمَ)
٢٩٢	قال رسول الله ﷺ — (اسْتَنْصِتِ النَّاسَ)
١٧٣	قال رسول الله ﷺ — (أَفْضَلُ الصَّدَقَةِ أَنْ يَتَعَلَّمَ الْمَرْءُ)
٢٨١	قال رسول الله ﷺ — (أَلَا أُخْبِرُكُمْ عَنِ النَّفَرِ الثَّلَاثَةِ .)
١٥٢	قال رسول الله ﷺ — (أَلَا إِنَّ الدُّنْيَا مَلْعُونَةٌ مَلْعُونٌ مَا فِيهَا)
٢٢٩	قال رسول الله ﷺ — (أَلَا لِيُبْلِغَ الشَّاهِدُ الْغَائِبَ)
٣٤٨	قال رسول الله ﷺ — (أَلَا هَلَكَ الْمُتَطَّعُونَ . . .)
٣٥٥	قال رسول الله ﷺ — (إِنَّ أَنْاسًا مِنْ أُمَّتِي سَيَتَفَقَّهُونَ.)
٣٩٥	قال رسول الله ﷺ — (إِنَّ اللَّهَ لَا يَقْبِضُ الْعِلْمَ انْتِزَاعًا .)
٣٧٩	قال رسول الله ﷺ — (إِنَّ اللَّهَ — عَزَّ وَجَلَّ — يَبْغِضُ)
٣٨٥	قال رسول الله ﷺ — (إِنَّ مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ)
٣٠٠	قال رسول الله ﷺ — (إِنَّ النَّاسَ لَكُمْ تَبَعٌ)
٣٧٢	قال رسول الله ﷺ — (أَوَّلُ النَّاسِ يُقْضَى لَهُمْ يَوْمَ)
١٩٧	قال رسول الله ﷺ — (أَيُّكُمْ يُحِبُّ أَنْ يَغْدُوَ كُلَّ . . .)
٢٧٣	قال رسول الله ﷺ — (بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً)
٢٤٨	قال رسول الله ﷺ — (تَسْمَعُونَ وَيُسْمَعُ مِنْكُمْ .)
٤٠٥	قال رسول الله ﷺ — (تَكَلَّتْكَ أُمُّكَ يَا زَيْدُ)

- ١٧٨ قال رسول الله ﷺ — (ثَلَاثَةٌ أُقْسِمُ عَلَيْهِنَّ)
- ١٥٧ قال رسول الله ﷺ — (سَتَكُونُ فِتْنٌ يُصْبِحُ الرَّجُلُ . .)
- ٣٢٦ قال رسول الله ﷺ — (سَلُّوا اللَّهَ عِلْمًا نَافِعًا)
- ٩٢ قال رسول الله ﷺ — (طَلَبُ الْعِلْمِ فَرِيضَةٌ)
- ١٦٢ قال رسول الله ﷺ — (عَلَيْكُمْ بِهَذَا الْعِلْمِ قَبْلَ أَنْ)
- ١٤٤ قال رسول الله ﷺ — (فَقِيَّةٌ وَاحِدٌ أَشَدُّ عَلَى الشَّيْطَانِ .)
- ١٣١ قال رسول الله ﷺ — (كُلُّ عَلَى خَيْرٍ هَؤُلَاءِ يَقْرَءُونَ .)
- ٨٣ قال رسول الله ﷺ — (الْكَلِمَةُ الْحَكْمَةُ)
- ٣٢٠ قال رسول الله ﷺ — (اللَّهُمَّ انْفَعْنِي بِمَا عَلَّمْتَنِي . . .)
- ٣٦١ قال رسول الله ﷺ — (لَمَّا وَقَعَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ فِي)
- ٨٩ قال رسول الله ﷺ — (لَنْ يَشْبَعَ الْمُؤْمِنُ مِنْ خَيْرٍ . . .)
- ٣١٥ قال رسول الله ﷺ — (لَا تَزُولُ قَدَمَا ابْنِ آدَمَ يَوْمَ)
- ٢٦٧ قال رسول الله ﷺ — (لَا تَكْذِبُوا عَلَيَّ فَإِنَّهُ مِنْ كَذِبٍ)
- ١٠٠ قال رسول الله ﷺ — (لَا حَسَدَ إِلَّا فِي اثْنَتَيْنِ)
- ٢٩٥ قال رسول الله ﷺ — (لَا يَقِمُ الرَّجُلُ الرَّجُلَ مِنْ)
- ٦٠ قال رسول الله ﷺ — (مَثَلُ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ)
- ٢٦٠ قال رسول الله ﷺ — (مَثَلُ الَّذِي يَجْلِسُ يَسْمَعُ . .)
- ٣٥١ قال رسول الله ﷺ — (مَنْ تَطَبَّبَ وَلَمْ يُعْلَمْ مِنْهُ طِبٌّ)
- ٣٦٨ قال رسول الله ﷺ — (مَنْ تَعَلَّمَ صَرْفَ الْكَلَامِ لَيْسِي)
- ٣٣٩ قال رسول الله ﷺ — (مَنْ تَعَلَّمَ عِلْمًا لغيرِ اللَّهِ . . .)
- ٣٣٢ قال رسول الله ﷺ — (مَنْ تَعَلَّمَ عِلْمًا مِمَّا يُبْتَغَى بِهِ)

- ١٣٧ قال رسول الله ﷺ — (مَنْ جَاءَ مَسْجِدِي هَذَا . . .)
- ١٤٨ قال رسول الله ﷺ — (مَنْ خَرَجَ فِي طَلَبِ الْعِلْمِ . . .)
- ٢٣٦ قال رسول الله ﷺ — (مَنْ سُئِلَ عَنْ عِلْمٍ عَلِمَهُ . . .)
- ١١٨ قال رسول الله ﷺ — (مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَتَتَبِعُ)
- ٢٠٦ قال رسول الله ﷺ — (مَنْ طَلَبَ الْعِلْمَ كَانَ كَفَّارَةً لِمَا)
- ٣٤٢ قال رسول الله ﷺ — (مَنْ طَلَبَ الْعِلْمَ لِيُجَارِيَ بِهِ)
- ١٦٩ قال رسول الله ﷺ — (مَنْ عَلمَ عِلْمًا فَلَهُ أَجْرٌ مَنْ)
- ١٨٩ قال رسول الله ﷺ — (مَنْ نَفَسَ عَنْ مُؤْمِنٍ كُرْبَةً . . .)
- ١٠٨ قال رسول الله ﷺ — (مَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ . . .)
- ٢٨٨ قال رسول الله ﷺ — (مَالِي أَرَأَيْكُمْ عَزِيزِينَ)
- ٢٥٣ قال رسول الله ﷺ — (نَضَرَ اللَّهُ امْرَأًا سَمِعَ مِنَّا حَدِيثًا)
- ٣٠٨ قال رسول الله ﷺ — (يُؤْتَى بِالرَّجُلِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ . . .)
- ٤١٢ قال رسول الله ﷺ — (يَدْرُسُ الْإِسْلَامَ كَمَا يَدْرُسُ)
- ٢٠٩ قال رسول الله ﷺ — (يَا أَبَا ذَرٍّ لَأَنْ تَعْدُو فَتَعْلَمَ . . .)

فهرس المصادر والمراجع

١. أبجد العلوم والوشي المرقوم والسحاب المرقوم لأبي الطيب صديق حسن خان القنوجي، ط بهوبال، الهند ١٢٩٦هـ .
٢. إتحاف السادة المتقين للزبيدي ط بيروت دون تاريخ .
٣. إحياء علوم الدين للإمام الغزالي ، ط ، دار الفكر العربي ، بيروت دون تاريخ .
٤. ارتشاف الضرب من كلام العرب لأبي حيان التوحيدي تحقيق دكتور / رجب عثمان ط الخانجي ١٩٩٨ م .
٥. إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري للقسطلاني ، ط، دار إحياء التراث العربي ، مصر ، دون تاريخ .
٦. أسرار البلاغة للإمام عبد القاهر الجرجاني ، تحقيق الشيخ محمود محمد شاكر ، ط الخانجي ١٤١٢هـ .
٧. أسرار العربية لأبي البركات الأنباري تحقيق محمد بهجة البيطار، ط، الترقى ، دمشق ١٣٧٧هـ .
٨. أسلوب الكناية في أسمائه الحسنی د/ هاشم يوسف الديب، ط المطبعة الإسلامية الحديثة ١٤١٥هـ .
٩. أسلوب المدح والذم في الذكر الحكيم، دراسة بلاغية، د/ إبراهيم صلاح الهدهد، ط، دار الاتحاد التعاوني ١٩٩٨ م .
١٠. إعجاز القرآن لأبي بكر الباقلاني، تحقيق/ السيد أحمد صقر، ط دار المعارف.

١١. إكمال إكمال المعلم، شرح صحيح مسلم للأبي، ط مكتبة طبرية، الرياض دون تاريخ .
١٢. أنوار التزليل وأسرار التأويل للبيضاوي، بهامش حاشية زادة، ط، دار إحياء التراث العربي بيروت ، دون تاريخ .
١٣. الأسرار المرفوعة لعلی القاری ط مؤسسة الرسالة دون تاريخ .
١٤. الأطول للعصام ط المطبعة السلطانية دون تاريخ .
١٥. الإيضاح للخطيب القزويني ، ط ، مكتبة الآداب ، دون تاريخ، ط دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٩٨٥ م .
١٦. بغية الإيضاح للشيخ عبد المتعال الصعیدی ط مكتبة الآداب دون تاريخ .
١٧. بلاغة الرسول دكتور علی محمد حسن العماري ط دار الأنصار دون تاريخ .
١٨. البحر المحيط في أصول الفقه للزركشي ، تحقيق د / عبد الستار أبو غدة ، ط ، دار الصحوة ١٣١٣هـ .
١٩. البرهان في علوم القرآن للزركشي تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم ط دار التراث دون تاريخ .
٢٠. البيان والتبيين للجاحظ ، ط دار الكتب العلمية، بيروت، دون تاريخ.
٢١. البيان في ضوء أساليب القرآن د/ عبد الفتاح لاشين، ط، دار المعارف ١٩٩٢ م .

٢٢. البيان في نور القرآن ، د/ إبراهيم صلاح الهدهد، ط الجريسي
١٩٩٥م.

٢٣. تحفة الأحوذى ، شرح صحيح الترمذى للمباركفوري، ط، دار
الفكر دون تاريخ .

٢٤. تذكرة الموضوعات للفتنى ط بيروت دون تاريخ .

٢٥. تفسير القرآن العظيم ، لأبي الفداء إسماعيل بن كثير ط ، دار
الشعب، ط دار الجيل، بيروت، دون تاريخ .

٢٦. تلخيص المفتاح للخطيب القزويني، ضمن شروح التلخيص، ط،
دار الكتب العلمية .

٢٧. تاريخ آداب العرب للعلامة مصطفى صادق الرافعى، ط، بيروت
١٩٧٤ م

٢٨. التبيان في علم المعاني والبدیع والبيان للطبي تحقيق د/ عطية مطر
الهلالى، ط، عالم الكتب، بيروت ١٩٨٧ م .

٢٩. التحرير والتنوير للطاهر ابن عاشور، دار سحنون، تونس، دون
تاريخ.

٣٠. الترغيب والترهيب للحافظ المنذرى، تحقيق / مصطفى عمارة، ط
المكتبة العصرية ، بيروت ، دون تاريخ .

٣١. التصوير البياني د/ أبو موسى ، ط ، وهبة ١٤٠٠ هـ .

٣٢. التضمين د/ هاشم يوسف الديب، ط المطبعة الإسلامية
الحديثة، ١٤١٥ هـ .

٣٣. التعريفات لعلي بن محمد بن علي المعروف بالشريف الجرجاني، تحقيق / إبراهيم الأبياري، ط، دار الريان دون تاريخ.
٣٤. جمع الجوامع للإمام السيوطي ط مجمع البحوث الإسلامية بمصر .
٣٥. الحملة العربية بناؤها وإحياؤها، د/ إبراهيم صلاح الهدهد، ط دار الاتحاد التعاوني ١٩٩٦ م .
٣٦. الجامع الصحيح للترمذي تحقيق الشيخ أحمد محمد شاكر ط دار الكتب العلمية بيروت دون تاريخ .
٣٧. الجامع الصغير في أحاديث البشير النذير لجلال الدين السيوطي، ط، دار الكتب العلمية، بيروت، دون تاريخ .
٣٨. الجامع لأحكام القرآن للقرطبي، ط، دار الكتب العلمية، بيروت ١٤١٣هـ .
٣٩. الجنى الداني في حروف المعاني لأبي الحسين بن قاسم المرادي تحقيق د/ فخر الدين قباوة ، ومحمد نديم فاضل ، ط ، دار الكتب العلمية بيروت ١٤١٣هـ .
٤٠. حاشية الدسوقي على مختصر السعد مطبوع ضمن شروح التلخيص ط دار الكتب العلمية ، بيروت.
٤١. حاشية الصاوي على تفسير الجلالين للعلامة الصاوي، ط، دار الجيل ، بيروت ، دون تاريخ .
٤٢. حاشية محيي الدين شيخ زادة على تفسير القاضي البيضاوي، ط دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، دون تاريخ .

٤٣. الحقيقة والمجاز في القرآن الكريم للمرحوم د/ علي العماري، ط، السعادة ١٣٩٤هـ .
٤٤. خصائص التراكيب دكتور محمد حسنين أبو موسى ط مكتبة وهبة ١٤١٦ هـ .
٤٥. خلاف الظاهر في الدعاء على المخاطب ، دراسة بلاغية في السنة النبوية د/ إبراهيم صلاح الهدهد ، ط ، الجريسي ٢٠٠٠ م .
٤٦. الخصائص لابن جني ، تحقيق الشيخ محمد علي النجار، ط، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٧م.
٤٧. دلائل الإعجاز للإمام عبد القاهر الجرجاني تحقيق العلامة محمود محمد شاكر ط الخانجي ١٩٨٤ م ، ط ، بيروت بتحقيق محمد رشيد رضا ١٤٠٢هـ.
٤٨. دلائل النبوة للبيهقي ، ط، دار الكتب العلمية ، بيروت ، دون تاريخ.
٤٩. دلالات التراكيب دكتور محمد أبو موسى ط وهبة ١٩٨٧ م .
٥٠. دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين ، لابن علان ، ط ، دار الحديث ١٤١٩هـ .
٥١. الدر المنثور في التفسير بالمأثور للسيوطي ط دار الفكر
٥٢. الرسالة للإمام الشافعي، تحقيق الشيخ أحمد محمد شاكر، ط، دار الكتب العلمية، بيروت، دون تاريخ.
٥٣. سلسلة الأحاديث الضعيفة لناصر الدين الألباني ط المكتب الإسلامي .

٥٤. سنن الدارمي تحقيق الشيخ محمد عبد العزيز الخالدي ط دار
الكتب العلمية بيروت ١٩٩٦
٥٥. سنن ابن ماجه ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ، ط ، دار الريان
للتراث، دون تاريخ .
٥٦. سنن النسائي ط دار الريان ١٩٨٧ م .
٥٧. سنن أبي داود ط دار الحديث ١٩٨٨ م .
٥٨. شذا العرف في فن الصرف للشيخ أحمد الحملاوي، ط، المكتبة
العلمية، بيروت، دون تاريخ .
٥٩. شرح سنن النسائي للسيوطي، ط، دار الفكر، بيروت ١٤١٩هـ.
٦٠. شرح سنن النسائي للسندي، ط، دار الفكر، بيروت ١٤١٩هـ.
٦١. شرح سنن ابن ماجه للسندي ، تحقيق الشيخ خليل مأمون شيحا،
ط، دار المعرفة، بيروت ١٤١٨هـ.
٦٢. شرح صحيح البخاري للكرمانى المسمى (الكواكب الدراري)
ط ، دار إحياء التراث العربى بيروت ١٩٨١ م .
٦٣. شرح صحيح مسلم للإمام النووي ط دار إحياء التراث العربى،
بيروت، دون تاريخ.
٦٤. شرح التلخيص للبابرتي ، تحقيق د/ محمد مصطفى رمضان ، ط،
المنشأة العامة ، ليبيا ١٣٩٢هـ .
٦٥. شرح المقاصد لسعد الدين التفتازاني، تحقيق د/ عبد الرحمن عميرة،
ط، عالم الكتب، بيروت ١٤١٩هـ .

٦٦. شرح المواقف لعلي بن محمد بن علي المعروف بالشريف الجرجاني، ط، عالم الكتب، بيروت، دون تاريخ.
٦٧. الشفا بتعريف حقوق المصطفى للقاضي عياض تحقيق محمد عبد السلام أمين ط دار الكتب العلمية، بيروت ١٤٢٢هـ.
٦٨. صحيح البخارى للإمام البخارى ط عيسى الحلبي بمصر .
٦٩. صحيح مسلم للإمام مسلم تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ط دار الحديث ١٩٩١ م .
٧٠. الصاجي لابن فارس ، تحقيق / السيد أحمد صقر ، ط عيسى الحلبي، دون تاريخ .
٧١. عدة السالك إلى أوضح المسالك للشيخ محمد محي الدين عبد الحميد ط المكتبة العصرية بيروت ١٩٩٥م.
٧٢. عروس الأفراح لابن السبكي ضمن شروح التلخيص ط دار الكتب العلمية، بيروت.
٧٣. علم الفصاحة، مقدمة في النظرية والتطبيق ، د/ محمد علي رزق الخفاجي ط، دار المعارف ١٩٨٢م.
٧٤. علوم البلاغة، أحمد مصطفى المراغي، ط، دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٩٣ م .
٧٥. عمدة القارى شرح صحيح البخارى للعينى ط دار إحياء التراث العربى دون تاريخ .
٧٦. عون المعبود شرح سنن أبي داود للآبادي ط المكتبة السلفية، المدينة المنورة، ١٣٨٨هـ.

٧٧. العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، لابن رشيق، تحقيق/محمد محيي الدين عبد الحميد، ط، دار الجيل، بيروت، ١٤٠١هـ .
٧٨. غريب الحديث للخطابي، تحقيق د/ عبد الكريم الغرباوي، ط، دمشق ١٩٨٢م .
٧٩. الغرابة في الحديث النبوي ، د / عبد الفتاح البركاوي، ط، حسان ١٩٨٧ م .
٨٠. فتح الباري، شرح صحيح البخاري، لابن حجر العسقلاني، ط دار إحياء التراث العربي ، بيروت ١٤٠٨هـ .
٨١. فتح القدير الجامع بين فني الدراية والرواية من علم التفسير للإمام الشوكاني، ط، المكتبة العصرية ،بيروت ١٤١٧هـ .
٨٢. فن البلاغة د/ عبد القادر حسين ، ط، عالم الكتب ١٤٠٥هـ .
٨٣. فيض القدير شرح الجامع الصغير للعلامة المناوي، ط، دار الفكر، بيروت ١٤١٦هـ .
٨٤. في علم المعاني الجزء الأول د/ حمزة الدمرداش زغلول نشر المؤلف ١٤١٩هـ .
٨٥. الفرق بين الفرق لعبد القاهر الاسفرائيني ،تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، ط، المكتبة العصرية، بيروت ١٤١١هـ .
٨٦. الفرائض وشرح آيات الوصية للسهيلى ، تحقيق د/ محمد البناء، ط، جامعة قار يونس ١٤٠٠هـ .
٨٧. الفوائد المجموعة للإمام الشوكاني ط مكتبة السنة المحمدية .

٨٨. الفائق في غريب الحديث للزمخشري، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، وعلي محمد البحايي، ط دار المعرفة بيروت، دون تاريخ.
٨٩. القاموس المحيط لمجد الدين الفيروز آبادي، ط الهيئة المصرية العامة للكتاب
٩٠. كشف الخفاء للعجلوني ط مكتبة دار التراث .
٩١. كثر العمال للمتقى الهندي ط دار التراث الإسلامي .
٩٢. الكشف للزمخشري، ط، دار المعرفة، بيروت دون تاريخ، وط، دار الفكر دون تاريخ .
٩٣. الكليات لأبي البقاء الكفوي تحقيق دكتور / عدنان درويش ومحمد المصري ط مؤسسة الرسالة ١٤١٣ هـ .
٩٤. لباب البديع د/ محمد حسن شرشر، ط دار الطباعة المحمدية ١٤١٨ هـ .
٩٥. لباب البيان د/ محمد حسن شرشر، نشر المؤلف ١٤٢٠ هـ .
٩٦. لباب المعاني، القسم الثاني د/ محمد حسن شرشر، نشر المؤلف ١٤٠٩ هـ .
٩٧. لسان العرب لابن منظور ط دار المعارف بمصر
٩٨. مجمع الزوائد ومنبع الفوائد للهيثمي ط القدسي دون تاريخ .
٩٩. مختصر السعد لسعد الدين التفتازاني مطبوع ضمن شروح التلخيص ط دار الكتب العلمية، بيروت .
١٠٠. مسند الإمام أحمد بن حنبل ط دار الفكر دون تاريخ .

١٠١. معالم السنن ، شرح سنن أبي داود للخطابي ، تحقيق عبد السلام عبد الشافي ، ط ، دار الكتب العلمية ، بيروت ١٤١٦هـ .
١٠٢. معالم التتزيل للبغوي ، ط ، دار الكتب العلمية ، بيروت ١٤١٥هـ .
١٠٣. معاني التراكيب دكتور / عبد الفتاح لاشين ط المطبعة الإسلامية دون تاريخ
١٠٤. مغني اللبيب عن كتب الأعاريب لابن هشام تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ط المكتبة العصرية بيروت ١٩٨٧ م .
١٠٥. مفاتيح الغيب للفخر الرازي ، ط، دار إحياء التراث العربي، بيروت ١٤١٧هـ .
١٠٦. مفتاح العلوم لأبي يعقوب يوسف السكاكي تحقيق نعيم زرزور ط دار الكتب العلمية ، بيروت ١٤٠٧هـ .
١٠٧. مكمل إكمال إكمال المعلم شرح صحيح مسلم للسنوسي على شرح الأبي ط مكتبة طبرية بالرياض دون تاريخ.
١٠٨. من بلاغة النظم العربي الجزء الأول د/ عبد العزيز عبد المعطي عرفة ، ط دار الطباعة المحمدية ١٩٨١ م.
١٠٩. من بلاغة الإنشاء غير الطلي في البيان النبوي ، دراسة في الصحيحين ، رسالة ماجستير ، للباحثة وفاء عبد الموجود عطية، مخطوطة بمكتبة ، كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات، القاهرة، جامعة الأزهر الشريف ٢٠٠٠ م .

١١٠. من دقائق التشبيه في محكم التنزيل د/ هاشم يوسف الديد ، ط، دار الطباعة المحمدية ١٤١٠هـ .
١١١. من روائع البيان النبوي د/ فريد النكلاوي، نشر المؤلف ١٤٠٧هـ.
١١٢. من الأسرار البيانية في الكناية القرآنية، د/ حمزة الدمرداش زغلول، ط ، المطبعة الإسلامية الحديثة ١٤٠٨هـ .
١١٣. موسوعة أطراف الحديث الشريف لمحمد السعيد زغلول ط دار الكتب العلمية بيروت دون تاريخ .
١١٤. مواهب الفتاح لابن يعقوب المغربي مطبوع ضمن شروح التلخيص ط دار الكتب العلمية ، بيروت.
١١٥. موارد الظمان للحافظ الهيثمي ، ط ، السلفية ، دون تاريخ .
١١٦. المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لابن عطية ، ط ، دار الكتب العلمية ، بيروت ١٤٢٢هـ .
١١٧. المختار من كنوز السنة د/ محمد عبد الله دراز ، تقديم/ بخاري أحمد عبده، ط دار الأنصار ١٣٩٨هـ .
١١٨. المستصفى من علم الأصول لأبي حامد الغزالي، محمد يوسف نجم، ط، دار صادر، بيروت ١٩٩٥م.
١١٩. المسائل البلاغية في كتاب الصاحبي لابن فارس ، د/ فريد النكلاوي ، ط الأمانة ١٤٠٦هـ .
١٢٠. المطالب العالية لابن حجر ط التراث الإسلامى .
١٢١. المعجم الكبير للطبراني ط العراق .
١٢٢. المعجم الوسيط إصدار مجمع اللغة العربية بالقاهرة

١٢٣. المعاني في ضوء أساليب القرآن الكريم ، د/ عبد الفتاح لاشين ، ط دار الفكر العربي ٢٠٠٢ م .
١٢٤. المغنى عن حمل الأسفار للحافظ العراقي ط عيسى الحلبي دون تاريخ .
١٢٥. المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني تحقيق محمد سيد كيلاني ط مصطفى الحلبي ١٩٦١ م .
١٢٦. المفصل في صناعة الإعراب للزمخشري ، تحقيق د/ إميل يعقوب ، ط، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٤٢٠ هـ .
١٢٧. المفهم لما أشكل من صحيح مسلم للإمام للقرطبي تحقيق محي الدين ديب مستو ط دار ابن كثير ١٩٩٦ م .
١٢٨. الملل والنحل للشهرستاني، تحقيق محمد سيد كيلاني، ط، دار صعب، بيروت ١٤٠٦ هـ .
١٢٩. المنجد في اللغة والأعلام للأب لويس المعلوف ط ، التسعة والعشرون ، دار المشرق بيروت .
١٣٠. المواقف لعضد الدين الإيجي ، ط ، عالم الكتب بيروت ، دون تاريخ .
١٣١. نظم الدرر في تناسب الآيات والسور لبرهان الدين البقاعي ط دار الكتب العلمية بيروت ١٤١٥ هـ .
١٣٢. النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير تحقيق دكتور محمود الطناحي وآخر ط دار إحياء التراث العربي دون تاريخ .

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
المقدمة	(١٣:٥)
التمهيد	(٥٤:١٤)
العلم لغة واصطلاحاً — العلم لغة	١٥
العلم اصطلاحاً	١٧
أقسام العلم	٢٠
الفرق بين التعليم والتعلم	٢١
الفرق بين العلم والمعرفة	٢٢
من حديث القرآن عن العلم والعلماء	٢٣
نعمة العلم من أجل النعم التي امتن الله بها على عباده	٢٦
مترلة أهل العلم في القرآن	٢٩
الحض على طلب العلم	٣١
آداب طالب العلم	٣٤
وجوب احترام التخصص العلمي	٣٥
تحريم كتمان العلم ووجوب بذله	٣٨
السمات العامة للبلاغة النبوية	٤٢
علو بلاغته — ﷺ — مرتبط بعلو مصدرها الإلهي	٤٢
أثر النشأة في علو البيان	٤٤

٤٦	وصف الجاحظ وغيره للبلاغة المحمدية
٤٨	الألفاظ
٤٩	المعاني
٤٩	الأسلوب
٥٠	أهم مميزاتها — الإيجاز
٥٢	الابتكار
٥٣	مطابقة كلامه مقتضى الحال
	الباب الأول: من بلاغة الرسول — ﷺ — في حديثه عن
	الترغيب في العلم
(٢٢٣:٥٥)	
٥٦	توطئة
	الفصل الأول: (بلاغته — ﷺ — في حديثه عن فضل
٥٨	العلم)
٦٠	قال رسول الله — ﷺ — (مثل ما بعثني الله به . . .)
٦٠	التصور الجملي للحديث
٦١	اصطفاءات الألفاظ
٦٣	أحوال التراكيب
٦٤	الصورة التشبيهية الأولى
٦٩	الصورة التشبيهية الثانية
٧٤	قال رسول الله — ﷺ — (إذا مات ابن آدم . . .) . .
٧٤	التصور الجملي للحديث — اصطفاءات الألفاظ
٧٦	أحوال التركيب

الفصل الثاني: (بلاغته — ﷺ — في حثه على طلب

العلم) ٨١

٨٣ قال رسول الله — ﷺ — (الكلمة الحكمة . . .) . . .

٨٣ التصور الجملي للحديث — اصطفاءات الألفاظ

٨٤ أحوال التركيب

٨٩ قال رسول الله — ﷺ — (لن يشبع المؤمن من خير)

٨٩ التصور الجملي للحديث — اصطفاءات الألفاظ

٩٠ أحوال التركيب

٩٢ قال رسول الله — ﷺ — (طلب العلم فريضة . . .)

٩٢ التصور الجملي للحديث — اصطفاءات الألفاظ

٩٣ أحوال التركيب

الفصل الثالث :

٩٨ (بلاغته — ﷺ — في حديثه عن فضل أهل العلم)

١٠٠ قال رسول الله — ﷺ — (لاحسد إلا في اثنتين . . .)

١٠٠ التصور الجملي للحديث

١٠١ اصطفاءات الألفاظ

١٠٢ أحوال التركيب

١٠٨ قال رسول الله — ﷺ — (من يرد الله به خيرا يفقهه)

١٠٨ التصور الجملي للحديث

١٠٩ أحوال التراكيب

- ١١٨ قال رسول الله ﷺ — (من سلك طريقا يتغي . . .)
- ١١٨ التصور الجملي للحديث
- ١١٩ اصطفاءات الألفاظ — أحوال التراكيب
- ١٣١ قال رسول الله ﷺ — (كل على خير هؤلاء يقرؤون)
- ١٣١ التصور الجملي للحديث
- ١٣٢ اصطفاءات الألفاظ — أحوال التراكيب
- ١٣٧ قال رسول الله ﷺ — (من جاء مسجدي هذا . . .)
- ١٣٧ التصور الجملي للحديث — اصطفاءات الألفاظ
- ١٣٩ أحوال التركيب
- ١٤٤ قال رسول الله ﷺ — (فقيه واحد أشد على الشيطان)
- ١٤٤ التصور الجملي للحديث — اصطفاءات الألفاظ
- ١٤٥ أحوال التركيب
- ١٤٨ قال رسول الله ﷺ — (من خرج في طلب العلم . .)
- ١٤٨ التصور الجملي للحديث — اصطفاءات الألفاظ
- ١٤٩ أحوال التركيب
- ١٥٢ قال رسول الله ﷺ — (ألا إن الدنيا ملعونة ملعون ما فيها)
- ١٥٢ التصور الجملي للحديث — اصطفاءات الألفاظ
- ١٥٣ أحوال التركيب
- ١٥٧ قال رسول الله ﷺ — (ستكون فتن يصبح الرجل .)
- ١٥٧ التصور الجملي للحديث — اصطفاءات الألفاظ
- ١٥٨ أحوال التركيب

- ١٦٢ قال رسول الله ﷺ — (عليكم بهذا العلم قبل أن)
 ١٦٢ التصور الجملي للحديث
 ١٦٢ اصطفاءات الألفاظ
 ١٦٣ أحوال التراكيب

الفصل الرابع :

- ١٦٧ (بلاغته — ﷺ — في حديثه عن ثواب العالم)
 ١٦٩ قال رسول الله ﷺ — (من علم علما فله أجر من)
 ١٦٩ التصور الجملي للحديث — اصطفاءات الألفاظ
 ١٧١ أحوال التراكيب
 ١٧٣ قال رسول الله ﷺ — (أفضل الصدقة أن يتعلم المرء)
 ١٧٣ التصور الجملي للحديث — اصطفاءات الألفاظ
 ١٧٤ أحوال التراكيب
 ١٧٨ قال رسول الله ﷺ — (ثلاثة أقسم عليهن)
 ١٧٨ التصور الجملي للحديث
 ١٧٩ اصطفاءات الألفاظ
 ١٨٠ أحوال التراكيب

الفصل الخامس :

- ١٨٧ بلاغته — ﷺ — في حديثه عن ثواب طلاب العلم
 ١٨٩ قال رسول الله ﷺ — (من نفس عن مؤمن كربة .)
 ١٨٩ التصور الجملي للحديث
 ١٩٠ اصطفاءات الألفاظ

١٩١	أحوال التراكيب
١٩٦	علاقة الحديث عن العلم بالأعمال الأخرى المذكورة في
١٩٧	قال رسول الله ﷺ — (أيكم يحب أن يغدو كل . .)
١٩٧	التصور الجملي للحديث
١٩٨	اصطفاءات الألفاظ
١٩٩	أحوال التراكيب
٢٠٦	قال رسول الله ﷺ — (من طلب العلم . . .)
٢٠٦	التصور الجملي للحديث — اصطفاءات الألفاظ
٢٠٧	أحوال التركيب
٢٠٩	قال رسول الله ﷺ — (يا أبا ذر لأن تغدو فتعلم .)
٢٠٩	التصور الجملي للحديث — اصطفاءات الألفاظ
٢١٠	أحوال التركيب
	نظرة جمالية لجريان الأساليب البلاغية في حديثه — ﷺ
٢١٤	— عن الترغيب في العلم
٢١٤	أولا : أساليب المعاني
٢٢١	ثانيا : أساليب البيان
٢٢٢	ثالثا : أساليب البديع
	الباب الثاني
(٤٢٥:٢٢٤)	بلاغته — ﷺ — في آداب العلم والتحذير من قبضه
٢٢٥	توطئة

الفصل الأول : بلاغته — ﷺ — في حديثه عن وجوب

٢٢٧ تبليغ العلم والترهيب من كتمانته والكذب فيه

٢٢٩ قال رسول الله — ﷺ — (ألا ليلغ الشاهد الغائب)

٢٢٩ التصور الجملي للحديث — اصطفاءات الألفاظ

٢٣٠ أحوال التركيب

٢٣٦ قال رسول الله — ﷺ — (من سئل عن علم فكتمه .)

٢٣٦ التصور الجملي للحديث — اصطفاءات الألفاظ

٢٣٧ أحوال التركيب

٢٤٢ قال رسول الله — ﷺ — (إذا لعن آخر هذه الأمة أولها)

٢٤٢ التصور الجملي للحديث — اصطفاءات الألفاظ

٢٤٣ أحوال التركيب

٢٤٨ قال رسول الله — ﷺ — (تسمعون ويسمع منكم . .)

٢٤٨ التصور الجملي للحديث — أحوال التركيب

٢٥٣ قال رسول الله — ﷺ — (نضر الله امرءا سمع منا . .)

٢٥٣ التصور الجملي للحديث — اصطفاءات الألفاظ

٢٥٤ أحوال التراكيب

٢٦٠ قال رسول الله — ﷺ — (مثل الذي يجلس يسمع)

٢٦٠ التصور الجملي للحديث — اصطفاءات الألفاظ

- أحوال التركيب ٢٦٢
- قال رسول الله — ﷺ — (لا تكذبوا علي فإنه من) ٢٦٧
- التصور الجملي للحديث — اصطفاءات الألفاظ ٢٦٧
- أحوال التراكيب ٢٦٨
- قال رسول الله — ﷺ — (بلغوا عني ولو آية وحدثوا) ٢٧٣
- التصور الجملي للحديث — اصطفاءات الألفاظ ٢٧٣
- أحوال التراكيب ٢٧٥
- الفصل الثاني: (بلاغته — ﷺ — في حديثه عن آداب**
- مجلس العلم والاهتمام بطلابه)** ٢٧٩
- قال رسول الله — ﷺ — (ألا أخبركم عن النفر الثلاثة) ٢٨١
- التصور الجملي للحديث ٢٨١
- اصطفاءات الألفاظ ٢٨٣
- أحوال التراكيب ٢٨٤
- قال رسول الله — ﷺ — (مالي أراكم عزيزين ؟) ٢٨٨
- التصور الجملي للحديث — اصطفاءات الألفاظ ٢٨٨
- أحوال التركيب ٢٨٩
- قال رسول الله — ﷺ — (استنصت الناس) ٢٩٢
- التصور الجملي للحديث — اصطفاءات الألفاظ ٢٩٢
- أحوال التركيب ٢٩٣
- قال رسول الله — ﷺ — (لا يقيم الرجل الرجل من) ٢٩٥
- التصور الجملي للحديث — اصطفاءات الألفاظ ٢٩٥

- أحوال التركيب ٢٩٦
- قال رسول الله ﷺ — (إن الناس لكم تبع) ٣٠٠
- التصور الجملي للحديث — اصطفاءات الألفاظ ٣٠٠
- أحوال التراكيب ٣٠١
- الفصل الثالث : (بلاغته — ﷺ — في الترهيب من**
- عدم العمل بالعلم)** ٣٠٦
- قال رسول الله ﷺ — (يؤتى بالرجل يوم القيامة .) ٣٠٨
- التصور الجملي للحديث — اصطفاءات الألفاظ ٣٠٨
- أحوال التركيب ٣١٠
- قال رسول الله ﷺ — (لاتزول قدما ابن آدم يوم) ٣١٥
- التصور الجملي للحديث — اصطفاءات الألفاظ ٣١٥
- أحوال التركيب ٣١٦
- قال رسول الله ﷺ — (اللهم انفعني بما علمتني . .) ٣٢٠
- التصور الجملي للحديث — اصطفاءات الألفاظ ٣٢٠
- أحوال التركيب ٣٢٢
- قال رسول الله ﷺ — (سلوا الله علما نافعا) ٣٢٦
- التصور الجملي للحديث — اصطفاءات الألفاظ ٣٢٦
- أحوال التراكيب ٣٢٧
- الفصل الرابع : (بلاغته — ﷺ — في الحديث عن تنزيه**
- العلم عما لا يليق)** ٣٣٠
- قال رسول الله ﷺ — (من تعلم علما مما يتغنى به) ٣٣٢

- ٣٣٢ التصور الجملي للحديث — اصطفاءات الألفاظ
- ٣٣٣ أحوال التركيب
- ٣٣٩ قال رسول الله — ﷺ — (من تعلم علما لغير الله أو)
- ٣٣٩ التصور الجملي للحديث — اصطفاءات الألفاظ
- ٣٤٠ أحوال التراكيب
- ٣٤٢ قال رسول الله — ﷺ — (من طلب العلم ليحاري به)
- ٣٤٢ التصور الجملي للحديث — اصطفاءات الألفاظ
- ٣٤٤ أحوال التركيب
- ٣٤٨ قال رسول الله — ﷺ — (ألا هلك المتنطعون)
- ٣٤٨ التصور الجملي للحديث — اصطفاءات الألفاظ
- ٣٤٩ أحوال التركيب
- ٣٥١ قال رسول الله — ﷺ — (من تطيب و لم يعلم منه طب)
- ٣٥١ التصور الجملي للحديث — اصطفاءات الألفاظ
- ٣٥٢ أحوال التركيب
- ٣٥٥ قال رسول الله — ﷺ — (إن أناسا من أمتي سيتفقهون)
- ٣٥٥ التصور الجملي للحديث — اصطفاءات الألفاظ
- ٣٥٦ أحوال التراكيب
- ٣٦١ قال رسول الله — ﷺ — (لما وقعت بنو إسرائيل في)
- ٣٦١ التصور الجملي للحديث
- ٣٦٢ اصطفاءات الألفاظ
- ٣٦٢ أحوال التراكيب

- ٣٦٨ قال رسول الله ﷺ — (من تعلم صرف الكلام . .)
 ٣٦٨ التصور الجملي للحديث — اصطفاءات الألفاظ
 ٣٦٩ أحوال التركيب
 ٣٧٢ قال رسول الله ﷺ — (أول الناس يقضى لهم يوم)
 ٣٧٣ التصور الجملي للحديث — اصطفاءات الألفاظ
 ٣٧٤ أحوال التركيب
 ٣٧٩ قال رسول الله ﷺ — (إن الله — عز وجل يغيض)
 ٣٧٩ التصور الجملي للحديث — اصطفاءات الألفاظ
 ٣٨٠ أحوال التركيب
 الفصل الخامس :

- ٣٨٣ (بلاغته — ﷺ — في الحديث عن قبض العلم)
 ٣٨٥ قال رسول الله ﷺ — (إن من أشراط الساعة . . .)
 ٣٨٥ التصور الجملي للحديث — اصطفاءات الألفاظ
 ٣٨٧ أحوال التركيب
 ٣٩٥ قال رسول الله ﷺ — (إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً)
 ٣٩٥ التصور الجملي للحديث
 ٣٩٦ اصطفاءات الألفاظ
 ٣٩٧ أحوال التراكيب
 ٤٠٥ قال رسول الله ﷺ — (ثكلتك أمك يا زياد . . .)
 ٤٠٥ التصور الجملي للحديث
 ٤٠٦ اصطفاءات الألفاظ

٤٠٧	أحوال التراكيب
٤١٢	قال رسول الله ﷺ — (يدرس الإسلام كما يدرس .)
٤١٢	التصور الجملي للحديث
٤١٣	اصطفاءات الألفاظ — أحوال التركيبي
	نظرة جمالية لجريان الأساليب البلاغية في حديثه — ﷺ
٤١٧	— عن آداب العلم والتحذير من قبضه
٤١٧	أولا : أساليب المعاني
٤٢٢	ثانيا : أساليب البيان
٤٢٤	ثالثا : أساليب البديع
٤٢٦	الخاتمة
٤٣٠	الفهارس
٤٣١	فهرس الآيات القرآنية
٤٣٨	فهرس لما درس من الأحاديث الشريفة
٤٤١	فهرس المصادر والمراجع
٤٥٣	فهرس الموضوعات

